THE BOOK WAS DRENCHED

UNIVERSAL
LIBRARY

مرآة الحرمين

أو

الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية

محلاة

بمئات الصور الشمسية

تأليف ورسم

اللواء

إبراهيم رفعت باشا

قومندان حرس المحمل سنة ١٣١٨ هـ ١٩٠١ م وأمير الحج سنة ١٣٢٠ هـ ١٩٠٣ م و١٣٢١ هـ ١٩٠٤ م و١٣٢٥ هـ ١٩٠٨ م

الجزء الأول

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م

عند ما اطلع على الكتاب حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول باشا محيي مجد مصر ورافع لواء نهضتها تفضل فبعث الى المؤلف كتابه الذى هو آية البيان ونفثة من سحر البلاغة .

حضرة صاحب السعادة اللواء ابراهيم رفعت باشا

تسلمت كتابكم "مرآة الحرمين" الذى تفضلتم باهداء نسخة منه إلىّ، فأشكركم على إهدائه أوفر الشكر، وأهنيكم على ما وفقتم اليه من وضعه فى موضوع جليل القدر عظيم الفائدة، ومن تحرير مسائله وتحقيق مباحثه فى عبارات مهذبة ومع رسوم متقنة فى شكل جميل وطبع حسن، حتى جاء كتابا فيه هدى للسائلين، وغنى للباحثين، ومسرة للناظرين، جزاكم الله عن جميع هؤلاء أحسن الجزاء والسلام ،،

سعد زغلول

مسجد وصيف فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٦

ملاحظة — أنظر باقى التقاريظ بآخر الجزء الثانى .

مرآة الحرمين

أو

الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية

محلاة

بمئات الصور الشمسية

تأليف ورسم

اللواء

ابراهيم رفعت باشا

قومندان حرس المحمل في سنة ١٣١٨ هـ ١٩٠١ م وأمير الحج في سنة ١٣٢٠ هـ ١٩٠٣ م وسنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٤ م وسنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٨ م

الجزء الأول

(الطبعة الأولى)

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م

(أنظر الفهرس الهجائى فى آخر الجزء)

مرآة الحرمين

أو

الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية

الجـــزء الأول

محتويات الجزء الأول

صحيفة

صحيفة

فهرس رسوم الجـزء الأوّل

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فؤاد الأول



Sa Majesté Fouad I.

Roi d'Egypte

تقـديم الكتاب

الى حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم فـؤاد الأول

أيد الله ملكه

مـولاى

لقد تسامى عصركم على الأعصار . وزهت مصر فى عهدكم على الأقطار فهذه نهضة العلوم والمعارف قد استوت . وتلك أفنانها قد اهتزت وربت . وأكمامها قد تفتحت فآتت أكلها ضعفين . بهمة مليكها . شبل اسماعيل ومحيي مجد وادى النيل .

وتلك مكة أم القرى . وطيبـة مقر الهـدى . والبيت المعمور وما اليها من معاهد . بارك الله حولهـا . وشاد فى القرآن بذكرها . فجعلها مثابة للناس وأمنا . تلك المعاهد . تسـدى اليك يا أبا الفاروق : شكران من حباها جلالته وآباؤه الغر الميامن بفيض كرمهم وأسـبغوا عليها وفير نعمهم . ونفروا خفافا لنصرتها فلما جأر الحجاز : رب أنى مسنى الضر . كان أسرع الأقطار لتأييده واعزازه مصر وما مصر إلا مآثر آبائك الصـيد ومكارم كل غضنفر كبير القلب حديد قد اشـترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الذكر الحميد فى اعلاء شأن الاسلام والمسلمين .

فقـديمـا حمى جدكم الأعلى حمى الحرمين . وعنى بقداسـة القبلتين ثم درج على سنته أبوكم ابراهيم فاذا بتلك الأقطار وقد أمنت مسالكها وسهلت مباركها ومهايعـها .

وجاءت رعايتكم السامية فى أزمانكم الزاهيــة مصدقة لما بين يديها من عطف سام على الحرم الأقدس وعناية ملكية بالأثر الأشرف :

منن لكم ولآبائكم خالدات * وأياد على الدهر باقيات

يحفظها لجلالتكم المسلمون بين طيات قلوبهــم . ويرددها الحجيج فى عرفة يوم الحج الأكبر . وينقشها الزمان على جبين الكعبة تفيض نورا وتحـدث عن مآثركم أصائل وبكورا .

وهذا كتاب حملنى على تأليفه حب شغف به قلبي لتلك البقعة المباركة التى أنزل الله فيها على عبده الكتاب فدرج فيها الدين وأشرقت منها شمس الهداية على العالمين جمعته وأنا أتشرف كل عام بايصال رفد بيتكم بيت اسماعيل وابراهيم الى بيت رفع قواعده ابراهيم واسماعيل، وبالسفارة بين موالى وملوكى الأخيار وبين ساكن الروضة الشريفة المعطار .

وليس فيــه إلا كل نقيبة من نقائب المجد لديكم ومحمدة تنطق بالثناء عليكم فهو منكم واليكم والحمد لله ان جاء مرآة صادقة للمشاعر الطاهرة وصورة حقيقة برسومه الوافــرة .

وانى أرفعــه لسدتكم العلية وأنزله بساحتكم السنية كلأ الله ذاتكم وحاط باليمن أيامكم ورعى بتوفيقه سمو ولى العهد المحروس آمين م

العبــد المخلص المطيع لجلالتــكم

(اللواء) ابراهيم باشــا رفعت



LEWA IBRAHIM REFAAT PACHA

EX O. C. H. H. BODY GUARD
EMIR EL HAGG, YEAR 1325 H.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ (١٢٧)[(١)] رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩) (البقرة)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ[(٢)] آمِنًا وَٱجْنُبْنِي[(٣)] وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥)
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ (٣٧) (إبراهيم)

وَإِذْ بَوَّأْنَا[(٤)] لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَٱلْقَائِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن[(٥)] فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا[(٦)] وَعَلَىٰ كُلِّ
ضَامِرٍ[(٧)] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[(٨)] (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ
مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَائِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨)

---

(١) أرقام الآيات حسب ما جاء فى المصحف الذى تم طبعه فى عهـد صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر (٢) مكة المكرمة . (٣) أبعدنى . (٤) جعلنا مكانه مباءة لابراهيم ومرجعا يرجع اليه . (٥) وأعلم الناس بالحج . (٦) مشاة جمع راجل . (٧) بعير مهزول اتعبه بُعد السفر فهزله . (٨) طريق بعيـد .

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ(١) وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ... ﴿٣٠﴾ (الحج)

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ(٢) فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ (الحج)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ(٣) مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ(٤) إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ آل عمران . (قرآن كريم)

الحمد لله على ما هدى إليه من شعائر الدين، وسنه من شرائع لإحياء العالمين ومناسك يصمد(٥) إليها الدانون والقاصون ويتداعى إليها الموحدون، نحمده على بيت جعله مثابة للناس وأمنا، وملاذا للاسلام وحصنا، حييت به الأمة العربية وذاع صيتها فى الأقطار العجمية، وطهرت به النفوس من أوزارها وضرعت فيه إلى ربها فأفاض عليها من الهدايات الروحية والكمالات الخلقية والمنافع الدنيوية والأخرويه، ما لا يدخل تحت الضبط ولا يحصره العد . والصلاة والسلام على هادى الأمم من غوايتها، ومنقذها من ضلالتها، والآخذ بها عن اللمم(٦) إلى السبيل الأمم(٧) "محمد بن عبدالله" مطهر البيت من الأوثان، والناشر على ربوعه راية السلام الذى وحد بين المسلمين فى المنسك وسنّ لهم سنة التعارف على اختلاف أجناسهم، وتباين لغاتهم وتباعد أقطارهم، فكانت بذلك وحدة لاتنفصم العرا، وألفة لايدركها البلى، مادام المسلمون

(١) أى ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والاظفار وتطهير النفوس من أدران المعاصى .
(٢) متعبدا يقصدون اليه . (٣) مكة . (٤) موضع قيامه وهو يبنى البيت .
(٥) يقصد . (٦) الذنوب . (٧) الوسط .

بما هداهم إليه متمسكين، وبحبل الله معتصمين وبسنة رسوله مؤتسين، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وارتسموا طريقه . (وبعد) فيقول «اللواء إبراهيم باشا رفعت» (فى الرسم ١) : كنت ولوعا بالحج شغوفا بأداء هذا الفرض متضرعا إلى الله أن يوفقنى لرؤية بيته الحرام وما اكتنفه من المناسك، فمنّ على بالإجابة بعد الإهابة(١) وبارك فى دعوتى كما بارك لإبراهيم فى دعوته الطيبة التى أحيت أمة إلى يوم القيامة وعمرت قطرها الجدب ونشرت فيه المدنية الصادقة والشرعة القائمة ، فعينت فى سنة ١٣١٨ ﻫ (١٩٠١ م) رئيس حرس المحمل (قومندانه) فرأيت أن نعمة الله على لا يفى بشكرها إلا تدوين رحلتى من أوّل خطوة فيها إلى آخر خطوة وإخراجها للناس لينتفعوا بها وليستضيئوا بنورها إذا حجوا إلى البيت الحرام أو قصدوا الجزيرة فلم أدع صغيرة ولا كبيرة مما رأيت أو سمعت إلا قيدتها، غير أنى كنت أرى مناظر جميلة وآثارا ثمينة ومشاهد مهما دققت فى وصفها لا أصل بك إلى الحقيقة ولا أدخل من الروعة فى نفسك ما تدخله المشاهدة والرؤية وكنت أتمنى مصوّرا ماهرا يحبس ما نرى من المناظر وكنت أودّ أن أكون ذلك المصوّر فلما رجعت من حجتى الأولى تعلمت فن التصوير وجعلته مسلاتى فى وقت فراغى ونَزَعت نفسى إلى حجة أخرى أقيد فيها الصور فأنالنى الله بغيتى ومنّ على منة أخرى فى سنة ١٣٢٠ ﻫ (١٩٠٣ م) إذ عينت أميرا للحج فكتبت على نفسى أن أسلك سبيلى الأوّل فى تقييد كل ما أجد وتصوير كل مايقع عليه النظر حتى أضيف إلى إخبارك — أرشدك الله — المشاهدة فيتمتع السمع والبصر كأنك تشاهد الأماكن المقدسة عن كَثَب(٢) . ومنّ علىّ بحجة ثالثة فى سنة ١٣٢١ ﻫ (١٩٠٤ م) فكنت فيها أميرا للحج . وغمرنى بعد ذلك بحجة رابعة عينت فيها أيضا أميرا للحج سنة ١٣٢٥ ﻫ (١٩٠٨ م) فتلك حجات أربع

(١) النداء . (٢) قرب .

وإنها لنفحة كبيرة ومنحة جليلة تستدعى شكرا جزيلا وثناء عريضا وما ذلك الا بسط ما رأت عيني وسمعت أذنى للناس فى ثوب قشيب[(١)] ومنظر بهيج فتقدمت الى المسلمين بهذه الرحلات المصورة التى حوى كل منها مالا يغنى عن الأخرى إذ كان من حسن حظى أنى سلكت كل مرة من مكة إلى المدينة طريقا غير التى كنت أسلكها من قبل فظفرت بمعلومات قيمة عن أرض الحجاز لا أظنك تظفر بجملتها فى كتاب آخر .

ولقد كان من أكبر البواعث على إخراج هذه الرحلات وتكلف النفقات الباهظة فى سبيلها أنها أبين شرح لفرض من فروض الدين وأصدق لسان يصف مهد النبوة ومبعث التشريع وأنها لتكشف لك عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والأماكن التى شرفت به حتى كأنك تراها رأى العين .

وقد رأيت أن أذكر الرحل الأربع حسب ترتيبها فى الموضوع ولما كانت السنة الأولى خالية من المناظر رأيت أن أضيف إليها من مناظر السنين الأخرى إذ هى أول ما تقرأ وأوسع ما خط كما رأيت أن أشبع الكلام على كل مكان شهير أو أثر عظيم أو أمر خطير يأتى ذكره فى الرحلة فى فصول مستقلة .

وأسأل الله سبحانه أن يجعل عملى خالصا من الرياء وأن ينفع به المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ﴿ هُوَ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

---

(١) أبيض نظيف .

الرحلة الاولى

ســــنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠١ م

الأعمال التمهيدية قبل سفر المحمل

أمير الحج وقوة المحمل العسكرية — صدرت إرادة سنية بتاريخ ٤ رمضان سنة ١٣١٨ (٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٠) بتعيين إسماعيل صبرى باشا الطوبجى أميرا للحج وصــدر أمر عسكرى بتاريخ ٥ ذى القعدة بتعيينى رئيسا (قومندان) لحرس المحمل وأمر آخر فى التاريخ نفسه بتعيين ١٨٠ ضابط وصف ضابط وعسكرى حرسا للمحمل وكان الضباط ستة، هم رئيس المـائة (اليوزباشى) عبد الوهاب حبيب افندى من المشاة (البيادة) ورئيس المـائة سليمان كامل افندى الطبيب، والملازم الأول ابراهيم أحمد افندى من المشاة، والملازم الأول اسماعيل كامل افندى من المدفعية (الطوبجية) والملازم الأول أحمد كامل افندى من الخيالة ، والملازم الثانى محمد كامل افندى من المشاة ومن ضمن العسكر ١٤ موسيقيا .

ركب المحمل — صدرت إرادة سنية بتاريخ ٤ رمضان سنة ١٣١٨ بتعيين محمد سليمان بك أمينا للصرة وقررت وزارة المالية تعيين الشيخ يوسف المرجاوى إماما للمحمل، وحسن حلمى افنــدى كاتبا أول للصرة، وسعيد أحمــد افندى كاتبا ثانيا وحسن قاسم افندى كاتبا للقسم العسكرى و إمارة الحج، ومحمود يوسف افندى صرافا للصرة ، والسيدة صالحة افنــدى طبيبة، وجملة من كان فى خدمة المحمل فى هــذه الســنة ٤٧٣ ما بين ضباط وعسكر وموظفين وتوابعهم وقادة الجمال والخيول وحاملى المصابيح (المشاعل) والسقائين والفراشين والزامرين (الفريحية) ولم يكن مع المحمل أحد من الأهالى غير عماله وأتباعهم .

صرة المحمل — كانت النقود التى أودعت صرة المحمل فى سنة ١٣١٨ ﻫ وسلمت لأمين الصرة بمقتضى إشهاد شرعى رسمى عمل بحضر ناظر المالية وأمير الحج وأمين الصرة وصرافها وصراف من المالية ومندوب من قبل حضرة صاحب الفضيلة قاضى قضاة مصر كما يأتى :

مليم	جنيه مصرى	وينتو	جنيه مجيدى	ريال بطاقه	ريال مصرى	قرش	مليم
٥٠٠	١٤٢٧٦	٤٩	٣٥	٣٩٠٠٠	٢٩٧٢	٥٣٢٥	٥٩٦ ¼

وجملة ذلك بالجنيه المصرى والمليم ما يأتى :

جنيه	مليم
١٨٨٩٣	٢٦٢ ¼

أى ربع مليم واثنان وستون ومائتا مليم وثلاثة وتسعون وثمانمائة وثمانية عشر ألفا من الجنيهات المصرية .

والمبالغ المذكورة تشمل مرتبات رجال المحمل جميعهم مدة ثلاثة شهور وهى المدة المقدرة لسفر المحمل ومرتب أمير مكة والمقدر لأشرافها وللعربان ولتكيتى مكة والمدينة وجميع النفقات الأخرى اللازمة من أجرة جمال وثمن علف للدواب الخ — أنظر مالية المحمل فى آخر الكتاب .

الكسوة ووصفها — جرت العادة أن يكتب إشهاد شرعى بتسليم الكسوة من مأمور تشغيلها الى المحملى (من فى عهدته المحمل والكسوة) ليوصلها الى البيت الحرام ويذكر فى هذا الإشهاد أجزاء الكسوة وأوصافها وقد رأينا أن نثبت هنا نص الإشهاد الشرعى الذى حرر فى سنة ١٣٢١ اذ هو أثر تاريخى يعرف منه القارئ تفاصيل الكسوة ومادتها وهى لا تختلف فى سنة عنها فى أخرى الا فى جودة ما تصنع منه واليك نص الإشهاد ،

بمحكمة مصر الكبرى الشرعية فى يوم الثلاثاء خامس عشر القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف الموافق ثانى فبراير سنة أربع وتسعمائة وألف أذن فضيلتلو قاضى افندى مصر حالا لحضرة العلامة الشيخ محمد ناجى أحد أعضاء المحكمة المذكورة بسماع ما يأتى ذكره فيه ولكاتبيه هما الشيخ محمد سعيد ومحمد مصطفى افندى

الكاتب كلاهما بالمحكمة المذكورة بكتابة ما يأتى ذكره فيه فلدى حضرة العضو المومى اليه بحضور الكاتبين المذكورين بالمجلس المنعقد بمسجد سيدنا ومولانا الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه الكائن بمصر المحروسة بالقرب من خان الخليلى والجامع الأزهر بقسم الجمالية فى الساعة العاشرة صباحا من اليوم المرقوم أشهد على نفسه الحاج محمد أحمد المحاملى الساكن بالدرب الأصفر بالقسم المذكور ابن المرحوم أحمد مصطفى بن مصطفى شهوده الإشهاد الشرعى وهو بأكمل الأوصاف المعتبرة شرعا أنه قبض واستلم واستوفى ووصل اليه من حضرة عبد الله فائق بك مأمور تشغيل الكسوة الشريفة حالا الساكن بشارع المحجر بقسم الخليفة بمصر ابن المرحوم اسماعيل بك ابن المرحوم ابراهيم الحاضر هو معه بهذا المجلس جميع كسوة بيت الله الحرام المشتملة على ثمانية أحزمه وأربعة رنوكه — أى دوائر — مركبة على حملين من الثمانية أحمال الآتى ذكرها فيه، مزركشة الثمانية أحزمة والأربعة رنوكه المذكورات بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر المبطن بالبفت الأبيض والنوار القطن المركبات الثمانية أحزمة المذكورة على ثمانية أحمال حرير أسود مكتوب ومبطن بالبفت الأبيض والنوار القطن، اثنان من الثمانية أحمال المذكورة كل منهما تسعة أثواب كل ثوب منها طوله ستة وعشرون ذراعا بالذراع البلدى طول كل ذراع منهما سبعة وخمسون سانتى متر وكسور من السانتى، واثنان من الثمانية أحمال المذكورة كل منهما ثمانية أثواب من الأثواب المذكورة، والأربعة أحمال باقى الثمانية أحمال المذكورة اثنان منها سبعة أثواب ونصف من الأثواب المذكورة والاثنان الباقيان كل منهما ستة أثواب ونصف من الأثواب المذكورة. وستارة بيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر والأحمر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر بها خمسة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وستة أذررة (كذا) فضة مطلية بالبندق الأحمر، واثنتى عشرة شرابة صغيرة حرير أحمر وقصب وكنتير واثنتى عشرة شمسية

مزركشة على الحرير الأحمر. وكسوة مقام سيدنا ومولانا ابراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم المبطنة بالبفت الأبيض المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر والأحمر، بها أربعة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأحمر وعشرة شراريب صغيرة حرير أحمر وقصب وخمسة أذررة فضة مطلية بالبندق الأحمر بها سجق قطن شبكة بقيطان قطن وأذررة شراريب من قطن هندى أحمر وأصفر وبها ترتر أحمر. وكيس مفتاح بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الأطلس الحرير الأخضر به ترتر ملون وكنتير أصفر مبطن بالأطلس الحرير الأخضر به شرابتان قصب وكنتير وقيطان قصب. وستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف بباب التوبة داخل بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر والأحمر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر بها ترتر. وستارة باب مقصورة سيدنا ومولانا ابراهيم الخليل المشار اليه المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأخضر والأحمر، بها خمسة أذررة فضة مطلية بالبندق الأحمر وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الأطلس الحرير الأحمر، بها عشرة شراريب صغيرة حرير وقصب المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الحرير الأخضر. وستارة باب منبر الحرم الشريف المكى المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأخضر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر وثلاثة مجاديل — أى حبال قطن — احتياج تعليق الكسوة الشريفة على بيت الله الحرام وإحدى وأربعين عصفورة — أى حبل قطن مجدول — احتياج الحلق وغلايتين من النحاس مغطاتين مملوءتين بماء الورد الباش احتياج غسيل بيت الله الحرام حسب المعتاد قبضا وتسلما واستيفاء ووصولا شرعيات حسب اعتراف المشهد المذكور بذلك يوم تاريخه بهذا المجلس

بحضور كل من سعادة إبراهيم رفعت باشا أمير الحج الشريف الساكن بالدويدارى بقسم الدرب الأحمر ابن المرحوم سويفى بن المرحوم عبد الجواد ، وحضرة أحمد زكى بك مدير الأموال المقررة بنظارة المالية المصرية حالا وأمين الصرة الشريفة فى هذا العام الساكن بشارع الظاهر بقسم الأزبكية ابن المرحوم السيد يوسف الحلبى ابن المرحوم السيد عثمان الحلبى ، وحضرة السيد محمود الببلاوى شيخ مسجد ومقام سيدنا ومولانا أبى عبد الله الحسين رضى الله تبارك وتعالى عنه الساكن بحارة المناصرة بقسم الموسكى ابن حضرة العلامة الهمام السيد الشريف على الببلاوى شيخ الجامع الأزهر الشريف حالا نجل المرحوم السيد محمد الببلاوى ومحمد عمر افندى الكاتب وأمين مخزن مصلحة الكسوة الشريفة الساكن بشارع مصر القديمة ابن عمر ابن محمد العارف كل منهم للشهد المذكور عينا واسما ونسبا وأنه الحاضر بهذا المجلس واتصافه بالأوصاف المعتبرة شرعا وعلى المشهد المذكور الخروج من عهدة ذلك جميعه وتسليمه لمن له ولاية تسلم ذلك بمكة المشرفة حسب المعتاد فى ذلك ، صدر ذلك بحضور وشهادة من ذكر أعلاه تحريرا فى يوم الأربعاء سادس عشر القعدة المذكور الموافق ثالث فبراير المرقوم . اهـ .

ويعطى لمحرر الاشهاد الذى ينتدبه قاضى قضاة مصر ٣ جنيهات و ٢٨٠ مليم منها ٨٨٠ مليم نقدية و ١٤٠ قرش ثمن فروة و ١٠٠ قرش ثمن فرجية جوخ .

الاحتفال بالكسوة

فى يوم ٢٧ شوال سنة ١٣١٨ (١٦ فبراير سنة ١٩٠١) احتفل فى القاهرة بكسوة الكعبة المشرفة بالطريقة الآتية :

فى يوم ٢٦ شوال أتى بالمحمل من مقره بوزارة المالية ونقل داخل صناديق على عجلة الى « وكالة الست » بالجمالية حسب المعتاد من قديم ونقل جزء من كسوة الكعبة مع أحزمتها الحريرية المزركشة بالقصب (١) من مصنعها بالخرنفش الى

(١) خيوط من الفضة طليت بالذهب .

المصطبة بميدان صلاح الدين المعروف بميدان القلعة أو ميدان محمد على وفى عصر هذا اليوم احتفل رسميا بنقل كسوة مقام الخليل إبراهيم عليه السلام، والجزء الباقى من كسوة الكعبة من مصنعها بالخرنفش الى ميدان صلاح الدين السابق، وكان نقل الكسوة على أكتاف الحمالين يحيط بها رجال الشرطة ويتقدمها قسم من الجيش مابين راجل وراكب معهم الموسيقى تصدح بالأنغام المطربة ويصحبه أرباب المزمار البلدى المعينون للسفر بصحبة المحمل، وكذلك تقدم الكسوة مدير مصنعها — مأمور الكسوة — ممتطيا جواده مرتديا لباسه الرسمى — بذلة التشريفة الكبرى — وعلى يديه مبسوطتين كيس مفتاح الكعبة (فى الرسم ٢) . ويتلو كسوة الكعبة كسوة مقام الخليل محمولة على الأكتاف أيضا، وسار الموكب بهذا النظام من المصنع الى «سبيل كتخدا» القريب من النحاسين حيث التقى به المحمل بكسوته الخضراء المعتادة آتيا من «وكالة الست» بالجمالية على ظهر جمل، فسار وراء كسوة المقام وسار الموكب كله الى النحاسين فالغورية فباب زويلة (بوابة المتولى) فالدرب الأحمر فالتبانه فالمحجر فميدان صلاح الدين حيث أقيم هناك الاحتفال فوضع المحمل مع الكسوة فى المحل المقابل لردهة (لصالة) الاستقبال حتى الصباح ووضعت كسوة المقام وسط الردهة المذكورة التى زينت جدرها بقطع من كسوة الكعبة وأحزمتها القصبية وكيس مفتاح الكعبة وستارة بابها وباب التوبة، ووضع حول كسوة المقام أربع ماثلاث (شمعدانات) من الفضة أحضرت من جامع القلعة، ووضع بحجرة المحافظ التى بالجهة الغربية من ردهة الاستقبال أربع قطع يقال لها (كرداشيات) (فى الرسم ٣) زينت بها جدر الحجرة، وقد أحيت المحافظة الليلة المعقبة لهذا اليوم بتلاوة آى القرآن الكريم وانشاد المنشدين فى مكان شرقى مكان الاحتفال ودعت العلماء والكبراء والأعيان لمشاركتها فى إحياء الليلة، ومنهم من دعته لتناول طعام العشاء قبل الغروب، ومنهم من دعى للاحياء بعد صلاة العشاء فحسب كما أنها دعت مشايخ الطرق من الرفاعية والسعدية والأحمدية والإبراهيمية والبيومية والقادرية والشاذلية

منظر كيس مفتاح الكعبة المعظمة



2. The bag containing the key of the Kaaba.

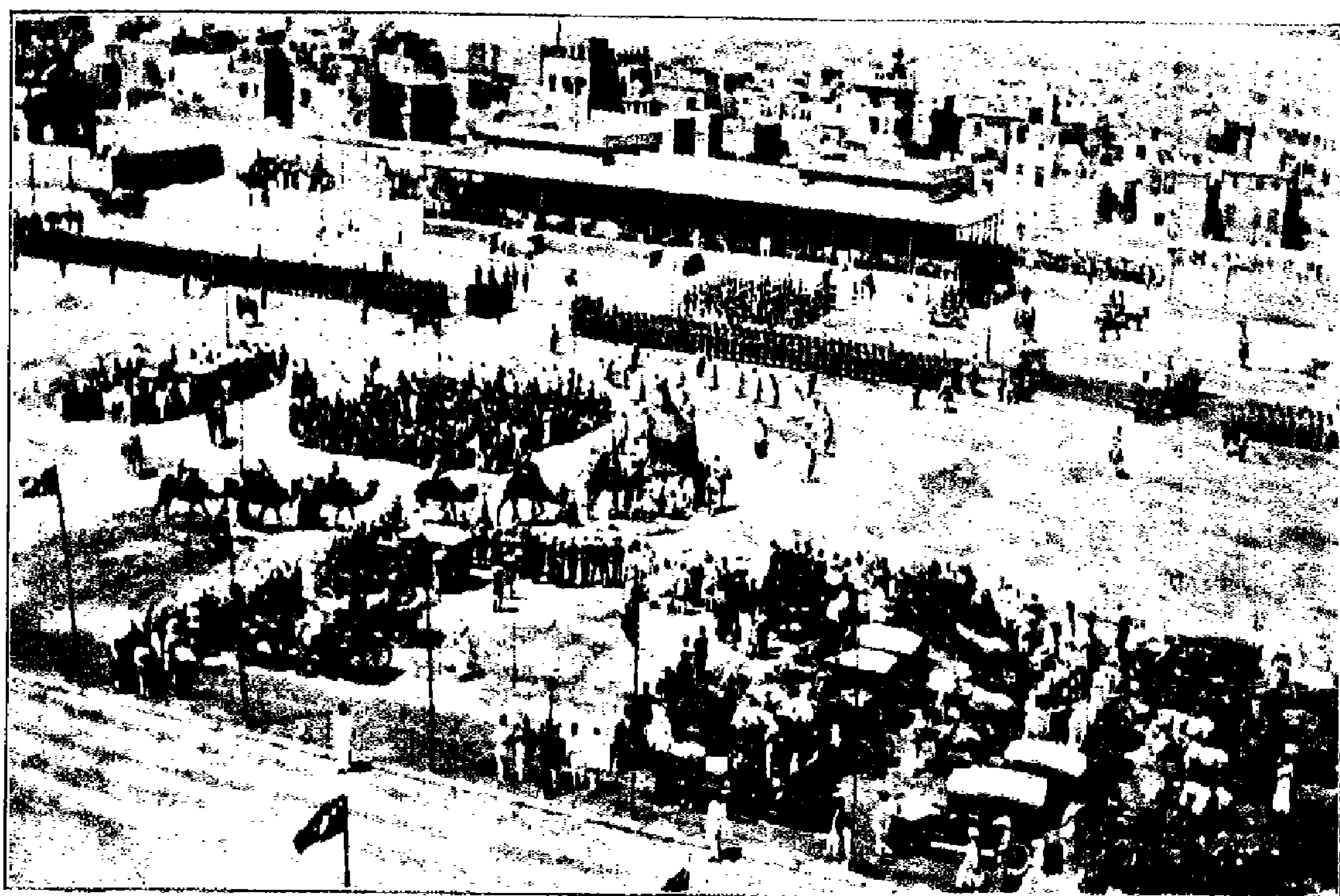
جزء من كسوة الكعبة فيه البسملة والصمدية



3. A view of a part of the carpet of El Kaaba containing a story from the Koran.

صحيفة ١١

حفلة توديع المحمل بميدان القلعة بمصر



4. The farewell of the Mahmal at Citadel Square in Cairo.

صحيفة ١٣

المحمل بالسكة الحديد بمحطة الإسماعيلية



5. The Mahmal in the Railway Station of the Ismailia.

للسير أمام المحمل والكسوتين وللمشاركة فى إحياء هذه الليلة التى أنفق فيها مائة جنيه مصرى ، واستمرت الحفلة الى ما بعد نصف الليل حيث جمعت قطع الكسوة التى فى الردهة وفى حجرة المحافظ مع كسوة المقام ، ووضع كل ذلك مع المحمل فى المكان المقابل لردهة الاستقبال .

وفى صباح هذه الليلة احتفل بالكسوة والمحمل إحتفالا فخما فى ميدان صلاح الدين حضره سمو الخديو والوزراء والعلماء والأعيان ، وأطلق للخديو ساعة حضوره واحد وعشرون مدفعا وصدحت الموسيقى بسلامه ثلاثا أعقبها الضباط والعساكر والحضور فى كل مرة بالهتاف لسموه (افندم مز چوق يشا) (يعيش افندينا طويلا) وكان الخديو والحضور ساعة ذلك رافعى أيديهم الى جباههم بالسلام ثم استراح جنابه مع الحضور قليلا فى بهو (صالة) الاستقبال مشاهدا دورات المحمل السبع المعتادة فى الفناء الواسع الذى أمام البهو وكان يقود جمل المحمل مدير مصنع الكسوة الذى قدّم المقود الى سمو الخديو فقبله وناوله قاضى القضاة فقبله أيضا مع بعض الحضور ثم أعاده الى المأمور الذى ينتظر بالمحمل قُبالة الجامع المعروف بالمحمودية بالميدان ريثما يتم استعراض الكسوة ، ثم عرضت الكسوة يحملها الخفراء على سموه وقد وقف خارج الردهة مع الوزراء والحضور ، والخفراء يمرون بها من أمامهم حتى إذا ما انتهت أستعرض الجيش ثم أطلق واحد وعشرون مدفعا إيذانا بانتهاء الحفلة (فى الرسم ٤) وانصرف الخديو والحضور ثم سير بالكسوتين والمحمل الى مسجد الحسين رضى الله عنه يصحبها رجال الجيش والشرطة وأرباب الطرق وفى المسجد استقبل الكسوتين أمير الحج وأمين الصرة وكانا قد سبقا الناس الى المسجد وهنالك ضمت بالخياطة قطع الكسوة بعضها الى بعض ثم نقلت الى العباسية مع كسوة المقام فى صناديقها المعدة لها استعداد السفر بهما الى الحجاز بعد . أما المحمل فسير به من المسجد الحسينى الى مصنع الكسوة بالخرنفش (١) وبقى هنالك الى صبيحة يوم الاحتفال

(١) لا يخفى عليك أن هذه الأعمال ليست من الدين فى شيء . وربما كان مبررا لها أنها تهيج النفوس الى أداء الحج .

بخروج المحمل الى الأقطار الحجازية، ففى صبيحة هذا اليوم احتفل بنقله من المصنع الى ميدان صلاح الدين ولكن من طريق سوق السلاح، وفى ضحوة ذلك اليوم ١٣ ذى القعدة سنة ١٣١٨ (٤ مارس سنة ١٩٠١) عمل احتفال بالميدان المذكور كالاحتفال السابق وسلم فيه عبد الله فائق بك مدير مصنع الكسوة زمام المحمل الى سمو الخديو وسموه سلمه لأمير الحج حيث قاده محفوفا برجال الشرطة والجيش وأرباب الطرق الى العباسية ليسافر من هنالك الى السويس فمكة مع الكسوتين والروائح العطرية والخرق الجديدة التى تغسل بها الكعبة .

سفر المحمل وركبه من القاهرة الى جدة

قبل سفر المحمل من القاهرة ببضعة أيام دعت مصلحة السكة الحديدية سعادة أمير الحج اسماعيل صبرى باشا الطوبجى لتتعرف منه العربات اللازمة فى قطارى البضاعة والركاب اللذين يقلان المحمل وركبه وأمتعته من القاهرة الى السويس فاتفق معها على أن يكون قطار الأمتعة مؤلفا من ثمان عربات مغطاة وثلاث مسطحة وخمس مجنبة وسبع للحيوانات وقطار الركاب منظوما من مركبتين للدرجة الأولى وأخريين للثانية وثمان للثالثة وثنتين للحيوانات .

وفى ليلة الخامس عشر من ذى القعدة سافر قطار البضاعة من العباسية يحمل الكسوتين وما يتبعهما وأمتعة المسافرين بصحبة المحمل من خدم وعسكر وقادة إبل وضوئية وفراشين وسقائين . وقد انتقدت الشحن بأن خدم المحمل أسرعوا بشحن أمتعتهم حينما وصل القطار وشغلوا بها أكثر العربات فلما حضر العسكر لشحن أمتعتهم وجدوا أكثر العربات مشغولا فاضطروا الى إخراج بعض أمتعة الخدم حتى يخلوا لأمتعتهم عربات خاصة وفى ذلك من المشقة ما لا يخفى فلو أن (القومندان) عين ضابطا ذا مقدرة ونباهة وفطنة وكياسة لتقسيم العربات بين الخدم والحرس وتميز عربات كل فريق وتنفيذ ذلك بالدقة لما هرول أولئك الخدم المتمرنون على الشحن.

وشغلوا معظم العربات بأمتعتهم، وكذلك ينبغى أن يعمل هذا النظام بالباخرة البحرية فيعين لكل طائفة أماكن خاصة ويراقب الرئيس تنفيذ ذلك فلا يعتـدى قوى على ضعيف ولا يسـبق المتمرّن غيره الى خير الأماكن بل تكون سواسـية بين الجميع .
وفى صبيحة يوم ١٥ ذى القعدة (٦ مارس) سافر قطار الركاب فى منتصف الساعة الأولى العربيـة من العباسية يقل المحمل والأمير والموظفين وبقية الحرس وأتباعهم من الأهالى، وقد وقف القطار بمحطات القاهرة وطوخ وبنها والزقازيق وأبى حماد ونفيشة والاسماعلية وفايد ، وقد كان الأهالى ومشايخ الطرق وطلبـة المدارس بنين وبنات ينتظرون المحمل فى محطات الوقوف ومعهم الموسيقى والمزمار البلدى . ومما رأيناه من عادات الأهالى إحضارهم أولادهم الرضع ليروا المحمل ويلمسوه فيبارك لهم فى ذريتهم وكانوا اذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بمناديلهم الى خدام المحمل بعد أن يضعوا فيها شيئا من النقود أو يملؤوها بالحلوم البيضاء أو الفطير فيأخذ الخـدم ذلك منها ويردونها الى أربابها بعـد إمرارها على المحمل ، والذى دعا العامـة الى ذلك ما يعلمونه من أن المحمل يوضع داخل المسجد الحرام كما يوضع فى المقصورة النحاسـية التى حول قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليـه ما دام بالمدينة فيريدون التبرك بمحمل يزور الأماكن المقدّسة، ولما كان التمسح بالقبور منهيا عنه فى الشرع كان الاجدر بالناس أن لا يتمسحوا بما يوضع على الأضرحة من باب أولى وخليق بالمسلمين خاصتهم وعامتهم أن تتفق عاداتهم مع آداب دينهم وهاك المحمل فى عربته بالاسماعيلية (فى الرسم ٥) .

وقد وصلنا السويس فى اليوم نفسه فى الساعة السابعة العربيـة والدقيقة ٤٥ وكانت المحطة غاصـة بالنظارة (المتفرجين) ورجال الشرطة مصطفين على الافريز وفى مقـدّمة الجميع سعادة المحافظ والموظفون وقـد أطلق ساعة وصول القطار ٢١ مدفعا من قلعة السويس وصدحت الموسيقى بالسلام الخديوى وهتف الحضور بالدعاء المعتاد لولى النعم (افندمز چوق يشا) وتقدّم سعادة المحافظ الى أمير الحج وأمين الصرة مهنئا لهما بالوصـول ثم تقرر أن يكون الاحتفال بموكب المحمل فى منتصف

الساعة الحادية عشرة العربية من اليوم نفسه . ولما حان هذا الموعد اصطف حرس المحمل ورجال الشرطة صفين متقابلين بالقرب من المحطة وكذلك العساكر القائمون بمنع تجارة الرقيق اصطفوا بجانبهم صفين وجعل المحمل بينهما ثم سار الموكب بهذا النظام يتقدّمه أمير الحج وعلى يمينه المحافظ وعلى يساره أمين الصرة ، والعامة ، وأرباب الطرق من دون ذلك ، وبعد أن طاف بشوارع المدينة كالمعتاد وقف حيث بدأ وإذ ذاك أطلق حرس المحمل ٢١ مدفعا ردّا لتحية القدوم ، وبعد السلام الخديوى انفرط عقد الحفلة وشحن المحمل بقطار السكة الحديدية الى محطة حوض السويس التى بتنا بها الى الصباح وباتت أسر موظفى المحمل بحجر الباخرة .

وفى صباح يوم الخميس ١٦ ذى القعدة سنة ١٣١٨ (٧ مارس سنة ١٩٠١) أنزلت الأمتعة والكسا والمحمل (فى الرسم ٦) الى باخرة النجيلة المخصصة لنقل المحمل وركبه الى جُدّة وقد قام بتفتيش الباخرة سعادة المحافظ ومندوب من شركة البواخر الخديوية ورئيس الحرس ولما تيقنوا بخلوها من مختبئين لايحملون جواز سفر صرح للحجاج والحرس بالنزول اليها . ومما لاحظته على الباخرة أن أماكن الدرجة الثالثة بها كانت دون حاجة المسافرين فكان الزحام فيها شديدا ومحل الحيوانات كان رديئا جدا فان طوله لايزيد على ١٥ مترا فى عرض الباخرة ، وارتفاعه متران تقريبا ولا يوجد به من النوافذ التى لا يزيد قطرها عن ٢٠ سنتيمترا إلا نافذتان فى كل جهة ، وكان به ٤٠ حيوانا بين خيل وبغال وقد بلغ من ازدحام الحيوانات به أن العساكر ما كانت تتمكن من وضع العلف لها إلا بالسير من تحتها وأنها كانت تتصبب عرقا بل تتساقط على الأرض من شدة الحرارة بالرغم من أننا وضعنا مروحة بحرية (منيجة) لجلب الهواء لها ، وقد تسبب عن ذلك ضعف الخيل وهزالها مع أنها مستريحة غير عاملة . وقد أخذ من كل حاج بالسويس ٣٢ مليما ضريبة الحجر الصحى بها وقد استنفد ذلك كثيرا من وقت الحجاج ، فلو أن الحكومة أخذت هذه الضريبة مع ضريبة محجر الطور لأراحت الحجاج ووفرت عليهم وقتا ضيعوه فى الدفع وتسلم الصكوك به . وفى منتصف الساعة التاسعة العربية من يوم الخميس أقلعت الباخرة (بسم الله مجريها

منظر نزول المحمل إلى البحر بالسويس



(6). A view of the Mahmal coming down the Sea in Suez



7. The Port of Gedda.

رجل وامرأة هنديان محرمان



69. An Indian man and an Indian woman in pilgrimage (Ihram) Clothes.

ومرساها) ميممة جدّة فوصلتها فى صبيحة ١٩ ذى القعـدة (١٠ مارس) فى الساعة الثانية العربية فنكون قد قطعنا المسافة بين السويس وجُدّة فى ست وستين ساعة وهى ٦٤٦ ميلا. وقد كان البحر هادئا من وقت القيام الى مساء اليوم التالى ثم اشتدّت الرياح وهاج البحر واستمر ذلك حتى جُدّة وقبل الوصول اليها بمـا يقرب من ست ساعات مررنا برابغ على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر وهنالك أحرم المسافرون بعـد أن اغتسلوا وحلقوا وقصوا الأظفار ولبسوا لباس المحرمين (الرسم ٦٩) فرفعوا أصواتهم بالتلبية « لبيك[1] اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

تجردت لمـا أن وصلت لرابغ * ولَبَّيت للمولى كما حصل النـدا
وقلت إلهى عندك الفوز بالمنى * وإنى فقـير قد أتيت مجـردا

والتلبية مطلوبة عند الاحرام بحج أو عمرة، وكلما علا مرتفعا أو نزل منخفضا وكذلك عند تلاقى الركبان ثم من الناس من أحرم بالحج ومنهم من أحرم بالعمرة وهم جميع الركب خلا أربعة وانما آثرنا العمرة لنتحلل منها اذا وصلنا الى مكة وطفنا وسعينا بين الصفا والمروة فيحل لنـا ما حرم علينا بالاحرام من لبس المخيط وكشف الرأس للرجال وتغطية الوجه للنساء والتطيب والحلق الخ ، وقد جرت العادة بأن السقائين والعكامة والفراشين والضوئية لا يحرمون ولا يؤدّون شيئا من مناسك الحج فأمرهم الأمير بالاحرام، فأطاعوا مرغمين وأخذوا ممـا عندنا من « البفتـة » ما يرتدون به للأحرام وكانوا قد خرجوا من مصر غير متأهبين له دأبهـم فى كل مرة وكذلك اشتريت للحرس (بفتة) من القاهرة بنقود دفعوها[2] فاتخذوا منها ملابس الاحرام فكنت ترى ركب المحمل من كبيره الى صغيره محرما خلاف ما تعوّدوه فى السنين الخالية ، ولهذا كان الناس معجبين بنا هـذه المرة إذ رأوا فينا خطة جديدة هى عين ما رسمه الشرع الشريف وندب اليه .

(١) لبيك معناها إجابة بعد إجابة . (٢) طلبت فى سنة ١٣٢٠ من المالية أن تشترى للعسكر ملابس الإحرام من مالها الخاص فأجابت .

وصول المحمل الى ميناء جُدّة

لمـا وصلت الباخرة مرفأ جُدّة لم يحضر الحاكم ولا أحد من قبله لتهنئة الأمير بالوصول حسب العادات المتبعة ولا سيما أن الباخرة بهـا أمير الحج وقسم عسكرى ينبغى احترامه ومساعدته فى نقل أمتعته وإرشاده الى المعسكر الذى ينزل به، إنمـا حضر طبيب الحجر الصحى للكشف على راكبى الباخرة وأصحاب السفن الشراعيـة (السنابك) لينقلوا المسافرين وأمتعتهم الى البر، وعند رسو الباخرة أطلقنا سبعة مدافع إيذانا بالوصول ولم تردّ علينا التحيـة الباخرة العثمانية الحربية الراسية بالميناء باطلاق المدافع كما هو المعتاد ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّـةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ فكررنا التحية باطلاق ٢١ مدفعـا وعزفت الموسيقى بســلام جلالة السلطان وأعقبته بالدعاء له ثلاثا ثم بســلام الخديو والدعاء له كذلك وبعد تلكؤ ردّت التحيـة باطلاق المدافع من قلعة جُدّة .

نقل الأمتعة من الباخرة إلى ساحل جُدّة ـــ الباخرة ترسو بعيدا عن الساحل بنحو ميلين لكثرة الشعب بالمرفأ كما ترى فى (الرسم ٧) وتقوم بنقل الحجاج وأمتعتهم إلى البر سفن شراعية تسمى (السنابك أو القطائر) والأجرة المقدّرة للسفن التى تحمل موظفى المحمل وأمتعته خمســة جنيهات مصرية وللنجابين (النوتية) الذين ينزلون الأمتعة الى السفن ويخرجونها منها الى البر جنيهان ومثلهما للحمالين الذين ينقلون الأمتعة من الساحل الى المعسكر «نصيبا مفروضا» أما الحجاج التابعون للمحمل فنفقات النقل عليهم (انظر الميناء والقوارب فى الرسم ٨) .

عوائد الحجر الصحى وإجازة السفر ـــ قضت قوانين الدولة العلية فى جُدة بأن يؤخذ من كل حاج ثمـانية قروش رسم الحجر الصحى (أنظر ديوان الكورنتينا فى الرسم ٩) وقرشان رسم إجازة الســفر (فى سنة ١٣٤٢ هـ كانت الرسوم على كل حاج ٨٩ قرشا ـــ الله يرحم المعداوى القديم) ويعطى لكل حاج صكان بمـا دفع

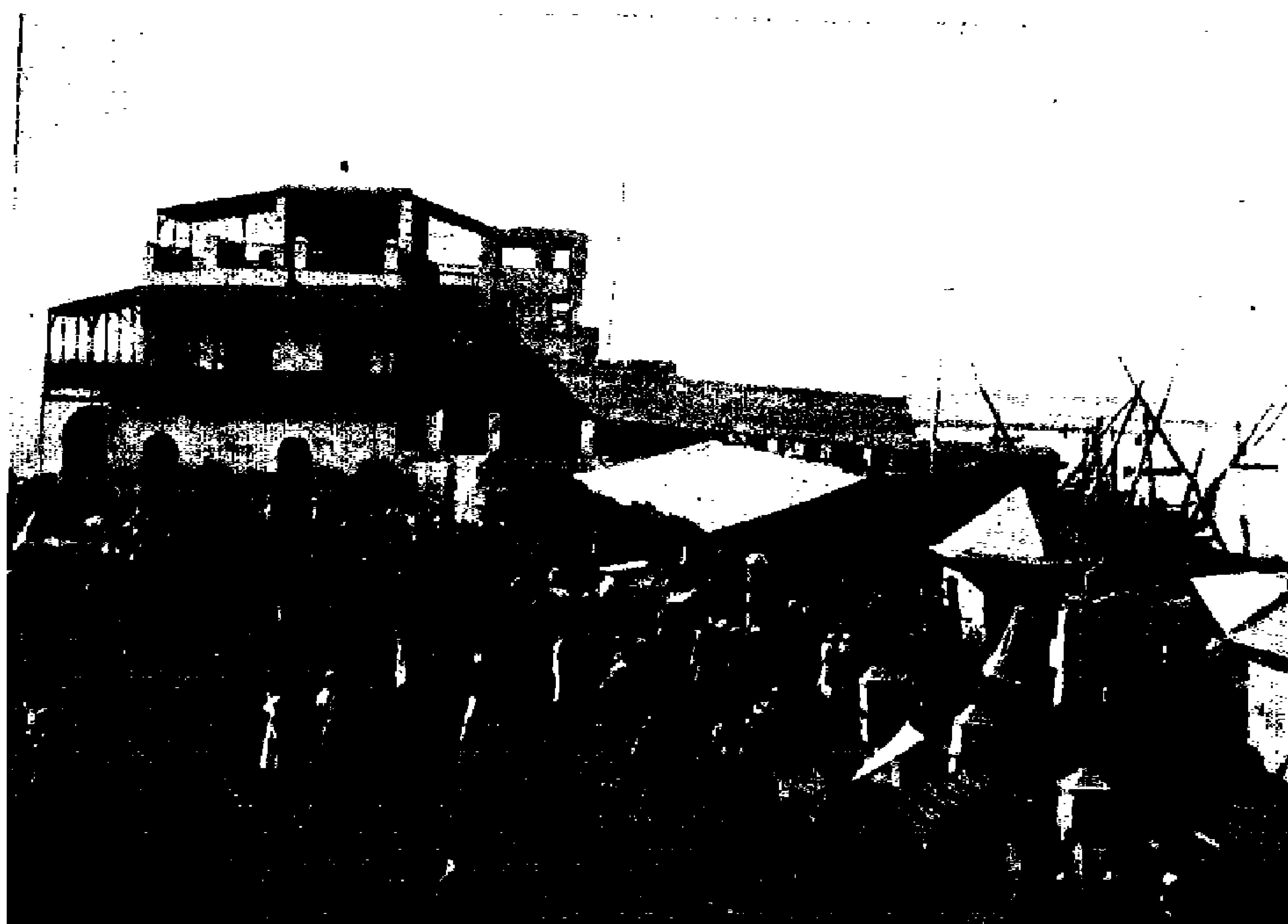
منظر مدينه جده ومينا ها



(8) Geddah and Harbour.

[illegible] المكرمة [illegible]

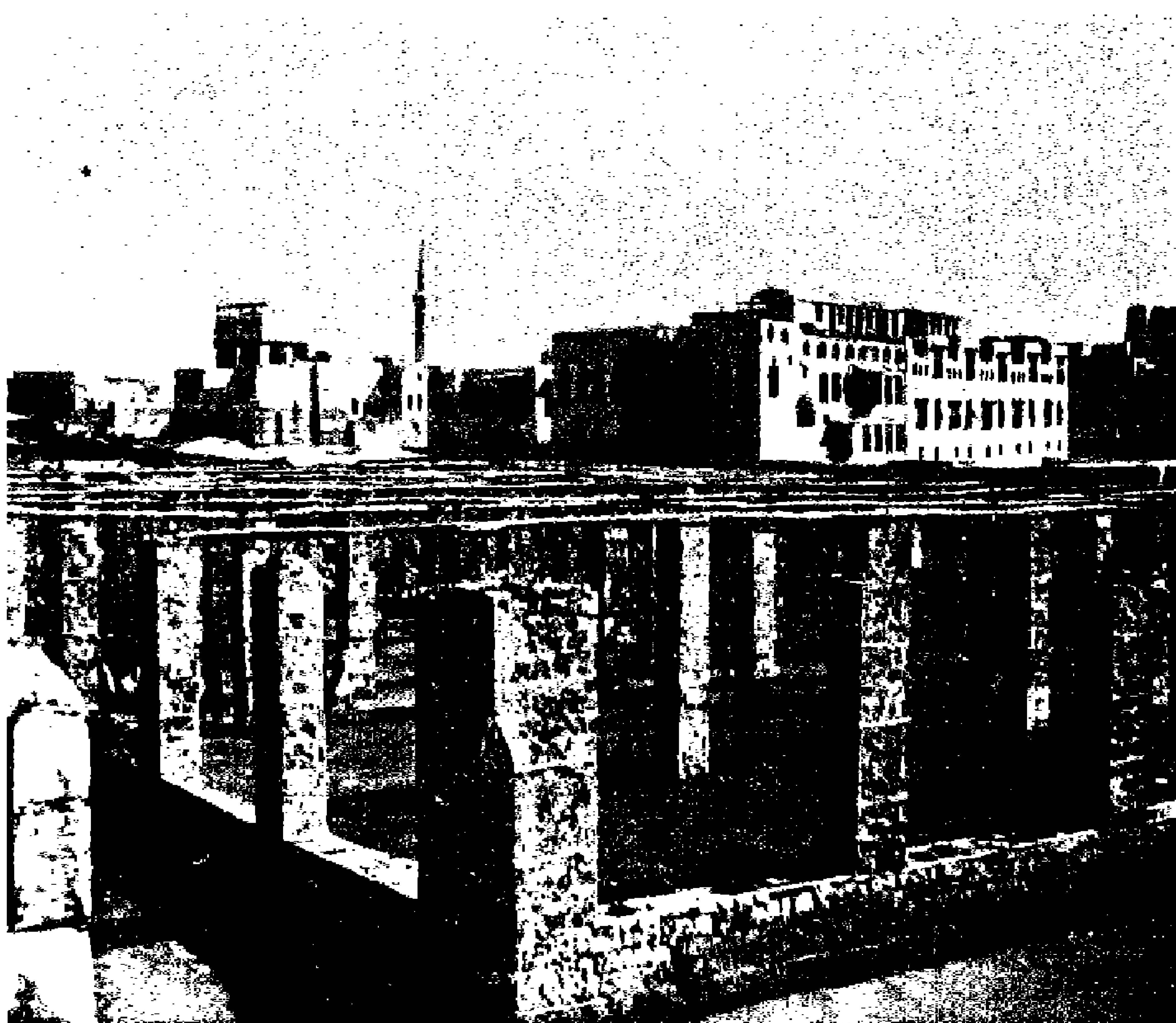
ديوان الكورنتينا بجدة سنة ١٣٢١



[illegible] المكرمة [illegible]

(9) A view of the quarantine disinfection in Gedda in 1321.

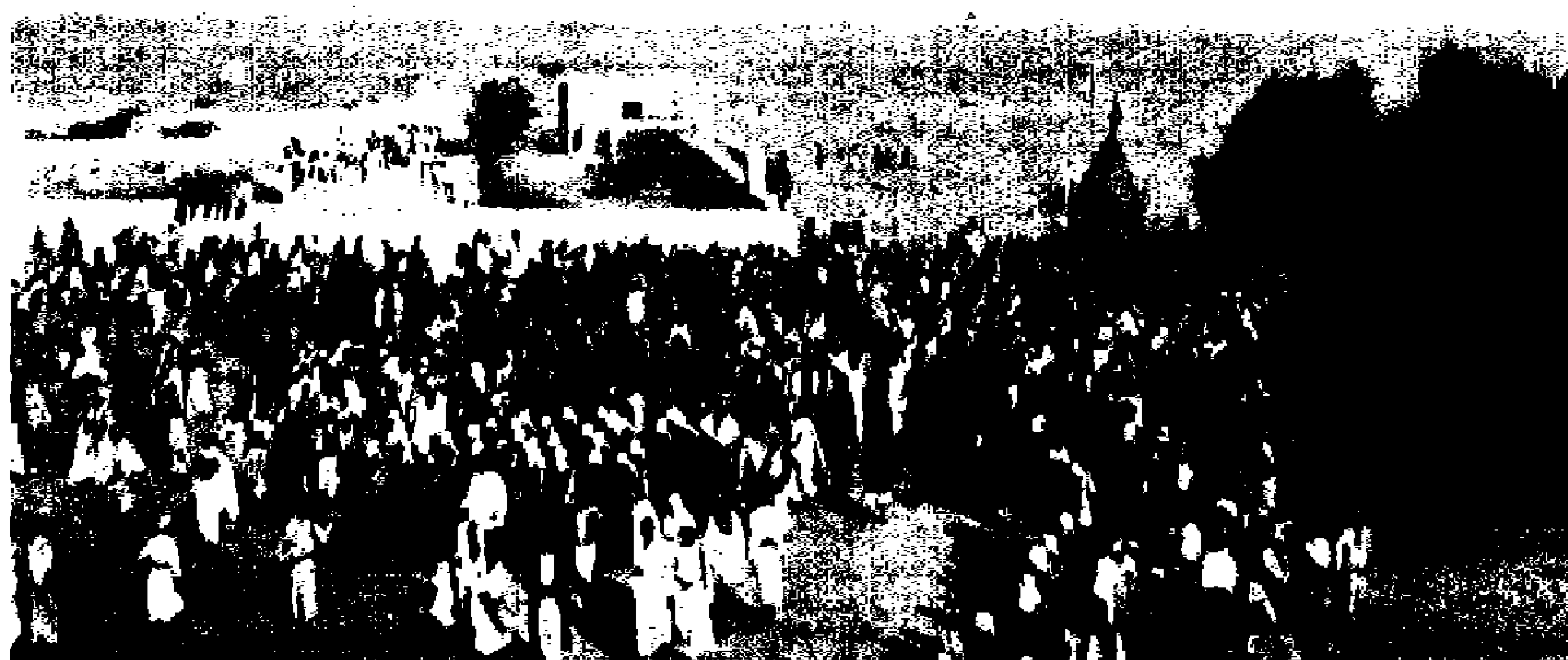
منظر ساحل جدة وبه الجمرك



11. Geddah and Customs House

احتفال أهل جدة بموكب المحمل الشريف

حقوق الطبع والتصوير محفوظة باسم اللواء إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري في سنة ١٣٢٦



12. Procession of the Mahmal at Jeddah & the (falsely ascribed) mausoleum of Hawa (Eve)

وان أخذ الرسوم يستغرق زمنا طويلا ولذلك اضطر الحجاج الى افتراش الأرض الرطبة ليلتهم حتى انتهت مهمة التحصيل التى تستنفد من كل حاج نحو خمس دقائق، وفى الباخرة ما لا يقل عن سمائة حاج — وكان خيرا من هذا أن تسلم الرسوم كلها من أمير الحج الى المحافظ دفعة واحدة وتحصل من الحجاج مع رسوم إجازات السفر من مصر كما يؤخذ مع هذه الرسوم أيضا أجرة نقل أمتعة الحجاج من الباخرة الى الساحل و يتولى الأمير دفعها الى رئيس المنجلين (الحمالين) وأرباب السفن حتى لا توجد منازعات ما بينهم و بين الحجيج، وقد كتبت الى الحكومة بهذا مقترحا تنفيذه فأجابت، ولما عينت أميرا للحج فى سنة ١٣٢٠ و بلغت جُدّة كلمت محافظها سعادة على يمنى بك أن يأذن لمرافق المحمل بالخروج من الميناء قبل دفع الرسوم وتعهدت بدفعها له مرة واحدة فأذن بذلك وكنت طبعت بطاقات بأرقام متتابعة كتب على كل منها «حاج مرافق للمحمل المصرى» وأعطى لكل حاج واحدة منها وكانت تؤخذ منه ساعة خروجه وتضم الى غيرها ودفعت الرسوم الى المحافظ بعددها بعد أن أرسل لى مأمور "الكورنتينه" الكتاب التركى الذى تراه فى (الرسم ١٠)، وبهذا تمكنا من إراحة الحج ومنع التزاحم وإنقاذهم من المكث زمنا طويلا على أرض رطبة فى جوّ رطب، وكذلك اتفقت فى هذه السنة مع أرباب السفن والمنجلين، وبهذا انقطعت المنازعات والاختلافات .

نقل الأمتعة من الساحل الى المعسكر — نقلت الأمتعة من الباخرة الى البر ووضعت فى الطريق أمام بناء الجمرك (أنظر الرسم ١١ وترى فيه أعمدة البناء فوقها قوائم الخشب بدون سقف) وأحيطت بسور من عساكرنا ثم أخذ الحمالون فى نقلها الى المعسكر بجوار القبر المكذوب على أمنا حوّاء على مسافة ميل تقريبا . ولما كان نقل المتاع على ظهورهم يستنفد يومين أو ثلاثة قصدت رئيس البلدية فى مكانه القريب منا ورجوته مساعدتنا فى نقل الأشياء الثقيلة التى منها كسوة الكعبة وساعتئذ حضر "القائمقام" خالد بك (قومندان) العساكر فرجوته

إدارة المحجر الصحي بجدّة ، مكتوب رقم ١٧٢ ، الى محافظ المحمل المصرى الشريف .

صاحب السعادة ، قضى النظام المتبع بأن يؤخذ من كل حاج يقدم الى مكة عشرة قروش للادارة الصحية ، وقد حضرت بالأمس الى جدّة باخرة النجيلة فيها ٢٨ حاجا تحت رعايتكم دفع خمسة منهم الرسوم، و ٢٣ لم يدفعوا فنرجو أخذ ٢٣٠ قرشا منهم وارسالها الينا والأمر لكم .

٢٧ ذي القعدة سنة ١٣٢٠هـ (١٢ شباط سنة ٣١٨)

أيضا فبعثا مندوبين من قبلهما للتجار أصحاب العربات، وبعد ساعة أحضروا سبع عربات صغيرة أشبه بعربات نقل الرمل عندنا ولكنها دونها فساعدتنا كثيرا، ولما جنّ الليل واقترب غلق أبواب الجمرك وخفت أن يبيت بعض الأمتعة بالميناء ويتعطل لديها قسم من العساكر لحراسته — رجوت رئيس الشرطة (الحكيمدار) فى تأخير الغلق مدة وجيزة فلبى الرجاء ووقتئذ أمرت بحمل الأشياء الخفيفة وعلف الدواب على ظهور الخيل والبغال وأمرت العساكر أن يحملوا ما استطاعوا حمله فلم تأت الساعة الثالثة ليلا إلا وقد تم نقل جميع الأمتعة الى المعسكر، ومع أن النقل كان فى الظلام الحالك والزحام بالغ أشدّه والمسافة بعيدة — لم يفقد شىء ما، وان هذا لدليل قاطع على همة الحراس بجدة وكمال يقظتهم وتنبه رجالنا، على أنه — والحمد لله — تكاد السرقات بجدة تكون معدومة مع شدة الزحام بها فى موسم الحج ولكن هذا لا يمنع من التيقظ والاحتياط "اعقلها وتوكل".

الاقامة فى جُدة

أقمنا بجدة من الساعة الثانية العربيةمن يوم الأحد ١٩ ذى القعدة سنة ١٣١٨ الى الساعة الحادية عشرة نهارا من يوم الخميس ٢٣ منه وذلك لفقدان الجمال التى تقلنا الى مكة . وقد احتفل بالمحمل فى جدّة فى اليوم الثانى احتفالا رسميا فتراصت عساكر الدولة العلية صفين متقابلين معهم الموسيقى — وكان عددهم ٤٠٠ من العساكر النظامية، و ٢٠٠ من غير النظامية — وكان ذلك خلف الجمرك وجىء بالمحمل فى الساعة الأولى العربية الى مجتمعهم يتقدمه الأمير وأمين الصرة ويحيط به حرسه وتضامّ الكل وسار المحمل بين الصفوف يجوب شوارع المدينة جريا على سنته الماضية وكان يوما مشهودا إذ كان جميع الضباط والموظفين بلباسهم الرسمى وموسيقى الدولة — وعدد رجالها ثمانون — تصدح مع موسيقانا بالأنغام الشجية، وكنت ترى الوجوه ضاحكة مستبشرة لا تقرأ عليها الا آيات الفرح والسرور واذا أضفت الى ذلك منع الزحام بفضل النظام الذى وضعه القائد خالد بك أدركت أن الناس قد

بلغ الفرح من نفوسهم مبلغا عظيما، وقد انتهت الحفلة برجوع المحمل حيث بدأ سيره بعد أن صدحت الموسيق بالسلام السلطانى فالسلام الخديوى وبعد الهتاف لها بالعز والبقاء . (أنظر الرسم ١٢) .

تبادل الزيارات بجدّة — قد زار حاكمُ جدّة الملكى وحاكمها العسكرى بملابسهما الرسمية أميرَ الحج وأمين الصرّة ورئيس الحرس كلا فى خيمته وقدّمنا لهما القهوة والشراب الحلو ورددنا لهما الزيارة فى اليوم التالى، وكذلك زار رئيس تجار جدّة سعادة عمر نصيف باشا الأمير والأمين ولم يتمكنا من ردّ الزيارة له لضيق الوقت وقد بلغنى وأنا بمكة امتعاضه من تركهما لزيارته فأخبرته بأنا رددنا له الزيارة بمحله بمكة ليُسَرِّى عن نفسه، وقد كان أهالى جدّة صغيرهم وكبيرهم يتواردون علينا عصر كل يوم لمشاهدة المحمل وسماع الموسيق والمزمار البلدى حتى مغرب الشمس، ومن بعد العشاء الى الساعة الثالثة بعد الغروب، وأيام وجود المحمل بجدة تعتبر عند أهاليها مواسم فرح وسرور وإنهم ليحبون سماع الألحان حبا جما ؛ وكأن ذلك مركوز فى طبيعتهم مفطورة عليه نفوسهم .

معارفنا بجدّة — قد تعرفنا برئيس المحكمة الأهلية ومأمور الأوقاف، وكان صلة التعارف بيننا مدير البريد والإشارات البرقية عبد الرحيم محب افندى التقى الورع الصالح الأمين الذى سبق أن تعرفنا به بسواكن منذ كان هناك مدير البرق (التلغراف) للدولة العلية وكنت بها أركان حرب فى سنة ١٨٩٦ ، وتاليتها (ورسم الثلاثة كما فى اللوحة ١٣) . وتعرفنا أيضا بالشيخ سليمان بن عبد الله البسام وكيل أمير نجد والتاجر ذى الخلق الطيب والمروءة والشهامة، وقد دعانى مع حضرة صهرى العلامة الكامل التقى الشيخ محمد طموم الى منزله فأكرمنا وأتحفنا بلذيذ حديثه وشعره وقد حضر الى مصر فى نحو سنة ١٩١٢ م وارتسمنا معا ونحن نشرب القهوة كما ترى فى (الشكل ١٤) .

مدير البوستة والتلغراف — مأمور الأوقاف ورئيس المحكمة بجدة



13. The Director of Post and Telegraph. The Director of Wakfs. The Chief of Court at Geddah.

صحيفة ٢٠

سليمان بن عبد الله البسام وأمير الحج



14. Soliman ibn Abdulla el Bassam and Amir el Hag.

وكذلك تعرفنا بالطبيب محمد حسين افندى نائب " قنصل " انجلترا للرعايا الهنود (أنظر الرسم ١٥)[(١)] .

ما يلزم الحاج بجدة — يلزمه شراء النعال المشروعة للحرم وشراء الشقادف التى توضع على ظهر الجمال ويركب عليها شخصان كل فى عِدل منها وثمن الشقدف من ١٢٠ قرشا مصريا الى ٥٠٠ قرش ، والاختلاف فى الثمن من الدقة فى الصناعة أو الزخرفة ، ولهذه الشقادف أعمدة توضع عليها الأغطية من طنافس (أبسطة) عجمية أو ملاءات مصرية أو أخيشة كتانية يشترى كل ما يناسب ثروته وثمن (الكليم) العجمى من ١٣٠ الى ٣٠٠ قرش حسب الاختلاف فى الشكل والصنعة .

وصف جدّة بشكلها الحاضر — جدة (بضم الجيم وتشديد الدال المفتوحة) بلدة كبيرة وميناء مكة العظيمة على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر واقعة على الدرجة ٣٦ والدقيقة ٥٠ من خطوط الطول الشرقية وعلى الدرجة ٢١ والدقيقة ٢٨ من خطوط

(١) لما كان لهذا الطبيب مآثر جمة على الهنود الذين يحجون الى البيت الحرام رأينا أن نذكر فى رحلتنا كلمة عن حياته إنصافا للعاملين وتخليدا لذكرى المخلصين فنقول : هو محمد حسين ابن الشيخ عبد الله الطبيب الذى تنتهى سلسلة نسبه الى سيدنا أبى بكر الصديق ولد بمدينة " الله آباد " فى سنة ١٨٦٣ وتلقى علومه الأولية بين أسرته ، وحفظ القرآن وتعلم اللغة الأُردية والفارسية والانجليزية وبرع فى ثلاثتها ونال درجة فى علم الطب والجراحة من كلية بنجاب فى سنة ١٨٩٠ وعين مساعد جراحة فى الحكومة الهندية وأدار عدة مستشفيات ثم عين نائبا لقنصل بريطانيا بجدة فأزال ما كان من سوء التفاهم بين البدو والقناصل ومنحته حكومة الهند لقب " خان بهادر " سنة ١٨٩٨ ومن حسن سياسته اكتسب رضا عون الرفيق باشا أمير مكة وأحمد باشا راتب واليها ، ولكنهما نقما عليه لما أن غرمهما ١٠٠٠٠ جنيه انجليزى عوضا عن السرقات التى حلت بحجاج الهنود وعن الخسارة التى لحقت التجارة الهندية ولكن ما لبث أن استمالها نحوه حتى كان طبيب الشريف من داء السُّكَّر الذى أصابه فى مرضه الأخير، وقد طاف أنحاء أوربا خمس مرات وكل جهات آسيا عدا التبت والأفغانستان وبعض بلاد الغربيين وطاف فى بعض جهات أفريقيا ، وقد برح جُدّة فى ابريل سنة ١٩٠٩ لاعتلال صحته فكث بانجلترا سنة وبمصر أخرى ثم استقال فى سنة ١٩١١ وأقام فى (بالله آباد) منشئه وأسس فيها مدبغا على الطراز الحديث كلفه ما ينوف على ٢٠ ألف جنيه — ملخص عن كتاب بعث به إلينا فى ٢٥ مارس سنة ١٩١٤

العرض الشمالية يحيط بها سور ذو خمسة أضلاع يقطعها راكب الحصان بالسير المعتاد فى٤٥ دقيقة وآرتفاع السور ٤ أمتار وبه تسعة أبواب، ستة فى الجهة البحرية وثلاثة فى الجهات الأخرى وأول من بناه السلطان الغورى من ملوك مصر فى سنة٩١٥هـ.

وبها حوالى ٣٣٠٠ منزل مبنية بالحجر الأبيض المستخرج من البحر، ويتكوّن المنزل من طبقتين الى خمس — والوجهات الامامية من البيوت بها الرواشن [الخارجات المسقوفة] المصنوعة من الخشب الهندى الأحمر المخروط (الرسم ١٦). والبيوت العالية ذات الموقع الجميل والمنظر البهيج يسكنها أكابر البلد ووكلاء الدول التجاريون (القناصل) من روس وإنجليز وفرنسيين ونمساويين وإسوجيين ونروجيين، ومن أفخم بيوتها بيت السيد عمر السقاف الشريف السرى (الرسم ١٧). ومنزل المحافظ الذى تراه (فى الرسم ١٨) وانه لآية فى الإبداع وبه حديقة غناء. وبجدّة محل للحكومة وثكنات للعساكر (الرسم ١٩). ومكتب للإشارات البرقية وبناء فخم للمجلس البلدى والحجر الصحى (الرسم ٩ السابق) كما تجد بالساحل بناء الجمرك (فى الرسم ١١ السابق). وبها خمسة جوامع وثلاثون مسجدا مفروشة بالحصر الناعمة الجميلة النظيفة إلا أنها تكون مبللة عند رطوبة الجو وهى مرتفعة عن مستوى الشوارع بنحو ثلاثة أمتار، يصعد إليها بدرج منتظم من الحجر وليس بها بيوت خلاء ولا ميضآت، وبها حمام واحد ونزلان (لوكاندتان) وأربعون قهوة وصيدلية ومكتب تعليم راق وتسعة للصبيان ومستشفى ومصنع للجير ومذبح وأربعون مخزنا تجاريا وتسعمائة دكان وآلة بخارية لطحن الحبوب وسبع وأربعون طاحونة ومثلها مخابز وعشرة مطابخ وسوق لبيع السمك وآخر للصدف ومكاتب للبريد وبها جبانة قريبة من ثكنات العسكر، يحيط بها سور يبلغ طول ضلعه الشمالية ١٦٠ مترا، وفى وسط الجبانة قبر أمنا حواء (المكذوب) طوله نحو ١٥٠ مترا وعرضه أربعة أمتار وآرتفاعه متر، عليه ثلاث قباب على الرأس والسرة والرجلين كما يزعمون (الرسم ٢٠).

وبجانبه كثير من الشحاذات يلتمسن الصدقات على خرق بسطنها أمامهن.



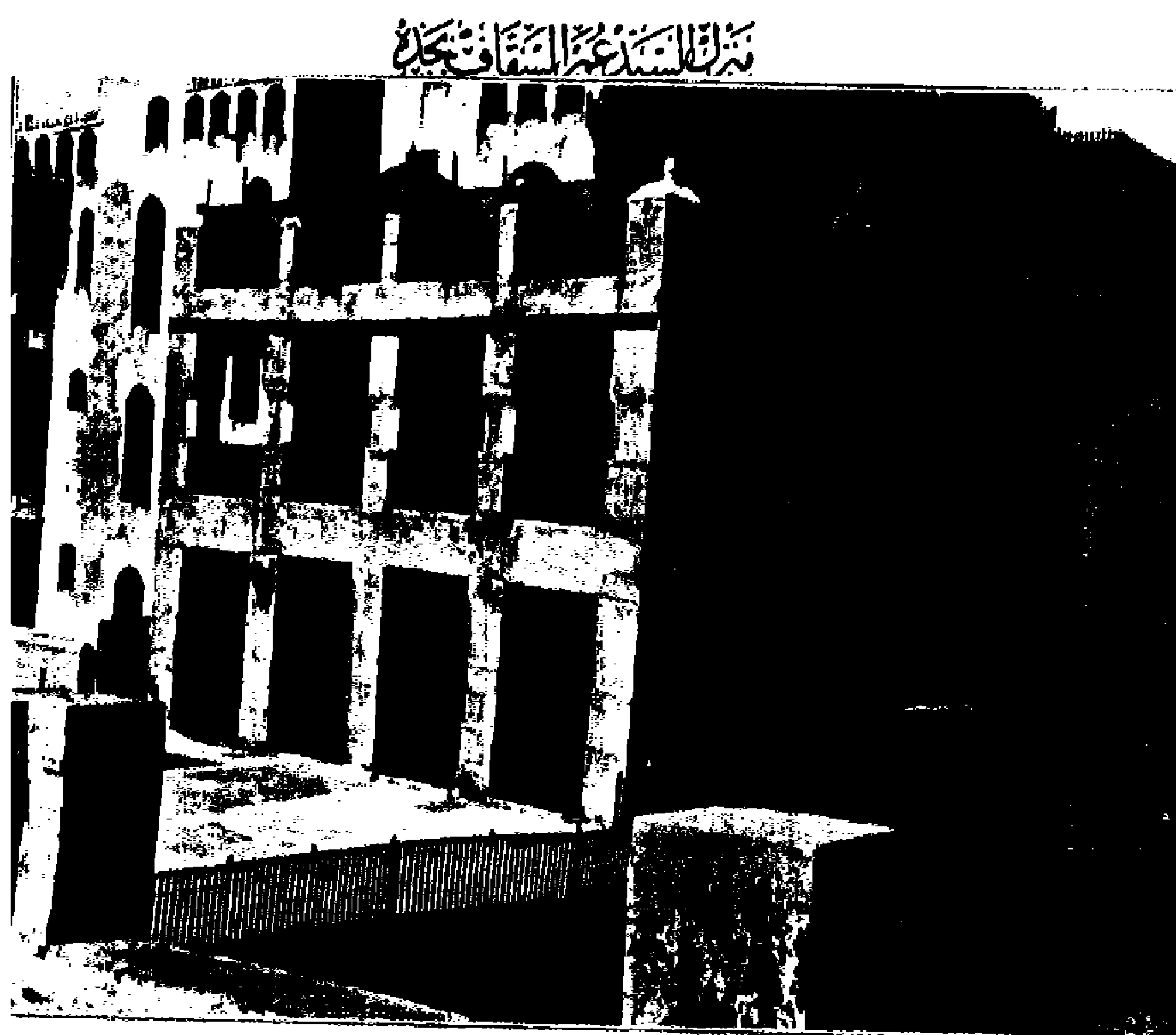
10. Doctor Mohammed Hussein, the British Vice-Consulat Geddah.

رسم منازل جدة المشيدة الرفيعة



16. Geddah with its splendid buildings and magnificent houses.

منزل السيد عمر السقاف بجدة



17. The house of El Sayed Omar el Sakaf in Gedda.

صحيفة ٢٢

سراي نائب الوالي بجدة



18. Palace of the Deputy Waly at Geddah.

﴿ قشلاق العساكر الشاهانيه بجده ﴾



19. A view of the Turkish Barracks at Gedda.

قبة امنا حواء بجدة



حقوق الطبع والنسخ محفوظة باسم ميرلواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري محرم سنة ١٣٢٦

20. The view of Hawa (our mother) in Gedda in 1321.

وشوارعها مختلفة السعة من ٨ أمتار الى ١٥ مترا وحاراتها ضيقة وغير منتظمة. وبجدّة مجارٍ لتصريف مياه المطر الى البحر كما بها ٨٠٠ صهريج داخل البلد وخارجها ــ معدّة لخزن مياه المطر وبيعها فى موسم الحج ولكنها الآن معطلة إذ ترد المياه الى جدّة من عين تبعد عنها مسيرة ساعتين ونصف وتسير فى مجار مبنية تحت الأرض حفرها المصلح عثمان نورى باشا والى مكة سابقا، وخارج البلد أيضا آبار محفورة وأنابيب فى الأرض مركوزة تخرج منها المياه بالآلات الماصة (آبار ارتوازية) وبعض المياه عذب وبعضها به يسير الملوحة .

والمحمل يستورد مياه الشرب من أعذب الآبار بواسطة سقائين من جدّة يتقاضون أجرة وبقرب معسكره صهاريج مفعمة بالمياه يؤخذ منها عند الحاجة . وبالمدينة مجلس بلدى أعضاؤه من الأهالى ومجلس للأحكام وقاض شرعى . وجميع الأهالى مغرمون بشرب التبغ و(التنباك) والشاى والقهوة وبها كثير من الصبار يوضع على القبور استرحاما للموتى .

سكان جدّة — أهالى جدّة خليط من أجناس شتى مكيين ويمنيين وحضرميين (من حضرموت) وهنود وترك وشوام ومصريين وقصيريين (من القصير) وعددهم حوالى ٢٥ ألف نسمة ويبلغ من فيها فى موسم الحج خمسين ألفا الى ستين ويمر بها من الحجاج كل عام نحو ١٢٠ ألف حاج .

تجارتها — جدة مرفأ مكة التجارى بل هى مرفأ الحجاز المهم لذلك ترى ميناءها مملوءا بالسفن التجارية كما تراه (فى الرسم ٨ السابق) .

ويرجع اتخاذها مرفأ تجاريا لمكة الى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه فانه فى سنة ٢٦هـ اعتمر من المدينة وأتى مكة فسأله أهلها أن ينقل ساحل مكة القديم من الشعيبية (جنوبى جدّة الآن) الى جدّة لقربها من مكة، فخرج بنفسه الى جدة ورآها واغتسل من البحر وقال: إنه مبارك وقال لمن معه: ادخلوا البحر مغتسلين[1]

(١) فليس الاستحمام فى البحر الملح ومعرفة فوائده من مبتكرات أوربا وانما سبقهم الى ذلك ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ولتكونوا مؤتزرين، ومن ذلك الوقت استمرت جدّة ميناء مكة الى اليوم،وتأتى اليها التجارة من مصر وسواكن وزنجبار والصومال والهنـد وجاوة والروملى والأناضول وسوريا وبلاد المغرب والعراق والبحرين ومسقط واليمن وأوربا وآسيا وغيرها،ومن أصناف التجارة البن والصمغ العربى وأنواع الروائح وريش النعام واللؤلؤ والصدف والمرجان ودهن البلسان ودهن الورد ، وترد اليها الحنطة والأرز والصابون والسكر من مصر وسن الفيل والأرز الهندى وعدد الجمال من الهند،وقد بلغت رسوم الواردات فى سنة ١٣٠٢هـ ٦٣٧٩١٦ قرش عثمانى و٣٦ باره .

السفر من جدّه الى مكة

قبل المغرب بساعة من يوم ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣١٨ (١٤مارس سنة ١٩٠١) تحرك ركب المحمل من جدّة ميمما مكة وقد حيته فرقة من الجند العثمانى برآسة « القائمقام » خالد بك وشيعه أهل جُدّة الى أبعد من ميل ، وقد جدّ بنا السير حتى بلغنا بَحْرة لتمام الساعة العاشرة العربية ليلا وبتنا بها على مقربة من قلعتها التى يرابط بها بعض الجنود ، وفى منتصف الساعة التاسعة من يوم ٢٤ تابع المحمل سيره الى أن وصلنا الى قهوة البوغاز أو البستان فى الساعة السابعة ليلا فاسترحنا بها الى منتصف الساعة الثانية عشرة ثم ارتحلنا فوصلنا مكة لتمام الساعة الأولى من صباح يوم ٢٥ ذى القعدة .

والطريق بين جدّة ومكة واد رملى إلا فى موضعين منه حيث يوجد حصا صغير الحجم وكبيره ولكن ذلك لايشغل من الطريق إلا حوالى نصف ميل، وقبيل مكة بنحو أربعة أميال تجد مدرجا حجريا مرتفعا قليلا ثم بعده يستوى الطريق وإن كان حجريا تكثر فيه التعريجات حتى يخيل الى الرائى أن الطريق سدّ لاقتراب الجبال المواجهة وهو صالح لمدّ القضبان الحديدية به والوادى يحفه من الجانبين الجبال والتلال المتشابهة الضارب لونها الى السواد والنابتـة فيها الأشجار وهى تارة تتقارب فيضيق الوادى وتارة تتباعد فيتسع، وبالطريق بضع عشرة قهوة لراحة الحجاج وتقديم الشاى

والقهوة لهم ، وبه جملة قلاع ذات اليمين وذات الشمال يقيم بها جنود أتراك ، وبه أماكن أخرى يقطنها عساكر الشريف غير النظامية وهؤلاء الحراس وجدوا للمحافظة على الأمن بالطريق ولكنهم كما سمعت لا يفارقون أماكنهم لرد الغارات والضرب على أيدى اللصوص وقطاع الطريق ولو كان ذلك بمرآى منهم ومسمع إلا اذا أمرهم الوالى وأين هو منهم. وكثيرا ما سلب الحجاج أمتعتهم إذا تأخروا عن القافلة لإصلاح الأحمال أو قضاء بعض الضرورات، واذا ما سئل هؤلاء الحراس لماذا لا تقومون بالواجب قالوا (أمر يوك) أى ليس عندنا أمر — فما أقبح العذر . وقد كانت العساكر تؤدّى للمحمل التحية العسكرية عند مروره بها وتنير له الطريق بحرق كومات من الأخشاب تباعا وضعت فوق آكام مرتفعة وجمعت لهذا الغرض وكنا نسير على ضوئها نحو ألف متر .

وقد رأينا أن نصف لك بالتفصيل الطريق من مكة الى جدّة وما فيه من القلاع والقهاوى والانحراف والاستقامة حسب ما جاء فى رحلة سنة ١٣٢٠ إذ هو أوفى وأبين فنقول :

فى يوم الجمعة ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٢٠ فى الساعة الثانية العربية نهارا بدأنا السير من جدّة على أرض سهلة بين نشوز رملية ناحين نحو الجنوب الشرقى على ١١٠° مدّة ٢٠ دقيقة و إذ ذاك تباعدت التلال واتسع الوادى وما زال السفر يجد بنا الى أن وصلنا الى « رأس القائم » فى س ٥ وق ٢٥ وهنالك وجدنا مخفرا به جملة عساكر نظامية مع بعض الضباط كما وجدنا قهوة يباع بها الشاى والقهوة فى زمن الحج، كسائر القهاوى التى على هذا الطريق وتابعنا السير فوصلنا الى «الرغامة» بعد س ٦. وهنالك على نشز من الأرض قلعة بها بعض الجنود وقهوة، وقد وقفنا بالرغامة لحظة قدّم لنا فيها الماء البارد تحية مباركة ، ومن هذه القلعة تغير اتجاهنا فسرنا مشرقين على ٩٠° وإذ ذاك أخذت الجبال تقترب منا تارة وتبتعد أخرى فيضيق الوادى ويتسع مابين ١٨٠ مترا الى ٣٦٠ بالتقريب ثم تغير الاتجاه الى الجنوب الشرقى فسرنا على ١١٠° الى أن وصلنا الى موضع يدعى « جرادة » فى س ٧ وق ٤٥.

و به قهوة متسعة مبنية بالحجر ومسقوفة، وعلى نحو ١٠٠ متر منها يوجد بئران ماؤهما فيه شيء من الملوحة — سقينا منهما الخيل والبغال وآسترحنا ٥٥ ق وواصلنا السير فى س ٨ و ق ٤٠، وعلى نحو ١٠٠٠ متر وجدنا على اليسار «قلعة الكتّانة» على مرتفع من الأرض كسائر القلاع فى الطريق وبها ضابط وعشرون جنديا، ومن هذه القلعة كانت الأرض محصبة مسافة ميل بالتقريب . وفى الساعة ٩ والدقيقة ٢٠ تغير اتجاهنا الى الشمال الشرقى فسرنا على ٧٥° ووصلنا الى « قلعة الكتّانة » الثانية فى س ٩ و ق ٣٠ وبها ضابطان وخمسون جنديا والماء بعيد عنها بمسافة تستغرق ساعة ونصفا بل الماء بعيد عن كل القلاع إلا ما ندر و يوجد بها قهوة، ومن هذه القلعة تغير اتجاهنا الى الجنوب الشرقى على ١٤٠° ولتمام الساعة العاشرة مررنا ببرج «القلعة البيضاء» وهو على اليسار به رئيس العشرين (جاويش) و ٢٥ جنديا وفى س ١٠ و ق ١٠ آجتزنا برجا صغيرا على اليمين به بعض العساكر، وفى س ١٠ و ق ٤٥ وصلنا الى « قلعة العبد أو قلعة سالم » وهى على اليمين وبها أربعون جنديا وقهوة وعلى مقربة منها بئر تسمى بئر البجادية ، ومن هذه القلعة آنفسح الوادى وتغير الاتجاه الى ١٠٠° وقد وصلنا الى قلعة « الثديين » س ١١ و ق ٣٠ وبها ١٥ جنديا و «جاويش» وهى على اليسار على أكمة مرتفعة وهناك الأراضى رملية صالحة للزراعة وفيها مراعى ومن هذه القلعة تغير الاتجاه الى ٧٠° وبلغنا قرية «بحرة» فى س ١٢ أى وقت المغرب وإذ ذاك أخذت منظر المعسكر كما تراه (فى الرسم ٢١) . وبحرة وتسمى بحرة الرُّغاء على يسار الميمم مكة وبها أكواخ حقيرة وحظائر للابل وقهاوى ومسجد صغير بمئذنة بنى أصله النبى صلى الله عليه وسلم منصرفه من غزوة الطائف سنة ثمان وصلى فيه كما جاء فى سيرة آبن هشام وفيها عقب ذلك . قال ابن اسحاق : فحدّثنى عمرو آبن شعيب أنه أقاد يومئذ ببحرة الرغاء حين نزلها بدم، وهو أوّل دم أقيد به فى الاسلام رجل من بنى ليث قتل رجلا من هذيل فقتله به . اهـ . ولكن فى زاد المعاد فى هدى خير العباد فى غزوة الطائف ما يأتى :

منظر ركب المحمل بمحطة بحرة

امير الحج محرم وجالس فوق اجولة البقسماط وعلى يساره الضوئى حاملا الآلة الفتوغرافية جاثا على ركبتيه والواقفون الحرس



21. The Mahmal at Bahrah, the first station between Geddah and Mecca

منظر محطة بحره وبها مسجد صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم

البناء المرتفع قلعة بحره وهى اكبر القلاع واقواها قوة بين جده ومكه وهى على يمين الناظر الى الرسم وما بأسفله زريبة من عيدان الاشجار



22. Bahrah and mosque where the Prophet Mohammed prayed

صحيفة ٢٧

منظر هدة وبه مسجد قديم

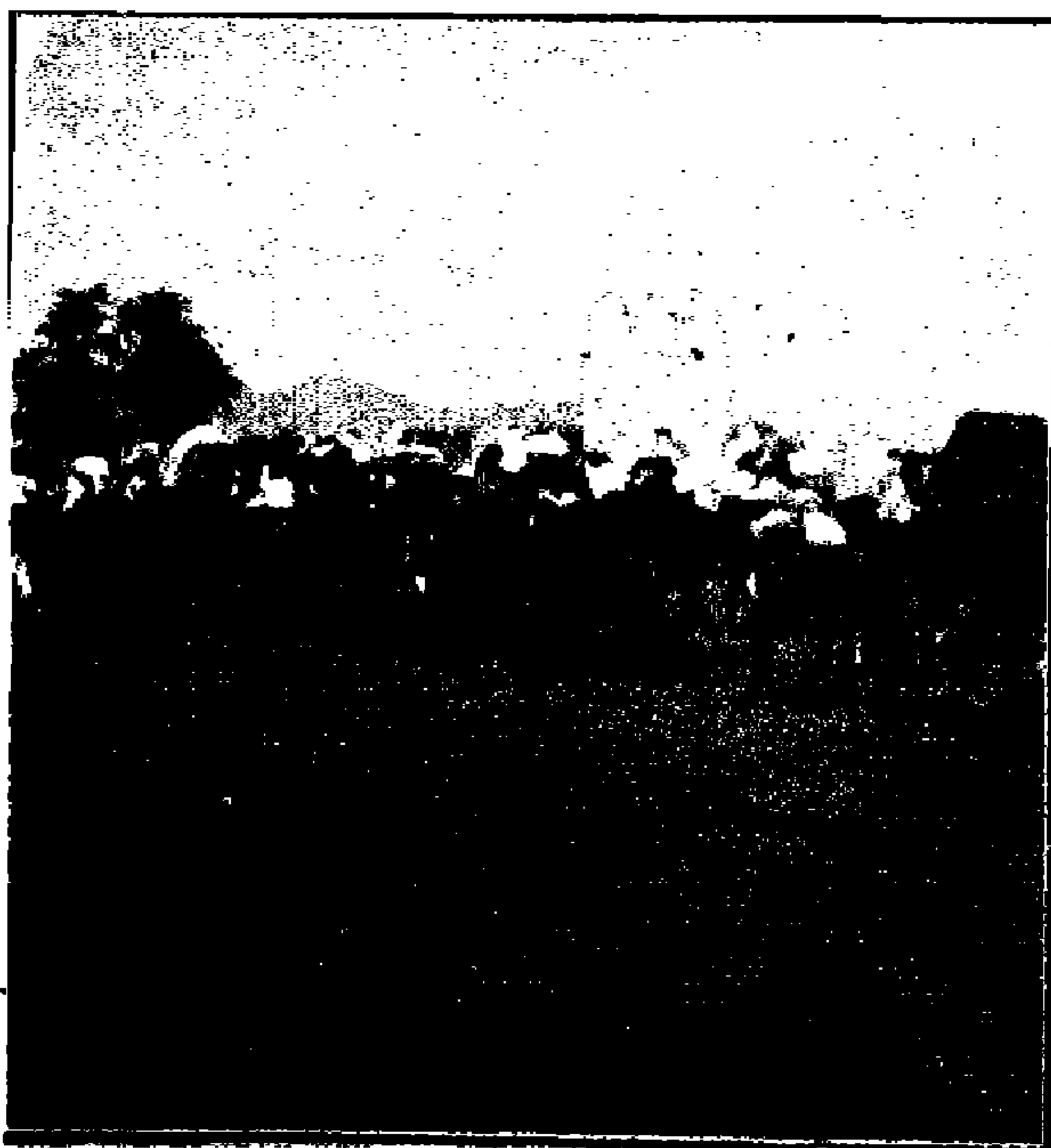
امير الحج محرم وخلفه مظلة بيضاء والشجر الاسود شجر الحرمل



23. Heddah and an old Mosque.

صحيفة ٢٨

العلمين بالشميسى بالقرب من الحديبية



25. Two landmarks at the outskirts of the Haram at Shumaisi.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف الى الجِعْرانة ثم دخل منها محرما بعمرة فقضى عمرته ثم رجع الى المدينة . اه .

والطائف فى الجنوب الشرقى لمكة والجعرانة بينهما لكنها أقرب الى مكة فكيف يتفق مع ذلك أنه مرّ بحرة منصرفه من غزوة الطائف مع أنها غربى مكة ولا تقل المسافة بينهما عن ثلاثين ميلا، و بين الجعرانة ومكة حوالى عشرة أميال، إنا لذلك نقف موقف الشك فيما رواه ابن هشام ونقله عنه كثير من المؤرخين حتى يأتينا اليقين. ويتفرع من بحرة طريق آخر الى مكة يسير نحو الجنوب الشرقى و يقول الخبيرون : إنه أقرب اليها وأسهل من طريقنا لقلة التعاريج به . و ببحرة جملة قهاو وقد بتنا بها ليلة السبت غرة ذى الحجة سنة ١٣٢٠ وارتحلنا منها فى س ١٢ آخر الليل ورأينا على يسارنا قلعة بحرة على نحو ميل من القرية وهى أكبر القلاع وأمتنها وبها ثلاثة ضباط و ١٠٠ جندى، ولتمام الساعة الثانية العربية نهارا مررنا «ببئر أم القرون» وهى على اليسار مبنية بالحجارة وعمقها ١٠ أمتار لها أربعة أعمدة تدور عليها أقطاب البكر التى ترفع بها الدلاء، وماء هذه البئر عذب فرات، وفى منتصف الساعة الثالثة وصلنا «حدّة»(١) (بالحاء المهملة) وهى بلدة صغيرة على اليسار بها حصن ومسجد ذو مئذنة وعين ماء حلوة و بئران على يسار الطريق و بها نحو ٦٠٠ نخلة يملكها عون الرفيق باشا شريف مكة كما قيل لنا، ورسم حدّة تراه فى (الشكل ٢٣) وفيه تجد بالأرض شجر الحرمل وأشجارا أخرى صغيرة مختلفة الأجناس وترى أمير الحج جالسا على مقربة من شمسية ألقت بها الرياح . وكان المحمل يبيت أولا بحدّة ثم عدل عنها الى بحرة لما أن تعدّى أهلها عليه . وفى ختام الساعة الرابعة مررنا ببرجين على اليمين فوق جبل هنالك بينهما نحو ٣٠٠ متر وبهما ضابط و ٤٠ عسكريا ، والقوة بالبرجين مؤقتة تحضر وقت مرور القوافل فقط ثم ترجع الى مستقرّها بقلعة الشميسى ومن هذين البرجين تغير الاتجاه الى ١٤٥° وضاق الطريق وعند الساعة الرابعة والثلث بلغنا قلعة الشميسى وهى شامخة البناء وبها

(١) ويسمونها قديما حداء — قال أبو جُندَب الهذلى :

بغيتّهم ما بين حداء والحشا * وأوردتهم ماء الاثيل فعاصما

ضابطان و ٥٠ جنديا ، والطريق لديها متسع وسهل غير أن الجبال اليمنى قريبة منه وإن كانت تنأى بعد ذلك ، و بقرب القلعة قهوة و بعض أكواخ و بالشميسى مسجد يسمى (مسجد الشميسى أو مسجد البيعة) وهو على اليسار مربع الشكل طول ضلعه ١٥ مترا ومبنى بالحجر الأزرق بنـاء متينا ومجصص و به ثلاثة أروقة (بواكى) وقبلته مكتوب فيها : هذا مسجد بيعة الرضوان مأثرة من مآثر حبيب المنان عمره المليك الى رحمة الرحمن : المغفور له السلطان محمود خان سنة ١٢٥٤ هـ . وهذا المسجد موضع الشجرة التى بايع عندها الناس رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بيعة الرضـوان عام الحديبية وأنزل الله تعالى فى تلك البيعة (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) و بالشميسى بئر عمقها ١٠ أمتار بالتقريب مبنية بالحجر وماؤها مقبول . ومنها تغير الاتجاه الى ١١٠° وفى الساعة الخامسة نهارا وصلنا الى العلمين ومنهما يبتدئ الحرم من الجهة الغربيـة وهما عمودان مبنيان بالحجر ومجصصان مربعا الشكل سمك كل منهما متر وآرتفاعه أربعة أمتار و بين العلمين مسافة ٥٠ مترا وبجوار العلم الشمالى بئر مبنية بالحجر سمك حائطها ١,١٠ متر وقطرها أربعة أمتار وعمقها نحو ١٥ مترا و بجوارها مشرب (سبيل) مبنى بالحجر بناء متينا ومكتوب عليه أبيات باللغة التركية بخط جميل وتاريخ بنائه سنة ١٢٦٣ و بجانبه شجرة من السدر (النبق)، و يجاور العلمين تلال رملية وتجد (فى الرسم ٢٤) أمير الحج مرتديا لباس الإحرام على يمينه مسجد الحديبية وتجد فى الرسم ٢٥ أحد العلمين واضحا تمـام الوضوح . وفى الساعة السادسة رأينا الجبال تتدانى وتغير الاتجاه الى ٧٥° أى الى الشمال الشرقى ، و بعـد ثلث ساعة وصلنا الى قهوة العبد (أو البزم أو سالم أو البوغاز) وآسترحنا بها ثلثى الساعة ثم سرنا وتغير اتجاهنا عند الساعة ٨ الى ٩٠° ومررنا بعد ١٠ دقائق «بقلعة المقتلة» وهى على اليمين بهـا حراس نظاميون وتحتها بئر مطوية بالحجر وعمقها حوالى ٢٠ مترا وعليها دعامتان لوضع محور البكرة عليهما ، ولهـا ثلاث درجات يقف عليها من يخرج المـاء منها وماؤها عذب غزير، وعند س ٨ و ق ٢٥ تغير الاتجاه الى ٥٠°

رسم يمثل ركب المحمل وأمير الحج بملابس الإحرام



24. The Mahmal and the Director of the Pilgrimage caravan in his Ihram dress.

وبعد ثلث ساعة تغير الى ٧٠° ، وفى س ٩ مررنا بقلعة (أم الدود) على يميننا وأمامها بئر كسابقتها . وعند الساعة ٩ و ق ١٠ تغير الاتجاه الى ٩٠° وأدركنا «قهوة البستان» فى س ٩ و ق ٢٥ ولديها شجرة سدر . وبعد ربع ساعة مررنا ببلدة الشريف حسين على يميننا وإذ ذاك أخذ الاتجاه ١٣٥° وبعد خمس دقائق اجتزنا بيت السيد بن اسحاق شيخ السادة سابقا وهو على اليسار يبعد عن جادّة الطريق حوالى ١٤٠ مترا ومن خلفه بمائة متر قبور الشهداء ، وفيها قبر عبد الله بن عمر الفقيه الكبير والمحدّث الجليل والأثرى العظيم رضى الله عنه وعن أبيه أمير المؤمنين ولكن فى كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة أن عبد الله بن عمر دفن بالمحصب ، وقيل : بذى طوى ، وقيل : بفخ ، وقيل : بسرف ؛ وفى كتاب شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام للتقى الفاسى أنه دفن فى مقبرة صديقه عبد الله بن خالد بن أسد عند ثَنِيَّة أذاخر وهى فى الطرف الشرقى للمحصب ، وذلك حسب وصيته لصديقه وكل هذه الأماكن بعيدة عن مقبرة الشهداء التى زعموا أنه دفن فيها . وعند س ١٠ أخذ الاتجاه ٩٠° ودخلنا مضيقا يسع قطارين أو ثلاثة من الجمال قطعناه فى دقيقة ثم انفرج الطريق . وفى س ١٠ و ق ١٥ أخذ الاتجاه ١٥٠° مسافة قليلة وأدركنا « قهوة المعلم » ولديها وقف الركب أمام المضيفة « المسافرخانة » التى بناها السلطان عبد الحميد للفقراء وتبعد عن مكة بنحو ميل . ومن هنا نرجع بك الى حج سنة ١٣١٨

قلنا فيما سبق : أن المحمل وصل الى المضيفة فى الساعة ١ صباحا من يوم ٢٥ ذى العقدة سنة ١٣١٨ وهناك وجدنا المطوفين ينتظروننا وقدّموا لنا هدايا من البطيخ والرمان وماء زمزم ، فأكلنا وشربنا حامدين الله شاكرين ووجدنا على مقربة من المضيفة مندوبين من قبل الشريف والوالى أحدهما ضابط والآخر ملكى حضرا لتهنئة الأمير وركبه بالقدوم من السفر وكان يصحبهما شرذمة من الجنود ، وقد تحرّك المحمل من هذا المكان بعد أن خلع لباس السفر وارتدى حلته القصبية يتقدّمه ثلة من الفرسان والموسيقى والمزمار البلدى يطربان بنغمهما الحضور والمستقبلين الى أن

وصل الى مقامه المعتاد بجهة جرول أو الشيخ محمود المجاور لحديقة عون الرفيق باشا، وهنالك نصبت الخيام بعد إزالة ما بالأرض من حجر ومدر وعرف كل مكانه وعين الجنود الذين يقومون بالحراسة .

دخول مكة

بعد أن ألقينا عصا التسيار بجهة جرول غربى مكة واتخذنا منها مقاما محمودا أمنا فيه على أمتعتنا هممنا بدخول مكة لأداء طواف القدوم تحية البيت الحرام فاغتسلنا جميعا من بئر ذى طوى اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فانه نزل فى حجة الوداع بذى طوى المعروفة بآبار الزاهر وبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة سنة ١٠ وصلى بها الصبح ثم اغتسل من يومه ونهض الى مكة كما سيأتى ان شاء الله تعالى فى سياق حجته (أنظر المعسكر فى الرسم ٢٦) ترى به سطح المكان القائم على البئر، وبعد اغتسالنا دخلنا مكة من الطريق المعروف بطريق الحجون(١) وهو طريق ثنية كَدَاء التى دخل منها النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع (أنظر الثنية فى الرسم ٢٧) والثنية كما تراها فى الرسم طريق حجرى مرتفع الوسط فى شمال مكة واقع بين جبلين على كل منهما برج بناه الشريف غالب فى سنة ١٢١٤ اتقاء لسعود بن عبد العزيز الوهابى الذى جاء للحج فى تلك السنة ومعه من قومه أمثال الرمال ومن الثنية يهبط المرء الى المعلاة مقبرة أهل مكة ويشقها الطريق شقين عن اليمين وعن الشمال ويحيط بالمقبرة سور قديم مبنى بالحجارة وبها قبور كثير من الصحابة، وبالشق الأيسر قبة شاهقة

(١) قد جاء فى كتاب منتخب شفاء الغرام طبع أوربا أنه فى سنة ٨١١ سهل بعض المجاورين موضعا مستصعبا فى رأس الطريق وسهل أيضا بعض مجاورى مكة فى النصف الثانى من سنة ٨١٧ طريقا فى هذه الثنية غير الطريق المعتادة بل على يسار الهابط منها الى المقبرة والأبطح كانت ضيقة جدا فنحت ما يليها من الجبل بالمعاول حتى اتسعت فصارت تسع أربع قطائر من الجمال المحملة وكانت قبل ذلك لاتسع إلا واحدة وسهلت أرضها بتراب ألقى فيها حتى استوت ورغب الناس فى سلوكها عن الطريق المعتادة وجعل بينهما حاجز من الحجارة المرصوصة ثم جعل سودون المحمدى رئيس العمائر بالمسجد الحرام سنة ٨٣٧ هذين الطريقين طريقا واحدا فردم الطريق الجديدة المنخفضة عن القديمة بنحو قامة حتى سوّاها بالأولى وجعلهما طريقا واحدا يسع عدة قطائر، والحَجون هو الجبل الذى فيه الثنية وهو المذكور فى شعر مضاض بن عمرو الجرهمى .

بئر طوى بالشيخ محمود



حقوق الطبع والتصوير محفوظة باسم اللواء إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري

26. A view of the well of Towa in El Shaikh Mahmoud in 1325.

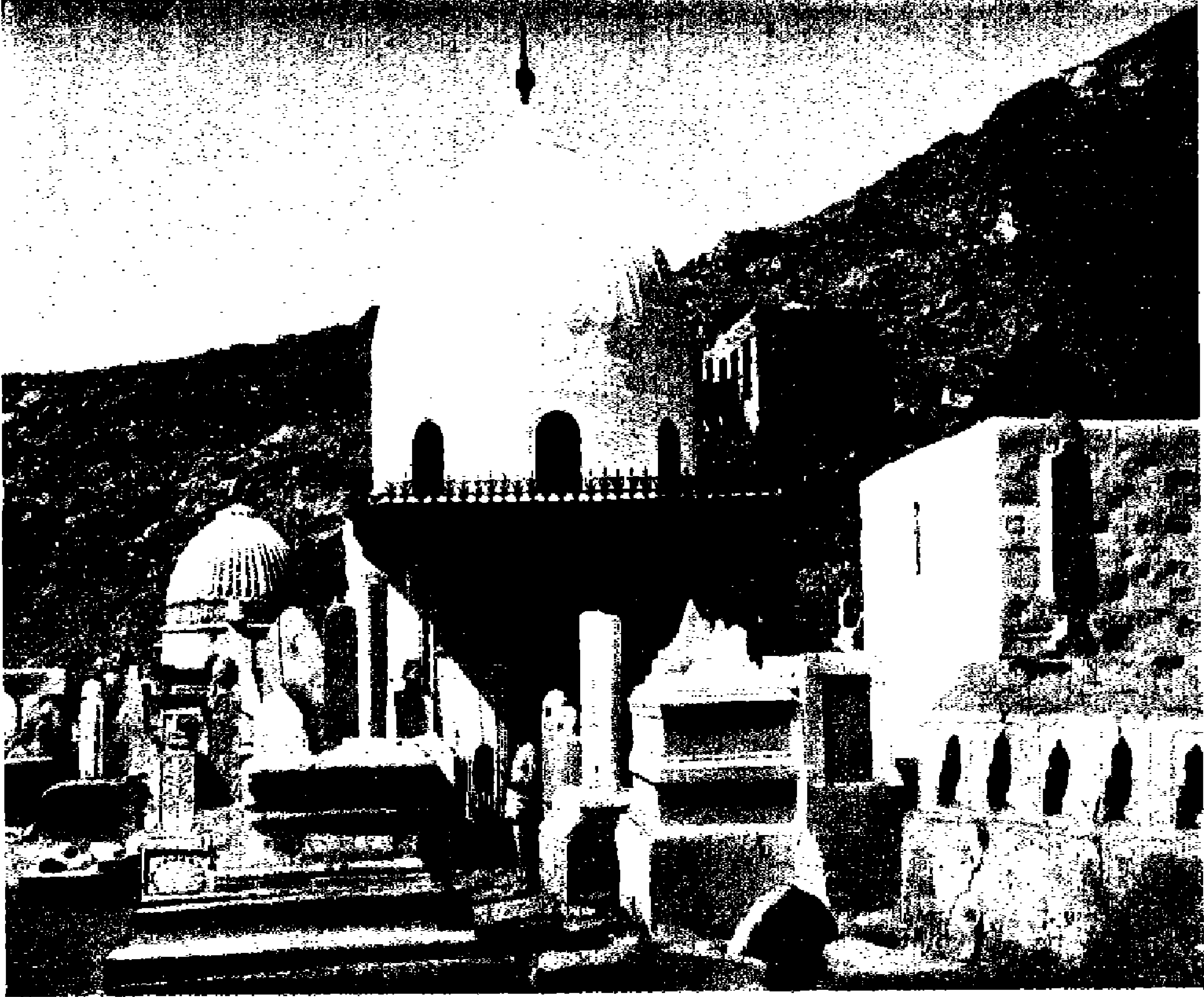
طريق ثنية كداء الذي مشى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ودخل مكة في حجة الوداع سنة ١٠



حقوق الطبع والتصوير محفوظة باسم اللواء إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري

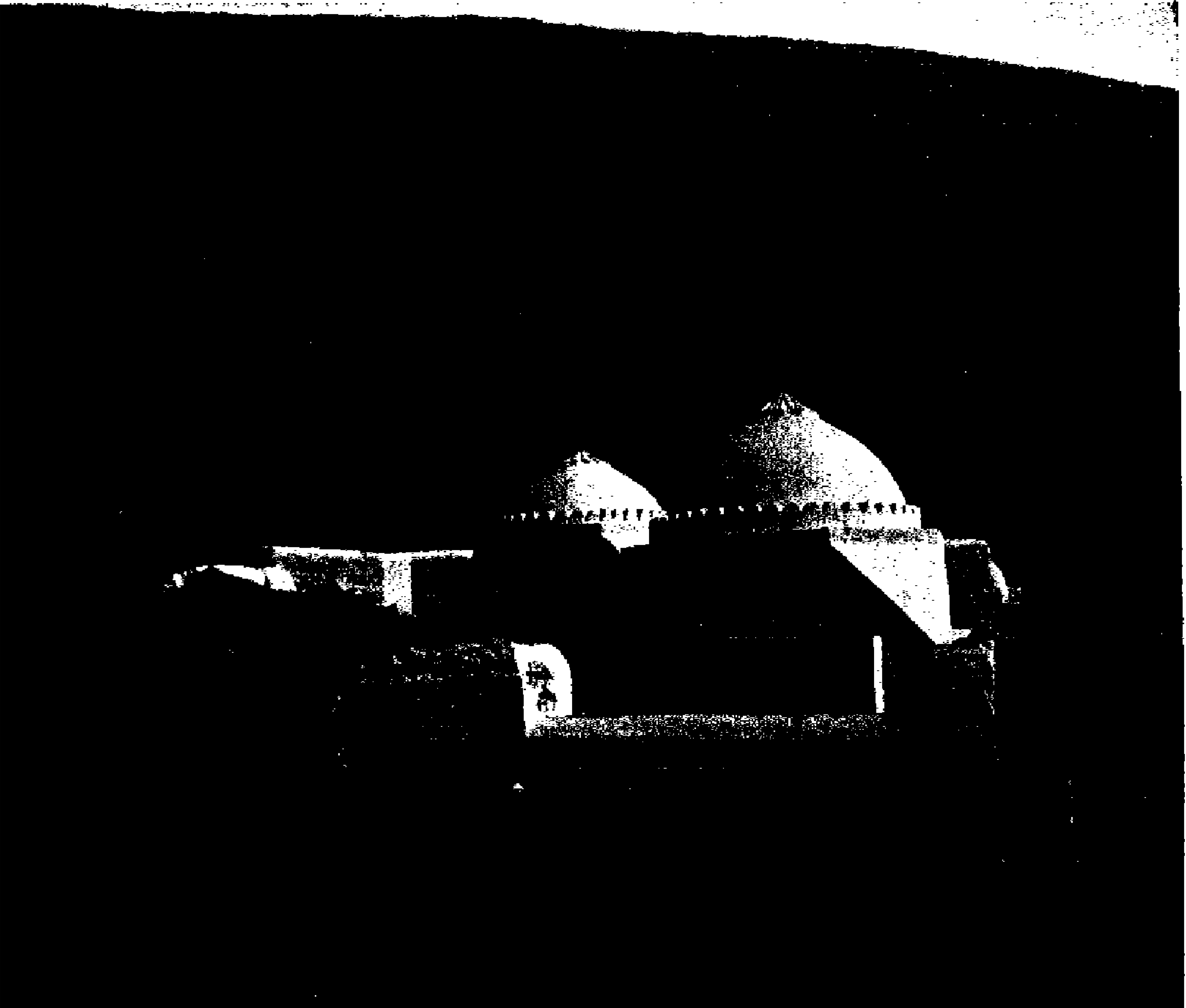
27. The route on the plateau of Thannitte Kada by which the Prophet Mohammed proceeded to Mecca for his last pilgrimage (Al Wida'a - the "farewell") in the year 10 of El Hegra.

قبة السيدة خديجة بالمعلى بمكة المكرمة



28. The dome of El Sayyida Khadija in El Maalla at Mecca,

قبتا جدي النبي عبد المطلب وعبد مناف وعمه أبي طالب



29. A view of the domes of the grandfathers of the Prophet, Abdel Motaleb Abd Manaf, and his uncle Abu Taleb

على قبر السيدة خديجه[(١)] أم المؤمنين رضى الله عنها كما ترى فى الرسم ٢٨ وبه أيضا قبر زعموا أنه لآمنة أم الرسول صلى الله عليه وسلم وهـذا افتراء والحقيقة أنها مدفونة بالأبواء بين المدينة ومكة على نحو ١٣ ميلا من رابغ . وبه أيضا جملة قباب[(٢)] قيـل لنا : إنها على مقابر عبد مناف وعبد المطلب وهاشم أجداد النبي صلى الله عليه وسلم

(١) وهى زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به وقد واسته بمالها ونفسها وتزوجها صلى الله عليه وسلم وسنها ٤٠ سنة وسنه ٢٥ ولم يتزوج عليها غيرها حتى توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين وهذه القبة بنيت فى سنة ٩٥٠ بالحجر الشميسى بمعرفة الأمير الشهيد محمد بن سـليمان الجركسى أمين الدفاتر (دفتردار) بمصر فى ولاية داود باشا نائب السلطان سليمان القانونى ، وكان على القبر قبل القبة تابوت خشبي وقد جعل محمد ابن سليمان المذكور لخادم القبر مرتبا من صدقات السلطان سليمان ولكننى رأيت على القبة تاريخ سنة ١٢٩٨ فيظهر أنها جددت بعد سنة ٩٥٠

(٢) مما لا ريب فيه فى شرعتنا الاسلاميـة أن إقامة القباب على القبور محرمة بل ما هو دون القباب فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسـلم أمر عليا رضى الله عنه أن لا يدع قبرا مشرفا إلا سواه بالأرض ولا تمثالا إلا طمسه — رواه النسائى — ومع هذا الحظر القطعى أكثر المسـلمون من إقامة القباب فوق قبور من اعتقدوا فيهم الصلاح تقربا اليهم و إعظاما لهم و إشادة بذكرهم و يعـلم الله أن الذكرى إنما هى بالأعمـال الطيبة لا بالأبنيـة المشيدة وأن هؤلاء الموتى أحب الأشياء اليهم أن يؤتسى بهم فى أعمالهم وأخلاقهـم فإن ذلك ينفعهم فى أجداثهـم إذ لهم مثل أجر من عمل بعملهم ثم اذا كان الباعث على إقامة القباب ما ذكرنا من اعتقاد الصلاح والتقوى فلماذا نقيمها على قبر أبى طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد دعاه الى الاسلام فأبى حتى لفظ نفسه الأخير وفيه يقول الرسول صـلى الله عليه وسـلم (لعله تنفعه شفاعتى فيوضع فى ضحضاح من نار) — الضحضاح — اليسير .

اللهم إنى لا أظن سببا لاقامة القباب فوق قبور هؤلاء إلا قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن القرابة وحدها غير منجية إذ لو أنجى قريب قريبه لنجى نوح ابنـه ، وابراهيم أباه ، ولوط زوجه ، وآسية فرعون ومحمد صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب ولكن لم ينفع هؤلاء أولئك لأن الانسان بأعماله لا بأعمال غيره (وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) والتفاضل إنما هو بالتقوى لا بالقرابة (إن أكرمكم عنـد الله أتقاكم) فتى يتفقه المسلمون فى دينهم و يأتسون بنبيهم ويدعون هذه الخزعبلات وتلك الترهات التى أخرت بديننا وأمتنا وتركتنا مثلا سيئا فى الآخرين فاللهم اهد قومنا الى سواء السبيل .

وكذلك قبة على قبر عمه أبى طالب تراها فى (الرسم ٢٩) وفى (الرسم ٣٠) صورة عامة لمقبرة[١] المعلاة وكذلك فى (الرسم ٣١) .

وقد زرنا هـذه المقابر وقت مرورنا بها ثم سرنا الى سوق البلد ثم الى المسجد الحرام وهو على مسير نصف ساعة من معسكرنا وقد دخلنا المسجد من باب بنى شيبة المعروف بباب السلام وهو فى الجهة الشمالية الشرقية ، وعند رؤية الكعبة رفعنا الأيدى متضرعين الى الله وكبرنا وقلنا : اللهم أنت السلام ومنك السلام حينا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وزد من حجه أو اعتمره تكريما وتشريفا وتعظيما وبرا — وقد سمع هـذا الدعاء سعيد بن المسيب عن عمر رضى الله عنه يقوله ، ثم اتجهنا الى باب بنى شيبة الذى بداخل المسجد عند مقام ابراهيم وهو باب المسجد الأصلى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ويعرف بباب بنى عبد مناف ومنه دخل فى حجة الوداع وقد دخلنا منه اقتداء برسولنا عليه الصلاة والسلام وقلنا ساعة الدخول كما قال : ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا . وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وإن ذلك لمكتوب فى أعلى الباب بالخط الجميل المذهب، والباب عبارة

(١) وتسمى أيضا مقبرة الحجون وفيها يقول كثير بن كثير السهمى :

عينى جودى بعبرة أسراب ❊ من دموع كثيرة التسكاب
إن أهل الحصاب قد تركونى ❊ موزعا مولعا بأهل الحصاب
كم بذاك الحجون من حىّ صدق ❊ وكهول أعفة وشباب
فارقونى وقد علمت يقينا ❊ ما لمن ذاق ميتة من إياب

والحصاب : المراد به المحصب وهو موضع الجمار بمنى — وفى يوم الأربعاء ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٠٨٦ شرع الشيخ محمد على بن سليمان الوزير الذى حضر من اليمن فى هدم قبور المعلاة وبنى مقبرة خاصة ذات جدر أربع وقسمها تقسيم الشطرنج وجعلها ذات بابين وهتك بذلك حرمة الأموات . وفى هذا يقول الشاعر :

تكفل ابن سليمان أذية من ❊ قد وحد الله ممن حل فى الحرم
فحين عم الأذى الأحياء منه غدا ❊ مفتشا لأولى التوحيد فى الرمم
طريقة من شقاء ما تناقلها ❊ أهل التواريخ من عرب ومن عجم

وكان محمد هذا ممن أولع بتنظيم مكة ومناسك الحج .

مقبرة المعلى بمكة المكرمة

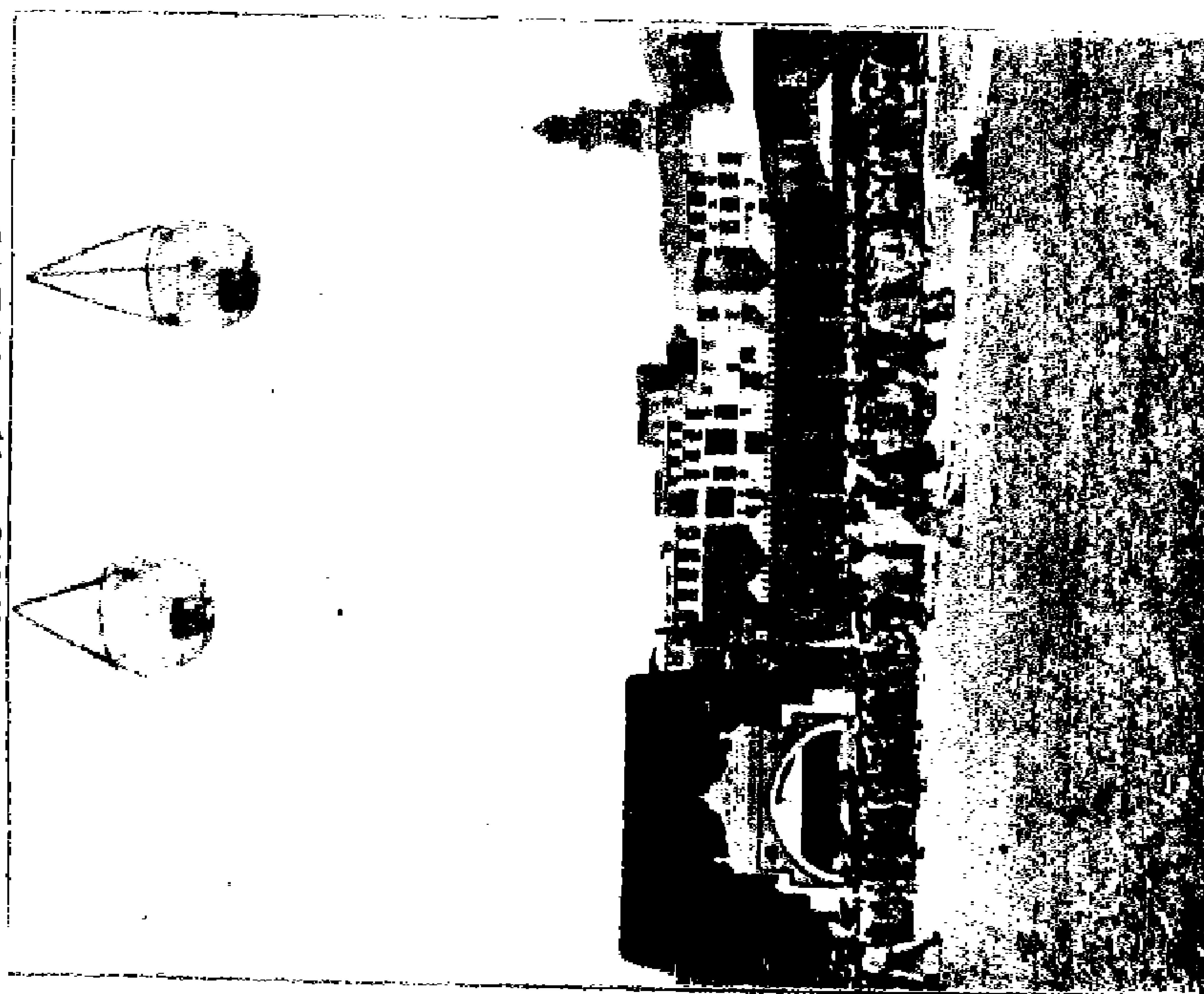


30. A view of the Tomb El Maalla in Mecca.

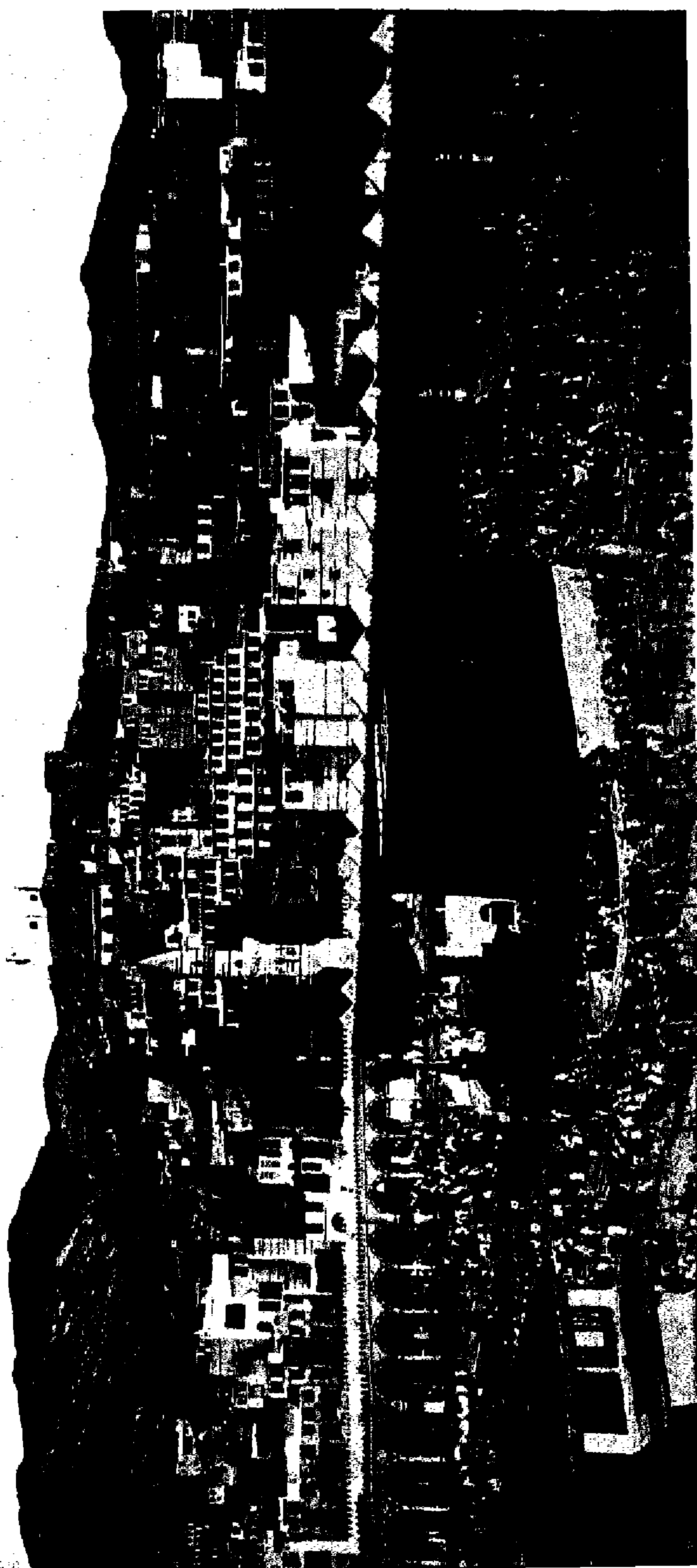
المعلاة وبها السيدة خديجة الكبرى والسيدة آمنة والدة النبي وعبد المطلب وعبد مناف



31. The Maala showing the domes of El Sayyida Khadijah, El Sayyida Amnah, and the ancestors of the Prophet, Abdel-Mottalib and Abd Manaf.



32. The meeting of the Pilgrims to attend the speech of the day of El-Tarweya



33. The Kaaba in the Mecca Mosque.

عن قائمين يعلوهما عقد مستدير أتقن صنعه، وعرضه أربعة أمتار. أنظر (الرسم ٣٢) الذى أخذت صورته فى يوم التروية ثامن ذى الحجة سنة ١٣٢٥، وقد آجتمع الحجاج بالمسجد الحرام لسماع خطبة المناسك . ثم وقفنا متجهين الى ناحية الكعبة الجنوبية التى فى ركنها الشرقى الحجر الأسود وفى طرفها الغربى الركن اليمانى، وبدأنا من عند الحَجَر بطواف القدوم (طواف التحية) بعد أن قبله من قدر ولمسه من لم يقدر وأشار اليه من لم يتمكن من أحدهما، وقال الجميع : بسم الله والله أكبر، وقد جعلنا البيت عن يسارنا فى الطواف حوله، وكان طوافنا من وراء الحِجر (الحطيم) وكان سبعة أشواط رملنا (أسرعنا) فى الثلاثة الأولى منها وسرنا فى الباقى سيرنا المعتاد آقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، اذ روى أبو داود والنسائى عن آبن عباس رضى الله عنهما . قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة فى عُمرة القَضِيّة فقال المشركون : إنه يَقْدَم عليكم قوم قد أوهنتهم — أضعفتهم — حمى يثرب — المدينة — ولقوا فيها شرا فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فأمر أصحابه أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة الأول، ولم يمنعه أن يلزمهم أن يرمُلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، فلما رأوهم قالوا : هؤلاء الذين ذكرتم أن الحمى قد أنهكتهم، هؤلاء أجلد منا وكذلك فعل هو وأصحابه فى حجة الوداع فكان ذلك سنة، وترى فى (الرسم ٣٣) الحجاج وهم يطوفون حول الكعبة وقد لبست كسوتها السوداء وأتزرت بإزارها الأبيض والواجهتان الظاهرتان بالرسم من الكعبة الواجهة الشمالية التى فى أعلاها ميزاب الرحمة الأبيض وأمامها حِجر اسماعيل على شكل نصف دائرة، والواجهة الغربية وترى على يمين الكعبة فى الرسم مصلى إمام المالكية، ومصلى إمام الحنبلية على شكل مظلة قائمة على أربعة أعمدة وعلى يسارها مقام ابراهيم من خلفه باب بنى شيبة، والجزء الأبيض الذى بين المقام وزمزم جزء من بناء زمزم الذى يصلى عليه إمام الشافعية، والمظلة ذات الطبقتين التى على اليسار مصلى إمام الحنفية وترى فى الرسم أعمدة المطاف على شكل دائرة كما ترى أعمدة الأروقة بعقودها وقبابها وكذلك به بيوت الأشراف الفخمة، والجبل

الذى على اليسار جبل الخندمة والذى على اليمين جبل أبى قبيس فوقه مسجد إبراهيم القبيسى . وبعد الطواف أتينا الملتزم وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود فى الجهة الشرقية ووضعنا عليه صدورنا وتعلقنا بأستار الكعبة وابتهلنا الى الله أن يعافينا فى ديننا ودنيانا وقلنا ماخطر بنفوسنا من الرغبات الصالحة والأمانى المشروعة ثم ركعنا ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام عملا بقوله تعالى ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ثم أتينا زمزم فى الجنوب الغربى لباب بنى شيبة بداخل المسجد وشربنا منها وتضلعنا ، ثم خرجنا من المسجد من باب الصفا فى الجنوب وقصدنا الصفا وهو مكان مرتفع نحو مترين طوله ٦ أمتار فى عرض ٣ وصعدنا اليه بدرج منتظم وهناك استقبلنا البيت وهللنا وكبرنا ودعونا ثم نزلنا منه الى شارع السعى شرقى المسجد فسرنا فيه نحو ٧٠ مترا واذا بالميلين الأخضرين (العلمين) أحدهما على اليمين بحائط بيت وثانيهما على الشمال بجوار باب المسجد الحرام المسمى (باب بازان) ومنهما هرولنا واضعين أيدينا على صدورنا الى الجانبين الى أن قطعنا ٧٥ مترا واذا بالميلين الآخرين أحدهما فى الميمنة فى حائط والآخر فى الميسرة بحذائه أمام باب المسجد الحرام المسمى بباب على ، ومن هذين العلمين مشينا مشينا المعتاد ٤٠٢ مترا فوصلنا الى المروة وهى أشبه بالصفا (سيأتى الكلام مفصلا على الصفا والمروة) وقد صعدنا اليها وهللنا وكبرنا فكان ذلك شوطا ثم نزلنا من المروة الى الصفا وفعلنا فى الثانية ما فعلنا فى الأولى فكان ذلك شوطا آخر وهكذا أتممنا سبعة أشواط (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) ويلاحظ أن النساء لا تهرول فى السعى ولا ترمل فى الطواف ولا ترفع الصوت بالتلبية خشية الفتنة وبعد السعى تحلل المعتمر منا بالحلق أو التقصير وحل له كل شىء . وفى يوم التروية (ثامن ذى الحجة) يحرم بالحج ، أما المحرم بالحج فقط أو به مع العمرة فانه لا يتحلل بل يستمر فى إحرامه حتى يأتى بأعمال الحج من وقوف ورمى وحلق وطواف الخ ، ويتحلل بعدئذ التحلل كله .

ولا بأس من أن نذكر لك فى هذا الموطن ما يصدر من العربان ونسائهم وقت الطواف فان فيه تفكهة: إحرام العربان عبارة عن كشف أذرعهم ورءوسهم، و باقى جسدهم مستور وشعرهم منثور غير منتظم وأكثرهم طويل الشعر مضفوره أشبه بشعور النساء عندنا، أما نساؤهم فمحتجبات لا يكاد يبدو منهن شىء والرجل يقول فى طوافه : يارب البيت اشهد أنى جيت لا تقول ما جيت اغفر لى ولوالدى وإلا تغفرلى غصبا تغفرلى ترانى جيت يقول ذلك بصوت جهورى مزعج و يسرع فى مشيه فى الطواف والسعى و يأخذ الرجل بيد زوجه أو أخته أو أمه ويسرع بها فى السير وعند ما يصل بها الى الحجر الأسود يرفعها و يضع رأسها فى تجويف الحجر واذ ذاك تمسح وجهها وشعرها ويقول لها (حجى يامره حجى) وتقبيل الحجر عندهم فريضة لازبة لا يتركونه ولو ماتوا دونه ومن كثرة زحام هؤلاء العربان على الحجر وإدخالهم الرءوس فى تجويفه حصل به خدش أصلح فيما بعد، ومات أحد الحجاج أثناء الطواف من شدّة الزحام، ومما سمعته محاورة بين اثنتين من نساء العربان قالت إحداهما للكعبة : (ياست ليلة [لعل تسميتها ليلة لأنها سوداء وكسوتها سوداء] إن كان جاتنا المطر فى ديارنا وجانا الخير أجيب لك عكية سمن (قربة صغيرة) تدهنى بها شوشتك، لأن العربان يزعمون أن الكعبة امرأة تدهن رأسها — فقالت الثانية : حقيقة تجيبي لها فقالت لها : آسكتى أنا عمال أكذب عليها اذا جاتنا المطر ما أجيب) فانظر كيف بلغ أدب العربان فى خطاب الرب حدّا سيئا وكيف بلغت من نفوسهم الاعتقادات الفاسدة. ما ذلك إلا من فرط جهلهم بالدين فهل لأولئك من مرشدين .

وفى يوم السبت ٢ ذى الحجة (٢٣ مارس) قدم من جدّة الى مكة ١٥٠٠ حاج سائرين على الأقدام بعد أن تركوا جميع أمتعتهم بجدّة وانما قدموا رجّالة لقلة الجمال وكثرة الحجاج فخافوا إن انتظروا أن تفوتهم الفريضة فأسرعوا بالحضور .

التزاور بمكة

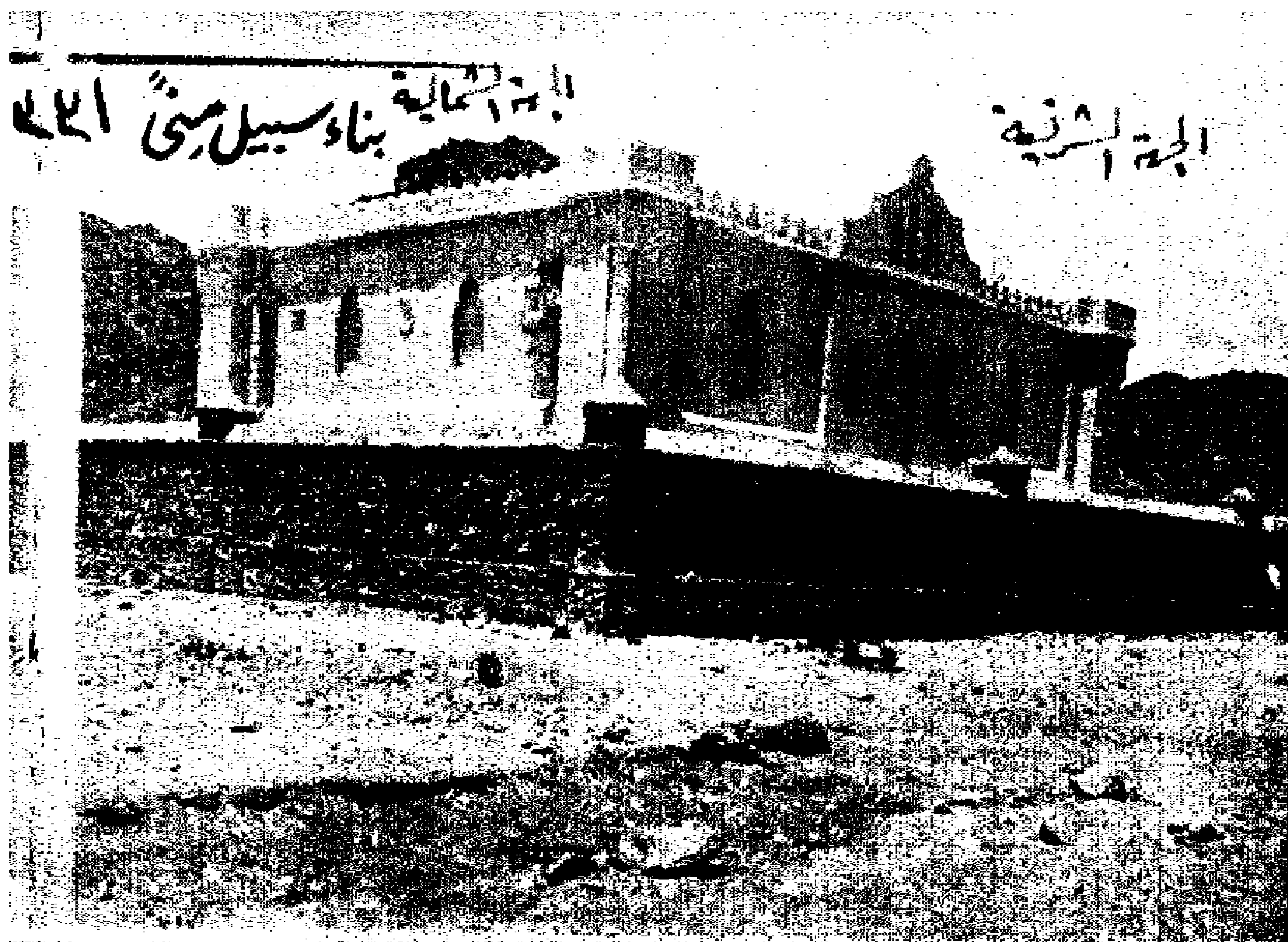
زيارة أمير الحج وأمين الصرة لصاحبي الدولة شريف مكة وواليها

فى اليوم الذى وصلنا فيه إلى مكة (٢٥ ذى القعدة سنة ١٣١٨) بعد أن زرنا البيت الحرام وطفنا وسعينا وتحللنا زار أمير الحج وأمين الصرة دولة الشريف بعد الاستئذان منه وساعة اللقاء لثما يده وسلم له الأمير مكتوبين أحدهما من المعية السنية والآخر من نظارة الداخلية وكلاهما يتضمن التحية والتماس مساعدة أمير الحج على أداء عمله والقيام براحة الحجيج وقد قدّم الشريف لهما القهوة والشاى ومكثا بمجلسه فترة طويلة كانا فيها موضع تجلته ثم آنصرفا شاكرين، ولم أتمكن من التوجه معهما اذ شغلنى تنظيم المعسكر و إعداد ما يلزم لرجال المحمل وشراء العلف للدواب، وفى اليوم التالى زرته مع الضباط وقد وقف لنا ساعة دنونا منه وقبلنا يده وأذن لنا بالجلوس و بلغته سلام الجناب العالى الخديو فشكر له ودعا وأظهر شوقه لرؤيته فنبأته بأن سموه تواق إلى الحج ، فقال : متى تمت السكة الحديدية توافرت سبل الراحة ، ولبثنا فى حضرته زهاء ساعة ونصف كنا فيها موضع رعايته ، وقدّم لنا فى خلالها الشاى والقهوة ثم خرجنا شاكرين .

وفى اليوم نفسه زار الأمير والأمين وأنا ثالثهم دولة الوالى بمقر الحكومة المسمى « الحميدية » فقابلنا بالبشر والترحاب وسلم الأمير اليه كتابا من نظارة الداخلية توصية بركب المحمل فبعد تلاوته سأل عن حال العساكر والحجاج وعرّفنا بأنه مستعد لعمل كل شيء يوفر على الحجاج راحتهم وطمأنينتهم فدعونا لدولته وشكرنا وبعد تناول القهوة رجعنا شاكرين .

زيارات مختلفة — فى الفترة التى أقمناها بمكة زرت رئيس الجند العثمانى (القومندان) ولديه رتبة لواء كما زرت وكيل الوالى ويسمى « المحاسبجى » وسعادة اللواء صادق باشا العظم المدير العام للإشارات البرقية الحجازية وكذلك زرت الشريف





331. Fountain (Sibil) of drinking water at Mena for Pilgrims in the year 1340 H., East and South sides.

على باشا[1] وكيل الأشغال لأمير مكة والشيخ الشيبى (من بنى شيبة) السيد محمد صالح أمين مفتاح الكعبة ، وممن زرتهم ناصر باشا ابن الشريف عبد المطلب أمير مكة سابقا وقد طلب الىّ أن أرفع الى الأعتاب الخديوية ما يأتى :

(أولا) يود أن تكون مرتبات الأشراف التى تصرف اليهم من المالية والأوقاف بحساب الريال المصرى لا الحجازى (أبو طاقه) الذى قيمته عشرة قروش وقتئذ .

(ثانيا) انتقد ما عمله بعض نظار (التكية) المصرية من تحويل نوافذها الى أبواب لحوانيت اقتضبت من التكية ويرى أن ذلك غير مناسب للطعم .

(ثالثا) انه قد صدر الأمر الكريم بإنفاق ٨٠٠٠ جنيه مصرى لتشييد مخزن كبير فى مِنًى يملأ بالماء لشرب الحاجين وأبناء السبيل فيرجو انجاز هذا الأمر الجليل الذى يعد أثرا خالدا لسمو الخديو يستحق به عظيم المثوبة من الله لأن بعد الماء رفع قيمته حتى إن القربة التى تسع قدما مكعبة من الماء يبلغ ثمنها ٣,٥ قروش بل فى هذا العام كان ثمنها ٥ قروش و إنى أعضده فى فكرته هذه فان ذلك عظيم النفع للحجاج خصوصا الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون وتضطرهم الفاقة الى جلب المياه من الأماكن النازحة سيرا على أقدامهم، بل وفرة الماء تقطع دابر الأشرار من الأعراب الذين يتربصون من يبتعد عن مِنًى لإحضار المياه فيسلبونه ماله ولا مغيث فان المياه تبعد عنها بأكثر من ثلاثة أميال أضف الى ذلك أن كثرة المياه تساعد على نظافة البدن والملبس وذلك أحفظ للصحة وأرعى لها فإنجاز هذا المشروع يعود بالخير العميم على الناس وعلى من يقوم به .

وقد كلمت سمو الخديو فى هذا الاقتراح فقال : لا مانع على أن يتولى الانفاق على المشروع موظف مصرى ، ولما عرضت ذلك على الشريف عون فى حجتى الثانية وافق على المشروع ولكن اشترط أن يتولى هو الانفاق، فكان شرطه هذا داعيا لوقف المشروع الى أن نفذ فى السنين الأخيرة — فى عهد مليكنا فؤاد الأول .

(١) يقيم الآن فى مصر بمحطة سراى القبة .

وممن زرتهم محسن بك وعبد الله بك ولدا المرحوم الشريف محمد باشا ابن الشريف عبد الله باشا أمير مكة سابقا وهما شابان لا يتجاوز عمرهما الثامنة عشرة لم يتعلما إلا المبادئ الأولية لإهمال التعليم بمكة وقلة المدارس بها وذلك ما يرغب فيه الشريف عون الرفيق باشا لأنه يرى فى العلم تنويرا للأفكار ومطالبة بالحقوق وضربا على أيدى الظالمين وجهادا للتخلص من المستبدين وهو عليم بنفسه خبير بسيرته، وترى فى (الرسم ٣٤) الأخوين بلباسهما العربى وفى (الرسم ٣٥) بلباسهما المكىّ خلفهما محمد بن سعيد الزمزمى وفى (الرسم ٣٦) بلباس مختلف والواقفون وراءهما ابراهيم بك مصطفى المعمم ناظر دار العلوم سابقا فأنا فأحمد بك زكى أمين الصرة فى سنة ١٣٢١

وقد زرت كثيرا غير هؤلاء من الأشراف والسَّراة وكانوا يقابلوننا أجمل مقابلة ويردون الزيارة الينا فى المعسكر، فكنت أكرمهم غاية الإكرام وكان ضباط الحرس يعطفون عليهم ويتحدّثون معهم وكانوا ولعين بسماع الآلات المطربة فكنت استحضر لهم الموسيقى والمزمار البلدى فيتناوبان الألحان مما يزيد فى ابتهاجهم وانشراح صدرهم، وكانت الموسيقى تعزف كل يوم من بعد صلاة العصر حتى تتوارى الشمس بالحجاب وكان الناس يجتمعون على السماع ترويضا للأفكار وتهذيبا للنفوس فكان لنا الدين والدنيا جميعا .

زيارة أمير مكة وواليها وقائد جندها للمحمل ــ فى الساعة الثانية العربية نهارا من يوم ٧ ذى الحجة سنة ١٣١٨ زار صاحب الدولة الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة معسكر المحمل فى موكب حافل وكان راكبا عربة يجرها جوادان وكان على يساره وكيله الشريف على باشا وكان أمام العربة ٥٠ فارسا، و ١٥٠ هجانا و ٢٥٠ راجلا و ١٢ موسيقيا وزمارا وكلهم من أهالى مكة إلا القليل ــ سودانيين ــ وكانوا بلباس عادى يحملون أسلحة من الطرز القديم وكان خلف العربة حوالى ١٥ جوادا يقودها سواسها وكان عليها السروج المذهبة المسبل عليها القطيفة المزركشة بالقصب ــ منظر يسرّ الناظرين ــ (انظر الرسم ٢٦٧) أما نحن فلدى قرب مجيئه اصطفت عساكرنا

عبدالله باشا ومحسن باشا ولدا اخي الشريف على





34 & 35. Photos of **Abdulla Pacha and Mohsin Pacha** the sons of El Sherrif Aly Pacha's brother.

عبد الله باشا ومحسن باشا ولدا أخي الشريف علي



محمد علي سعودي بمصر

36. The photo of Abdulla Pacha and Mohsen Pacha.

ركائب أمير مكة بالشيخ محمود



267. A view of the Horses of Amir Mecca in Sheikh Mahmoud.

الشريف عون الرفيق باشا وحاشيته



37. A photo of El Sheriff Own El Rafik Pacha and his companion

صفين متقابلين الموسيقيون أوّلا فالفرسان فالمشاة ، واتخذ رجال المدفعية مكانا مناسبا لإطلاق المدافع ووقف أمير الحج والأمين وموظفوا المحمل فى ميمنة العسكر وعند وصول الشريف تقدم اليه الأمير والأمين وقبلا يده وطرف السترة (الأتك) وتبعاه راكبا عربته يسير الهوينا بين الصفين متأملا زى العساكر معجبا بشهامتهم وثباتهم مسلما عليهم بالإشارة ، وعند سرادق الأمير نزل من العربة وجلس على أريكة فى صدر السرادق وساعتئذ قدّم له الأمير موظفى المحمل فلثموا يده ثم أمرهم بالجلوس وبعد زمن يسير قلت للعسكر «صفا» أى راحة ، وتوجهت بالضباط الى السرادق حيث قبلنا يد الأمير و « أتكه » كمن سبقنا ، وبعد تناول الشاى والقهوة همّ بالعودة فرجعت بالضباط حيث كانوا أوّلا وساعة مروره حيي التحية العسكرية وصدحت الموسيق بسلام جلالة السلطان وأطلق المدفعية ٢١ مدفعا كما حصل مثل ذلك عند القدوم ، وقد أعجب الأمير بكل ما رأى خصوصا زى الضباط والعسكر وكان يرتدى ملابسه العادية العمامة والقَباء (القفطان) الأبيض والفرجية ذات اللون الرملى ، ومما حادث به أمير الحج أنه سأله عن عمر كسوة المحمل القصبية إذ رآها غير زاهية فأجابه بأنها صنعت فى عهد الخديو السابق توفيق باشا (انظر الشريف فى الرسم ٣٧) الذى أخذته فى بيت الشريف بعد المغرب وترى بجانبه جليسه الذى يعرف بالبوّ وللشريف كبير ثقة به وحسن اعتقاد فيه جعله يؤثره بالهدايا النفيسة التى كانت ترد اليه فابتنى منها البيوت الفاخرة المشابهة لبيوت مصر وقد بلغنى أن سبب ذلك الإكبار أنه جاء الى الشريف وقد جلس تحت سقيفة فأشار اليه بالانصراف وقال له « جم جم » فلم يكد يبرح السقيفة حتى سقط عرشها ، ومما آثره به من الهدايا فى سنة ١٣٢٠ سيف مذهب وسكينة مذهبة أهداهما الى الشريف سلطان زنجبار .

وفى الساعة الثالثة من اليوم نفسه أقبل دولة الوالى المشير أحمد راتب باشا لزيارة الأمير وركبه وكان يركب عربة كعربة الشريف وكان عن يساره فيها سعادة اللواء صادق باشا مدير الاشارات البرقيــة الحجازية ويتقدّم العربة حوالى ٥٠ فارسا تركيا

من غير النظاميين وكان منهم ستة يحملون على أكتافهم العصى الفضية الطويلة، ودولة الوالى كان يرتدى ملابس التشريفة الكبرى البحرية وهى عبارة عن(بنطلون) أبيض طويل فوقه معطف طويل أسود عليه سمة مشير بحرى وبصدر المعطف خيوط غليظة مثبتة به من طرفيها (كردون) وفوق ذلك جبة سوداء طويلة تمتد الى ماتحت الركب ومزركشة بالخيوط القصبية على طوقها وكميها ومن أمامها وخلفها وجانبيها وذيلها وهى خاصة بمن يشغل منصب الولاية على مكة وكان من فوق الجبة الوسام (النيشان) المجيدى من الدرجة الأولى، وقد استقبلنا الوالى بمثل ما استقبلنا به الشريف غير أن الوالى نزل من عربته حينما وصل الى أول المعسكر ومر بين الصفين وكلما حاذى ضابطا صافحه وكان شديد التأمل فى الضباط والعساكر مسرورا من زيهم معجبا بجميل نظامهم وكان ذلك باديا على محياه ولا سيما عند ما أديت له التحية العسكرية بقوة وشهامة، وقبل أن يبرح دولته سرادق الأمير قام الشيخ محمد السنباطى (موزع الكساوى على العربان والقائم بالأدعية وقت تسليم الخديو المحمل الى أمير الحج الخ) وتلا خطبة امتدح فيها الوالى ودعا لجلالة السلطان فكافأه على ذلك بخمسة جنيهات كما كافأ الموسيقيين والزمارين بثلاثة أخرى وتلك له عادة سنوية (أنظر الرسمين ٣٨ و ٣٩) . هذا وقد كانت زيارة الشريف والوالى لمحملنا بعد عودتهما من زيارة المحمل الشامى فى اليوم التالى لوصوله .

غسل الكعبة

فى يوم الاثنين ٥ ذى الحجة دعيت مع أمير الحج وأمين الصرة وبعض الموظفين لغسل الكعبة حسب المعتاد سنويا فلبينا الدعوة وذهبنا الى المسجد الحرام وفى الساعة الأولى العربية حضر دولة الوالى وأمين الدفاتر (الدفتردار) واللواء (قومندان) الجند المكى وبعض العظماء من الحجاج ودخلنا الكعبة وصلينا فى كل من جهاتها الأربع ركعتين ودعونا الله بما أحببنا ودعوت للخديو كما دعا له الأمير والأمين ثم أخذنا جميعا فى غسل أرض الكعبة من الداخل بماء زمزم وكان ذلك بمقشات

مصافحة والى الحجاز لضباط المحمل عند استقبالهم رسميا



38. A photo of the Wali of El Hejaz shaking hands with the officers of the Mahmal on meeting officially.

الشريف والـــــــوالى فى العربه بالشيخ محمود

آمير مكة والوالى فى الشيخ محمود سنة ١٣٢١



محمد على سعودى بمصر

39. The Sherif and the Wali in carriage at a place called Sheikh Mahmoud

صغيرة صنعت من خوص النخيل ثم وزعت علينا خرق بيضاء مبللة بماء الورد والروائح العطرية وأخذنا نمسح بها جدر الكعبة، وقد اشتد الزحام أمام بابها لأخذ مياه الغسل للتبرك بها، والمطوفون يأخذونها فى دلاء ويضعونها فى قوارير يهادون بها أتباعهم من الحجاج وكذلك يتخاطف الناس مقشات الغسل بل يتضاربون عليها وعلى الماء، ولدى نزولى عن الكعبة وضعت ما معى من المقشات فى منشفة كبيرة (بشكير) استحضرتها معى لغسل الكعبة بها ولأحفظها بعد تبركا، وقد زاحمنى الحجاج وعصر بعضهم المنشفة لعله يجد بها قطرة ماء ومنهم من مسح بها وجهه ومنهم من مسها ومسح على عينه وجسمه .

هذا والكعبة تفتح فى موسم الحج لمن يريد الزيارة بعد أن يدفع ريالا (برم) قيمته عشرة قروش مصرية لمن يتولى فتح الباب من قبل السيد محمد صالح الشيبى أمين المفتاح واذا كان الزائر غنيا أخذوا منه بضعة جنيهات، وبعض الناس ينتهز فرصة غسل الكعبة ويدخل مع الغاسلين . وتفتح الكعبة للزائرين فى ١٠ المحرم للرجال وفى ليلة ١١ منه للنساء، وتفتح فى ليلة ١٢ ربيع الأول للدعاء للسلطان ولا يدخلها الزوار ولكن يدخلها الرجال فى صبيحة تلك الليلة ، وفى ليلة ١٣ منه للنساء، وتفتح فى يوم ٢٠ ربيع الأول لغسلها ، وفى أول جمعة من رجب للرجال وفى اليوم التالى للنساء وفى ليلة ٢٧ رجب تفتح للدعاء للسلطان وفى صباحها يزور الرجال وفى المساء يزور النساء، وتفتح فى ليلة نصف شعبان للدعاء وفى صباحها للرجال وفى مسائها للنساء وتفتح يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال وفى تاليه للنساء وفى ليلة ١٧ منه للدعاء للسلطان وآخر جمعة كذلك، وتفتح فى نصف ذى القعدة للرجال وفى تاليه للنساء وفى ٢٠ منه لغسلها وتفتح على سبيل الخصوصية لبعض الأعيان .

وفى يوم ٢٨ ذى القعدة تحرم الكعبة أى يوضع لها إزار أبيض أسفل الكسوة.

الى عرفات ومنى

قد ورد لنا كتاب من دولة الوالى بأن قاضى مكة أثبت هلال ذى الحجة ليلة الخميس وعليه يكون الوقوف بعرفة فى يوم الجمعة تاسع ذى الحجة وترى فى (الرسم ٤٠) مثيله فى سنة ١٣٢٥

ولما كانت ليلة الثامن من ذى الحجة تحرك لتمام الساعة الحادية عشرة العربية ركب المحمل من معسكره بمكة ميمما عرفة فسار من حارة الباب الى الشبيكة فالسوق الصغير بجياد — وفيه المطعم المصرى (التكية) ودار الحكومة العثمانية المسماة بالحميدية — بجزء من شارع المسعى فالقشاشية فسوق الليل فالغزة، وقد مررنا ببيت الشريف الذى شيده محمد على باشا جدّ الأسرة الخديوية وهناك وقف الركب وصدحت الموسيقى بالسلام الملكى وهتف الجميع «پاد چاهمز چوق يشا» «يعيش الملك طويلا» ثم سرنا الى الشمال ومررنا بالبياضية على اليسار وفيها بيت بحديقة للشيخ الشيبى أمين المفتاح ثم شرقنا الى منى ووصلنا الى أول مدرّج فى س ١١ و ق ٤٠، والمدرّج جزء من الطريق مرصوف بالحجارة يشبه درجة السلم لكن عرضه ٢٠ مترا وطوله ٥٠ وارتفاعه عشر المتر ووصلنا المدرج الثانى بعد ربع ساعة وقد تابعنا السير حتى بلغنا منى فى س ١ و ق ٤٥، وبها استراح المحمل ربع ساعة بالقرب من المكان المعدّ لنصب سرادق الشريف بعد رجوعه من عرفة ثم سرنا فوصلنا المزدلفة فى س ٢ و ق ٣٥، ثم عرفة فى س ٤ و ق ٣٥، فنكون قد قطعنا الطريق بين المعسكر وعرفة فى ٥ س و ٣٥ ق استرحنا فيها ١٥ ق، والطريق رملى لا تغور فيه الأقدام وتكتنفه من الجانبين الجبال الشامخة التى تتباعد بمنى ومزدلفة، وفى منتصف البعد بين مزدلفة وعرفة وبالطريق كل ما يحتاج اليه الانسان من ماء وقهوة وشاى ومأكولات من لحوم وأرز وعدس مطبوخة وغير مطبوخة وسكر وحلاوة وملبس الخ . وحينما وصلنا الى عرفة نزل الركب فى محله المعدّ له سنويا وكانت الخيام والأمتعة والمؤن قد سبقتنا الى هنالك فانها أرسلت ليلا بصحبة بعض

(الرســـم ٤٠)

ولاية الحجاز — قلم المكاتبات رقم ٢٠٠٠ الى جناب محافظ المحمل الشريف المصرى العالى

صاحب السعادة إن ابتداء ذى الحجة الشريف فى هذه السنة المباركة ثبت أنه يوم الأحد حسب الإعلام الوارد الينا من قاضى مكة وعلى ذلك فوقفة عرفات ستكون يوم الاثنين المبارك ولذا بادرت بإخباركم بذلك .

٧ ذى الحجة سنة ١٣٢٥ هـ . ٢٩ كانون الأول سنة ١٣٢٣ «الياور» الأكرم والى الحجاز و«قومندانه»

العساكر والفراشين ومعهم ضابط ، فأعدّت قبل وصولنا وبعد أن عرف كل منا محله أسرعنا جميعا الى جبل الرحمة المعروف بعرفات حيث وقفنا هنالك على سبيل الاحتياط لجواز أن يكون هذا اليوم يوم عرفة مع أنه ثامن ذى الحجة — ولا محل لهذا الاحتياط بعد التثبت فى معرفة أوّل الشهر، ونَهْى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الشك — يرشدنا الى ترك الوقوف فى يوم توهمناه التاسع من ذى الحجة والظن بل اليقين بخلافه — وقد نزل علينا مطر خفيف أثناء الوقوف ورجعنا الى خيامنا بعد الغروب .

جبل عرفات وميدانه الفسيح — جبل عرفات على شكل قوس كبير يحيط بواد متسع يسمى «عرفة» وتبلغ مساحته نحو ميلين مربعين وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف وفى طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمى «جبل الرحمة» (الرسم ٤١ وفيه ترى العلم الذى فى أعلى جبل الرحمة تحت رقم ١ وتحت رقم ٢ شجرة فوق الجبل) وهو جبل صغير بالنسبة لما حوله من الجبال ارتفاعه قريب من ٣٠ مترا وطوله ٣٠٠ متر ويصعد اليه بمدارج كبيرة على شكل سلم غير منتظم، به ٩١ درجة يختلف ارتفاع الواحدة منها من عشر المتر الى ثلاثة أعشاره ، وعلى يمين الصاعد على الجبل قريبا من منتصفه مستو طوله ١٥ مترا فى عرض ١٠ أمتار وبه مصلى ذو قبلة يسمى مسجد إبراهيم عليه السلام ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه ، وهذا غير صحيح فان هذا المسجد والدرج الذى وصفناه بناهما الوزير محمد بن على بن المنصور المعروف بالجواد الأصفهانى فى سنة ٥٥٩ (أنظر كتاب منائح الكرم) وفى أعلى الجبل مستو مبلط مربع ضلعه ٥٠ مترا وفى وسط المستوى مِسْطبة مربعة ضلعها ٧ أمتار وارتفاعها متر ونصف ، وعند الركن الغربى منها عمود مربع مبنى بالحجر الأصم ومجصص ارتفاعه نحو أربعة أمتار وعرض كل جانب من جوانبه الأربعة متر ، وهذا العمود علم على جبل الرحمة وتعلق به مصابيح ليلة عرفة إرشادا للحاجين والسالكين ، وحول العمود حائط به محراب يصلى اليه الناس

منظر جبل عرفات

(١) منارة بها مصابيح (٢) شجرة



41. A view of Gebel Rahma. known by Gebel Arafat.

صحيفة ٤٤

معسكر الحجاج بعرفات ومسجد الصخرات



[illegible]

42. The camp of the pilgrims in Arafat, and El Sakharat Mosque in 1321.

مسجد نمرة في الحد الغربي لعرفات وقد صلى به النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر يوم حجة الوداع سنة عشرة من الهجرة



43. Namerah Mosque where the Prophet performed the midday and the afternoon prayers together.



44. A photo of the pilgrims at Arafat on 9th of El Hegga in 1321

وبأسفل الجبل مسجد صغير يسمى «مسجد الصخرات» يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه ولم يثبت، وسمى بذلك لأن فى أرضه صخورا كبيرة بعضها الى جانب بعض (أنظر الرسم ٤٢) والمسجد واطئ فى جانبه الغربى، وبجوار جبل الرحمة ثمانية أحواض مبنية بناء متينا تملأ بالمـاء من مجرى عين زبيدة بواسطة مجار تحت الأرض وذلك فى زمن الحج فقط وترم وتنظف كل سنة قبل أوانه، وفى جنوب الميدان على طريق الطائف جامع عتيق اسمه جامع «نَمِرَة» أو مسجد إبراهيم أو مصـلى عرفة وهذا المسجد يجمع فيه الحجاج يوم عرفة بين الظهر والعصر جمع تقديم مع الامام الذى يخطب فيه قبل الصلاة خطبة يعلم الناس فيها آداب الوقوف وأنه ممتد الى الغروب (أنظر مسجد نمرة فى الرسم ٤٣) .

ويحيط بوادى عرفة من جهته الشمالية والجنوبية والغربية مجرى عين زبيـدة (وسنوافيك قريبا بالكلام عليهـا تفصيلا وصفا وتاريخا) . وعرفة كلها موقف الا وادى عرنة .

قد نبأناك بأن ركب المحمل نزل من عرفة مكانه المعتاد وسـط الوادى وقـد بتنا بها ليلة التاسع من ذى الحجة، وقبل المغرب بساعة من يوم عرفة تحرك المحملان المصرى والشامى أولها يسار ثانيهما يتقدمهما أميراهما وأمين الصرة، والجند يحيطون بهما حتى وصلا الى سفح جبل الرحمة فى مكان صلب مرتفع قليلا عن سطح الأرض ووقف الخطيب على جمل بجبل الرحمة قريبا من سفحه يحيط به العساكر لمنع التزاحم عليه، ووقف بجواره مبلغان مصرى وشامى بيـد كلّ منديل يلوّح به للحجاج كلما سكت الخطيب، وساعة يلوحان ترى الآلاف المؤلفة من الأجناس المختلفة وقد كشفت منهـم الرءوس وعريت منهـم الأقدام الا القليل وارتدوا ملابس الإحرام تراهم يستغيثون ومما أسلفوا يستغفرون رافعين عقيرتهم بالتلبية (لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . أن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) .

ألسنة مختلفة من أجناس متباينة جأرت الى الله بالدعاء فشق صوتها أجواز الفضاء، فاهت بكلمات انبعثت عن قلوب مخلصة وأفئدة طاهرة ونفوس نسيت كل شيء الا ربها إنها وأيم الله لتترك فى النفس أثرا لا يحيط به الوصف ولا تحدّده العبارة بل لا يعرفه الا من سمع وأبصر « ولا ينبئك مثل خبير » .

وما أظرف ما قاله أبو نوّاس فى التلبية .

إلهنا ما أعدلك * مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك * لبيك أن الحمد لك
والملك لاشريك لك * ما خاب عبد سألك
أنت له حيث سلك * لولاك يارب هلك
لبيك أن الحمد لك * والملك لاشريك لك
والليل لما أن حلك * والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك * كل نبي وملك
وكل من أهل لك * سبح أو لبى فلك
يا مخطئا ما أغفلك * عجل وبادر أجلك
اختم بخير عملك * لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك * والحمد والنعمة لك

وإنك لترى جبل الرحمة قد ملأه الحجاج حتى لم يبق به موضع لقدم، وكأنك اذا نظرته لا تنظر الا أكداسا من الناس رافعين أيديهم الى قبلة الدعاء شاخصة أبصارهم نحو السماء (أنظر الرسم ٤٤ وفيه ترى بيرق المحمل فى أعلاه كأنه رجل والوجه الكبير وجه الشيخ محمد أبى النور نجل صهرنا الشيخ طموم) وأن أغلب هؤلاء من السودانيين واليمنيين والمغاربة وأنهم ليتخذون الجبل مسكنا لهم ويؤدون به جميع أعمالهم من طهى وغيره مدّة لبثهم بعرفة . ويظنون أن الوقوف بجبل الرحمة فضيلة كبرى مع أن ذلك بدعة، فقد جاء فى كتاب منائح الكرم ما نصه . قال الشيخ تقى الدين

منظر المحملين المصري والشامي النازلين من مزدلفة الى منى يوم (١٠) الحجة سنة ١٣٢١



45. The Egyptian and Syrian Mahmals on their departure from Muzdalifa to Mina on the 10th. of Zu El-Hegga 1321.



46. The Ameer of the Syrian Pilgrimage caravan riding his horse and carrying a Firman addressed to the Ameer of Mecca entrusting to him the care of the pilgrims

ولا نعلم فى فضل هـذا الجبل الذى يصعد اليه الناس بعرفة خبرا ثابتا ولا غير ثابت وما يخص الناس به هذا الجبل من الحرص على الوقوف عليه دون موقفه صلى الله عليه وسلم ودون مواقف عرفه قبل وقت الوقوف ، وإيقادهم عليه النيران فبدع تستلزم محظورات من اختلاط النساء بالرجال وغير ذلك، وإنما حدث ذلك عند انقراض العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر واستيلاء الجهل على الناس وأخذهم الأمور بالقياس اه بلفظه فليحفظ ذلك . هكذا جاء بالكتاب المذكور تحت حوادث سنة ٥٥٩

وقد استمر الخطيب يخطب والناس وقوف حتى مغرب الشمس وإذ ذاك أشعل أحد رجال المدفعية من المحملين شهبا (صواريخ) إيذانا بالانصراف من الموقف، فأفاض الناس مهللين ومكبرين ورحل المحملان المصرى فى ميمنة الشامى (أنظر الرسم ٤٥) والجند يسيرون صفين ومن بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم الحجاج والموسيق والمزمار يعزفان بالألحان المشجية، وأخذت مدافع الشريف والوالى والمحملين تتناوب طلقات البشر والسرور، وقد سرنا نحو المزدلفة من حيث أتينا فبلغناها بعد ساعتين ووقت الوصول ضرب ٢١ مدفعا إعلاما ببلوغ القصد ونزل كل محمل فى مكانه المعتاد وجمع كل حاج ٤٩ أو ٧٠ حصاة صغيرة قدر الفولة أو البندقة ونظفها بالماء استعدادا لرمى الجمرات بمنى، وبتنا ليلتنا بالمزدلفة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ولنقف فى الصباح عند المشعر الحرام امتثالا لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ وقد استيقظنا حوالى الفجر وأدينا صلاته فى أول وقته وارتحل المحملان إلى موضع مسجد قديم ارتفاعه متران وبجنبه سلم وقف عليه الخطيب والتف الحجيج حوله ركبانا ومشاة وأخذ الخطيب يخطب من الساعة الحادية عشرة حتى قرب مطلع الشمس فى منتصف الساعة الثانية عشرة ، وقد كان الناس فى خلال ذلك يدعون ويلبون كلما دعا الخطيب ولبى، وموقفنا هـذا كان بجوار « المشعر الحرام » وهو جبل بالمزدلفة يسمى بذلك لأن الجاهلية كانت تُشعِر عنده.

هداياها (والإشعار ضرب الإبل فى صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم) ووصف بالحرام لحرمة الصيد فيه لأنه من جملة أراضى الحرم التى يحرم فيها الاصطياد .

وقد ارتحل المحملان الى مِنًى قبيل طلوع الشمس فى منتصف الساعة الأولى من صباح يوم العيد الأكبر من سنة ١٣١٨ واقتفاهما الحجيج ووصلنا مِنى بعد ساعة فتوجه الناس لرمى الجمرة الأولى «جمرة العقبة» وهى بأول منى من جهة مكة على يمين القاصد لها ، وهذه الجمرة حائط مبنى بالحجر عال من وسطه وقد أخذ كل حاج يرميه بحصياته السبع واحدة بعد أخرى مع التكبير فى كل مرة ، قال المحب الطبرى : وليس للرمى حدّ معلوم غير أن كل جمرة عليها علم وهو عمود معلق هناك فيرمى تحته وحوله ولا يبعد عنه احتياطا، وحدّه بعض المتأخرين بثلاثة أذرع من سائر الجوانب إلا فى جمرة العقبة فليس لها إلا وجه واحد لأنها تحت جبل . وبعد رمى الجمرة المذكورة ذهبنا الى مواطننا، ونحر الهدى(١) من كان معه هدى وحلق من حلق وقصّر من قصر والنساء قصرن ولم يحلقن .

وبعد ذلك أفاض الحجاج من منى الى مكة ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مرتدين لباس الإحرام وطافوا طواف الإفاضة وسعى من عليه سعى وحلق أو قصر، ثم انقلبوا الى مِنى فباتوا بها ليلة الحادى عشر وبعد الزوال من صباحه رموا الجمار الثلاث كل جمرة بسبع حصيات بادئين بالجمرة الصغرى التى تلى (مسجد الخيف) من ناحية مِنى ثم بالجمرة الوسطى ثم بجمرة العقبة، والرامى يقف عقب رمى الجمرتين الأوليين يدعو الله بما شاء ولا يقف عقب الأخيرة لضيق مكانها، وقد بتنا بِمنى ليلة الثانى عشر ورمينا بعد ظهره الجمرات كسابقه ثم منا من سافر الى مكة قبل الغروب ومنا من بات ليلة الثالث عشر ليرمى الجمرات الثلاث فيه ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وبذلك تمت أعمال الحج وحل للمحرم كل شىء كان محرّما عليه بالإحرام (أنظر الجمرات والحجاج يرمونها فى الرسوم ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧) .

(١) الهدى ما يهدى الى الحرم من الابل والبقر والغنم .

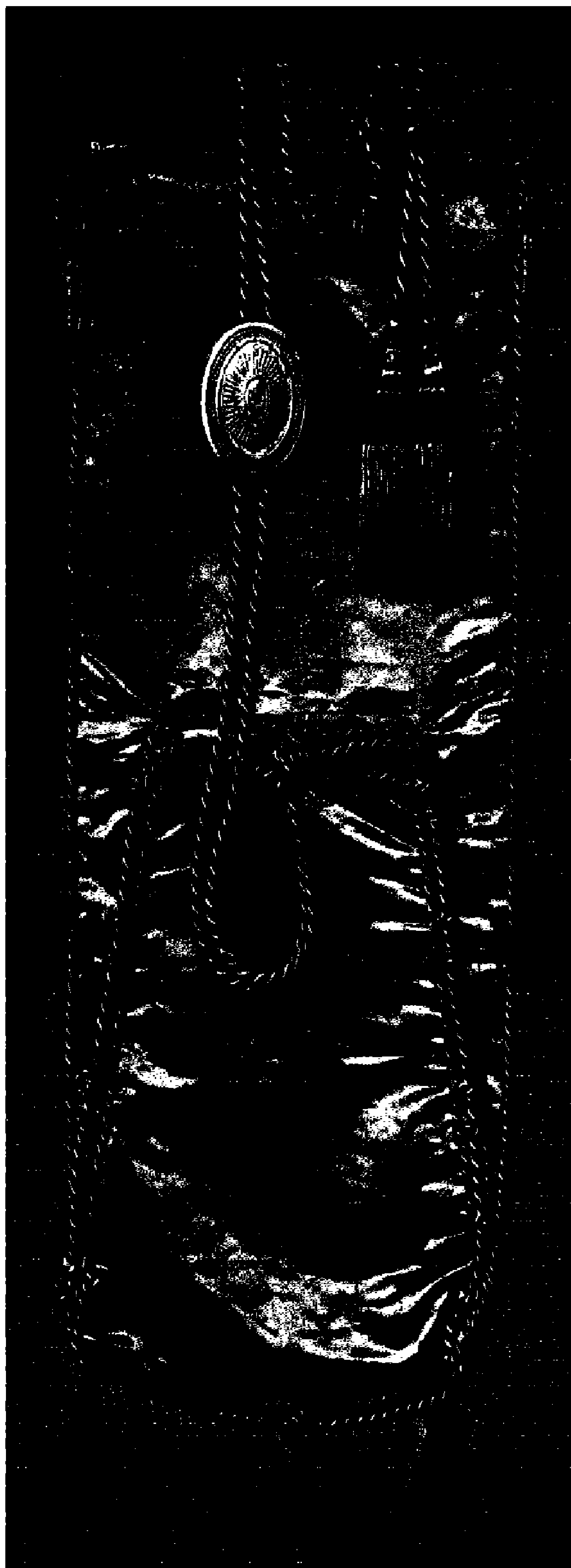
ومن فكاهات الحجاج عند رمى الجمرات أن بعضهم كان يرمى الحصيات السبع دفعة واحدة ويخاطب إبليس بلفظة «يلعن دينك» وبعضهم كان يرمى حصاة حصاة ويقول العبارة السابقة عقب كل واحدة أو يقول « فى عين دينك » وبعض الحجاج لا يكتفى بالحصيات الصغيرة بل يأتى بأحجار كبيرة ويرمى بها الجمرة (العمود القائم) بل لا يرتاح له بال إلا اذا هدم جزءا من البناء، ومنهم من يقف على البناء ويرمى ومنهم من يلصق به جسده ويرمى؛ وقد كان من الضباط الذين معنا «اليوز باشى» عبد الوهاب حبيب افندى فلما جاء وقت رمى جمرة العقبة أخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس (الجمرة) دفعة واحدة بهيئة هجوم على عدو وانتقام منه .

الاحتفال بتلاوة الفرمان السلطانى

فى يوم ١١ ذى الحجة ونحن بِمِنى احتفل بتلاوة الفرمان السلطانى ودعا الشريف لذلك أميرى المحملين المصرى والشامى وأمين الصرة والضباط وكبار رجال الدولة والحجاج، وكان الاحتفال بسرادق الشريف الذى اصطفت أمامه حرس كل من الشريف والوالى بموسيقاهم وموسيقى محملنا شاركتهم، وانتشرت الجموع الكثيرة من الحجاج المختلفى الأجناس حول السرادق وكان يتقدّم الحرّس على جواد حاملُ الفرمان السلطانى وآخرون يحملون خِلعا معتادا حضورها من الإستانة سنويا (الرسم ٤٦) وكان للشريف فى وسط السرادق مكان خاص وعلى يمينه : (١) فرمان فرما ابن عم شاه العجم وصهره؛ (٢) الشريف على باشا؛ (٣) الشريف محمد ناصر غالب باشا؛ (٤) بقية الأشراف؛ (٥) قاضى مكة والعلماء والأعيان؛ (٦) ضباط المحمل المصرى وعلى يسار الشريف : (١) المشير أحمد باشا راتب والى الحجاز وكان بحالة خضوع وخنوع لا تليق برتبة مشير؛ (٢) سلطان المكلة والشِّحْر عوض بن عمر القعيطى؛ (٣) نجله عمر بن عوض القعيطى؛ (٤) حفيده محمد بن غالب؛ (٥) أمير وأمين وموظفو المحمل الشامى؛ (٦) أمير وأمين وموظفو المحمل المصرى؛ (٧) موظفو مكة وكبار الضباط . وبعد جلوس هؤلاء بالترتيب السابق خرج عليهم الشريف فى زينته

من مكان خاص به وحوله بعض خواصه من الأشراف فقام الجميع وقبلوا يده وقبل دولته رأس صهر شاه العجم وسلطان المكلة والشحر حينما انحنيا لتقبيل يده ثم تقدّم الى الأمام وتسلم المكتوب السلطانى (الفرمان) من يد حامله وقبله وكان داخل كيس من الأطلس الجميل (الرسم ٤٧) موضوع فى وقاية (بقجة) من الحرير الأطلس الأخضر موشاة بالقصب المنسوج (المخيش) ذى الرسوم البديعة (الرسم ٤٨) ثم رجع إلى محله فجلس على أريكة وسط السرادق ووضع الفرمان عن يمينه ثم لم يلبث أن وقف هو والحضور وأمر بتلاوة الفرمان فتلاه كاتبه الخاص محمد على افندى تلا أولا صورته التركية ثم تلا ثانيا صورته العربية، ولكنه أسرع فى تلاوته بالعربية إذ قال له الشريف: «جوام جوام» وبعد التلاوة صدحت الموسيقى السلطانية بالسلام الملكى وكذلك هتف العساكر والجموع بالدعاء للخليفة الأعظم، ثم تقدّم أمين الصرة الشامى بخلعة للشريف وألبسه إياها فوق الخلعة التى يلبسها من قبل وهى التى أهديت له فى العام الماضى — وهذه عادة سنوية — ثم قدّم له خلعة أخرى من قبل جلالة السلطان فلبسها أيضا وكانت صغيرة خفيفة من الجوخ الأسود ومطوّقة بالقصب، وكان دولة الشريف يقبل كل خلعة قبل لبسها وكان على رأسه عمامة عليها أشرطة من القصب الجميل ثم وزعت خلع أخرى على بعض الموظفين وقارئ الفرمان وغيرهم، ولثقل الخلع الثلاث كان يرفع الخلعتين الجديدتين شخصان تخفيفا عن الشريف ثم أديرت كؤوس المشروبات الحلوة على الحاضرين والموسيقى المصرية والشاهانية يتناوبان الألحان. وكذلك أخذ جماعة من أهل مكة يسمون «أهل النوبة» يضربون على النقارات ومعهم آلات أشبه بالرّباب يغنون عليها بالأناشيد العربية الجميلة، فكانت الوجوه فرحة مستبشرة ثم قبل الجميع يد الشريف ومنهم من قبل مع ذلك ذيل الفرجية (الأتك) وانصرفوا، وإذ ذاك نزع الشريف الخلعتين عن جسمه ووضعتا فى الوقايات الحريرية التى أرسلت فيها من الإستانة، وهكذا فى كل عام تجدّد الخلعتان والفرمانان العربى والتركى، ولا بأس من أن نصف لك الخلعة الأولى التى قدّمت للشريف أوّلا وصفا مقربا: الخلعة عبارة عن فرجية —كفرجية العلماء— من الجوخ الأسود القيم مطرّزة

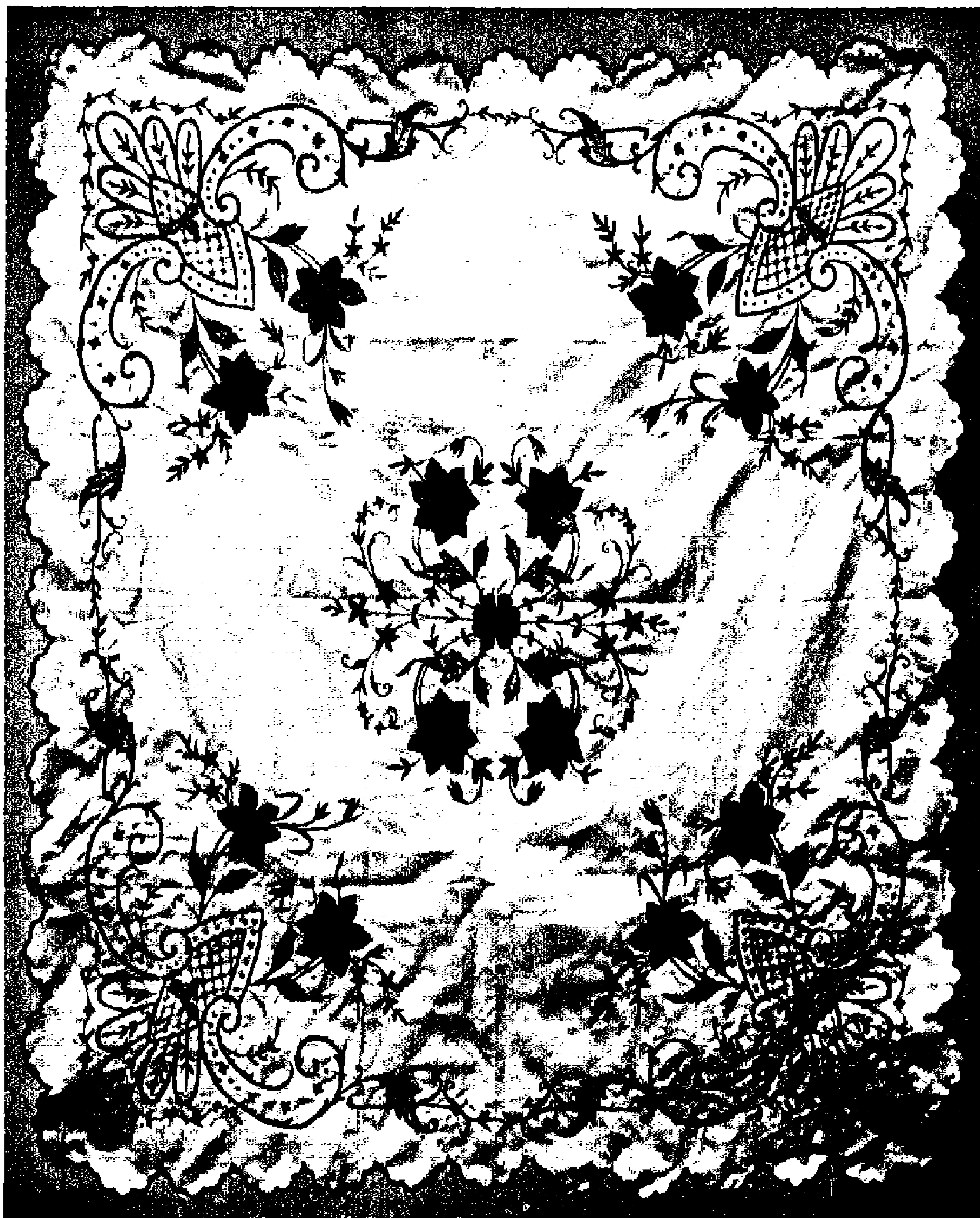
كيس الفرمان الشاهاني



[illegible]

47. A view of a bag used for keeping the Faraman.

بقچة الفرمان الشاهاني



[illegible]

48. A view of a cloth bag used for keeping the Faraman.

ترجمة الفرمان الشاهاني بالعربية

[illegible]

49. A copy of the Turkish Faraman, in Arabic, to the Amir of Mecca.

عنوان الفرمان الشاهاني بالتركية

50. The title of the Faraman in Turkish language.

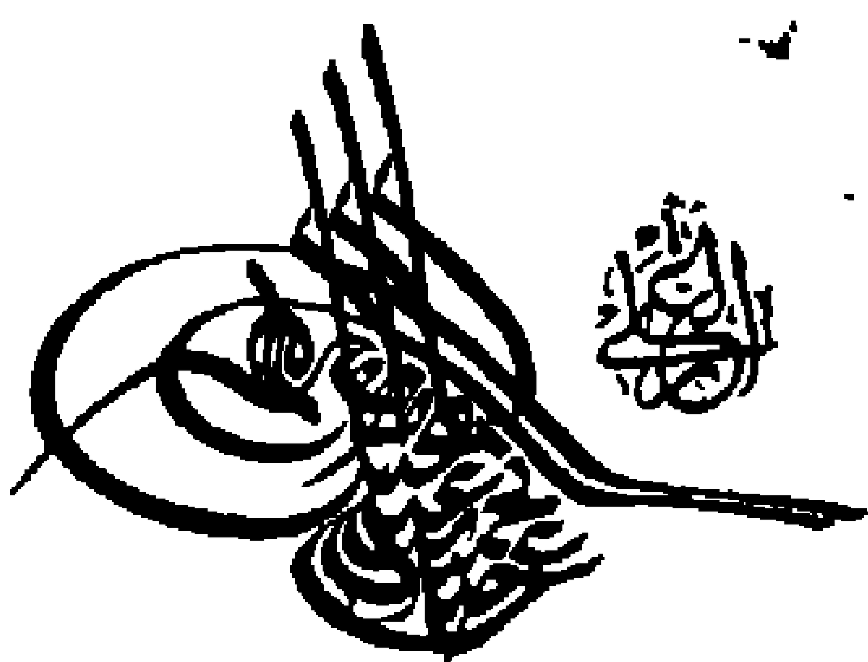
مقدمة الفرمان الشاهاني بالعربية

50. A copy of the introduction of the Faraman in Arabic language.

عنوان الفرمان الشاهاني بالعربية

50. The title of the Faraman in Arabic language.

الفرمان السلطاني التركي لأمير مكة



51. A copy of the Turkish Faraman to the Amir of Mecca.

بالقصب المنسوج (المخيش) ذى الأشكال البديعة والتقاسيم الهندسية العجيبة وقد كاد القصب يشغل كل سطحها فلا ترى به إلا اليسير من الجوخ وهى مرصعة باللؤلؤ الحر ولها مشابك من الألماس البرلنتى الذى يكاد سنا ضوئه يخطف بالأبصار وبالخلعة جميع وسامات (نياشين) الدولة إلا «خاندان آل عثمان» الذى لا يعطى إلا لأفراد الأسرة المالكة وعدد الوسامات ٢١ وساما منها المرصع وغير المرصع . أما المكتوب السلطانى (الفرمان) فيشمل قرطاسين كبيرين من الورق أحدهما مكتوب باللغة العربية والآخر باللغة التركية وطول العربى متر و ٤١ سنتيا وعرضه ٧٩,٥ سنتيا وفيه طرّة عثمانيــة باسم جلالة السلطان محلاة بمـاء الذهب تحتها ٢١ سطرا وفوقها ١٤ سطرا وطول السطر ٧٠ سنتيا وعرضــه ١,٤ سنتى و بين السطر والآخر سنتيان أنظر المكتوب العربى فى الرسم ٤٩ وعنوانه ومقدّمته فى الرسم ٥٠، أما المكتوب التركى (الفرمان) فطوله ١,٤٢٥ متر وعرضه ٧٨,٥ سنتيا و به ثمـانية أسطر وثلث طول السطر ٦٩ سنتيا وعرضه ٢٦ مليمترا و بين السطرين فضاء ٥,٥ سنتيات وتراه فى (الرسم ٥١) وعنوانه فى (الرسم ٥٠) وقد بلغنى أن من يخط الفرمان يتناول مرتبا شهريا قدره ٤٠٠ جنيه عثمانى و إن من يتأمل الخط ووضـعه وحسن تنسيقه يرى أن كاتبه يستحق مكافأة جزيلة ولكن لا ينبغى أن تكون لهذا القدر ٤٨٠٠ جنيه فى السنة بل يكفى مرتب مناسب على أنه لو عمل له طابع (إكلشيه) لوفر هذا المقدار وصرف فى وجوه الإصلاح الأخرى، وما على الكاتب اذا تغير أمير مكة إلا أن يكتب اسم الأمير الجديد بخطه فقط إذ عبارة المكتوب السلطانى لا تغـير، وهذان المكتو بان سطرا بأجمل خط عربى و يتضمنان الثناء على الشريف والخليفة ونصح الأول بمساعدة الحجاج وكف أذى العربان عنهم وصرف المرتبات لأربابها وفيهما كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تأخذ بمجامع القلوب ولكنها مواعظ لم تصادف الأذن الصاغية والقلوب الواعية فانك تسمع عقب تلاوته دوِى الرصاص يرمى به الأعراب حجاج البيت الحـرام وترى دولة الشريف يقول «سيبوهم» فمـا أرق الموعظة وما أقسى القلوب .

التهنئة بالعيد فى منى

شغل الناس عن التهنئة بالعيد فى يومه لأنهم ذهبوا الى مكة لأداء طواف الإفاضة بعد رميهم جمرة العقبة فى صباح العيد، وفى اليوم الثانى أخذوا يتزاورون مهنئا بعضهم بعضا بالعيد الأكبر . بعد أن انتهت الحفلة بتلاوة الفرمان زرت مع الأمير والأمين الوالى والأشراف ورئيس العسكر السلطانى ورئيس المالية « المحاسبجى » وأمير المحمل الشامى وأمينه وهنأناهم بالعيد وقدمت لنا المشروبات الحلوة وأطلق أمير الحج الشامى ١١ مدفعا تحية لأمير الحج المصرى ثم رجعنا الى أماكننا انتظارا للزائرين كما هى العادة فى الأعياد .

وفى الساعة ١١ العربية تفضل دولة المشير أحمد باشا راتب بزيارتنا فزار الأمير والأمين ورئيس الحرس كلا فى مكانه وكان يرتدى ملابس التشريفة الكبرى ، وكان بصحبته صاحب السعادة اللواء صادق باشا العظم المدير العام للاشارات البرقية الحجازية وقد احتفينا بهما الاحتفاء المناسب لمقامهما وأطلقنا لقدومهما وترحالهما ٢١ مدفعا وسرهما حسن النظام العسكرى ، وكانت الجنود قد اصطفت صفين سارا بينهما وقد قدمت لدولة الوالى ضباط الحرس فوقف وصافحهم وأثنى عليهم ، وبعد تناول القهوة والأشربة الحلوة انصرف مودعا بمثل ماقوبل به فصدحت الموسيقى بالسلام العظيم ولا أنسى الثناء على حضرات الضباط فى هذا الموطن فانهم أحضروا جميع ما لديهم من السجاجيد والكراسى ووضعوها فى سرادق مما جعل منظره حسنا بهيجا وإن ذلك منهم لآية على حسن طويتهم وحبهم لما يعلى رئيسهم، وكذلك زار كلا منا فى سرادقه أمير المحمل الشامى وأمينه فاحتفينا بهما وأطلقنا لقدومهما ١١ مدفعا وقد كانا بملابسهما الرسمية وعلى كل وسام (نيشان) عثمانى من الدرجة الأولى ، وبعد تناول القهوة والشاى عادا بسلام شاكرين حسن اللقاء ودماثة الأخلاق ، وممن زارنا الشريف على باشا ومحمد ناصر غالب باشا وقد لبثا عندنا زهاء ساعة مسرورين من قيامنا لهم بالواجب ، وزارنا أيضا الشيخ الشيبى ووكيل الشيخ السنوسى وابن الشيخ الفاسى

وكثير من الضباط العثمانيين والحجاج وخدام المسجد الحرم (الأغوات) وقد آستمرت تلك الزيارات حتى الساعة السادسة ليلا ، وكان الضباط يحتفلون بالزائرين ويعنون براحتهم .

الزينات بمِنى — هذا وقد أقيمت فى مساء ١١ ذى الحجة الزينات بِمِنى عند خيم الشريف والوالى وأميرى المحملين وأطلقت « الصواريخ » بعد العشاء، وقد هرع الناس الى زينة المحمل المصرى لجمالها وحسن تنسيقها وليسمعوا الموسيقى والمزمار البلدى، وكان الزحام شديدا خصوصا فى سرادقى إذ رأوا فينا أكنافا موطأة وصدورا رحبة ووجوها باشة .

ذبائح منى وسوقها — كان الحجاج فى هذا العام يقاربون مائة وخمسين ألفا وكان أكثرهم ينحر الهدايا بِمِنى فى ساعة واحدة من يوم النحر، وكان الناس فى الأعوام السالفة ينحرون بالقرب من منازل الحجاج وفى ذلك تلويث الأماكن بالدماء وإثارة الروائح الكريهة التى تجعل الهواء موبوءا والأجسام معتلة ولكن فى هذا العام عملت حفر كثيرة بعيدة عن منازل الحجاج بألف متر أريقت فيها الدماء فلم يلوّث الهواء بِمِنى ولم نشم الروائح البشعة وكان الجوّ معتدلا — ولكنه بالليل بارد — من أجل هذا كانت صحة الحجاج حسنة ولم يمرض أحد منا . وكان ثمن الشاة من ريالين ونصف الى ثلاثة ونصف وكان يؤخذ للشريف على كل رأس من الغنم تباع للحجاج خمسة قروش من البائع .

وبِمِنى سوق تجد بها ما يلزم من سلاح وملابس وسجاجيد وطنافس (أكلمة) ومرجان وخرز، والمبيعات معظمها بالطريق وقليل بالحوانيت، والعربى يشترى من هذه السوق ما يلزمه طول السنة .

الرجوع من مِنى الى مكة

فى الساعة الثامنة العربية من يوم ١٢ ذى الحجة سنة ١٣١٨ رحل ركب المحمل ورمى الجمار الثلاث فى زحام شديد لم نرله مثيلا إذ قطع المحمل المسافة بين الجمرة

الصغرى وجمرة العقبة فى ساعة بينما هى لا تزيد على ٣٠٠ متر ثم تابعنا السير فوصلنا مكة فى منتصف س ١١ وأدخلنا المحمل الى فناء المسجد الحرام من باب النبىّ صلى الله عليه وسلم حسب المعتاد وتركنا لحراسته بعض الجنود وبقى بالمسجد حتى يوم الاثنين ٢٥ ذى الحجة حيث آحتفل بسفره من مكة الى المدينة بعد أن ورد لنا كتاب تركى من دولة الوالى بتعيين موعد الاحتفال وترى الكتاب بنصه فى (الرسم٥٢) وهو وإن كان فى سنة ١٣٢٥ فان نصه لا يتغير .

الاحتفال بفتح «المسافرخانة» السلطانية

فى يوم الخميس ١٥ ذى الحجة آحتفل بفتح المضيفة (المسافرخانة) التى شيدها لفقراء الحجاج جلالة السلطان عبد الحميد من ماله الخاص وقد أقيم بناؤها فى فضاء واسع جنوبى مكة الغربى وقد حضرت مع ضباط المحمل وحرسه هذا الاحتفال بدعوة من الوالى ، وفى الساعة الأولى العربية اصطفت عساكرنا بالفضاء الواسع أمامها فى الجهة الغربية والعساكر العثمانية فى الجهتين الشرقية والبحرية ومع كل قسم موسيقاه وقد ازدحم باب المضيفة بأكابر مكة وأشرافها ومعهم أميرا المحملين وأميناهما ، وفى منتصف الساعة الثانية حضر دولة الوالى فحيته الجنود بهتافهم وموسيقاهم وصافح الحاضرين ثم صعد الى الطبقة العليا منها فرأى حجراتها وطرقاتها فأعجب بنظامها ثم نزل الى الطبقة الأولى ولم تمض عشرون دقيقة حتى شرف أمير مكة وحاكمها الحقيق فحيته الجنود والموسيقى بالسلام السلطانى وقبل يده جميع الحاضرين ثم أمر بقراءة خطبة كلها دعاء وثناء وتعديد لمآثر السلطان ، وبعد قراءتها صدحت الموسيقى بالسلام الملكى معقبا بالهتاف لجلالة السلطان ، وقد بدأ القسم المصرى بالسلام أولا فالقسم العثمانى الشرقى فالقسم البحرى ثم دخل الشريف المضيفة وجلس فى حجرة من طبقتها الأولى ومعه الوالى والمدعوون — ويقال : أنه أُمِر بالوسام (النيشان) المجيدى الثانى لأمير الحج المصرى وبالمجيدى الثالث لأمين الصرة ولكنه شىء سمعناه ولم نره — والظاهر أنه قصد بتلك الاشاعة أن يتساهلا

(الرسم ٥٢)

إلى جناب محافظ المحمل المصرىّ صاحب السعادة

سيحتفل فى الساعة الثالثة العربية من اليوم الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢٥ بسفر المحملين الشريفين من مكة المكرمة الى المدينة المنورة حسب المعتاد و يكون حضور المحمل وموظفيه بالكسا الرسمية ويحضرون فى منتصف الساعة الثالثة من اليوم المذكور بميدان المخفر الكبير والأمر لمن له الأمر

والى الحجاز ورئيسه العسكرى «ياور أكرم» أحمد راتب

١٠٣١١

مع الشريف فى تقدير أجر الجمال ولا يتشدّدا ولكن هيهات أن تجوز عليهما الحيلة ثم صعد الى الطبقة الثانية ووقف بطنف (تراسينة) فيها ليشاهد العساكر حين انصرافها الى ثكناتها وقد سرّ كثيرا من نظام القسم المصرى وجميل شكله، وبعد فراغنا من التحيات العسكرية دخلت المضيفة وتفقدتها فاذا هى بناء فخم محكم البناء جميل النظام يحتوى على طبقتين مسقوفتين بالحديد الذى يتخلله عقود بالآجر الأحمر الافرنكى والبياض متقن جدا فى نعومة وهو من المواد العادية ومسحوق الرخام، والأرض مرصوفة بالبلاط، والجهتان البحرية والشرقية تم بناؤهما وبياضهما ورصف أرضهما أما الجهتان الأخريان فلمّا يتم تجصيصهما وتبليطهما، وللمضيفة فناء واسع كانت به حفر كثيرة خلفتها الأتربة التى أخذت للبناء، وطول الضلع البحرية من هذه السراى ١٥٠ مترا فى منتصفها الباب العام تعلوه «الأرمة» العثمانية المذهبة وضلعها الشرقية ٩٠ مترا بالتقريب والقبلى مثل البحرى والغربى كالشرقى وجميع أبوابها ومنافذها مصنوعة من الخشب المتين الذى طلى بطلاء جوزى، ومفاصل الأبواب والنوافذ ومقابضها وزواياها مصنوعة من النحاس صنعا متقنا، وبيوت الخلاء بعيدة عن مبانى الحجرات حتى لا تؤثر فى الجدران بالترشيح ولا تشم روائحها الكريهة، ولم تكن الأنابيب والصنابير (الحنفيات) قد وضعت بها وإن يعجبك هذا النظام فاعجب لهذه السراى التى بها ناظر وخدم وطباخون يأخذون مرتبهم من ثلاث سنين خلت فى حين أنه لا توجد حجرة من حجراتها مفروشة ولا يوجد بها فقير واحد . وقد بلغنى أن جلالة السلطان أنفق على إقامتها ٩٠٠٠٠ جنيه مجيدى (الجنيه المجيدى ٨٧,٧٥ قرشا مصريا) وقد أخذت رسم المضيفة فى سنة ١٣٢٥ وهو كما تراه فى (الشكل ٥٣) .

زيارة غار حِراء (جبل النور)

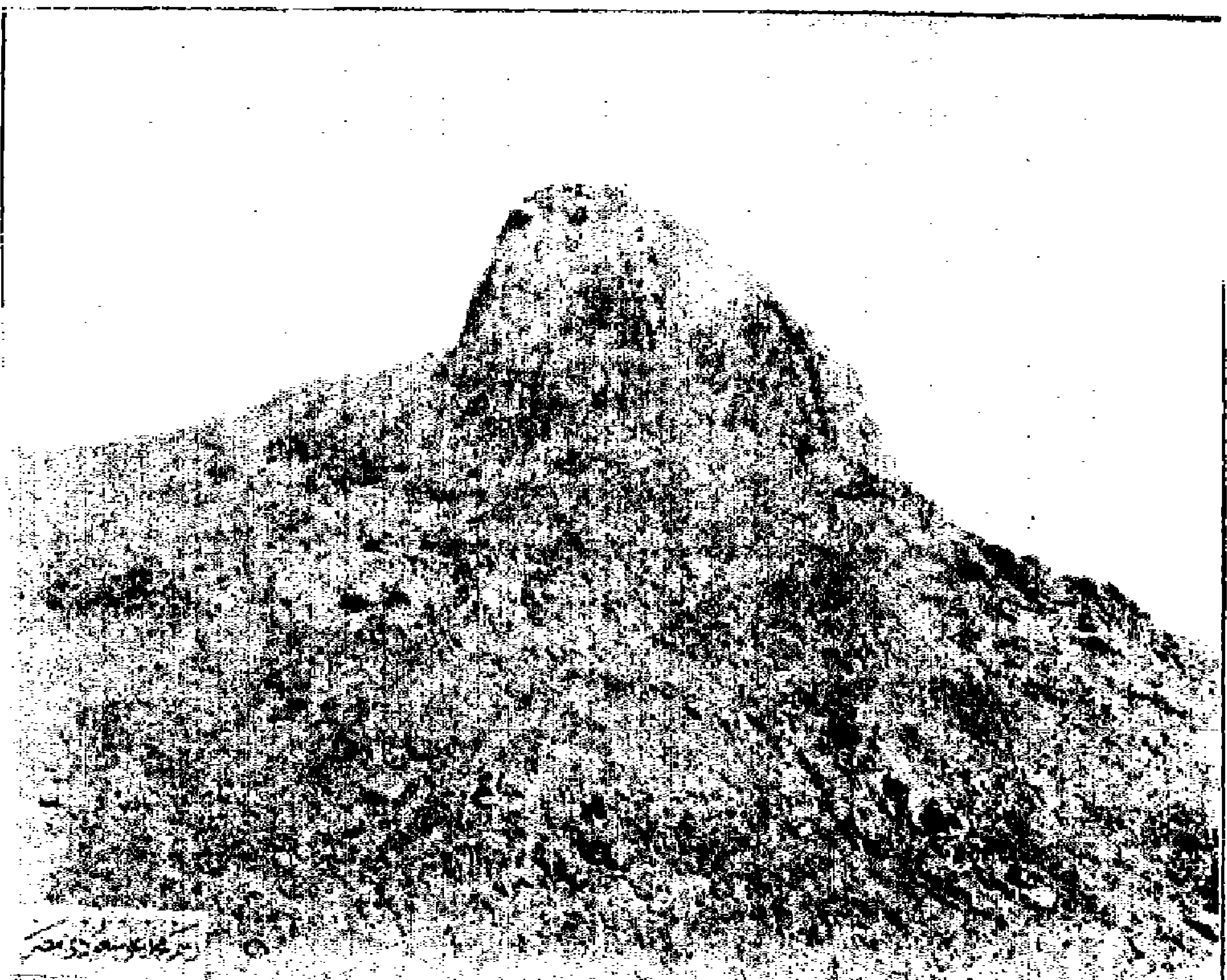
روى البخارى فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم

منظر المسافرخانة بمكة المكرمة



53. The Rest House at Mecca.

جبل غار حراء



54. The Mount of the Cave of Hera at Mecca.

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح(١) ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو « بغار حراء » فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق(٢) وهو فى «غارحراء» فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارئ قال : فأخذنى فغطنى(٣) حتى بلغ منى الجهد(٤) ثم أرسلنى فقال اقرأ : قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٥) . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف(٦) فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال زملونى(٧) زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع(٨) فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم(٩) وتحمل الكل(١٠) وتكسب المعدوم وتقرى(١١) الضيف وتعين على نوائب الحق — الحديث .

فترى من هذا مكانة «غارحراء» وأنه كان متعبدا للرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وأن به نزلت أول سورة من القرآن الذى هو نور وهدى للناس وفيه شفاء لما فى الصدور فلا تعجب إذا رأيتنا ولعين بزيارة هذا الأثر، ففى يوم ١٦ ذى الحجة سنة ١٣١٨ قصدت جبل حراء فى جملة من الضباط والعساكر وبعض الحجاج فوصلنا إليه بعد خمسين دقيقة بسير الخيل المعتاد، وهذا الجبل يقع فى شمالى مكة على يسار الذاهب إلى عرفات بعيدا عن جادة الطريق بنحو ميل، ويقول ياقوت

(١) بياضه . (٢) الوحى . (٣) الغط : العصر الشديد، ومنه الغط فى الماء : الغوص قيل : إنما غطه ليختبره هل يقول من تلقاء نفسه شيئا . (٤) الطاقة . (٥) دم غليظ . (٦) يضطرب قلبه . (٧) لفونى فى الثياب . (٨) الخوف . (٩) القرابة . (١٠) الضعيف . (١١) تكرمه .

فى معجمه : إنه على ثلاثة أميال من مكة وأنه جبل شامخ أعلى من ثبير وفى أعلاه قلة شامخة زلوج — أنظر الجبل فى (الرسم ٥٤) — وفى ميسرة القِمة نفس غار حراء،

وقد صعدنا هـذا الجبل فى ٣٥ ق مع أن آرتفاعه حوالى ٢٠٠ متر ولكنـه يكاد يكون عموديا فلذا كان صعب المرتقى واضطررنا إلى الاستراحة مرتين أثناء الصعود وأغمى على بعض الضباط ولولا ما معنا من الماء الذى رششنا به وجهه لحصل ما لا تحمد عقباه ، ولذا يجمل بمن رام صعوده أن يستصحب بعض المياه خصوصا فى آونة الحرّ، وقبل أن نصل الى قنة الجبل بثلاث دقائق وجدنا خزانا نحت بالجبل لحفظ مياه المطر يبلغ طوله ٨ أمتار فى عرض ٦ وعمق ٤ وله درج للوصول إلى قاعه وكان خاويا من الماء، ووجدنا بجانبه آمرأة عربية تصنع القهوة والشاى للزائرين فى موسم الحج وتبيعهما بالثمن وقد تناولنا من شايها وقهوتها وفرشت لنا بساطا من الصوف، ومكثنا فى حضرتها نصف ساعة ونقدناها الثمن مضاعفا مكافأة على ما قدّمت ثم تسنمنا ذروة الجبل وإذا فيها بناء متين تعلوه قبة طوله ٦ أمتار فى مثلها عرضا فى ٨ آرتفاعا وفى أرض هذا البناء حجر أملس أسود به شق فى وسطه أشبه بالفتحة التى نراها بمصر فى صناديق الخطابات بها آنحدار إلى أسفل ويقال : إنه المكان الذى شق فيه صدر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولكن أخرج «البخارى» فى صحيحه عن مالك بن صعصعة قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم . "بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان — وذكر بين الرجلين[1] — فأتيت بطَسْت من ذهب ملئ حكمة وإيمانا فشُق من النحر الى مَرَاقّ البطن ثم غسِل البطن بماء زمزم ثم ملئ حكمة وإيمانا" — الحديث . وجاء فى كتاب الشفاء: روى يونس عن ابن شهاب عن أنس قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "فرج سقف بيتى فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست" الخ

(١) فى بعض الروايات : وذكر يعنى رجلا بين الرجلين والمعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان نائما بين رجلين حينما أتى بالطست فالضمير فى ذكر يعود الى النبى صلى الله عليه وسلم، والرجلان حمزة وجعفر يوضح ذلك رواية مسلم من طريق سعيد عن قتادة بلفظ إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة بين الرجلين .

(ص ١٤٤) وأكثر الأحاديث على أن شق البطن كان فى صغره صلى الله عليه وسلم وهو عند حليمة السعدية وقد قالت فى ذكر قصة الشق لأمّه آمنة بنت وهب : بينما هو وإخوته فى بَهْم(١) لنا خلف بيوتنا الخ، فأين البيت الحرام أو سقف بيت الرسول صلى الله عليه وسلم أو ما وراء بيوت حليمة من قنة جبل حراء التى زعم الناس أن بها مكان شق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم؟ اللهم إن هـذا بهتان مبين ظنه الناس صدقا وتوارثوا هذا الظن حتى بلغ من نفس السلطان عبد العزيز أن حركه لبناء قبة على هـذا المكان المزعوم فى سنة ١٢٧٩ ، وقد وجدت هذا مكتوبا على حجر فى جدارها الجنوبى محلى بمـاء الذهب ، وفى الجهة الجنوبية من القبة غار حراء الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على ما أسلفنا لك ، والإنسان ينحدر إليه من قنة الجبل على درج حجرى غير منتظم أشبه بالسلم ، والبعد بينه وبين القبة نحو ٥٠ مترا وهـذا الغار عبارة عن فجوة بابهـا نحو الشمال تسع نحو خمسة أشخاص جلوسا وارتفاعه قامة متوسطة وقد صلينا فيه ودعونا ووجدنا هنالك بعض الحجاج من الأتراك يزورون هذه الآثار . والواقف على قنة هذا الجبل يرى مكة وأبنيتها العظيمة وقلاعها الحصينة كما يرى جبل ثور ، ولون الجبل ذهبى حتى لو حدقت النظر فى قطعة منه تخالها ذهبا إبريزا ولذلك إذا سطعت عليه الشمس ترى له منظرا من أجمل المناظر وأبهجها ، وقد أخذت قطعا صغيرة منـه ولكن للاسف عملتـه إحدى الخدم كانونا بمدينة الوجه فتركت القطع هنالك ، ومما ينبغى لزائرى هذا الجبل أن يحملوا معهم الماء الكافى وأن يكونوا جماعات يحملون السـلاح حتى يدفعوا عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يتربصون الفرص لسلب الحجاج أمتعتهم ونقودهم خصوصا فى مكان منقطع كهذا لا يقصده إلا بعض الحجاج ، وقد بلغنى أن اعرابيا قتل حاجا فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل له : تقتله من أجل ريال؟ فقال وهو فرح "الريال أحسن منه" فانظر كيف بلغت القسوة من هذه القلوب وكيف أعماها حبها لدراهم معدودة عن المحافظة على أرواح بريئة تقوم بشعيرة من أكبر الشعائر الدينية فى مكان جعله الله حرما

(١) البهم جمع بهمة وهى ولد الضأن ذكرا كان أو أنثى .

آمنا للناس ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ هذا وفي سنة ١٣٢١ رقينا الجبل وكان معنا صاحب الدولة وزير حربية مراكش السيد المهدي المنبهي ولما أن نزلنا ضربنا في سفح الجبل فسطاطا تغذينا فيه مع الوزير الذي واسى الفقراء بماله وطعامه .

زيارة غار ثور

قال تعالى في سورة التوبة ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ (١) عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وأخرج البخاري في صحيحه في باب « ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ » من كتاب التفسير — عن أنس قال : حدثني أبو بكر رضي الله عنه قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين قلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال : " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " اهـ ، وذكر الحاكم في مستدركه عن عمر : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال له : يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرَّصَد (من يرصدهم وينتظرهم) فأمشي بين يديك فقال عليه السلام : يا أبا بكر لو كان شيء أحببتَ أن يكون بك دوني ، قال : نعم والذي بعثك بالحق . فلما انتهى الى الغار قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله حتى استبرئ لك الغار فدخل فاستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى استبرئ الجحرة فدخل واستبرأ الجحرة ثم قال انزل يا رسول الله ، فنزل فمكثا في الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب فجاءهما عبدالله بن أريقط بالراحلتين فارتحلا . اهـ .

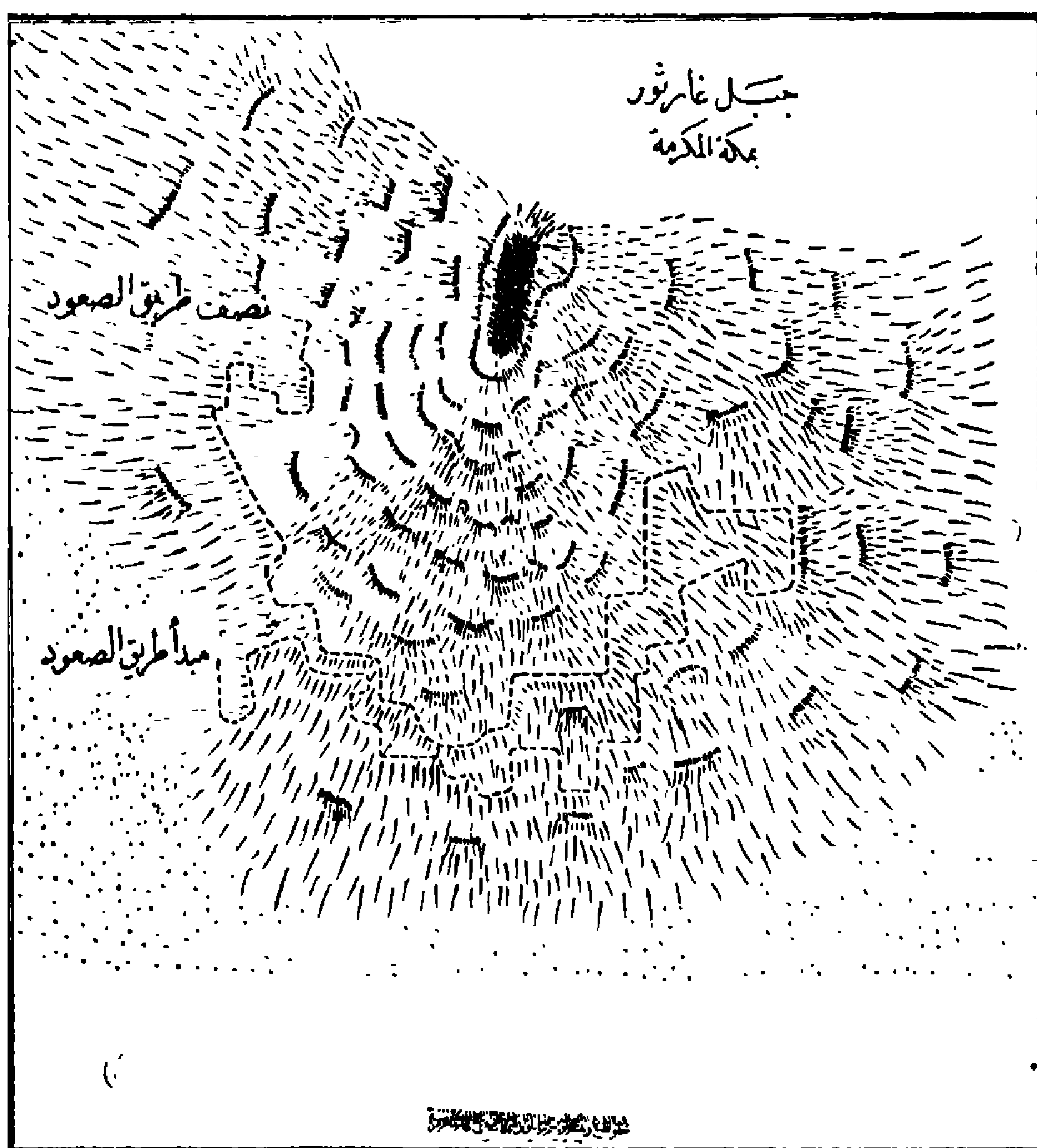
(١) أمنته التي تسكن عندها القلوب .

فترى من هـذا أن غار ثور هو الغار الذى اختفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من دعاة الباطل وأعداء الحق الذين مكروا به مكرا كبَّارا — ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ — وأن الرسول اختفى به مع أبى بكر ثلاثا حتى انقطعت عنهما نار الطلب ثم خرجوا منه الى المدينة حيث كانت عزة الاسلام وأهله . لهذا كله وددنا ان نرى هـذا الأثر رأى العين، فخرجنا من مكة قبل فجر يوم ١٨ ذى الحجة سنة ١٣١٨ (٨ أبريل سنة ١٩٠١) قاصدين زيارة هـذا الغار وكان بصحبتنا صاحبا الفضيلة الشيخ محمد طموم والشيخ محمد أحمد السيوطى صهرانا وجملة من الحجاج وثلة من الجنود نتق بهم شرار الأعراب فى سبيل لا يمرّ به إلا القليل وقد انتحينا ناحية الجنوب فى سيرنا وصلينا فرض الصبح قبل الوصول الى الجبل ، وقد قطعنا المسافة بينه وبين معسكرنا بالشيخ محمود فى ساعة و ٢٠ ق بسير الخيل المعتاد وهى قريبة من خمسة أميال ونصف ، والطريق من مكة الى الجبل تحفه الجبال من الجانبين وبه عقبة صغيرة يرتفع اليها الانسان وينحدر منها ولم يستغرق قطعها إلا ٣ ق وبالطريق سبعة أعلام مبنية بالحجر ومجصصة فوق نشوز من الأرض يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة أمتار وقاعدته متر مربع وتنتهى بشكل هرمى، وهذه الأعلام على يسار القاصد للجبل، وبين كل اثنين منها بعد يتراوح بين ٢٠٠ متر و ١٠٠٠ متر وكل واحد منها وضع عند تعريجة حتى لا يضل السالك عن الجبل ، وساعة بلغنا الجبل قسمنا قوتنا قسمين قسم صعد معنا الى الجبل والآخر وقف بسفحه يرد عنا عادية العربان إن هموا بالأذى . وقد تسلقنا الجبل فى ساعة ونصفها بما فى ذلك استراحة دقيقة أو ثنتين كل خمس دقائق بل فى بعض الأحيان كنا نستريح خمس دقائق لأن الطريق وعر حلزونى ، وقد عددت ٥٤ تعريجة الى نصف الجبل وكنا آونة نصعد وأخرى نحدر حتى وصلنا الغار بسلام ، ولولا الاصلاح الذى أحدثه المشير عثمان باشا نورى الذى ولى الحجاز سنة ١٢٩٩هـ . والمشير السيد اسماعيل حقى باشا الذى كان واليا على الحجاز وشيخا للحرم سنة ١٣٠٧ هـ لازدادت الصعوبة وضل السائر عن الطريق ولم يهتد الى الغار لعظم

الجبل واتساعه وتشعب مسالكه (الرسم ٥٥) وكان من أثر إصلاحهما جعل الطريق بهيئة سلالم تارة تتصعد وأخرى تنحدر على أنه مع ذلك لا يزال العروج صعبا فقد رأيت بعض الصاعدين امتُقِع لونه وخارت قواه فوقع على الأرض مغشيا عليه ولولا أننا تداركناه بجرعةٍ من الماء شربها وصُبابةٍ منه سكبناها على رأسه حتى أفاق لباغتته المنية، ولهذا ننصح للزائرين بأن يتزودوا من الماء ليقوا أنفسهم شر العطب .

ولما بلغنا الغار وجدناه صخرة مجوّفة فى قنة الجبل أشبه بسفينة صغيرة ظهرها الى أعلى ولها فتحتان فى مقدمها واحدة وفى مؤخرها أخرى وقد دخلت من الغربية زاحفا على بطنى مادا ذراعى الى الأمام وخرجت من الشرقية التى تتسع عن الأولى قليلا بعد أن دعوت فى الغار وصليت ، والفتحة الصغيرة عرضها ثلاثة أشبار فى شبرين تقريبا وهى الفتحة الأصلية التى دخل منها النبيّ صلى الله عليه وسلم وهى فى ناحية الغرب أما الفتحة الأخرى فهى فى الشرق ويقال : أنها محدثة ليسهل على الناس الدخول الى الغار والخروج منه، والغار من الجبل فى الناحية الموالية لمكة وقد وجدنا بجانبه رجلا عربيا يتناول الصدقات من الزائرين فى مواسم الحج ويرشدهم الى الغار إذ توجد هناك صخور تشبه صخرته ولكنها لا تماثلها تماما، وقد مكثنا فوق ظهر الجبل ساعتين أكلنا فيهما وشربنا وتناولنا الشاى وتفقدنا كثيرا من نواحى الجبل، وقد نزل فى خلالها القسم الذى زار وجاء القسم الذى تركناه بسفح الجبل ليزور، وقد قدم علينا ونحن على ظهر الجبل نحو عشرين من حجاج الداغستان ففرحوا بنا ورافقونا الى أن رجعنا الى مكة. ولا يقصد زيارة هذا الغار وغار حراء إلا قليل من الأتراك والمغاربة والداغستانيين ولم يسبقنا الى هذه الزيارة أحد من المصريين بل ولا من المكيين إلا ما ندر، وقد بلغنى من أناس يقيمون بمكة منذ أربعين سنة أنهم لم يصعدوا الى هذين الجبلين ولا رأوا من المصريين أو مرافقى المحمل من قصدهما فلله المنة علينا . أنظر الغار فى الرسم ٥٦ الذى أهداه الينا فى سنة ١٣٤٢ حضرة أحمد أفندى صابر ناظر التكية المصرية بمكة فله منا الشكر الجزيل على هذه الهدية القيمة .

جبل ثور وطريق الصعود عليه



55. Thor's Mountain and road of ascending same.

(غار ثور) رسم احمد صابر ناظر تسكية مكة



56. The Mount of the Cave of Thawr at Mecca.

وارتفاع جبل ثور يزيد على ٥٠٠ متر والواقف فى أعلاه يشرف على كل ماحواليه من الجبال ويرى مكة وما حولها واضحة ظاهرة وكذلك يرى حدّة (بالحاء المهملة) بنخلها وبأعلى ثور علم يسترشد به الناس لمعرفة هذا الجبل وهو مبنى بالحجر ومبيض بالجص ويشبه الأعلام التى وصفناها قبلا فى طريقه أنظر (الرسم ٥٥)والجبل ذوألوان مختلفة من ذهبى وفضى ولحمى وما يشبه الأسمنت وما يماثل المرمر، وربما كانت له ألوان أخرى فى جهات لم أرها وقد أخذت من كل معدن قطعة ولكن فعلت بها الخادمة ما فعلت بالقطع التى أخذتها من جبل حراء — سامحها الله — غير أنها تركت قليلا عرضته بعد حضورى الى مصر على بعض الصاغة فأخبرنى بأن معدنه من الذهب ولكنه غير مستو؛ هذا وقد زار غار ثور سيدى عبد الله بن محمد ابن أبى بكر العياشى وذلك فى يوم الأربعاء ٨ شوّال سنة ١٠٥٩ كما جاء برحلته المطبوعة سنة ١٣١٦ وقد ذكر فيها أنه مشى إلى الجبل من طريق بين الخندمة وأبى قبيس لقربه وان كان وعرا ومسافته ثلاثة أميال أما زيارتنا فكانت من طريق المسفلة وهو أطول وأسهل وقد وصف الغار وصفا دقيقا وذكر ما قاساه من المشاق فى الصعود الى هذا الجبل على نحو ما وصفنا (أنظر ص ١٠٢ جزء ثانى من رحلته).

عادات المكيين بعد موسم الحج

بعد انقضاء الموسم يقيمون الأفراح ويزوجون الأولاد ويتروضون جهة الطائف والزاهر والأماكن التى بها بساتين ويستصحبون معهم المغنين وآلات الطرب لأنهم ولعون بالاغانى، وفى شهر رجب يقصدون المدينة للزيارة وفى ذلك ينفقون ما جمعوا فى الموسم الا قليل منهم يستبقى بعض كسبه لينفقه فى السفر الى البلاد التى يفد منها الحجاج ليتعرف بمريدى الحج فى العام القابل وليتفق معهم على أن يكونوا من مطوّفيه وأكثرهم يقترض النقود بفائدة كبيرة لينفق منها فى تلك الرحلات على أمل أن يسدّدها فى الموسم وقلما يسددها فيطوّق بالديون، وقد كذّب ظنّهم فى هذا العام دولة الشريف. فقد قسم مصر وجاوه والهند والمغرب وبلاد الأناضول وغيرها أقساما تسابق المطوّفون.

إلى شرائها بأثمان ظنوها متناسبة مع أهمية المركز وثروة حجاجه، ولكن كثيرا منهم خسر في ذلك خسارة فادحة إذ دفعوا في الأقسام أثمانا باهظة بلغت الخمسين جنيها وزادت، ولما حان الموسم لم يحصلوا مقدار ما دفعوا ولكن قليلا منهم سعد جده فربح أرباحا عظيمة . وقد نشأت خسارة من خسر من علو ثمن الأقسام ومن أنه كان سافر الى بعض الجهات وأنفق في ذلك وفي الهدايا التي كان يأخذها لمريدي الحج النفقات الطائلة ثم ظهر بعد ذلك أن كثيرا منهم لم يأت في القسم الذي اشتراه، ولما رأى بعض المطوفين أن حجاج قسمه فقراء وما يدفعونه بخس اشتد عليهم وأغلظ لهم القول وحصل من جراء ذلك تشاحن وتساب بين الفريقين . وكانت العادة المتبعة قبل هذا التقسيم أنه يجبي من كل مطوف ريال للشريف عن كل حاج ينزل عنده وبالضرورة يأخذ المطوف من الحاج أمثال هذه الضريبة ولو كان في فقر مدقع، وإن كانت لديه شفقة تجاوز عنه وحصل أضعافه من الموسرين. والشريف لا يقيل أي مطوف من الضريبة مهما قدم من الأعذار فإما أن يدفع وإما أن يزج به في غيابة السجن ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

دولة الشريف عون الرفيق وسلطته بمكة

يلقب شريف مكة بسيد الجميع تمييزا له عن بقية الأشراف وهو الحاكم الذي لا ينازع في أمر ولا يرد له قول ينفي من شاء ويحبس من شاء ويعاقب من شاء بيده عقد الأمور وحلها وكل الحكام بمكة طوع إشارته من كبيرهم أحمد راتب باشا المشير إلى صغيرهم، فان عارضه واحد منهم عزل في الحال لأن الشريف له يد قوية في الدولة فأي الأمور طلب أجيب اليه بل غالب الشكايات منه ترد اليه ليفصل فيها بما شاء من شرع أو هوى ولا معقب لحكمه فالويل كل الويل لمن شكا، نعم هذه اليد المستبدة تناسب حال الأعراب الأشرار الذين لا ترغمهم إلا القوة ولا يقومهم إلا البطش بهم، ولكن لو ضمت الى القوة العدالة لكبح الأشرار عن سيئاتهم

والتف النـاس حوله بأجسامهم وقلوبهم لأن للعدل من السلطان على النفوس ما ليس للقوة الغاشمة .

أما الشريف على باشا فله سلطة على الأعراب وله فى نفوسهم مكانة واحترام ولذلك لا يردون له قولا وهو الذى يقابلهم اذا حضروا و يفاوضهم اذا عملوا ما لا يرضاه الشريف وود إقلاعهم عنه .

أجر الجمـال والمكوس

كان يؤخذ فى جدة على كل شـقدف يباع سـتة قروش مصرية ونصف — روبيـة — وهى وان كانت تؤخذ من البائع لكنها فى الحقيقة يدفعها المشـترى اذ يلاحظها البائع فى تقدير الثمن و يؤخذ من أجرة الجمل الذى يقل الحاج من جدّة الى مكة ر يالان للشريف وخمسة قروش عثمانية (٤ قروش مصرية) للحكومة و ريال آخر لوكيل المطوف بجدّة ولمتعهد الجمال (المقوم) — ضرائب ما أنزل الله بها من سلطان — وقد كانت أجرة الجمل من جدّة الى مكة ٦ ريالات «برم» (وهو عشرة قروش مصرية تقريبا) فى بدء الموسم هذا العام فاذا نقصنا تلك الضرائب من هذه الأجرة كان الباقى للجمال أجرة له و لجمله دون ٣ ريالات أى أقل من نصف الأجرة و إن ذلك لظلم بيّن يحمل الجمال على أن يسلب من الحاج ما استطاع ، والأجرة و إن كانت فى أول الموسم ٦ ريالات «برم» لكن عند وصول المحمل الى جدّة بلغت ١٢ ريالا ثم أخذت تزداد حتى بلغت ٣٠ ريالا ثم تناقصت الى ٦ ريالات كما كانت أولا وكان آخر نقص لها يوم ٧ ذى الحجة ، والسبب فى ارتفاع الأجرة الى ٣٠ ريالا أن الحجاج كثر ورودهم من جهات جدّة والمدينة والجهات الشرقية بحال لم يسبق لها مثيل حتى كانت الطريق لاتخلو لحظة واحدة ليلا ونهارا من مرور الحجاج بها ، وقد قدمنا لك أنه فى يوم السبت ٢ ذى الحجة قدم من جدّة الى مكة ١٥٠٠ حاج مشاة على أقدامهم لقلة الجمال . وكان يؤخذ بمكة على كل رأس يباع من الغنم خمسة قروش مصرية وعلى كل جمل خمسون قرشا ، وقد كانت الأجرة من مكة إلى عرفات ذهابا و إيابا لجمل ذى الشـقدف

٧ ريالات « برم » وذى الرحل الذى يركبه شخص واحد ٦ ريالات منها ريال للشريف وآخر للطوّف والمقوم فيبقى للجمال ٤ ريالات أو خمسة . وأجرة الجمل من مكة الى المدينة الى ينبع كانت لذى الشقدف ٣٣ ريالا مجيديا و يتبع ذلك نصف جمل لحمل المتاع ، وكانت لذى الرحل ٣٢ ريالا منها ١٢ ريالا للشريف — جنيهان انكليزيان — و ريال ونصف للمخرج (١) و ريالان للطوّف و ريال للمتعهد (المقوم) و ريال للحكومة و ربع ريال للرهينة (كل قبيلة تقدم واحدا عنها تحبسه الحكومة حتى يصل الركب بسلام الى الجهة التى يقصدها وتأخذ الحكومة ربع الريال فى نظير ذلك) فيكون الباقى للجمال من ذلك ¼ ١٥ ريالا أو ¼ ١٤ وأدهى من ذلك وأمر أنه يؤخذ من الجاويين أربعة جنيهات من كل حاج لا فى مقابلة عمل ولكنهم لغناهم وتساهلهم يطمع فى نقودهم ، وللمتعهدين طريقة فى التخلص من الضرائب التى تدفع عن كل جمل مؤجر وذلك أنهم يتفقون مع كل حاج على عدد معين ولكن عند الخروج من مكة يحملون بعض العدد فقط أحمالا فوق الطاقة والباقى يخرج غير حامل شيئا فلا تؤخذ عليه الضريبة اذ يزعم المتعهد أنه غير مؤجر و بعد الخروج من مكة توزع الأمتعة على العدد المتفق عليه وكثيرا ما يتفقون مع الحاج على عدد معين يقدمونه فى أول الأمر له و يتفقون على أجرته حتى اذا ما رحلوا أخذوا منه بعض ما اتفقوا عليه وأجروه لآخرين فيؤجرون الجمل مرتين و يتقاضون الأجرين — وانه و ربك لظلم بين وطمع مرد — ثم هل سمعت بمثل هذه الضرائب القاسية التى يأباها الاسلام و ينكرها أشد الإنكار ، إن غاية ما قرره الاسلام فى نظام الضرائب ٢٠ ٪ لا فى مال يكد الإنسان فى تحصيله و يعرق فيه جبينه ، ولكن فى أموال تقع فى يد المرء بلا كد ولا تعب كالمعادن وكنوز الجاهلية ، ولكن لا تعجب من أعمال هؤلاء فالدين لغو على ألسنتهم لم يتمكن بعد من نفوسهم فتراهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ ولو علمت دولتا فرنسا والروسيا هذه المظالم التى يتكبدها الحجاج لما منعوا رعاياهم المسلمين عن الحج اذ لو حضروا ورأوا هذه المظالم بأعينهم لرغبوا عن الحج ولم يحدثوا

(١) الذى يتولى إخراج القوافل .

به أنفسهم تارة أخرى بل لبثوا فى نفوس إخوانهم كراهيته ، و إذ ذاك يمتنعون من تلقاء أنفسهم عن الحج دون أن يتكلف حكامهم مشقة المنع ونتائجه ولكن « البعيد أعمى » .

وكل ما قدمنا لك فى أجرة الجمال إنما هو للحجاج الذين لايتبعون المحمل أما ركبه فلهم طريقة أخرى فى تقدير الأجرة للجمال التى يحتاجون اليها .

أجرة الجمال التى تقل ركب المحمل — هذه الأجرة تقدر بمعرفة صاحب الدولة شريف مكة الذى لا يرد له قول ولا يخالف له أمر مهما كانت الأجرة المقدرة ، فمعارضة أمير الحج وأمين الصرة لا تجدى شيئا بل لاتجد الأذن السامعة وعلى ذلك أخذت الأجرة تزداد شيئا فشيئا خصوصا فى الخمس السنين الأخيرة حيث زادت زيادة فاحشة وهاك البيان .

فى سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥ م) كانت أجرة الجمل من مكة الى المدينة ١٨ ريالا (بربا) لذى الشقدف و ١٧ لذى الرحل ، وكانت من مكة الى المدينة فينبع البحر ٢٣ ريالا للأول و ٢٢ للثانى ومن مكة الى المدينة ثم الى جدّة ٢٨ للأول و ٢٧ للثانى ومن مكة الى المدينة فالوجه ٣٥ ريالا للأول و ٣٤ للثانى ، ومن جدّة الى مكة ٢ ¾ وهذا لكثرة الحجاج وغلو الأثمان كما هو مذكور فى رحلة المرحوم صادق باشا ، واستمرت الزيادة بعد ذلك الى أن كانت فى سنة ١٣١٤ وما بعدها كما يأتى :

مجموع أجرة الجمل الواحد	الأجرة من جدّة الى مكة	الأجرة من مكة لعرفة ذهابا وإيابا	الأجرة من مكة للمدينة فالوجه	السنة	ملاحظات
ـــ	ـــ	ـــ	ـــ		
٨٥٠	٩٠	٩٠	٦٧٠	١٣١٤	
١٣٦٠	٨٧٫٧٥	٨٧٫٧٥	١١٨٤٫٥	١٣١٥	فى هذه السنة لم يعين مع المحمل قسم عسكرى
١٤٧٠	١٣١٫٥	١١٠	١٢٢٨٫٥	١٣١٦	» » » » »
١٦٥٧٫٥	١٩٥	١٩٥	١٢٦٧٫٥	١٣١٧	
٢٠٩٦٫٢٥	٣٤١٫٥	٢٩٢٫٥	١٤٦٢٫٥	١٣١٨	

ومن هـذه المقارنة تتبين لك الزيادة المطردة من سنة **١٣١٥** التى لم يتعين فيها قسم عسكرى يصحب المحمل وكذا فى السنة التالية لهـا والسبب فى هـذه الزيادة أن المحمل رافقه قوة عسكرية شاهانية فى السـنين التى خلت من القوة المصرية ولم تدفع حكومتنا نفقات القوة الشاهانية فزيدت أجرة الجمال حتى تعوض تلك النفقات والسبب فى الزيادة العظيمة هـذا العام أن الحكومة لم تخاطب الشريف فى شأن الزيادات فى السنين السالفة فتعودها وزاد عليها تلك الزيادة الفاحشة التى آستكثرها الناس — وحق لهم ذلك — وقد قلت لدولة الشريف : إن هذه الزيادة المطردة ستنبه الحكومة لوضع حد لها وربما أحدثت تغييرا فى النظام المـالى للمحمل بسبب ذلك .

الجمـالة — بمناسبة الكلام على أجرة الجمال والمكوس نقدم لك كلمتين الأولى فى معاملة العربان الجمـالة للركب الذى يصحبونه والأخرى فى تاريخ المكوس حتى نربط لك الحاضر بالمـاضى لتستخلص منهما ما ينبغى فى المستقبل، هؤلاء العربان يحافظون على الحجـاج وعلى أمتعتهم متى غمروهم بالخيرات من مأكولات ولحوم ومشروب الشاى، وتزداد عنايتهم بالحجاج إذا وعدوا بكسوة يعطونها فى المحطة الختامية وكسوتهم يسيرة الكلفة فهى ثوب قطنى من «البفتة» السمراء وعقال و « كوفية » لا تتجاوز قيمتها عشرة قروش مصرية أما من بخل عليهم بماله فيرونه العذاب ألوانا فتارة يقطعون حزام الجمل فيقع راكبه ويتأخر عن القافلة حتى يصلح الحزام وربمـا آنتهزوا فرصة الانفراد به وقتلوه إذا لم يبرز لهم الريالات ويتعهد بالغذاء وتارة يؤخرون الجمل عن القافلة بحجة أن الرحل فى حاجة إلى إصلاح وما يريدون بذلك إلا فرصة للفتك به . والعربان مغرمون بشرب الدخان فلو أن الحاج أخذ معه قسطا منه وأعطاه لجماله راعاه أحسن مراعاة ومشى بجانبه يحافظ عليه ويهيئ له أسباب الراحة، ومن عادة العربان أنهم اذا تناولوا الطعام مع الحاج لا يخونونه أبدا واذا رأوا عربانا من قبيـلة أخرى يريدون الفتك به أخبروهم أنه فى كنفهم فلا يصلون اليـه بسوء وكأنما هو واحد منهم .

تاريخ المكوس — يطلق المكس على الجباية كما يطلق على ما يأخذه العشّار ويقال له الماكس : وفى الحديث «لا يدخل صاحب مَكْس الجنة» والمكوس أخذها قديم، فقد كان مضاض بن عمرو الجرهمى يعشر من يدخل مكة من أعلاها، والسميدع يعشر من يدخل من أسفلها، وكانوا يعشرون أموال العمالقة الذين كانوا ولاة مكة قبل جرهم فانتهكوا حرمة الحرم فأخرجتهم جرهم وقطور، وكانوا يأخذون عشر الميرة التى يأتون بها (أنظر منائح الكرم للسنجارى) وقد أبطل الإسلام المكوس بأنواعها وفرض الزكاة على الناس فى أموالهم، وقد كانت المكوس تؤخذ من الحجاج الذين يمرون من طريق عَيْذاب (قرية على ساحل البحر الأحمر فى ديارنا المصرية) ومن فرّ منهم جبيت منه فى جدّة وكانت سبعة دنانير (٣٥٠ قرشا) تجبى لأمير مكة، وفى سنة ٥٧٢ أبطلها السلطان صلاح الدين الأيوبى، وكان سبب ذلك أنه حج فى هذه السنة الشيخ علوان الأسدى الحلبى فلما وصل جدّة طولب بذلك فأبى وهم بالرجوع وترك الحج فلاطفه من هنالك وبعثوا الى والى مكة الشريف مكثر بن عيسى فأمر بإطلاقه وإعفائه، فلما وصل مكة اجتمع به واعتذر اليه بأن دخل مكة لا يفى بمصالح أهلها وإننا لذلك نضطر الى أخذ المكوس، فكتب الشيخ علوان الى صلاح الدين بذلك فأرسل اليه ٨٠٠٠ أردب من الحبوب وقيل ٢٠٠٠ أردب وألف دينار ورغب اليه فى ترك تلك المظلمة فتركها ولكنها عادت، وأبطلها فى سنة ٦٣٩ المنصور عمر بن رسول صاحب اليمن وكتب بذلك مربعة جعلت حيال الحجر الأسود وفى جدار زمزم الى أن قلعها ابن المسيب ثم ما لبثت أن عادت المكوس، وأبطلت فى سنة ٧٦٠ فى سلطنة الملك الناصر بأمر شريف مكة سند ابن رُمَيثة ولكن ما عتمت أن رجعت فرفعت فى سنة ٧٦٦ بهمة الأمير كتبغا مدير السلطنة بمصر وعوض عنها صاحب مكة ٢٦٠ ألف درهم وألف أردب من القمح وقرر ذلك فى ديوان السلطان شعبان صاحب مصر وكتب ذلك بالحفر فى دعائم بالمسجد الحرام، وقد شاهدت ذلك فى جهة باب الصفا وفى سنة ٨٢٦ أمر السلطان أحمد بن المؤيد صاحب مصر أن يعطى للشريف حسن ألف دينار (٥٠٠ جنيه

مصرى) تحمل اليه من مصر نظير تركه المكوس على الخضروات بمكة وأمر أن يكتب ذلك فى بعض أساطين الحرم المكى فكتب وهو باق الى الآن بقرب باب السلام .

وفى سنة ١٠٨٣ أمر الشيخ محمد المغربى القرمسى أن تدهن السوارى التى بها الكتابات المحفورة بإبطال المكوس فدهنت بالدهانات الملونة وظهرت الكتابة فيها واضحة وعوض صاحب مكة الحسن بن عجلان قسطا من بيت المال ، وهكذا كان يبطلها أو يعمل على إبطالها الحكام العادلون ثم تعود على يد الظالمين مدفوعين بشهوة الطمع أو بداعى الحاجة حتى رأيناها بأعيننا فى زمننا .

ضيافات بمكة — قد استضافنا نجل الشيخ الفاسى — شيخ طريقة مشهور — فى الزاوية المعروفة باسمه وكانت الدعوة عامة لجميع موظفى المحمل من ملكيين وعسكريين وأقام لنا وليمة فاخرة أعجبنا بنظامها و إتقان طعامها ونظافة أوعيته وشربنا الشاى بعدها ثلاث كوبات كما هو المتبع عندهم ، وقد احتفى بنا الشيخ وقومه حفاوة عظيمة ملئوا بها قلوبنا سرورا . ودعانا بعد ذلك لتناول الطعام الشيخ باخطمه — حضرمى — التاجر المقرب من الأمير والذى يقوم بقضاء مصالح دولة الشريف والوالى وحكام مكة و يستحضر ما يلزم للعساكر الشاهانية ويشترى من الضباط مرتباتهم بنصف قيمتها اذ يسأمون من تأخر صرفها فيبيعون غائبا بحاضر ، والشيخ باخطمه يصرفها من الخزينة كاملة نظير نقود يدفعها لذوى الشأن فى الصرف فيسرعون بصرف المرتبات اليه .

وقد أكثر من إكرامنا وضيافتنا « مقوم » المحمل ولكن لم يقصد بضيافته وجه الله ولا وجوهنا ولكن وجه الجنيه إذ كان غرضه الوحيد من ذلك الحصول على شهادة ما بزيادة عدد الجمال عن المقرر لركب المحمل ، وهذه الشهادة يقدمها للمالية المصرية أو الحربية — ان كانت من القسم العسكرى — ليصرف قيمة ما فيها ، وقد طلب منى فعلا هذه الشهادة فأبيت عليه وقلت له : إن كان لدينا زيادة عن العدد المقرر فأنا مستعد لدفع أجرته من مالى الخاص على شريطة أن تكون الأجرة مماثلة

لأجرة جمال الأهالى فما كان جوابه إلا أن قال « نحن لا نريد خسارتك و إنما الذى ينفعنا ينفعك» فنصحته بأن يلتزم خطة الحق و بأن ما أتى من الحرام يذهب من حيث أتى وعرفته بأننا جئنا لنتمم شعائر الدين ونطلب الغفران من رب رحيم لا أن نتحمل مآثم وأوزارا ونخون الأمة فى مالها الذى أعدّته لمصالحها فما كان منه إلا أن سكت مرغما لما أن رأى قناتنا لا تلين .

إعانة السكة الحديدية الحجازية

أمر دولة شريف مكة بجمع إعانة للسكة الحديدية وقدّر على كل حاج غير معسر ريالا ،فأخذ المطوفون يجمعونها و يوردونها للشريف كل يوم ، وكان بعض الحجاج يمتنع عن الدفع و بعضهم دفع عن نفسه وعمن يرافقه فى القافلة ودفع أحمد بك الجمل من أعيان المنصورة مائة جنيه ، ودفع أحمد بك الضىّ عشرة جنيهات ، ودفع سلطان المكلة والشحر (ثغران على خليج عدن) عوض بن عمر القعيطى ٢٠٠٠٠ روبية أى ١/٣ ١٣٣٣ جنيه انجليزى وكثير غيرهم من الأغنياء ، لكن لم نقف على مقدار ما دفعوا .وقد أمر دولة الشريف بعدم خروج أحد من الحجاج من مكة حتى تجبي الضريبة كلها ، وعلى ذلك حبس الحجاج بمكة بعد تأدية الفريضة سبعة أيام كانوا فيها على أحرّ من الجمر ، شوقهم لزيارة الرسول يهيب بهم أن اسرعوا والشريف يقول : مكانكم حتى تدفعوا . وقد بلغنى أن بعضا من حجاج المغرب شكا لدولة الوالى حبسهم بمكة فأرسل بهم مع مندوب من قبله الى دولة الشريف ليسمح لهم بالخروج ، فلما وصلوا اليه نزل عليهم ضربا بالعصى واذ ذاك انقض عليهم زبانيته أيضا (الباوردية) فتشتتوا مذعورين ورجعوا بخفى حنين ، شكوى عادلة جوابها إهانة قاسية فى بلد جعله الله حرما آمنا ﴿سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ . وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ ولئن دام هذا الظلم لينصرفن الناس عن الحج وتلك الطامة الكبرى ببلاد العرب وأهلها الذين يجدون فى الحجاج العيش الكفاف بل الرزق الواسع بل ذلك جناية على الإسلام ومعتنقيه فان هذا البلد واسطة

التعارف بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فاذا انقطعت بينهم الأسباب وانفصمت عروة التواد كانوا كالغنم القاصية تلتهمها الدول المستعمرة فتستغيث فلا مغيث فليقلع الظالم عن ظلمه حتى لايعمنا الله بعذاب من عنده ويغفر لنا ما أسلفنا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

مضارّ حبس الحجاج بمكة — لم يسمح دولة الشريف بخروج الحجاج من مكة إلا بعد أن دفعوا جميعا ريال الإعانة للسكة الحديدية ، فلما أن صدر الإذن بالخروج أخذ جميع الحجاج فى الرحيل وهم ألوف مؤلفة يسلكون طريقا ضيقا ولما بلغوا مكانا مخصوصا بالطريق أوقفوا حتى يدفعوا ريال الحكومة — عوائد — عن كل جمل خال أو محمل فأخذوا يدفعون ولكن بلغ الزحام أشدّه لأن المحصل شخص واحد قام بجانبه اثنان من الزبانية لايسمحان لأحد بالمرور حتى يدفع الريال واستعملا كل غلظة وقساوة لا تصدر من الوحوش فضلا عن الأناسى بل فضلا عن مسلم يدين بالإسلام ، وقد أصبحت الطريق التى كانت معدّة لسير جملين بشقادفهما متحاذيين فيها أربعة صفوف فدخلت الشقادف بعضها فى بعض وكاد الناس يكونون طبقات بعضهم فوق بعض وهنالك تحطم كثير من الشقادف وسقط بعض الراكبين من عليها فتهشمت منهم العظام و بلغت فيهم الجراح وفقدوا من الأمتعة وتلف كثير منها ، وكنت لاتسمع إذ ذاك إلا ولولة النساء وعويل الصبيان واستغاثة الضعفاء ومنازعات الرجال ولا شرطة هنالك تحول دون ذلك ، وكل هـذا مغبة حبس الشريف للحجاج وسوء نظام الجباية ، وماذا على الحكومة لو عينت عددا من المحصلين وعينت لكل قافلة يوما تخرج فيه ، ومعرفة القوافل من الأمور الهينة لأن المطوّفين والمتعهدين يعرفونها وأولئك معروفون لدى الحكومة و بذلك يسهل التحصيل وتسير القافلة بهدوء وسكينة و يأمن الناس على نفوسهم وأمتعتهم .

مرتبات الأشراف والعربان والأهالى وطريقة صرفها

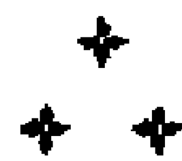
جرت العادة من قديم أن تصرف الحكومة المصرية مرتبات للأشراف والعربان والأهالى بمكة والمدينة، وكان المقرر فى ميزانية المحمل هذا العام للأشراف ١٢٦٥ جنيها مصريا وللعربان ٢٥١١ جنيها وللأهالى ٢٨٧٩ جنيها وكان يصرف لكل شخص مرتبه المقرر بمقتضى إذن يمضيه أمين الصرة وأمير الحج وكذلك الكاتب الأول للصرة دلالة على أن الصرف قانونى. والكاتب الأول هو الذى يقوم بإعداد إذن الصرف ليكون مطابقا لما دون بالسجل الذى به أسماء أصحاب المرتبات (الذين لا وجود لأكثرهم الآن) وساعة البدء فى الصرف حضر أمام الكاتب عدد عظيم من العربان وكلفوه بتلاوة الأسماء فسألهم هل أنتم أصحاب المرتبات؟ فقالوا: لا ولكننا موكلون فى تسلمها سنويا فقال لهم: أحضروا التوكيلات التى تؤيد دعواكم، فقالوا وممن تكون التوكيلات؟ فقال لهم: من أصحاب المرتبات الذين وكلوكم أو وارثيهم، فقالوا: إن أصحابها توفوا من زمن مديد ولا أثر لمعظم وارثيهم وكل سنة نتسلم المرتبات بدون معارضة ونحن متفقون فيما بيننا على صرفها إلينا فاضطر الكاتب لإجابة طلبهم وأخذ يتلو الأسماء عليهم، فأخذ كل منهم يخطف من الأذون ما استطاع حتى كان الواحد يتحصل على الخمسين والستين ثم يتسلم قيمتها .

والأشراف المقيدة بأسمائهم المرتبات منهم الحى ومنهم المتوفى وتصرف مرتباتهم إلى من يعينه شريف مكة وكيلا عنهم بعد أن يستعلم منه أمير الحج .

وللشيخ حذيفة كبير قبيلة الأحامدة مرتب سنوى ينيف على ٦٠٠ ريال، تصرف إليه نظير محافظته على ركب المحمل أثناء مروره بالطريق السلطانى الذى يقيم به الشيخ حذيفة، وهذا المرتب يصرف إليه سنويا مر المحمل به أو لم يمر، وفى هذا العام قدم من قبله وكيل عنه يدعى محمد بن عامر ومعه وثيقة التوكيل ممهورة بختم الشيخ حذيفة وصريحة فى أنه وكيل عنه فى قبض مرتبه ولكن أبى الشريف إلا أن يصرف المرتب الى أكبر أولاد الشيخ حذيفة المسمى خليلا مع أن بين الشيخ وابنه عداءً شديدا

ومخاصمات كبيرة وحروبا طاحنة أهرقت فيها الدماء آنتصر فيها الولد على أبيه بقوة أعوانه وأنصاره وسبب ذلك تحريض الأبن للعربان على شق عصا الطاعة لأبيه . فكان ينبغى من أجل هذا النفار المستحكم أن يصرف المرتب للوكيل الشرعى لا للابن العاق ولكن من يستطيع أن يخالف أمر الشريف الذى نفذ ما أراد وصرف المرتب للولد الباغى .

وقد صرفت بمكة مكافأة لواحد من الأشراف آسمه الشيخ مساعد يقوم فى جمع من عسكر «البيشة» بحراسة المحملين المصرى والشامى بعد وصولها الى المدينة و يبلغ عددهم نحو الخمسين يقاسمونه المكافأة وليس لهؤلاء العسكر نظام ولا يطيعون من الأوامر إلا ما آتفق مع رغبتهم مع أن عملهم مساعدة المحمل عند الحاجة ، و يشكون كثيرا من أنهم لا يجدون ما يأكلون وما يعلفون به الدواب مع أن العلف صرف اليهم — وما كنا ملزمين بذلك — وقد أخذوا مكافآت ينفقون منها ولكن أنفقوا ما صرف اليهم فى بيوتهم وآتكلوا على الأمير والأمين يمدونهم بما يأكلون ، ويعين مع الشيخ مساعد رئيس «البيشة» فارس عثمانى برتبة ملازم يرافق المحمل ولكن البيشة لا يسمعون منه قولا ولا ينفذون له أمرا بل يأتمرون بأمر واحد من بنى جِلْدتهم ومع أن هؤلاء العسكر يقظون فى الحراسة و بصرهم حاد ينبغى أن يضم اليهم قسم من العساكر يشركونهم فى الحراسة كما ينبغى تحذيرهم من السلب والنهب لأنهم ولعون بذلك خصوصا عند مجىء العربان لبيع ما عندهم للحجاج ، فإنه بلغنى أنهم أخذوا فى سنة خلت من بعض العربان قدرا من السمن ولم يدفعوا ثمنه وضربوا أصحابه وتسبب عن ذلك تجمع العربان وترامیهم مع رجال المحمل بالنيران حتى قتل بعض الحجاج و جرح بعض آخر « ومعظم النار من مستصغر الشرر » أما فى هذا العام فلم يحصل ما يكدر فالحمد لله على ما منّ .



والى هنا فرغنا من ذكر الأعمال التى قمنا بها فى مكة وأصبحنا على أهبة السفر الى الحرم الثانى وبقى علينا أن نصف لك مكة وما آشتملت عليه من المبانى الفخمة

والآثار الجمة وكذلك منى وعرفة والمزدلفة والطائف ونلم بتاريخها إلماما حتى تكون على بينة من أمرها وخبيرا بما قام به سلفنا الصالح فى الحرم الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ونقدّم لك بين يدى ذلك القسم الدينى من رحلتنا فى الحج ومناسكه ووصف لبلاد العرب وموجز فى تاريخها وفى سير الفتوحات الإسلامية وانتشار الدين فى ربوع المعمورة .

القسم الدينى

قد رأينا أن نسوق اليك أيها القارئ حجته صلى الله عليه وسلم ثم نردفها بالأحكام الفقهية فى شرائع الحج حسب ما سطر فى كتب المذاهب المختلفة، وإنما قدمنا حجته صلى الله عليه وسلم لأنها السراج الوهاج الذى ٱقتبس منه الفقهاء ولأنها الحكم عند اختلاف الآراء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وقد ٱعتمدنا فى ذلك على ما كتبه الإمام ٱبن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هـ فى كتابه « زاد المعاد فى هدى خير العباد » فإنه خير ما كتب فى هذا الموضوع على ما علمنا .

حجة الوداع — لا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعد هجرته الى المدينة سوى حجة واحدة وهى حجة الوداع ولا خلاف أنها كانت سنة عشر . وٱختلف هل حج قبل الهجرة، فروى الترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: حج النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث حجج حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعد ما هاجر معها عمرة، قال الترمذى : هذا حديث غريب — تفرّد به راو واحد — من حديث سفيان قال : وسألت محمدا يعنى البخارى عن هذا فلم يعرفه من حديث الثورى، وفى رواية لا يعدّ هذا الحديث محفوظا . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحج من غير تأخير فان فرض الحج تأخر الى سنة تسع أو عشر وأما قوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فإنها وإن نزلت سنة ست عام الحديبية فليس فيها فريضة الحج وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء .

ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج أعلم الناس أنه حاج فتجهزوا للخروج معه وسمع بذلك من حول المدينة فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووافاه فى الطريق خلائق لا يحصون فكانوا من بين يده ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مدّ البصر، وخرج من المدينة نهارا بعد الظهر لست بقين من ذى القعدة بعد أن صلى الظهر بها أربعا وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه، قال ابن حزم: وكان خروجه يوم الخميس، قال ابن القيم: والظاهر أنه كان يوم السبت (انظر أدلة كل منهما بزاد المعاد) وبعد أن صلى وخطب ترجل (مشط رأسه) وأدهن ولبس إزاره[1] ورداءه وخرج بين الظهر والعصر فنزل بذى الحليفة[2] (الخريتة ٥٧) فصلى بها العصر ركعتين ثم بات بها وصلى بها المغرب والعشاء والصبح والظهر فصلى بها خمس صلوات وكان نساؤه كلهن معه وطاف عليهن تلك الليلة، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلا ثانيا لإحرامه غير غسل الجماع الأول ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة[3] وطيب فيه مسك فى بدنه ورأسه حتى كان وبيص[4] المسك يرى فى مفارقه[5] ولحيتـه ثم استدامه ولم يغسـله ثم لبس إزاره ورداءه ثم صلى الظهر ركعتيـن ثم أهلّ[6] بالحج والعمرة فى مصلاه ولم ينقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر وقلد[7] قبل الإحرام بُدْنه نعلين وأشعرها فى جانبها الأيمن فشق صفحة سنامها وسلت[8] الدم عنها — وقد ساق ابن القيم بضعة وعشرين دليلا كلها صحيحة صريحة فى أنه صلى الله عليه وسلم حج قارنا، وذكر أنه أخطأ فى عمرة النبى صـلى الله عليه وسلم خمس طوائف ووهم فى حجه خمس طوائف وغلط فى إحرامه خمس طوائف وبين آراء كل طائفة وساق

(١) الإزار: يلف على أسفل الجسم، والرداء ما يلف على أعلاه.

(٢) ذو الحليفة: وآبار على عربى المدينة بينها وبين مسجدها نحو ٢٠ كيلو مترا وبها مسجد يسمى مسجد الشجرة وبئر يسميها الجهال بئر على لظنهم أن عليا قاتل الجن بها وهو كذب (رسائل ابن تيميـة ص ٣٥٦ جزء ثان).

(٣) الذريرة نوع من الطيب يجمع من أخلاط شتى.

(٤) بريقه ولمعانه.

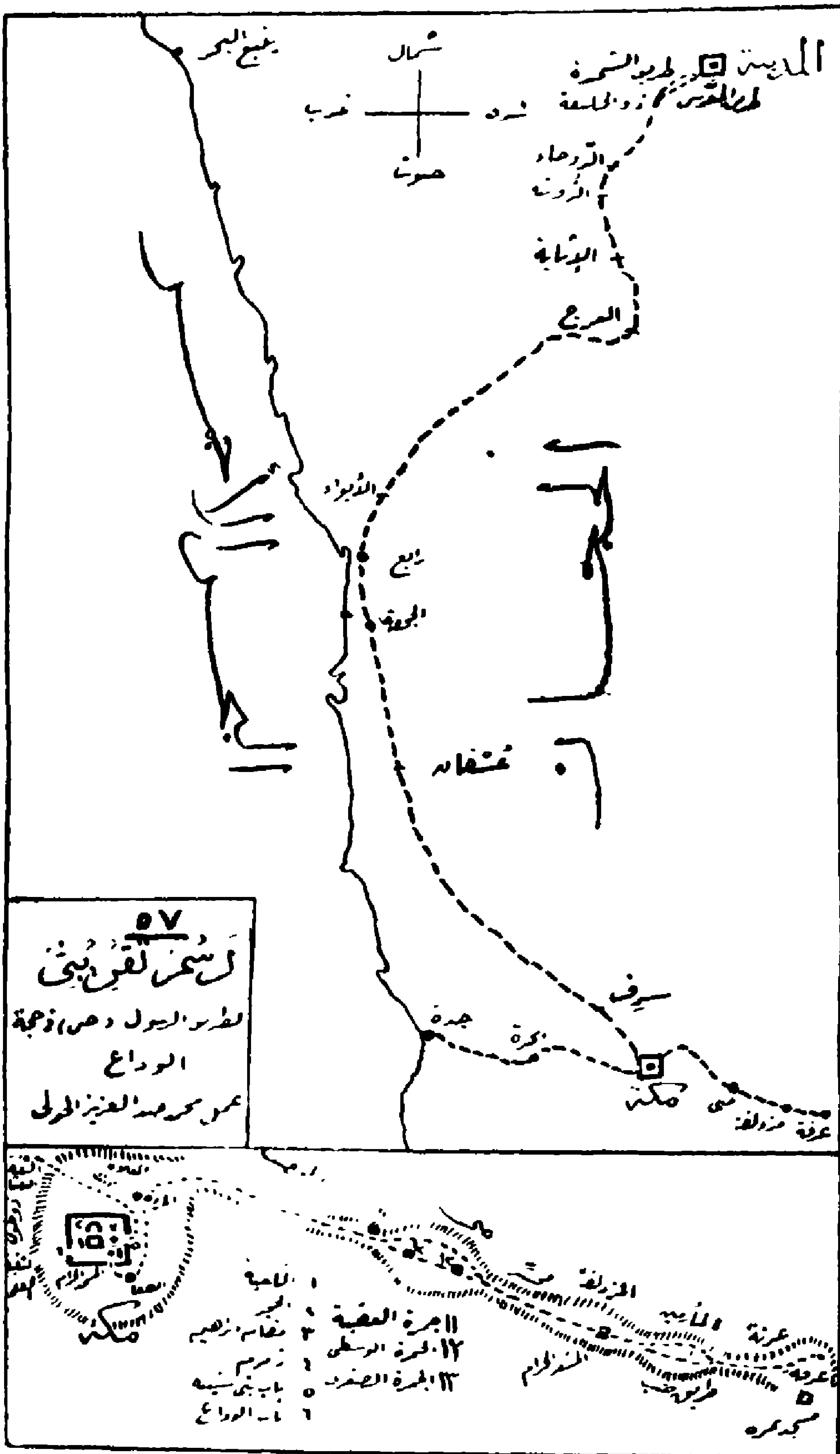
(٥) جمع مفرق وهو وسط الرأس الذى يفرق فيه الشعر.

(٦) الإهلال رفع الصوت بالتلبية بهما.

(٧) تقليد البدنة أن يعلق فى عنقها شىء ليعلم أنها هدى.

(٨) أى أماطه وأزاله.

خريطة حجة الوداع



57. A map showing the Prophet's farewell pilgrimage.

أدلتها ثم كر عليها بالنقض، وكتابته فى هذا الموضوع أمتع ما كتب فراجعها فى كتابه زاد المعـاد من ص ١٨٣ الى ص ٢٠٢ من الجزء الأول طبع الحلبي بمصر — ولبد رسول الله صلى الله عليه وسـلم رأسه بالغسل — بوزن كفل — وهو ما يغسل به الرأس من خَطْمى(١) ونحوه يلبد به الشعر حتى لا ينتشر، وأهل فى مصلاه ثم ركب على ناقته وأهل أيضا ثم أهـل لمـا آستقلت به على البيداء(٢) . قال ابن عباس رضى الله عنهما : وايم الله لقد أوجب(٣) فى مصلاه وأهل حين آستقلت(٤) به ناقته وأهل حين علا على شرف(٥) البيداء وكان يهل بالحج والعمرة تارة و بالحج تارة لأن العمرة جزء منه ؛ فمن ثمة قيل : قرن(٦)، وقيل : تمتع، وقيل : أفرد ثم لبى فقال : لبيك(٧) اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمـد والنعمة لك . والملك لا شريك لك . ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه وأمرهم بأمر الله له أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية وكان حجه على رحل لا فى محِمل ولا هودج ولا عَمارِيّة(٨) وزاملته(٩) تحتـه — وآختلف فى جواز ركوب المحرم فى المحِمل والهودج والعمارية ونحوها على قولين همـا روايتان عن أحمـد رحمه الله أحدهما الجواز وهو مذهب الشافعي وأبى حنيفـة رحمهما الله والثانى المنع وهو مذهب مالك — ثم انه صلى الله عليه وسلم خيرهم عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة (الحج أو العمرة أوهما معا) ثم ندبهم عند دنوهم من مكة الى فسخ

(١) كلما راجعت قاموسا لعلى أجد فيه وصف هذا النبات لا أجد إلا قول ما يغسل به الرأس أو هو نبات محلل منضج ملين نافع لعسر البول الخ أو نبات معروف أو غسل معروف وهو بكسر الخاء وقد تفتح .

(٢) الصحراء . (٣) أوجب الشخص عمل عملا يستوجب له الجنة . (٤) حملته وقامت به .

(٥) مرتفع . (٦) القران الإهـلال بالحج والعمرة معا ، والتمتع : الاهلال بالعمرة وحدها وبعد التحلل منها يحرم بالحج ، و الإفراد : الاحرام بالحج وحده . (٧) أى إجابة لك بعد إجابة .

(٨) الرحل للابل كالسرج للفرس ، والمحمل كمجلس : شقتان على البعير يحمل فيهما العديلان ، والهودج : مركب للنساء مقبب ، وأما العمارية فهى الهودج يُجلس فيه (أقرب الموارد ، ج ٢ ص ٨٢٩) .

(٩) الزاملة : البعير الذى يحمل عليه الطعام والمتاع من الزمل وهو الحمل ، والزميل : العديل الذى حمله مع حملك على البعير .

الحج والقران الى العمرة لمن لم يكن معه هدى ثم حتم ذلك عند المروة . وولدت أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر رضي الله عنهما بذي الحليفة محمد بن أبي بكر فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تغتسل وتستثفر وتستتر بثوب وتحرم وتهل ، وكان في قصتها ثلاث سنن إحداها غسل المحرم ، والثانية أن الحائض تغتسل لإحرامها ، والثالثة أن الإحرام يصح من الحائض . ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبي بتلبيته المذكورة والناس معه يزيدون فيها وينقصون وهو يقرهم ولا ينكر عليهم ولزم تلبيته . فلما كانوا بالرَّوحاء(١) رأى حمار وحش عَقيرًا(٢) فقال : دعوه فإنه يوشك أن يأتي صاحبه ، فجاء صاحبه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله شأنكم بهذا الحمار فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه فقسمه بين الرفاق ، وفي هذا دليل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذ لم يصده لأجله ، وأما كون صاحبه لم يحرم فلعله لم يمر بذي الحليفة فهو كأبي قتادة في قصته ، وتدل هذه القصة على أن الهبة لا تفتقر الى لفظ وهبت لك بل تصح بلفظ يدل عليها ، وتدل على قسمته اللحم مع عظامه بالتحري ، وتدل على أن الصيد يملك بالإثبات وإزالة امتناعه وأنه لمن أثبته لا لمن أخذه ، وعلى حل أكل لحم الحمار الوحشي وعلى التوكيل في القسمة وعلى كون القاسم واحدا — ثم مضى حتى اذا كان بالإثاية بين الرُّوَيْثَة والعَرْج(٣) إذا ظبي حاقف(٤) في ظل شجرة فيه سهم فأمر رجلا أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزوا ، والفرق بين قصة الظبي وقصة الحمار أن الذى صاد الحمار كان حلالا فلم يمنع من أكله وهذا لم يعلم أنه حلال وهم محرمون فلم يأذن لهم في أكله ، ووكل

(١) الروحاء موضع بين مكة والمدينة على ثلاثين أو ستة وثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

(٢) معقورا مصروبا . (٣) الإثاية موضع بين الحرمين فيه مسجد نبوى أو بئر دون العرج عليها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم (القاموس المحيط) وهي بالياء مثلثة الهمزة وقال في معجم ياقوت : هي موضع في طريق الجحفة بينه وبين المدينة خمسة عشر فرسخا (٤٥ ميلا) والعرج : قرية جامعة من أعمال الفُرْع على أيام من المدينة (نهاية) قال ياقوت : بينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلا ، والرويثة بالتصغير : موضع على ليلة من المدينة ، وقال ابن السكيت : الرويثة مُعَشّى بين العرج والروحاء .

(٤) رابض في حِقف من الرمل وهو المعوج منه .

من يقف عنده لئلا يأخذه أحد حتى يجاوزوا، وفيه دليل على أن قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة فى عدم الحل إذ لو كان حلالا لم تضع ماليته بل كان للحلال أن ينتفع به ، ثم سار حتى اذا نزل بالعرج[1] وكانت زاملته و زاملة أبى بكر واحدة وكانت مع غلام لأبى بكر ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الى جانبه وعائشة الى جانبه الآخر وأسماء أختها الى جانب أبيها ، وأبو بكر ينتظر الغلام والزاملة إذ طلع الغلام ليس معه البعير فقال أين بعيرك؟ فقال : أضللته البارحة ، فقال أبو بكر : بعير واحد تضله قال : فطفق يضربه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم و يقول انظروا الى هذا المحرم ما يصنع ، وما يزيد رسول الله على أن يقول ذلك و يتبسم ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالابواء[2] أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشى فرده عليه فقال : إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم . فلما مرّ بوادى عُسفان[3] قال يا أبا بكر أى واد هذا؟ قال : وادى عسفان قال : لقد مرّ به هود وصالح على بكرين أحمرين خُطُمهم[4] الليف وأُزُرهم العَباء[5] وأرديتهم النمار[6] يلبون يحجون البيت العتيق — ذكره الامام أحمد فى المسند . فلما كان بسَرِف[7] حاضت عائشة رضى الله عنها وقد كانت أهلت بعمرة، فدخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى قال ما يبكيك؟ لعلك نفست : قالت : نعم قال : هذا شيء قد كتبه الله على بنات آدم افعلى ما يفعل

(١) تقدم الكلام عليه مع الاثاية . (٢) الأبواء قرية بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا ورابغ بينهما ، فالأبواء : جهة المدينة ، والجحفة : جهة مكة وقيل : جبل شامخ هنالك ، وفى هذا الموضع توفيت والدة الرسول صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، والأبواء قبل رابغ بقليل من جهة المدينة . (٣) عسفان منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة وهى على مرحلتين من مكة أوستة وثلاثين ميلا والجحفة على ثلاث مراحل ومن عسفان إلى ملل يقال له : الساحل ، وملل على ليلة من المدينة . (٤) الخطام : كل ما يوضع فى أنف البعير ليقتاد به والجمع خُطُم .

(٥) العباء : ضرب من الأكسية واحدته عباءة وعباية .

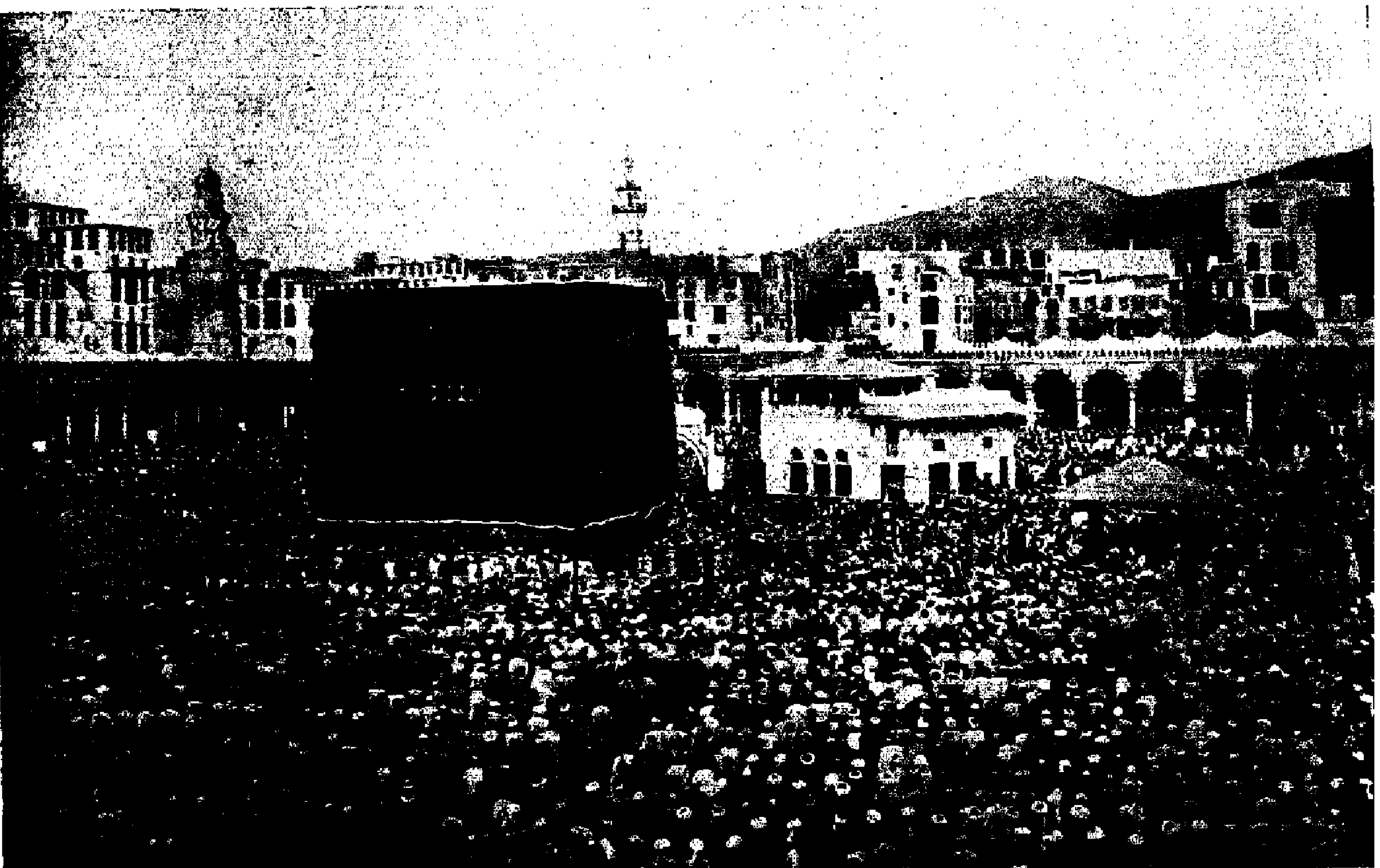
(٦) النمار جمع نَمِرة وهى كل شملة مخططة كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض .

(٧) موضع على عشرة أميال من مكة وقيل : أقل وقيل : أكثر وفيه تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث .

الحاج غير أن لا تطوفى بالبيت . وقد جاء فى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : أهلت عائشــة بعمرة حتى اذا كانت بسرف عركت (حاضت) ثم دخل[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة فوجدها تبكى فقال ما شأنك ؟ قالت : شأنى أنى قد حضت وقد أحل الناس ولم أحل ولم أطف بالبيت والناس يذهبون الى الحج الآن ، فقال : إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم فاغتسلى ثم أهلى بالحج ففعلت ووقفت المواقف كلها حتى إذا طهرت طافت بالكعبة و بالصفا والمروة ثم قال قد حللت من حجك وعمرتك قالت يارسول الله ! إنى أجد فى نفسى أنى لم أطف بالبيت حتى حججت قال : فاذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم . وقد تنازع العلماء فى قصة عائشة هل كانت متمتعة أو مفردة والصواب أنها كانت متمتعة محرمة بالعمرة فقط واذا كانت متمتعة فهل رفضت عمرتها وانتقلت الى الإفراد بالحج أو أدخلت عليها الحج وصارت قارنة بإدخاله عليهــا والصواب الثانى ، وهل العمرة التى أتت بها من التنعيم كانت واجبة أو لا ؟ والصحيح أنها كانت نافلة تطييبا لقلبها وجبرا لها و إلا فطوافها وسعيها وقع عن حجها وعمرتها وكانت متمتعــة ثم أدخلت الحج على العمرة فصارت قارنة ، واختلفوا هل كان طهرها يوم عرفة أو يوم النحر . وحديث عائشة السابق يؤخذ منه أصول عظيمة من أصول المناسك : (١) اكتفاء القارن بطواف واحد وسعى واحد ؛ (٢) سقوط طواف القــدوم عن الحائض ، كما أن حديث[2] صفية أصل فى سقوط طواف الوداع عنها ؛ (٣) أن إدخال الحج على العمرة جائز كما يجوز للطاهر وأولى المعذورة لأنها محتاجة الى ذلك ؛ (٤) أن الحائض تفعل أفعال الحج كلها إلا أنهــا لا تطوف بالبيت ؛ (٥) أن التنعيم من الحل ؛ (٦) جواز عمرتين فى سنة واحدة بل فى شهر واحد ؛ (٧) أن المشروع فى حق المتمتع إذا خاف الفوات أن يدخل الحج على العمرة وحديث عائشة أصل فيه ؛ (٨) أنه أصــل فى العمرة المكية وليس مع من يستحبها غيره ، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعتمر هو ولا أحد ممن حج معه من مكة خارجا منها إلا عائشة وحدها ، فجعل أصحاب العمرة المكية قصة عائشة أصلا

(١) وذلك الدخول بعد أن وصل صلى الله عليه وسلم الى مكة . (٢) أنظر ص ٩٤

صلاة الجمعة بالحرم المكي في الحجة سنة ١٣٢٥



حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في الحجة سنة ١٣٢٥

58. Pilgrims round El-Kaaba performing the Friday Prays.

لقولهم ولا دلالة لهم فيهـا فإن عمرتها إما أن تكون قضاء للعمرة المرفوضة عنـد من يقول : إنها رفضتها فهى واجبة قضاء لها أو تكون زيادة محضة وتطييبا لقلبها عنـد من يقول : إنها كانت قارنة و إن طوافها وسعيها أجزأها عن حجها وعمرتها . ولنعد الى سياق حجه صلى الله عليه وسلم .

فلما كان بِسَرِف قال لأصحابه : من لم يكن معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ومن كان معه هدى فلا، وهذه رتبة أخرى فوق رتبة التخيير عند الميقات، فلمـا كان بمكة أمر أمرا حتما من لا هدى معه أن يجعلها عمرة و يحل من إحرامه ومن معه هدى أن يقيم على إحرامه ولم ينسخ ذلك شىء البتة، بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التى أمرهم بالفسخ اليها هل هى لعامهم ذلك أو للأبد ؟ قال : بل للأبد، وإن العمرة قد دخلت فى الحج إلى يوم القيامة وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بفسخ الحج الى العمرة أربعة عشر صحابيا وأحاديثهم كلها صحاح (انظر الأحاديث وأعذار المخالفين والرد عليها فى زاد المعاد من ص ٢٠٩ الى ٢٢٥ ج ١) . ثم نهض صلى الله عليه وسلم إلى أن نزل بذى طوى (١) وهى المعروفة الآن بآبار الزاهر فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة وصلى بها الصبح ثم اغتسل من يومه ونهض الى مكة فدخلها من أعلاها من الثَّنِية (٢) العليـا التى تشرف على الحجون (٣)، وكان فى العمرة يدخل من أسفلها، وفى الحج دخل من أعلاها وخرج من أسفلها ثم سار حتى دخل المسجد وذلك ضحى، وذكر الطبرانى أنه دخله من باب بنى عبـد مناف الذى يسميه الناس اليوم باب بنى شيبة (٤) أو باب السلام ثم استقبل البيت ودعا، وذكر الطبرانى : أنه كان إذا نظر إلى البيت قال : اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وروى عنه أنه كان عند رؤيته يرفع يديه و يكبر و يقول : اللهم أنت السلام

(١) ذو طوى : موضع غربىّ مكة على مقربة منها . (٢) الثنية فى الجبل : كل عقبة مسلوكة أو هى الطريق العالى فيه . (٣) الحجون : جبل بأعلى مكة مشرف على مقبرتها وتسمى المقبرة : الحجون .
(٤) انظر صورته شرق الكعبة فى (الرسم ٥٨) .

ومنك السلام حينا ربنا بالسلام اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وزد من حجه أو اعتمره تكريما وتشريفا وتعظيما و برا وهو مرسل[1]، ولكن سمع هذا سعيد ابن المسيب من عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقوله . فلما دخل المسجد عمد الى البيت (انظر رسمه فى الشكل ٥٨) ولم يركع تحية المسجد فان تحية المسجد الحرام الطواف . فلما حاذى الحجَر الأسود[2] (ترى فى الرسم ٥٩ الحجاج وقد تزاحموا على تقبيله) استلمه ولم يزاحم عليه ولم يتقدّم عنه الى جهة الركن[3] اليمانى ولم يرفع يديه ولم يقل : نويت بطوافى هـذا الأسبوع كذا وكذا ولا ٱفتتحه بالتكبير كما يكبر للصلاة كما يفعله من لا علم عنـده بل هو من البدع المنكرات ولا حاذى الحجر الأسود بجميع بدنه ثم ٱنفتل عنه وجعله على شقه بل ٱستقبله وٱستلمه ثم أخذ عن يمينه وجعـل البيت عن يساره ولم يعرف عنه عند الباب[4] ولا تحت الميزاب[5] ولا عند ظهر الكعبة وأركانها ولا وقت الطواف ذكر معين لا بفعله ولا بتعليمه بل حفظ عنه بين الركنين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. ورمل[6] فى طوافه هذا ثلاثة الأشـواط الأول وكان يسرع مشيه و يقارب بين خطاه وٱضطبع بردائه فجعله على أحد كتفيه وأبدى كتفه الآخر ومنكبه، وكلما حاذى الحجَر الأسود أشار اليه وٱستلمه بِمِحْجَنه وقبل المحجن، والمحجن : عصا محنية الرأس ، وثبت عنه أنه ٱسـتلم الركن اليمانى ولم يثبت عنه أنه قبله ولا قبل يده عنـد ٱستلامه ولكن ثبت عنه أنه قبـل الحجَر الأسود وثبت عنه أنه ٱستلمه بيده فوضع يده عليـه ثم قبلها وثبت عنـه أنه ٱستلمه بمحجن فهذه ثلاث صفات، وروى عنه أيضا : أنه وضع شفتيه عليه طويلا يبكى . وذكر الطبرانى عنه بإسناد جيد أنه كان إذا ٱستلم الركن اليمانى قال : بسم الله.

(١) الحديث المرسل ما سقط من سنده ـــ رواته ـــ الصحابى .

(٢) فى زاوية الكعبة الجنوبية الشرقية وسيأتى مزيد شرحه .

(٣) هو الركن الذى فى الجهة الجنوبية الغربية .

(٤) الباب فى الجهة الشرقية (انظره عليه الستارة فى الرسم ٥٩) .

(٥) الميزاب : ما يسيل منه الماء الذى يجمع على سطح الكعبة وسيأتى شرحه .

(٦) الرَّمَل : الاسراع فى المشى مع تقارب الخطا .

الحجاج حول الكعبة المشرفة وتقبيلهم للحجر الاسود



59. Pilgrims round the Kaaba kissing the Black Stone.



61. The Water-gauge and the Kaaba Mountain at Garwal. Mecca.

والله أكبر، وكان كلما أتى على الحجر الأسود قال: الله أكبر، وروى عن عمر أنه قبل الحجر وسجد عليه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك. وروى عن ابن عباس أنه قبل الركن اليمانى ثم سجد عليه ثم قبله ثم سجد عليه ثلاث مرات. ولم يستلم صلى الله عليه وسلم ولم يمس من الأركان إلا اليمانيين فقط. فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام[1] فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فصلى ركعتين، والمقام بينه وبين البيت قرأ فيهما بعد الفاتحة بسورتى الإخلاص، فلما فرغ من صلاته أقبل الى الحجر الأسود فاستلمه ثم خرج الى الصفا[2] من الباب الذى يقابله، فلما قرب منه قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به، وفى رواية ابدءوا على الأمر ثم رقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك وقال مثل هذا ثلاث مرات، وقام ابن مسعود على الصَّدع وهو الشق الذى فى الصفا فقيل له: هاهنا يا أبا عبد الرحمن قال: هذا والذى لا إله غيره مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة ــ ذكره البيهقى ــ ثم نزل الى المروة يمشى فلما انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى إذا جاوز الوادى وأصعد مشى ــ هذا الذى صح عنه فى ذلك اليوم ــ قبل الميلين الأخضرين فى أول السعى وآخره، والظاهر أن الوادى لم يتغير عن وضعه. هكذا قال جابر عنه فى صحيح مسلم، وظاهر هذا أنه كان ماشيا، وقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: طاف النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع على راحلته بالبيت وبين الصفا والمروة ليراه الناس وليشرف ولم يطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافا واحدا[3]، قال ابن حزم:

(١) الحجر الذى قام عليه إبراهيم وهو يبنى الكعبة وسيأتى الكلام عليه.

(٢) الصفا: مكان عال فى أصل جبل أبى قبيس جنوبى المسجد الحرام على مقربة من بابه المسمى باب الصفا وهو أشبه بالمصلى طوله ٦ أمتار وعرضه ثلاثة وسيأتى وصفه.

(٣) فلم يسعوا بعد طواف الافاضة.

لا تعارض بينهما لأن الراكب إذا آنصب به بعيره فقد آنصب كله وآنصبت قدماه أيضا مع سائر جسده، قال آبن القيم: وعندى وجه آخر للجمع بينهما أحسن من هذا وهو أنه سعى ماشيا أوّلا ثم أتم سعيه راكبا، وقد جاء ذلك مصرحا به، ففى صحيح مسلم عن أبى الطفيل قال: قلت لابن عباس أخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكبا أسنة هو؟ فان قومك يزعمون أنه سنة قال: صدقوا وكذبوا قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثر عليه الناس يقولون: هذا محمد حتى نخرج عليه العواتق من البيوت قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُضْرب الناس بين يديه فلما كثر عليه ركب والمشى أفضل. وأما طوافه بالبيت عند قدومه فاختلف فيه هل كان على قدميه أو كان راكبا؟ والصحيح أنه طافه على قدميه لأنه ثبت عنه الرَّمَل فيه وهو إنما يكون من الماشى، وأن الركوب كان فى طواف الإفاضة. وكان صلى الله عليه وسلم إذا وصل إلى المروة (١) رقى عليها وآستقبل البيت وكبر الله وحده وفعل كما فعل على الصفا، فلما أكمل سعيه عند المروة أمر كل من لاهدى معه أن يحل حتما ولا بد قارنا كان أومفردا، وأمرهم أن يحلوا الحل كله من وطء النساء والطيب ولبس المخيط وأن يبقوا كذلك الى يوم التروية، ولم يحل هو من أجل هديه وهناك قال: لو آستقبلت من أمرى ما آستدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة، وهناك دعا للحلقين بالمغفرة ثلاثا وللقصرين مرة، وهناك سأله سُراقة بن مالك بن جُعْشُم عقيب أمره لهم بالفسخ والإحلال هل ذلك لعامهم خاصة أو للأبد؟ فقال: بل للأبد ولم يحل أبو بكر ولا عمر ولا علىّ ولا طلحة ولا الزبير من أجل الهدى، وأما نساؤه صلى الله عليه وسلم فأحللن وكنّ قارنات إلا عائشة فانها لم تحل من أجل تعذر الحل عليها بحيضها، وفاطمة حلت لأنه لم يكن معها هدى، وعلى رضى الله عنه لم يحل من أجل هديه، وأمر من أهلّ بإهلال كاهلاله صلى الله عليه وسلم أن يقيم على إحرامه إن كان معه هدى وأن يحل إن لم يكن معه هدى، وكان يصلى مدّة مقامه بمكة الى يوم التروية (٢) بمنزله الذى هو

(١) المروة: مكان مرتفع فى أصل جبل قعيقعان فى الشمال الشرقى للمسجد الحرام على بعد منه وتحيط به الآن ثلاثة جدر فى الشمال والشرق والغرب.

(٢) ثامن ذى الحجة وكانوا يعدون فيه الماء للسفر الى عرفة.

نازل فيه بالمسلمين بظاهر مكة ، فأقام بظاهر مكة أربعة أيام يقصر الصلاة يوم الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء ، فلما كان يوم الخميس ضحى توجه بمن معه من المسلمين الى منى (١) فأحرم بالحج من كان أحل منهم من رحالهم ولم يدخلوا الى المسجد فأحرموا منه بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم ، فلما وصل الى مِنًى نزل بها وصلى بها الظهر والعصر وبات بها وكان ليلة الجمعة فلما طلعت الشمس سار منها الى عرفة وأخذ على طريق ضب (٢) على يمين طريق الناس اليوم وكان من أصحابه الملبي ومنهم المكبر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء ، فوجد القبة قد ضربت له بِنَمِرة بأمره وهى قرية (٣) شرقى عرفات وهى خراب اليوم فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصوى (٤) فرحلت (٥) ، ثم سار حتى أتى بطن الوادى من أرض عُرَنة (٦) فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الإسلام وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية وقرر فيها تحريم المحرمات التى آتفقت الملل على تحريمها وهى الدماء والأموال والأعراض ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله وأوصاهم بالنساء خيرا وذكر الحق الذى لهن وعليهن وإن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف ولم يقدر ذلك بتقدير وأباح للأزواج ضربهن اذا أدخلن الى بيوتهن من يكرهه أزواجهن ، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله وأخبر أنهم لن يضلوا ماداموا معتصمين به ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه وآستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون فقالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فرفع

(١) منى : هو موضع فى شرق مكة على مسيرة ساعتين وخمس وأربعين دقيقة منها وفيها الجمرات وسيأتى وصفها ورسمها فى خريطة مشاعر الحج .

(٢) ضب : آسم الجبل الذى فى أصله مسجد الخيف وطريق ضب يبتدئ من أول المأزمين على يمين الميمم عرفة وهو أخصر من طريق المأزمين . (٣) لم نر بالتواريخ التى بأيدينا أنها قرية .

(٤) لقب ناقة النبى صلى الله عليه وسلم والقصواء فى الأصل الناقة التى قطع طرف أذنها لكن لم تك ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك .

(٥) وضع عليها الرحل — تقدّم تفسيره .

(٦) عرنة : واد بين المزدلفة وعرفة وطوله نحو ١٥٠٠ متر .

أصبعه الى السماء وآستشهد الله عليهم ثلاث مرات وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم، وسيأتى نص الخطبة فى الكلام على حج الجاهلية ، فلما أتمها أمر بلالا فأذّن ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين أسرّ فيهما بالقراءة وكان يوم الجمعة فدل على أن المسافر لا يصلى جمعة، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضا ومعه أهل مكة وصلوا بصلاته قصرا وجمعا بلا ريب، ولم يأمرهم بالإتمام ولا بترك الجمع ومن قال : إنه قال لهم : أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر فقد غلط فيه غلطا بينا ووهم وهما قبيحا و إنما قال لهم ذلك فى غزاة الفتح بجوف مكة حيث كانوا فى ديارهم مقيمين ولهذا كان أصح أقوال العلماء: أن أهل مكة يقصرون و يجمعون بعرفة كما فعلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم، وفى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة ولا بأيام معلومة ولا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة، و إنما التأثير لما جعله الله سببا وهو السفر هذا مقتضى السنة ولا وجه لما ذهب اليه المحدّدون . فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فوقف فى ذيل الجبل عند الصخرات (١) واستقبل القبلة وجعل جبل المشاة بين يديه وكان على بعيره فأخذ فى الدعاء والتضرّع والآبتهال الى غروب الشمس، وأمر الناس أن يرفعوا عن بطن عرنة وأخبر أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك بل قال : وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف وأرسل الى الناس أن يكونوا على مشاعرهم (٢) و يقفوا بها فإنها من إرث أبيهم إبراهيم . وكذلك هناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج فقال : الحج يوم عرفة من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج .

أيام منًى ثلاثة أيام التشريق ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وكان فى دعائه رافعا يديه إلى صدره كاستطعام المسكين وأخبرهم أن خير الدعاء دعاء يوم عرفة وذكر من دعائه صلى الله عليه وسلم فى الموقف : اللهم : لك الحمد كالذى نقول وخيرا مما نقول اللهم : لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى و إليك مآبى

(١) انظر : رسم جبل عرفات .

(٢) جمع مشعر وهو موضع الشعيرة وهى كل ما جعل علما لطاعة الله تعالى .

ولك ربى تراثى[1] اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تجىء به الريح — ذكره الترمذى — ومما ذكر من دعائه هناك : اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير والوجل المشفق المقر المعترف بذنوبى أسألك مسألة المسكين وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذلّ جسده ورغم أنفه لك ، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين وياخير المعطين — ذكره الطبرانى — وذكر الامام أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وذكر البيهقى من حديث علىّ رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال أكثر دعائى ودعاء الأنبياء من قبلى بعرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى صدرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى وأعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل وشر ما يلج فى النهار وشر ما تهب به الرياح وشر بوائق[2] الدهر — وأسانيد هذه الأدعية فيها لين — وهناك أنزلت عليه ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ . وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم فمات فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفن فى ثوبيه ولا يمس بطيب وأن يغسل بماء وسدر ولا يغطى رأسه ولا وجهه وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبي . فلما غربت الشمس واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصفرة أفاض من عرفة وأردف أسامة بن زيد خلفه وأفاض بالسكينة وضم اليه زمام ناقته حتى أن

(١) النسك : العبادة . والمآب : المرجع . والتراث : المال الموروث .

(٢) مهلكاته .

رأسه ليصيب طرف رحله وهو يقول : أيها الناس عليكم السكينة فان البر ليس بالإيضاع أى ليس بالإسراع ، وأفاض من طريق المأزمين (١) ودخل عرفة من طريق ضب وهكذا كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه فى الأعياد أن يخالف الطريق ثم جعل يسير العَنَق وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطىء فاذا وجد فجوة وهو المتسع نصَّ سيرَه أى رفعه فوق ذلك وكلما أتى ربوة (٢) من تلك الربا أرخى للناقة زمامها قليلا حتى تصعد وكان يلبّى فى مسيره ذلك لا يقطع التلبية ، فلما كان فى أثناء الطريق نزل صلوات الله وسلامه عليه فبال وتوضأ وضوءا خفيفا فقال له أسامة : الصلاة يارسول الله فقال : المصلى أمامك ، ثم سار حتى أتى المزدلفة (٣) فتوضأ وضوء الصلاة ثم أمر المؤذن بالأذان فأذن المؤذن ثم أقام فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال ، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان ولم يصل بينهما شيئا ، وقد روى أنه صلاهما بأذانين وإقامتين ، وروى بإقامتين بلا أذان ، والصحيح أنه صلاهما بأذان وإقامتين ، كما فعل بعرفة ثم نام حتى أصبح ولم يحى تلك الليلة ولا صح عنه فى إحياء ليلتى العيدين شىء ، وأذن فى تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدّموا الى منى قبل طلوع الفجر وكان ذلك عند غيبوبة القمر وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس ، فلما طلع الفجر صلاها فى أوّل الوقت لا قبله قطعا بأذان وإقامة يوم النحر وهو يوم العيد وهو يوم الحج الأكبر وهو يوم الأذان ببراءة من الله ورسوله من كل مشرك ، ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر (٤) الحرام فاستقبل القبلة وأخذ فى الدعاء والتضرّع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جدا وذلك قبل طلوع الشمس وهنالك سأله عروة بن مُضَرِّس الطائى فقال يا رسول الله :

---

(١) هو الطريق الذى يسلكه الناس اليوم وهو أطول من طريق ضب الذى فى جنوبيه على يمين السالك نحو عرفة . (٢) مكانا عاليا .

(٣) المزدلفة : هو الوادى الواسع الذى بين المأزمين من جهة عرفة وبين وادى محسِّر الضيق من جهة مكة ويمتد على طول ٣٨١٢ متر .

(٤) المشعر الحرام فى المزدلفة على بعد ٢٥٤٨ متر من أوّلها من جهة المحسر عند الجبل المعروف بقزح .

إنى جئت من جبلى طيِّئ أكللت(١) راحلتى وأتعبت نفسى والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لى من حج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبـل ذلك ليلا أو نهارا فقـد تم حجه وقضى تفثه — قال الترمذى : حديث حسن صحيح(٢) . وبهذا آحتج من ذهب الى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها ركن كعرفة . وقد وقف صلى الله عليه وسلم فى موقفه وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار من مزدلفة مردفا للفضل بن عباس وهو يلبى فى مسيره وآنطلق أسامة بن زيد على رجليه فى سُبّاق(٣) قريش ، وفى طريقه ذلك أمر آبن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ولم يكسرها من الجبل تلك الليلة كما يفعل من لا علم عنده ولا التقطها بالليل، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف(٤) فجعل ينفضهن فى كفه ويقول : أمثـال هؤلاء فارموا وإياكم والغلوّ فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ فى الدين . وفى طريقه تلك عرضت له آمرأة من خثعم جميلة فسألته عن الحج عن أبيها وكان شيخا كبيرا لا يستمسك على الراحلة فأمرها أن تحج عنه وجعل الفضل ينظر اليها وتنظر اليه فوضع يده على وجهه وصرفه الى الشق الآخر — وكان الفضل وسيما — فقيل : صرف وجهه عن نظرها اليه وقيل : صرفه عن نظره اليها، والصواب أنه فعله للأمرين فإنه فى القصة جعل ينظر اليهـا وتنظر اليه وسأله آخر هنالك عن أمه فقال : إنها عجوز كبيرة وإن حملتها لم تستمسك وإن ربطتها خشيت أن أقتلها فقال : أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم قال : فحج عن أمك . فلما أتى بطن(٥) محسر حرك ناقته وأسرع السير وهذه كانت عادته فى المواضع التى نزل فيها بأس الله بأعدائه، فإن هنالك أصاب أصحاب

---

(١) أتعبتها . (٢) الحديث الذى رواه عدل تام الضبط بسند متصل غير معل ولا شاذ يقال له : الصحيح وإن لم يكن الضبط تاما يقال له : الحسن ومعنى كون الحديث حسنا صحيحا أن أحد سنديه تنطبق عليه أوصاف الصحة والآخر تنطبق عليه أوصاف الحسن فإن كان له سند واحد فوصفه بالأمرين للاختلاف فى حال رجاله أهم رجال الصحيح أم رجال الحسن ؟

(٣) تسابقهم . (٤) الخذف بالحصى رميه بالأصابع .

(٥) الوادى الضيق بين منى ومزدلفة يقال له محسر .

الفيل ما قص الله علينا، ولذلك سمى ذلك الوادى وادى محسر لأن الفيل حَسِر فيه أى أعيي وانقطع عن الذهاب وكذلك فعل فى سلوكه الحجر وديار ثمود فانه تقنع بثوبه وأسرع السير. و «محسر» برزخ بين مِنًى وبين مزدلفة لا من هـذه ولا من هذه و «عُرَنَة» برزخ بين عرفة والمشعر الحرام فبين كل مشعرين برزخ ليس منهما، فمنى من الحرم وهى مشعر، ومُحَسِّر من الحرم وليس بمشعر، ومزدلفة : حرم ومشعر، وعُرنة ليست مشعرا ولا حرما، وعرفة : حل ومشعر. وسلك صلى الله عليه وسلم الطريق الوسطى بين الطريقين وهى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى منى فأتى جمرة[(١)] العقبة فوقف فى أسفل الوادى وجعـل البيت عن يساره ومنى عن يمينـه واستقبل الجمرة وهو على راحلته فرماها راكبا بعد طلوع الشمس واحدة بعد واحدة يكبر مع كل حصاة، وحينئذ قطع التلبية، وكان فى مسيره ذلك يلبي حتى شرع فى الرمى، ورمى وبلال وأسامة معه أحدهما آخذ بخطام ناقتـه والآخر يظله بثوب من الحر، وفى هذا دليل على جواز استظلال المحرم بالمحمل ونحوه إن كانت قصة هذا الإظلال فى يوم النحر ثابتة وان كانت بعده فى أيام منى فلا حجة فيها وليس فى الحديث بيان أى زمن كانت والله أعلم . ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله وحرمة مكة على جميع البلاد وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه وقال : لعلى لا أحج بعـد عامى هـذا وعلمهم مناسكهم وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم وأمر الناس أن لا يرجعوا بعـده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض وأمر بالتبليغ عنـه، وأخبر أنه رب مبلَّغ أوعى من سامع وقال فى خطبته : لا يجنى جان إلا على نفسـه وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها والنـاس حولهم وفتح الله له أسماع الناس حتى سمعها أهل منى فى منازلهم وقال فى خطبته تلك : اعبـدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنـة ربكم، وودّع حينئذ الناس

(١) جمرة العقبة أقرب الجمار الى مكة وهى الآن حائط من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار فى عرض مترين وتليها الجمرة الوسطى فالأولى .

فقالوا : حجة الوداع، وهناك سئل عمن حلق قبل أن يرمى . فقال : لا حرج قال عبد الله بن عمر : ما رأيته سئل صلى الله عليه وسلم يومئذ عن شيء إلا قال : افعلوا ولا حرج، قال ابن عباس إنه قيل له صلى الله عليه وسلم فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير قال : لا حرج، وقال أسامة بن شريك : خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم حاجا وكان الناس يأتونه فمن قائل يا رسول الله ! سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئا وقدمت فكان يقول : لا حرج لا حرج إلا على رجل اعترض عِرْض رجل مسلم وهو ظالم فذلك الذى حرج وهلك وقوله : سعيت قبل أن أطوف فى هذا الحديث ليس بمحفوظ ، والمحفوظ : تقديم الرمى والنحر والحلق بعضها على بعض ثم انصرف إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده وكان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى، وكان عدد هذا الذى نحره عدد سنى عمره ثم أمسك، وأمر عليا أن ينحر ما بقى من المائة ثم أمر عليا رضى الله عنه أن يتصدق بجلالها(١) ولحومها وجلودها فى المساكين وأمره أن لا يعطى الجزار فى جزارته شيئا منها وقال : نحن نعطيه من عندنا وقال : من شاء اقتطع . وقد نحر صلى الله عليه وسلم بمنحره بمنى وأعلمهم أن منى كلها منحر وأن فجاج مكة طريق ومنحر، وفى هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه كما أنه لما وقف بعرفة قال وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف، ولما وقف بمزدلفة قال : وقفت هاهنا ومزدلفة كلها موقف . وسئل صلى الله عليه وسلم أن يبنى له بناء يظله من الحر؟ فقال : لا، منى مناخ لمن سبق اليه، وفى هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها وأن من سبق إلى مكان فهو أحق به حتى يرتحل عنه ولا يملكه بذلك .

فلما أكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحره استدعى بالحلاق فحلق رأسه فقال للحلاق وهو معمر بن عبد الله وهو قائم على رأسه بالموسى ونظر فى وجهه وقال يامعمر! أمكنك رسول الله صلى الله عليه وسلم من شحمة أذنه وفى يدك الموسى فقال معمر : أما والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله علىّ ومَنّه قال : أجل(٢) وقال صلى الله عليه

(١) الجلال جمع جُل وهو كساء يوضع على ظهور الابل . (٢) نعم .

وسلم للحلاق : خذ وأشار إلى جانبه الأيمن، فلما فرغ منه قسم شعره بين من يليه ثم أشار الى الحلاق فحلق جانبه الأيسر ثم قال: هاهنا أبو طلحة فدفعه اليه، هكذا وقع فى صحيح مسلم. وقد دعا صلى الله عليه وسلم للمحلقين بالمغفرة ثلاثا وللمقصرين مرة، وحلق كثير من الصحابة بل أكثرهم وقصر بعضهم وهذا مع قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ومع قول عائشة رضى الله عنها طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبل أن يحرم ولإحلاله قبل أن يحل دليل على أن الحلق نسك وليس بإطلاق من محظورات الإحرام .

ثم أفاض صلى الله عليه وسلم إلى مكة قبل الظهر راكبا فطاف طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة وهو طواف الصَّدَر ولم يطف غيره ولم يسع معه هذا هو الصواب، وقد خالف فى ذلك ثلاث طوائف ـــ طائفة زعمت أنه طاف طوافين طوافا للقدوم سوى طواف الإفاضة ثم طاف للإفاضة، وطائفة زعمت أنه سعى مع هذا الطواف لكونه قارنا، وطائفة زعمت أنه لم يطف فى ذلك اليوم وإنما أخر طواف الزيارة الى الليل (وقد بين ابن القيم منشأ هذه الأقوال وخطأها فى كتابه زاد المعاد من ص٢٣٩ الى ٢٤٢) ولم يرمل صلى الله عليه وسلم فى هذا الطواف ولا فى طواف الوداع وإنما رمل فى طواف القدوم ، ثم أتى زمزم بعد أن قضى طوافه وهم يسقون فقال : لولا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم ثم ناولوه الدلو فشرب وهو قائم فقيل : هذا نسخ لنهيه عن الشرب قائما وقيل : بل بيان منه لأن النهى على وجه الاختيار وترك الأولى وقيل : بل للحاجة وهذا أظهر . وهل كان فى طوافه هذا راكبا أو ماشيا؟ . واختلف أين صلى صلى الله عليه وسلم الظهر يومئذ؟ ففى الصحيحين عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم أفاض يوم النحر ثم رجع فصلى الظهر بمنى، وفى صحيح مسلم عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بمكة وكذلك قالت عائشة : وقد رجح جماعة قول عائشة وجابر ورجح آخرون قول ابن عمر (انظر وجوه الترجيح زاد المعاد أول ص ٢٤٣) وقد طافت عائشة فى ذلك اليوم طوافا واحدا وسعت سعيا واحدا أجزأها عن حجها وعمرتها، وطافت صفية ذلك اليوم ثم حاضت فأجزأها طوافها ذلك عن طواف الوداع ولم

تودّع فآستقرّت سنته صلى الله عليه وسلم فى المرأة الطاهرة إذا حاضت قبل الطواف أن تقرن وتكتفى بطواف واحد وسعى واحد، وإن حاضت بعد طواف الإفاضة آجتزأت به عن طواف الوداع . ثم رجع صلى الله عليه وسلم الى منى من يومه ذلك فبات بها فلما أصبح آنتظر زوال الشمس ، فلما زالت مشى من رحله الى الجمار ولم يركب فبدأ بالجمرة (١) الأولى التى تلى مسجد الخَيْف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة الله أكبر ثم يقدم على الجمرة أمامها حتى أسهل (٢) فقام مستقبل القبلة ثم رفع يديه ودعا دعاء طويلا بقدر سورة البقرة ثم أتى الى الجمرة الوسطى فرماها كذلك ثم آنحدر ذات اليسار مما يلى الوادى فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو قريبا من وقوفه الأول ثم أتى الجمرة الثالثة وهى جمرة العقبة فاستبطن الوادى وآستعرض الجمرة فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه فرماها بسبع حصيات كذلك ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال ولا جعلها عن يمينه، وآستقبل البيت وقت الرمى كما ذكره غير واحد من الفقهاء، فلما أكمل الرمى رجع من فوره ولم يقف عندها فقيل : لضيق المكان بالجبل وقيل وهو أصح : إن دعاءه كان فى نفس العبادة قبل الفراغ منها فلما رمى جمرة العقبة فرغ الرمى، والدعاء فى صلب العبادة قبل الفراغ منها أفضل منه بعد الفراغ منها . ويغلب على الظنّ أنه كان يرمى قبل الصلاة ثم يرجع فيصلى . ومما تقدّم تعلم أن حجة النبي صلى الله عليه وسلم تضمنت ست وقفات للدّعاء، الموقف الأول على الصفا، والثانى على المروة، والثالث بعرفة، والرابع بمزدلفة، والخامس عند الجمرة الأولى، والسادس عند الجمرة الثانية .

وخطب صلى الله عليه وسلم الناس بمنى خطبتين خطبة يوم النحر وقد تقدّمت والخطبة الثانية فى أوسط أيام التشريق فقيل : هو ثانى يوم النحر وهو أوسطها أى خيارها وآحتج لذلك بحديث سَرَّى بنت نَبْهان قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أتدرون أى يوم هذا؟ قالت : وهو اليوم الذى تدعون يوم الرءوس

(١) أنظر الجمرات وصفا ورسما بعد .

(٢) صار فى الارض السهلة .

قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : هذا وسط أيام التشريق، هل تدرون أى بلد هذا؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : هذا المشعر الحرام. ثم قال : إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد هذا : ألا و إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم ألا هل بلغت، فلما قدمنا المدينة لم يلبث إلا قليلا حتى مات صلى الله عليه وسلم — رواه أبو داود. ويوم الرءوس هو ثانى يوم النحر بالاتفاق. واستأذنه العباس بن عبد المطلب أن يبيت بمكة ليالى منى من أجل سقايته فأذن له، واستأذنه رعاء الإبل فى البيتوتة خارج منى عند الإبل فأرخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمى يومين بعد يوم النحر يرمونه فى أحدهما، قال مالك : ظننت أنه قال فى أول يوم منهما ثم يرمون يوم النفر، وقال ابن عيينة فى هذا الحديث رخص للرعاء أن يرموا يوما ويدعوا يوما فيجوز للطائفتين بالسنة ترك المبيت بمنى، وأما الرمى فانهم لا يتركونه بل لهم أن يؤخروه الى الليل فيرمون فيه، ولهم أن يجمعوا رمى يومين فى يوم، واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رخص لأهل السقاية وللرعاء فى البيتوتة فمن له مال يخاف ضياعه أو مريض يخاف من تخلفه عنه أو كان مريضا لا تمكنه البيتوته سقطت عنه بتنبيه النص على هؤلاء. ولم يتعجل صلى الله عليه وسلم فى يومين بل تأخر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر الى المحصب (١) وهو الأبطح وهو خيف بنى كنانة فوجد أبا رافع قد ضرب فيه قبته هنالك وكان على ثَقَله (٢) توفيقا من الله عز وجل دون أن يأمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقد رقدة ثم نهض الى مكة فطاف للوداع ليلا سحرا ولم يرمل فى هذا الطواف وأخبرته صفية أنها حائض فقال أحابستنا هى؟ فقالوا له : إنها قد أفاضت قال : فلننفر اذا، ورغبت اليه عائشة تلك الليلة أن يُعمرها عمرة مفردة فأخبرها أن طوافها بالبيت وبالصفا والمروة قد أجزأها عن حجها وعمرتها فأبت

(١) المحصب هو الوادى الذى بين المعلاة من جهة مكة و بين المكان المعروف بسبيل الست من جهة منى.

(٢) الثقل متاع المسافر وحشمه.

إلا أن تعتمر عمرة مفردة فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم ، ففرغت من عمرتها ليلا ثم وافت المحصَّب مع أخيها فأتيا فى جوف الليل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغتما؟ قالت : نعم ، فنادى بالرحيل فى أصحابه فارتحل الناس ثم طاف بالبيت قبل صلاة الصبح ، وقد اختلف فى التحصيب أسنة هو أو منزل اتفاق على قولين — وهاهنا ثلاث مسائل هل دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت فى حجته أم لا ؟ وهل وقف بالملتزم أو لا ؟ وهل صلى الصبح ليلة الوداع بمكة أو خارجا عنها ؟ والذى تدل عليه سنته أنه لم يدخل البيت فى حجته ولا فى عمرته وإنما دخله عام الفتح وأنه لم يقف بالملتزم إلا عام الفتح وانه صلى صلاة الصبح بمكة عند البيت ، وسمعته أم سلمة يقرأ فيها بالطور .

ثم ارتحل صلى الله عليه وسلم راجعا الى المدينة ، فلما كان بالروحاء لقى ركبا فسلم عليهم وقال من القوم ؟ فقالوا : المسلمون فمن القوم؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفعت امرأة صبيا لها من محفة [1] فقالت يارسول الله ! ألهذا حج ؟ قال : نعم ولك أجر ، فلما أتى ذا الحليفة بات بها ، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم دخلها نهارا من طريق المعرس [2] وخرج من طريق الشجرة [3] .

هديه صلى الله عليه وسلم فى الهدايا : أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنم وأهدى الإبل وأهدى عن نسائه البقر وأهدى فى مقامه وفى عمرته وفى حجته

---

(١) المحفة : مركب من مراكب النساء كالهودج إلا انها لا تقبب كما تقبب الهوادج .

(٢) التعريس نزول المسافر آخر الليل نزلة للاستراحة والنوم ، والمعرس موضع التعريس وبه سمى معرّس ذى الحليفة الذى عرّس به النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) المراد بالشجرة الشجرة التى ولدت عندها أسماء بذى الحليفة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج من المدينة ويحرم منها وهى على ستة أميال من المدينة .

وكانت سنته تقليد[١] الغنم دون إشعارها، وكان إذا بعث بهديه وهو مقيم لم يحرم عليه شيء كان منه حلالا، وكان اذا أهدى الإبل قلدها وأشعرها فيشق صفحة سنامها اليمنى يسيرا حتى يسيل منها الدم، قال الشافعي رضي الله عنه: والإشعار فى الصفحة اليمنى، كذلك أشعر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان إذا بعث بهديه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رسـوله اذا أشرف على عطب شيء منه أن ينحره ثم يصبغ نعله فى دمه ثم يجعله على صفحته ولا يأكل منه هو ولا أحد من رفقته ثم يقسم لحمه، ومنعه من هذا الأكل سدا للذريعة فإنه لعله ربما قصر فى حفظه ليشارف العطب فينحره ويأكل منه فإذا علم أنه لا يأكل منــه شيئا اجتهد فى حفظه، وشرك بين أصحابه فى الهدى فالبدنة عن سبع والبقرة كذلك، وأباح لسائق الهدى ركوبه بالمعروف اذا آحتاج اليه حتى يجد ظهرا غيره، وقال على رضى الله عنه: يشرب من لبنها ما فضل عن ولدها. وكان هديه صلى الله عليه وسلم نحر الإبل قياما مقيدة معقولة اليسرى على ثلاث وكان يسمى الله عند نحره ويكبر وكان يذبح نسكه بيده وربما وكل فى بعضه كما أمر عليا رضى الله عنه أن يذبح مابقى من المـائة، وكان إذا نحر الغنم وضع قدمه على صفاحها ثم سمى وكبر ونحر، وقد تقدم أنه نحر بمنى وقال: إن فجاج مكة كلها منحر، وقال ابن عباس: مناحر البدن بمكة ولكنها نزهت عن الدماء ومنى من مكة، وكان آبن عباس ينحر بمكة. وأباح صلى الله عليه وسلم أن يأكلوا من هداياهم وضحاياهم ويتزودوا منها ونهاهم مرة أن يدخروا منها بعد ثلاث لدافة[٢] دفت عليهم ذلك العـام من الناس فأحب أن يوسعوا عليهم. وروى مسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع لثوبان: أصلح هذا اللحم قال: فأصلحته فلم يزل يأكل منه حتى بلغ المدينة، وكان ربمـا قسم لحوم الهدى وربما قال: من شاء آقتطع فعل هذا وفعل هذا، وكان من هديه صلى الله عليه وسلم ذبح هدى العمرة عند المروة وهدى القران بمنى وكذلك كان آبن عمر يفعل. ولم ينحر هديه صلى الله عليه وسلم قط إلا بعد أن

---

(١) وضع قلادة فى عنقها ليعلم أنها هدى والإشعار: الضرب فى صفحة السنام حتى يسيل منها الدم وقد تقدما. (٢) الدافة: القوم يسيرون جماعة سيرا ليس بالشديد يقال: هم يدفون دفا.

حل ولم ينحره قبل يوم النحر ولا أحد من الصحابة البتة، ولم ينحره أيضا إلا بعد طلوع الشمس وبعد الرمى، فهى أربعة أمور مرتبة يوم النحر: أولها الرمى ثم النحر ثم الحلق ثم الطواف وهكذا رتبها صلى الله عليه وسلم ولم يرخص فى النحر قبل طلوع الشمس البتة ولا ريب أن ذلك مخالف لهديه فحكمه حكم الأضحية إذا ذبحت قبل طلوع الشمس فإنها لاتجزئ .

فقه المذاهب فى الحج

قد رأينا أن نعتمد فى نقل فقه المذاهب على ما كتبه الامام ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥) فى كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وإن دعت الحاجة الى الرجوع لكتب المذاهب المختلفة رجعنا اليها، وسنذكر الأحكام مجردة عن الأدلة فان ماقدمنا لك من حجة الرسول فيه الأدلة الكافية لمن أرادها وإن أبيت إلا الزيادة فدونك هذا الكتاب وكتاب نيل الأوطار للعلامة الشوكانى اليمنى فانه البحر الخضم لمن رغب التوسع فى الأدلة والله يوفقنا لما فيه الخير لديننا وأمتنا .

النظر فى كتاب الحج فى ثلاثة أجناس: «الجنس الأول» يشتمل على الأشياء التى تجرى من هذه العبادة مجرى المقدمات التى تجب معرفتها لعمل هذه العبادة؛ «الجنس الثانى» فى الأشياء التى تجرى منها مجرى الأركان وهى الأمور المعمولة نفسها والأشياء المتروكة؛ «الجنس الثالث» فى الأشياء التى تجرى منها مجرى الأمور اللاحقة وهى أحكام الأفعال وذلك أن كل عبادة فإنها توجد مشتملة على هذه الثلاثة الأجناس .

الجنس الأول

هذا الجنس يشتمل على شيئين : (١) معرفة وجوب الحج وشروطه وعلى من يجب؛ (٢) معرفة متى يجب .

(١) وجوب الحج وشروطه — لا خلاف فى وجوب الحج لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ .

والشروط قسمان: شروط وجوب، وشروط صحة؛ فأما شروط الصحة فلا خلاف بين الأئمة أن منها الإسلام فلا يصح حج من غير مسلم . واختلفوا فى صحة وقوعه من الصبي فذهب مالك والشافعى إلى جواز ذلك ومنع منه أبو حنيفة، وكذلك اختلف أصحاب مالك فى صحة وقوعه من الطفل الرضيع وينبغى أن لا يختلف فى صحة وقوعه ممن يصح وقوع الصلاة منه وهو كما قال صلى الله عليه وسلم من السبع الى العشر .

وأما شروط الوجوب فالإسلام على القول بأن الكفار مخاطبون بفروع شريعتنا ولا خلاف فى اشتراط الاستطاعة وإن كان فى تفصيل ذلك اختلاف وهى بالجملة تتصور على نوعين: مباشرة ونيابة؛ فأما «المباشرة» فلا خلاف عندهم أن من شرطها الاستطاعة بالبدن وبالمال مع الأمن واختلفوا فى تفصيل الاستطاعة بالبدن والمال فقال الشافعى وأبو حنيفة وأحمد وهو قول ابن عباس وعمر بن الخطاب : إن من شرط ذلك الزاد والراحلة، وقال مالك : من استطاع المشى فليس وجود الراحلة من شرط الوجوب فى حقه بل يجب عليه الحج وكذلك ليس الزاد عنده من شرط الاستطاعة إذا كان ممن يمكنه الاكتساب فى طريقه ولو بالسؤال . فأما وجوبه باستطاعة «النيابة» مع العجز عن المباشرة فعند مالك وأبى حنيفة أنه لا تلزم النيابة اذا استطيعت مع العجز عن المباشرة، وعند الشافعى أنها تلزم فيلزم على مذهبه أن من لا يقدر على الحج ببدنه وعنده مال يكفى لإنابة غيره عنه فى الحج تجب عليه تلك الإنابة من ماله الخاص، وإن وجد من يحج عنه بماله وبدنه من أخ أو قريب سقط ذلك عنه ، وكذلك عنده الذى يأتيه الموت ولم يحج يلزم ورثته عنده أن يخرجوا من ماله ما يحج به عنه ولا خلاف بين المسلمين أنه يقع عن الغير تطوعا وإنما الخلاف فى وقوعه فرضا، واختلفوا من هذا الباب فى الذى يحج عن غيره سواء أكان حيا أم ميتا هل من شرطه أن يكون قد حج عن نفسه أولا ؟ فذهب بعضهم الى أن ذلك ليس من شرطه وان كان قد أدى الفرض عن نفسه فذلك أفضل وبه قال مالك فيمن يحج عن الميت لأن الحج عنده عن الحى لا يقع، وذهب آخرون الى أن من شرطه أن يكون قد قضى فريضة نفسه وبه قال الشافعى وغيره

إنه إن حج عن غيره من لم يقض فرض نفســه ٱنقلب إلى فرض نفســه، وٱختلفوا فى هذا الباب أيضا فيمن يؤاجر نفسه فى الحج فكره ذلك مالك والشافعى وقالا : إن وقع ذلك جاز ولم يجز ذلك أبو حنيفة، و بذلك عرفت من تجب عليه هذه الفريضة وممن تقع .

وٱختلفوا من هذا الباب هل من شرط وجوب الحج على المرأة أن يكون معها زوج أو ذو محرم منها يطاوعها على الخروج معها الى السفر للحج فقال مالك والشافعى : ليس ذلك من شرط الوجوب، وقال أبو حنيفة وأحمد و جماعة : وجود ذى المحرم ومطاوعته لها شرط فى الوجوب .

(٢) متى يجب الحج — ٱختلفوا هــل هو على الفور أو على التراخى ، والقولان منسو بان إلى مالك وأصحابه والظاهر عنــد المتأخرين من أصحابه أنها على التراخى و بالقول أنهــا على الفور قال البغداديون من أصحابه واختلف فى ذلك قول أبى حنيفة وأصحابه، والمختار عندهم أنه على الفور وقال الشافعى : هو على التوسعة .

حكم العمرة — قيل : إنها واجبة، وقيل : إنها سنة، وقيل : هى تطوع و بالأول قال الشافعى وأحمد وأبو عبيــد والثورى والأوزاعى وهو قول ٱبن عباس وٱبن عمر من الصحابة و جماعة من التابعين و بالسنية قال مالك و جماعة ، و بالتطوع قال أبو حنيفة وأبو ثور وداود .

الجنس الثــانى

فى أفعال هذه العبادة نوعا نوعا والتروك المشترطة فيها

هذه العبادة صنفان : حج، وعمرة؛ والحج ثلاثة أنواع : إفراد وتمتع وقران وكلها تشتمل على أفعــال محدودة فى أمكنة محدودة وأوقات محدودة وعلى تروك تشترط فى تلك الأفعال، ولكل هذه أحكام محدودة إما عند الإخلال بها و إما عند الطوارئ المانعة منها فإذًا الجنس الثانى ينقسم الى الأفعال والى التروك؛ فلنبدأ بالأفعال وهذه منها ما تشترك فيها هذه الأربعة الأنواع من النسك أعنى أنواع الحج الثلاثة والعمرة

ومنها ما يختص ببعضها فلنبدأ من القول فيها بالمشترك ثم نعقب ذلك بالخاص فنقول : إن الحج والعمرة أول أفعالها الفعل الذى يسمى الإحرام .

(١) الإحرام — (أ) ميقاته

الإحرام : يشترط فيه المكان والزمان أما المكان فهو ما يسمى مواقيت الحج وقد أجمع العلماء على أن المواقيت التى منها يكون الإحرام، ذو الحليفة لأهل المدينة والجحفة لأهل الشام، وقَرْن لأهل نجد، ويلملم لأهل اليمن، وٱختلفوا فى ميقات أهل العراق فقال جمهور فقهاء الأمصار: ميقاتهم من ذات عرق، وقال الشافعى والثورى: إن أهلوا من العقيق كان أحب[1]، وجمهور العلماء على أن من يخطئ هذه وقصده الإحرام فلم يحرم إلا بعدها فعليه دم وهؤلاء منهم من قال : إن رجع الى الميقات فأحرم منه سقط عنه الدم ومنهم الشافعى، ومنهم من قال : لا يسقط عنه الدم وإن رجع وبه قال مالك، وقال قوم: ليس عليه دم، وقال آخرون: إن لم يرجع الى الميقات فسد حجه ويرجع الى الميقات فيهل منه بعمرة، وجمهور العلماء على أن من كان منزله دونهن فميقات إحرامه من منزله ، وٱختلفوا هل الأفضل إحرام الحاج منهن أو من منزله إذا كان منزله خارجا عنهن؟ فقال قوم: الأفضل له من منزله والإحرام منها رخصة وبه قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وجماعة ، وقال مالك واسحاق وأحمد إحرامه من المواقيت أفضل . وٱختلفوا فيمن ترك الإحرام من ميقاته وأحرم من ميقات آخر غير ميقاته مثل أن يترك أهل المدينة الإحرام من ذى الحليفة ويحرموا من الجحفة فقال قوم عليه دم وممن قال به مالك وبعض أصحابه وقال أبو حنيفة ليس عليه شىء .

ولا خلاف أنه يلزم الإحرام من مرّ بهذه المواقيت ممن أراد الحج أو العمرة وأما من لم يردهما ومرّ بهما فقال قوم: كل من مرّ بهما يلزمه الإحرام إلا من يكثر ترداده مثل الحطابين وشبههم وبه قال مالك، وقال قوم: لا يلزم الإحرام إلا لمريد الحج

(١) انظر خريطة المواقيت .

أو العمرة ، هذا كله لمن ليس من أهل مكة وأما أهل مكة فإنهم يخرجون الى الحل ويحرمون منه بالحج أو العمرة. وأما متى يحرم بالحج أهل مكة فقيل: إذا رأوا الهلال وقيل: إذا خرج الناس إلى منى فهذا هو ميقات المكان المشترط لأنواع هذه العبادة. وميقات الزمان محدود أيضا فى أنواع الحج الثلاثة وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة باتفاق، وقال مالك: ثلاثة الأشهر كلها محل للحج، وقال الشافعى: الشهران وتسع من ذى الحجة، وقال أبو حنيفة : وعشر من ذى الحجة ، وفائدة الخلاف تأخر طواف الإفاضة الى آخر الشهر، فإن أحرم بالحج قبل أشهره كرهه مالك وصح إحرامه عنده، وقال غيره : لا يصح إحرامه، وقال الشافعى : ينعقد إحرامه إحرام عمرة . وأما العمرة فاتفقوا على جوازها فى كل أوقات السنة، وقال أبو حنيفة: تجوز فى كل السنة إلا يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق فإنها تكره . واختلفوا فى تكريرها فى السنة الواحدة فكان مالك يستحب عمرة فى كل سنة ويكره تكرارها فى السنة الواحدة وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا كراهة فى ذلك .

فهذا هو القول فى شروط الإحرام الزمانية والمكانية .

(ب) محظورات الإحرام

اتفق العلماء على أن المحرم لا يلبس قميصا ولا سروالا (لباسا) ولا برنسا (قلنسوة طويلة) ولا خفا ولا ثوبا مسه الزعفران أو الورس (نبت أصفر يمنى) ولا ما كان فى معنى ذلك من مخيط الثياب وأن هذا مخصوص بالرجال فلا بأس بأن تلبس المرأة القميص والسراويل والخفاف والخمر . واختلفوا فيمن لم يجد غير السراويل هل له لباسها؟ فقال مالك وأبو حنيفة : لا يجوز له ذلك وإن لبسها افتدى، وقال الشافعى والثورى وأحمد وأبو داود وأبو ثور : لا شيء عليه إذا لم يجد إزارا وجمهور العلماء على إجازة لبس الخفين مقطوعين لمن لم يجد النعلين وقال أحمد: يجوز لمن لم يجد النعلين أن يلبس الخفين غير مقطوعين، قال عطاء: فى قطعهما فساد والله لا يحب الفساد، واختلفوا فيمن لبسهما مقطوعين مع وجود النعلين فقال مالك : عليه الفدية وبه

قال أبو ثور ، وقال أبو حنيفة : فدية عليه ، والقولان عن الشافعي . وآختلفوا فى المعصفر فقال مالك : لا بأس به فانه ليس بطيب ، وقال أبو حنيفة والثورى : هو طيب وفيه الفدية وأجمعوا على أن إحرام المرأة فى وجهها وأن لها أن تغطى رأسها وتستر شعرها وأن لها أن تسدل ثوبها على وجهها من فوق رأسها سدلا خفيفا تستتر به من نظر الرجال إليها . واختلفوا فى تخمير المحرم وجهه بعد إجماعهم على أنه لا يخمر رأسه ، فروى مالك عن ابن عمر أن ما فوق الذقن من الرأس لا يخمره المحرم واليه ذهب مالك ، وروى عنه أنه إن فعل ذلك ولم ينزعه مكانه آفتدى ، وقال الشافعي والثورى وأحمد وداود وأبو ثور : يخمر المحرم وجهه إلى الحاجبين . واختلفوا فى لبس القُفَّازين للمرأة فقال مالك : إن لبستهما آفتدت ، ورخص فيه الثورى وهو مروى عن عائشة .

وأجمع العلماء على أن الطيب كله يحرم على المحرم بالحج أو العمرة فى حال إحرامه ، واختلفوا فى جوازه للمحرم عند الإحرام قبل أن يحرم لما يبقى من أثره عليه بعد الإحرام فكرهه قوم وأجازه آخرون ، وممن كرهه مالك ورواه عن عمر بن الخطاب وهو قول عثمان وابن عمر وجماعة من التابعين ، وممن أجازه أبو حنيفة والشافعي والثورى وأحمد وداود .

وأجمع المسلمون على أن وطء النساء على الحاج حرام من حين يحرم لقوله تعالى ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ .

واتفقوا على أن المحرم لا يلق تفثه ولا يزيل شعره ولا يقتل القمل ، وأجمعوا على أنه يجوز له غسل رأسه من الجنابة ، واختلفوا فى كراهية غسله من غير الجنابة فقال الجمهور : لا بأس بغسله رأسه ، وقال مالك : بكراهية ذلك واتفقوا على منع غسل رأسه بالخطمى ، وقال مالك وأبو حنيفة : إن فعل ذلك آفتدى وقال أبو ثور وغيره : لا شيء عليه . واختلفوا فى دخوله الحمام فكان مالك يكره ذلك ويرى أن على من دخله الفدية وقال أبو حنيفة والشافعي والثورى وداود : لا بأس بذلك .

ومن محظورات الإحرام الاصطياد وذلك مجمع عليه لقوله تعالى ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وقوله تعالى ﴿لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ وقد أجمعوا على أنه لا يجوز له صيده ولا أكل ما صاد هو منه ، واختلفوا إذا صاده حلال هل يجوز للمحرم أكله ؟ على ثلاثة أقوال : قول أنه يجوز له أكله على الإطلاق وبه قال أبو حنيفة وهو قول عمر بن الخطاب والزبير ، وقال قوم : هو محرّم عليه على كل حال وهو قول ابن عباس وعليّ وبه قال الثورى ، وقال مالك : ما لم يصد من أجل المحرم أو من أجل قوم محرمين فهو حلال ، وما صيد من أجل محرم فهو حرام على المحرم . واختلفوا فى المضطر هل يأكل الميتة أو يصيد فى الحرم ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والثورى وزُفَر وجماعة : إذا اضطر اكل الميتة ولحم الخنزير دون الصيد ، وقال أبو يوسف : يصيد ويأكل وعليه الجزاء؛ فهذه الخمسة اتفق المسلمون على أنها من محظورات الإحرام . واختلفوا فى نكاح المحرم فقال مالك والشافعى والليث والأوزاعى : لا ينكح المحرم ولا يُنكح فان نكح فالنكاح باطل وهو قول عمر وعليّ بن أبى طالب وابن عمر وزيد بن ثابت ، وقال أبو حنيفة والثورى : لابأس بأن ينكح المحرم ويُنكح .

(ج) أنواع الإحرام

المحرم إما محرم بعمرة مفردة أو محرم بحج مفرد أو جامع بين الحج والعمرة وهذان ضربان إما متمتع وإما قارن . ولما كان الإفراد هو التعرى عن صفات التمتع والقران وجب أن نبدأ أولا بصفة التمتع ثم نردف ذلك بصفة القران ، آتفق العلماء على أن هذا النوع من النسك المعنى بقوله سبحانه ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ هو أن يهل الرجل بالعمرة فى أشهر الحج من الميقات إن كان مسكنه خارجا عن الحرم ثم يأتى حتى يصل البيت فيطوف لعمرته ويسعى ويحلق فى تلك الأشهر بعينها ثم يحل بمكة ثم ينشئ الحج فى ذلك العام نفسه وفى تلك الأشهر نفسها من غير أن ينصرف إلى بلده إلا ما روى عن الحسن أنه كان يقول : هو متمتع وإن عاد إلى بلده ولم يحج فعليه الهدى وكان يقول : عمرة فى أشهر الحج متعة وقال طاوس : من آعتمر فى غير أشهر الحج ثم أقام حتى يحج

وحج من عامه إنه متمتع، وقد اتفق العلماء على أن من لم يكن من حاضرى المسجد الحرام فهو متمتع وآختلفوا فى المكىّ هل يقع منه التمتع أو لا ؟ والقائلون بوقوعه منه آتفقوا على أنه ليس عليه دم لقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . وآختلفوا فيمن هو حاضر بالمسجد الحرام ممن ليس هو كذلك فقال مالك : حاضرو المسجد الحرام هم أهل مكة وذى طوى وما كان مثل ذلك من مكة، وقال أبو حنيفة : هم أهل المواقيت فمن دونهم إلى مكة وقال الشافعى بمصر : من كان بينه و بين مكة ليلتان وهو أقرب المواقيت ، وقال أهل الظاهر : من كان ساكن الحرم، وقال الثورى : هم أهل مكة فقط، وأبو حنيفة يقول إن حاضرى المسجد الحرام لا يقع منهم التمتع .

وهنا نوعان من التمتع آختلف العلماء فيهما، أحدهما فسخ الحج فى عمرة وهو تحويل النية من الإحرام بالحج إلى العمرة، فجمهور العلماء يكرهون ذلك من الصدر الأول وفقهاء الأمصار، وذهب آبن عباس إلى جواز ذلك و به قال أحمد وداود. وأما النوع الثانى من التمتع فهو ما كان يذهب اليه آبن الزبير أن التمتع الذى ذكره الله هو تمتع المحصر بمرض أو عدو وذلك إذا خرج الرجل حاجا فحبسه عدو أو أمر تعذر به عليه الحج حتى تذهب أيام الحج فيأتى البيت فيطوف و يسعى بين الصفا والمروة، و يحل ثم يتمتع بحله الى العام المقبل ثم يحج و يهدى، وعلى هذا القول لا يكون التمتع المشهور إجماعا، وشذ طاوس أيضا فقال : إن المكى إذا تمتع من بلد غير مكة كان عليه الهدى . واختلف العلماء فيمن أنشأ عمرة فى غير أشهر الحج ثم عملها فى أشهر الحج ثم حج عامه ذلك فقال مالك : عمرته فى الشهر الذى حل فيه فإن كان حل فى أشهر الحج فهو متمتع و إن كان حل فى غير أشهر الحج فليس بمتمتع، وبقريب منه قال أبو حنيفة والشافعى والثورى إلا أن الثورى اشترط أن يوقع طوافه كله فى شوّال و به قال الشافعى، وقال أبو حنيفة : إن طاف ثلاثة أشواط فى رمضان وأربعة فى شوّال كان متمتعا و إن لا فلا، وقال أبو ثور : إذا دخل فى العمرة فى غير أشهر الحج فسواء طاف لها فى أشهر الحج أو فى غيرها لا يكون متمتعا .

وشروط التمتع عند مالك ستة : (١) أن يجمع بين العمرة والحج فى شهر واحد ؛ (٢) أن يكون ذلك فى عام واحد ؛ (٣) أن يفعل شيئا من العمرة فى أشهر الحج ؛ (٤) أن يقدّم العمرة على الحج ؛ (٥) أن ينشئ الحج بعد الفراغ من العمرة وإحلاله منها ؛ (٦) أن يكون وطنه غير مكة .

والقران أن يهل بالنسكين معا أو يهل بالعمرة فى أشهر الحج ثم يردف ذلك بالحج قبل أن يحل من العمرة . واختلف أصحاب مالك فى الوقت الذى يكون ذلك له فيه فقيل ذلك له ما لم يشرع فى الطواف ولو شوطا واحدا وقيل : ما لم يطف ويركع . ويكره بعد الطواف وقبل الركوع فان فعل لزمه وقيل : له ذلك ما بقى عليه شىء من أعمال العمرة من طواف أو سعى إلا الحلق فانه بالاتفاق إذا أهل بالحج قبله فقط لا يكون قارنا والقارن الذى يلزمه هدى التمتع هو عند الجمهور من غير حاضرى المسجد الحرام إلا ابن الماجُشُون من أصحاب مالك ، فان القارن من أهل مكة عنده عليه الهدى .

والإفراد ما عرى عن الصفات السابقة وهو أن لا يكون متمتعا ولا قارنا بل أن يهل بالحج فقط . واختلف العلماء أى الثلاثة أفضل الإفراد أو التمتع أو القران (انظر أدلة ذلك ص ٢٧٠ جزء أوّل بداية وانظر ص ١٨٣ من زاد المعاد أول وتواليها) .

(د) صفة الإحرام

اتفق جمهور العلماء على أن الغسل للإهلال سنة وأنه من أفعال المحرم حتى قال ابن نوار : إن هذا الغسل للإهلال عند مالك أوكد من غسل الجمعة ، وقال أهل الظاهر : هو واجب ، وقال أبو حنيفة والثورى يجزى عنه الوضوء . واتفقوا على أن الإحرام لا يكون إلا بنية ، واختلفوا هل تجزئ النية فيه من غير التلبية فقال مالك والشافعى : تجزئ النية من غير تلبية ، وقال أبو حنيفة : التلبية فى الحج كالتكبيرة فى الإحرام بالصلاة إلا أنه يجزئ عنده كل لفظ يقوم مقام التلبية كما يجزئ عنده فى افتتاح الصلاة كل لفظ يقوم مقام التكبير وهو كل ما يدل

على التعظيم . وآتفق العلماء على أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك ، وآختلفوا هل هى واجبة بهذا اللفظ فقال أهل الظاهر : هى واجبة بهذا اللفظ ولا خلاف عند الجمهور فى آستحباب هذا اللفظ وإنما آختلفوا فى الزيادة عليه أو فى تبديله . وأوجب أهل الظاهر رفع الصوت بالتلبية وهو مستحب عند الجمهور . وأجمع أهل العلم على أن تلبية المرأة فيما حكاه أبو عمر هو أن تسمع نفسها بالقول . وقال مالك : لا يرفع المحرم صوته فى مساجد الجماعة بل يكفيه أن يسمع من يليه إلا فى المسجد الحرام ومسجد مِنًى فإنه يرفع صوته فيهما . وآستحب الجمهور رفع الصوت عند التقاء الرفاق وعند الإطلال على شرف من الأرض . وكان مالك لا يرى التلبية من أركان الحج ويرى على تاركها دما وكان غيره يراها من أركانه . وآستحب العلماء أن يكون آبتداء المحرم بالتلبية بأثر صلاة يصليها ، وكان مالك يستحب ذلك بأثر نافلة . وآختلفت الآثار فى الموضع الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجته من أقطار ذى الحليفة فقال قوم : من مسجد ذى الحليفة بعد أن صلى فيه وقال آخرون : إنما أحرم حين أطل على البيداء وقال قوم : إنما أهل حين آستوت به راحلته . وسئل آبن عباس عن آختلافهم فى ذلك فقال : كل حدث لا عن أول إهلاله صلى الله عليه وسلم بل عن أول إهلال سمعه ، وذلك لان الناس يأتون متسابقين فعلى هذا لا آختلاف . وأجمع فقهاء الأمصار على أن المكىّ لا يلزمه الإهلال حتى يخرج الى منى ليتصل له عمل الحج ، وروى مالك أن عمر بن الخطاب كان يأمر أهل مكة أن يهلوا إذا رأوا الهلال ، ولا خلاف عندهم أن المكىّ لا يهل إلا من جوف مكة إذا كان حاجا وأما إذا كان معتمرا فإنهم أجمعوا على أنه يلزمه أن يخرج الى الحل ثم يحرم منه ليجمع بين الحل والحرم كما يجمع الحاج لأنه يخرج إلى عرفة وهى حل ، وآختلفوا إن لم يفعل فقال قوم : يجزيه وعليه دم وبه قال أبو حنيفة وآبن القاسم وقال آخرون : لا يجزيه وهو قول الثورى واشهب . وآختلفوا متى تقطع التلبية؟ فقال مالك : تقطع بزوال الشمس من يوم عرفة وبه قال الخلفاء الأربعة غير أنه اختلف عن عثمان ،

وقال جمهو ر فقهاء الأمصار وأهـل الحديث : تقطع برمى جمرة العقبة فإذا رمى آخر حصاة قطع التلبية وقيل : بل يقطعها فى أول حصاة يلقيها وقيل : غير ذلك ، أما وقت قطع التلبية بالعمرة فقال أبو حنيفـة ومالك : يقطعها إذا آنتهى إلى الحرم ، وقال الشافعى : إذا آفتتح الطواف .

و جمهور العلماء متفقون على إدخال الحج على العمرة و يختلفون فى إدخال العمرة على الحج ، وقال أبو ثو ر : لا يدخل حج على عمرة ولا عمرة على حج كما لا تدخل صلاة على صلاة . و إلى هنـا فرغنا من الكلام على أول عمل يأتى به المحرم وهو الإحرام وأما الفعل الذى بعد هذا فهو الطواف إذا دخل مكة .

(٢) الطواف بالبيت

الكلام فى الطواف : (١) فى صفته ؛ (٢) وشروطه ؛ (٣) وأنواعه وحكمه :

(١) صفة الطواف — الجمهور مجمعون على أن صفة كل طواف واجبا كان أو غير واجب أن يبتدأ من الحَجَر الأسـود فإن آستطاع أن يقبله قبله أو يلمسه بيده و يقبلها إن أمكنه ثم يجعل البيت على يساره و يمضى على يمينه فيطوف سبعة أشواط يرمل فى الثلاثة الأشواط الأول ثم يمشى فى الأر بعـة وذلك فى طواف القدوم على مكة وذلك للحاج والمعتمر دون المتمتع وأنه لا رمل على النساء ، و يستلم الركن اليمانى وهو الذى على قطر الركن الأسود . وآختلفوا فى حكم الرمل فى الثلاثة الأشواط الأول للقادم هل هو سـنة أو فضيلة ؟ فقال ابن عباس : هو سـنة ، و به قال الشافعى وأبو حنيفة و إسحاق وأحمد وأبو ثور ، وآختلف قول مالك فى ذلك وأصحابه ؛ ومن جعله سنة أوجب فى تركه الدم ، ومن جعله فضيلة لم يوجب فى تركه شيئا ، وعلى أصول الظاهرية يجب الرمل لقوله صلى الله عليه وسـلم " خذوا عنى مناسككم " وأجمعوا على أنه لا رمل على من أحرم بالحج من مكة من غير أهلها وهم المتمتعون لأنهم قد رملوا فى حين دخولهم حين طافوا للقدوم ، وآختلفوا فى أهل مكة هل عليهم رمل إذا حجوا ؟ فقال الشافعى : كل طواف قبل عرفة مما يوصل بينه و بين السعى فإنه يرمل

فيه، وكان مالك يستحب ذلك، وكان ابن عمر لا يرى عليهم رملا إذا طافوا بالبيت على ما روى عنه مالك . واتفقوا على أن من سنة الطواف استلام الركنين الأسود واليمانى للرجال دون النساء، واختلفوا هل تستلم الاركان كلها أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنه إنما يستلم الركنان فقط، واحتج من رأى استلام جميعها بما روى عن جابر، قال: كنا نرى إذا طفنا أن نستلم الأركان كلها. وكان بعض السلف لا يحب أن يستلم الركنين إلا فى الوتر من الأشواط . وكذلك أجمعوا على أن تقبيل الحَجَر الأسود خاصة من سنن الطواف إن قدر و إن لم يقدر على الدخول اليه قبل يده . وأجمعوا على أن من سنة الطواف ركعتين بعد انقضاء الطواف و جمهورهم على أنه يأتى بهما الطائف عند انقضاء كل أسبوع إن طاف أكثر من أسبوع واحد، وأجاز بعض السلف أن لا يفرق بين الأسابيع بالركعتين بل يركع لكل أسبوع ركعتين .

(٢) شروط الطواف — (الشرط الأول) أن يكون فى موضعه، و جمهور العلماء على أن الحِجْر من البيت وأن من طاف بالبيت لزمه إدخال الحجر فيه وأنه شرط فى صحة طواف الإفاضة، وقال أبو حنيفة وأصحابه : هو سنة . (الشرط الثانى) أن يكون فى وقته واختلفوا فى وقت جوازه على ثلاثة أقوال : أحدها إجازة الطواف بعد الصبح والعصر ومنعه وقت الطلوع والغروب وهو مذهب عمر بن الخطاب وأبى سعيد الخدرى و به قال مالك وأصحابه و جماعة، والقول الثانى : كراهيته بعد الصبح والعصر ومنعه عند الطلوع والغروب و به قال سعيد ابن جبير ومجاهد و جماعة، القول الثالث : إباحة ذلك فى هذه الأوقات كلها و به قال الشافعى و جماعة . (الشرط الثالث) الطهارة . قال مالك والشافعى : لا يجزى طواف بغير طهارة لا عمدا ولا سهوا، وقال أبو حنيفة : يجزى و يستحب له الإعادة وعليه دم، وقال أبو ثور : إذا طاف على غير وضوء أجزأه طوافه إن كان لا يعلم ولا يجزئه إن كان يعلم، والشافعى يشترط طهارة ثوب الطائف كاشتراط ذلك للمصلى .

(٣) أنواع الطواف — أجمع العلماء على أن الطواف ثلاثة أنواع، طواف القدوم على مكة، وطواف الإفاضة بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر، وطواف الوداع،

وأجمعوا على أن الواجب منها الذى يفوت الحج بفواته هو طواف الإفاضة وأنه المعنى بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وأنه لا يجزئ عنه دم ، وجمهورهم على أنه لا يجزئ طواف القدوم على مكة عن طواف الإفاضة إذا نسى طواف الإفاضة لكونه قبل يوم النحر، وقالت طائفة من أصحاب مالك : إن طواف القدوم يجزئ عن طواف الإفاضة كأنهم رأوا أن الواجب هو طواف واحد،وجمهور العلماء على أن طواف الوداع يجزئ عن طواف الإفاضة إن لم يكن طاف طواف الإفاضة لأنه طواف بالبيت معمول فى وقت طواف الوجوب الذى هو طواف الإفاضة ، وأجمعوا فيما حكاه أبو عمر بن عبد البر أن طواف القدوم والوداع من سنة الحاج إلا لخائف فوات الحج فإنه يجزئ عنه طواف الإفاضة،واستحب جماعة من العلماء لمن عرض له هذا أن يرمل فى الأشواط الثلاثة من طواف الإفاضة على سنة طواف القدوم من الرمل، وأجمعوا على أن المكى ليس عليه إلا طواف الإفاضة كما أجمعوا أنه ليس على المعتمر الا طواف القدوم، وأجمعوا أن من تمتع بالعمرة إلى الحج عليه طوافان طواف للعمرة لحله منها وطواف للحج يوم النحر ، وأما المفرد للحج فليس عليه إلا طواف واحد كما قلنا يوم النحر ، واختلفوا فى القارن فقال مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور : يجزئ القارن طواف واحد وسعى واحد، وقال الثورى والأوزاعى وأبو حنيفة وابن أبى ليلى: على القارن طوافان وسعيان .

(٣) السعى بين الصفا والمروة

القول فيه فى : (١) حكمه؛ (٢) صفته؛ (٣) شروطه؛ (٤) ترتيبه .

(١) حكم السعى — قال مالك والشافعى: إنه واجب وإن لم يسع كان عليه حج قابل وبه قال أحمد وإسحاق، وقال الكوفيون: هو سنة وإذا رجع إلى بلاده ولم يسع كان عليه دم، وقال بعضهم: هو تطوع ولا شىء على تاركه .

(٢) صفته — جمهور العلماء : على أن من سنة السعى بين الصفا والمروة أن ينحدر الراقى على الصفا بعد الفراغ من الدعاء فيمشى على عادته حتى يبلغ بطن

المسيل فيرمل فيه حتى يقطعه إلى ما يلي المروة فإذا قطع ذلك وجاوزه مشى على سجيته حتى يأتي المروة فيرقى عليها حتى يبدو له البيت ثم يقول عليها نحوا مما قال من الدعاء والتكبير على الصفا وإن وقف أسفل المروة أجزأه عند جميعهم ثم ينزل عن المروة فيمشي على طبيعته حتى ينتهي إلى بطن المسيل فإذا انتهى اليه رمل حتى يقطعه إلى الجانب الذي يلي الصفا يفعل ذلك سبع مرات يبدأ في كل ذلك بالصفا ويختم بالمروة، فإن بدأ بالمروة قبل الصفا ألغى ذلك الشوط، وقال عطاء إن جهل فبدأ بالمروة أجزأ عنه . وأجمعوا على أنه ليس في وقت السعي قول محدود فإنه موضع دعاء، وثبت من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثا ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ويدعو ويصنع على المروة مثل ذلك .

(٣) شروطه — اتفقوا على أن من شرطه الطهارة من الحيض كالطواف، ولا خلاف بينهم أن الطهارة ليست من شرطه إلا الحسن فانه شبهه بالطواف .

(٤) ترتيبه — جمهور العلماء : على أن السعي إنما يكون بعد الطواف، وأن من سعى قبل أن يطوف بالبيت يرجع فيطوف ويسعى وإن خرج من مكة، فإن جهل ذلك حتى أصاب النساء في العمرة أو في الحج كان عليه حج قابل والهدي أو عمرة أخرى، وقال الثوري : إن فعل ذلك فلا شيء عليه وقال أبو حنيفة : اذا خرج من مكة فليس عليه أن يعود وعليه دم .

الخروج الى عرفة — يلي السعي الخروج يوم التروية (الثامن من ذي الحجة) إلى منى والمبيت بها ليلة عرفة، واتفقوا على أن الإمام يصلي بالناس بمنى يوم التروية الظهر والعصر والمغرب والعشاء قاصرا الرباعية إلا أنهم أجمعوا على أن هذا الفعل ليس شرطا في صحة الحج لمن ضاق عليه الوقت ثم إذا كان يوم عرفة صلى الإمام بالناس صلاة الصبح ومشى معهم بعد شروق الشمس من منى إلى عرفة ووقفوا بها بعد الزوال .

(٤) الوقوف بعرفة

القول فى هـذا الفعل ينحصر : (١) فى معرفة حكمه ؛ (٢) وفى صفته ؛ (٣) وفى شروطه .

(١) حكم الوقوف — أجمعوا على أن الوقوف ركن من أركان الحج وأن من فاته فعليه حج قابل والهدى فى قول أكثرهم لقوله صلى الله عليه وسلم "الحج عرفة".

(٢) صفته — صفته أن يصل الإمام إلى عرفة يوم عرفة قبل الزوال فإذا زالت الشمس خطب الناس ثم جمع بين الظهر والعصر فى أول وقت الظهر ثم وقف حتى تغيب الشمس، وإنما اتفقوا على هذا لأن هذه الصفة مجمع عليها من فعله صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف بينهـم أن إقامة الحج هى للسلطان الأعظم أو لمن يقيمه السلطان الأعظم لذلك وأنه يصلى وراءه براكان السلطان أوفاجرا أو مبتدعا، وأن السنة فى ذلك أن يأتى المسجد بعرفة يوم عرفة مع الناس فإذا زالت الشمس خطب الناس كما قلنا وجمع بين الظهر والعصر . واختلفوا فى وقت أذان المؤذن بعرفة للظهر والعصر، فقال مالك : يخطب الامام حتى يمضى صدر من خطبته أو بعضها ثم يؤذن المؤذن وهو يخطب وقال الشافعى : يؤذن إذا أخذ الامام فى الخطبة الثانية وقال أبو حنيفة : إذا صـعد الامام المنبر أمر المؤذن بالأذان كالحال فى الجمعة فإذا فرغ المؤذن قام الإمام يخطب ثم ينزل ويقيم المؤذن الصلاة وبه قال أبو ثور تشبيها بالجمعة، وقد حكى ابن نافع عن مالك أنه قال : الأذان بعرفة بعد جلوس الإمام للخطبة، وفى حديث جابر أن النبى صـلى الله عليه وسـلم لمـا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له وأتى بطن الوادى فخطب الناس ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ثم راح إلى الموقف . واختلفوا هل يجمع بين هاتين الصلاتين بأذانين وإقامتين أو بأذان واحد وإقامتين؟ قال مالك : بالأول، وروى عن أحمد، وقال أبو حنيفة والشافعى والثورى وأبو ثور وجماعة : بالثانى . واتفقوا على أن الخطبة فى هـذا اليوم ليست بشرط للصلاة كالجمعة وأن القراءة فى الصلاة

سر . واتفقوا على أن الصلاة مقصورة اذا كان الامام مسافرا ، واختلفوا إذا كان الإمام مكيا هل يقصر بمنى الصلاة يوم التروية و بعرفة يوم عرفة و بالمزدلفة ليلة النحر إن كان من أحد هذه المواضع ؟ فقال مالك والأوزاعى وجماعة : سنة هذه المواضع التقصير سواء أكان من أهلها أم لم يكن ، وقال الثورى وأبو حنيفة والشافعى وأبو ثور وداود : لا يجوز أن يقصر من كان من أهل تلك المواضع . واختلف العلماء فى وجوب الجمعة بعرفة ومنى فقال مالك : لا تجب الجمعة بعرفة ولا بمنى أيام الحج ، لا على أهل مكة ولا على غيرهم الا أن يكون الإمام من أهل عرفة ، وقال الشافعى مثل ذلك إلا أنه يشترط فى وجوب الجمعة أن يكون هنالك من أهل عرفة أربعون رجلا على مذهبه فى اشتراط هذا العدد فى الجمعة ، وقال أبو حنيفة : إذا كان أمير الحج ممن لا يقصر بمنى ولا بعرفة صلى بهم فيها الجمعة إذا صادفها ، وقال أحمد : إذا كان والى مكة يجمع و به قال أبو ثور .

(٣) شروطه — يشترط فى الوقوف بعرفة أن يكون بعد الزوال ويسنّ له أن يمدّه إلى غروب الشمس وأجمعوا على أن من وقف بعرفة قبل الزوال وأفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتدّ بوقوفه وأنه إن لم يرجع فيقف بعد الزوال أو يقف من ليلته تلك قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج ، واختلفوا فيمن وقف بعرفة بعد الزوال ثم دفع منها قبل غروب الشمس فقال مالك : عليه حج قابل إلا أن يرجع ويدفع قبل الفجر ، و إن دفع منها قبل الإمام و بعد الغيبوبة أجزأه ، و بالجملة فشرط صحة الوقوف عنده أن يقف ليلا وقال جمهور العلماء : من وقف بعرفة بعد الزوال فحجه تام و إن دفع قبل الغروب ، إلا أنهم اختلفوا فى وجوب الدم عليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق أنه قال : عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة . والمزدلفة كلها موقف إلا بطن محسِّر ، ومنى كلها منحر ، وفجاج مكة منحر ومبيت ، واختلف العلماء فيمن وقف من عرفة بعرنة فقيل : حجه تام وعليه دم و به قال مالك ، وقال الشافعى : لا حج له ، ويلى الوقوف بعرفة من أفعال الحج النهوض إلى المزدلفة بعد الغروب وما يعمل بها .

(٥) أفعال المزدلفة

قال تعالى ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ(١) الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ أجمع العلماء على أن من بات بالمزدلفة ليلة النحر وجمع فيها بين المغرب والعشاء مع الإمام ووقف بعد صلاة الصبح إلى الإسفار بعد الوقوف بعرفة فإن حجه تام، وذلك أنها الصفة التى فعلها صلى الله عليه وسلم. واختلفوا هل الوقوف بها بعد صلاة الصبح والمبيت بها من سنن الحج أو من فروضه؟ فقال الأوزاعى وجماعة من التابعين : هو من فروض الحج ومن فاته كان عليه حج قابل والهدى ، وفقهاء الأمصار يرون أنه ليس من فروض الحج ، وأن من فاته الوقوف بمزدلفة والمبيت بها فعليه دم وقال الشافعى : إن دفع منها بعد نصف الليل الأول ولم يصل بها فعليه دم، وقد أجمعوا على أنه لو وقف بالمزدلفة ولم يذكر الله فإن حجه تام، والمزدلفة وجَمْع اسمان لموضع يبيت الحجاج به ويجمعون بين المغرب والعشاء فى أول وقت العشاء ويغلّسون بالصبح فيها .

(٦) رمى الجمار

الفعل الذى يلى المبيت بمزدلفة والوقوف بها رمى الجمار وذلك أن المسلمين اتفقوا على أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف بالمشعر الحرام وهو المزدلفة بعد ما صلى الفجر ثم دفع منها قبل طلوع الشمس إلى منى، وأنه فى هذا اليوم وهو يوم النحر رمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس، وأجمع المسلمون أن من رماها فى هذا اليوم فى ذلك الوقت أعنى بعد طلوع الشمس إلى زوالها فقد رماها فى وقتها، وأجمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرم يوم النحر من الجمرات غيرها، واختلفوا فيمن رمى جمرة العقبة قبل طلوع الفجر فقال مالك : لم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص لأحد أن يرمى قبل طلوع الفجر ولا يجوز ذلك ، فإن رماها قبل الفجر أعادها وبه قال أبو حنيفة وسفيان وأحمد، وقال الشافعى : لا بأس به وإن كان المستحب هو بعد طلوع الشمس، وقد أجمع العلماء على أن الوقت المستحب لرمى جمرة العقبة

(١) المزدلفة .

هو من لدن طلوع الشمس إلى وقت الزوال وأنه إن رماها قبل غروب الشمس من يوم النحر أجزأه ولا شيء عليه إلا مالكا فإنه قال : آستحب له أن يريق دماء، وآختلفوا فيمن لم يرمها حتى غابت الشمس فرماها من الليل أو من الغد فقال مالك : عليه دم، وقال أبوحنيفة : إن رماها من الليل فلا شيء عليه وإن أخرها الى الغد فعليه دم، وقال أبو يوسف ومحمد والشافعي : لا شيء عليه إن أخرها إلى الليل أو إلى الغد. وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى فى حجته الجمرة يوم النحر ثم نحر بدنة ثم حلق رأسه ثم طاف طواف الإفاضة، وأجمع العلماء على أن هذا سنة الحج وآختلفوا فيمن قدم من هذه ما أخره النبي صلى الله عليه وسلم أو بالعكس فقال مالك : من حلق قبل أن يرمى جمرة العقبة فعليه الفدية، وقال الشافعي وأحمد وأبو داود وأبو ثور : لا شيء عليه، وعند مالك أن من حلق قبل أن يذبح فلا شيء عليه وكذلك إن ذبح قبل أن يرمى ، وقال أبو حنيفة : إن حلق قبل أن ينحر أو يرمى فعليه دم، و إن كان قارنا فعليه دمان، وقال زفر : عليه ثلاثة دماء ، دم للقران، ودمان للحلق قبل النحر وقبل الرمى ، وأجمعوا على أن من نحر قبل أن يرمى فلا شيء عليه لأنه منصوص عليه .

ومن قدّم الإفاضة على الرمى والحلق لزمه إعادة الطواف، وقال الشافعي : ومن تابعه لا إعادة عليه، وقال الأوزاعى : إذا طاف للإفاضة قبل أن يرمى جمرة العقبة ثم واقع أهله أراق دما. وآتفقوا على أن جملة ما يرميه الحاج سبعون حصاة يرمى منها فى يوم النحر جمرة العقبة بسبع، وإن رمى هذه الجمرة من حيث تيسر من العقبة من أسفلها أو من أعلاها أو من وسطها كل ذلك واسع والموضع المختار منها بطن الوادى . وأجمعوا على أنه يعيد الرمى إذا لم تقع الحصاة فى العقبة وأنه يرمى فى كل يوم من أيام التشريق ثلاث جمار بواحد وعشرين حصاة كل جمرة منها بسبع وأنه يجوز أن يرمى منها يومين وينفر فى الثالث لقوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ .

وقدر الحصاة عندهم أن تكون فى مثل حصى الخذف . والسنة عندهم فى رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق أن يرمى الجمرة الأولى فيقف عندها ويدعو وكذلك

الثانية و يطيل المقام ثم يرمى الثالثة ولا يقف . وأجمعوا على أن من سنة رمى الجمار الثلاث فى أيام التشريق أن يكون ذلك بعد الزوال. وآختلفوا إذا رماها قبل الزوال فى أيام التشريق فقال جمهور العلماء : يعيد رميها بعد الزوال، وروى عن أبى جعفر محمد بن على أنه قال : رمى الجمار من طلوع الشمس إلى غروبها . وأجمعوا على أن من لم يرم الجمار أيام التشريق حتى تغيب الشمس عن آخرها فإنه لا يرميها بعد . واختلفوا فى الواجب من الكفارة فقال مالك : إن ترك رمى الجمار كلها أو بعضها أو واحدة منها فعليه دم وقال أبو حنيفة : إن ترك الجمار كلها كان عليه دم و إن ترك جمرة واحدة فصاعدا كان عليه لكل جمرة إطعام مسكين نصف صاع حنطة إلى أن يبلغ دما بترك الجميع إلا جمرة العقبة فمن تركها فعليه دم، وقال الشافعى : عليه فى الحصاة مد من طعام وفى حصاتين مدان وفى ثلاث دم، وقال الثورى مثله إلا أنه قال : فى الرابعة الدم، ورخصت طائفة من التابعين فى الحصاة الواحدة ولم يروا فيها شيئا، وقال أهل الظاهر : لا شىء فى ذلك والجمهور على أن جمرة العقبة ليست من أركان الحج، وقال عبد الملك من أصحاب مالك : هى من أركان الحج .

فهذه جملة أفعال الحج من حين الإحرام الى أن يحل. والتحلل : تحللان تحلل أكبر وهو طواف الإفاضة وتحلل أصغر وهو رمى جمرة العقبة، وسنذكر الفرق بين التحللين .

الجنس الثالث فى الأحكام

(١) الإحصار

قال تعالى ﴿وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ جمهور العلماء : على أن المحصر عن الحج ضربان محصر بمرض ومحصر بعدو، فالمحصر بالعدو آتفق الجمهور على أنه يحل من عمرته أو حجه حيث أحصر، وقال الثورى والحسن بن صالح : لا يتحلل إلا فى يوم النحر، والذين قالوا : يتحلل حيث أحصر آختلفوا فى إيجاب الهدى عليه وفى موضع نحره اذا قيل

بوجوبه وفى إعادة ما حصر عنه من حج أو عمرة، فذهب مالك الى أنه لا يجب عليه هدى وأنه إن كان معه هدى نحره حيث حل، وذهب الشافعى الى إيجاب الهدى عليه و به قال أشهب، واشترط أبو حنيفة ذبحه فى الحرم وقال الشافعى : حيثما حل وأما الإعادة فإن مالكا يرى عدم الإعادة عليه ، وقال قوم : عليه الإعادة، وذهب أبو حنيفة إلى أنه إن كان أحرم بالحج فعليه حج وعمرة وإن كان قارنا فعليه حج وعمرتان و إن كان معتمرا قضى عمرته ، وليس عليه عند أبى حنيفة ومحمد حلق أو تقصير، واختار أبو يوسف أن عليه ذلك .

وأما المحصر بمرض فإن مذهب الشافعى وأهل الحجاز أنه لا يحله إلا الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة وأنه بالجملة يتحلل بعمرة لأنه إذا فاته الحج بطول مرضه انقلب عمرة وهو مذهب ابن عمر وعائشة وابن عباس، وخالف فى ذلك أهل العراق فقالوا : يحل مكانه وحكمه حكم المحصر بعدو فيرسل هديه ويقدر يوم نحره ويحل فى اليوم الثالث، والجمهور على أن المحصر بمرض عليه الهدى، وقال أبو ثور وداود: لاهدى عليه وأجمعوا على إيجاب القضاء عليه، وكل من فاته الحج بخطأ من العدد فى الأيام أو بخفاء الهلال عليه أو بغير ذلك من الأعذار فحكمه حكم المحصر بمرض عند مالك، وقال أبو حنيفة : من فاته الحج بعذر غير المرض يحل بعمرة ولا هدى عليه وعليه إعادة الحج : والمكى المحصر بمرض عند مالك كغير المكى يحل بعمرة وعليه الهدى و إعادة الحج ، وقال الزهرى : لا بد أن يقف بعرفة وان حمل حملا ، وأصل مذهب مالك أن المحصر بمرض إن بقى على إحرامه إلى العام المقبل حتى يحج حجة القضاء فلا هدى عليه، فإن تحلل بعمرة فعليه هدى المحصر لأنه حلق رأسه قبل أن ينحر فى حجة القضاء .

(٢) أحكام جزاء الصيد والنبات

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أى عاقبته .

قتـل الصيد حرام على المحرم ، وآختلف العلمـاء هل الواجب فى قتـله قيمته أو مثله ؟ فذهب الجمهور الى أن الواجب المثل، وذهب أبو حنيفة الى أنه مخير بين القيمة أعنى قيمة الصيد و بين أن يشـترى بها المثل . وآختلفوا أيضا فى آستئناف الحكم على قاتل الصيد فيما حكم فيـه السلف من الصحابة — مثل حكمهم أن من قتل نعامة فعليه بدنة تشبيها بها، ومن قتل غزالا فعليه شاة، ومن قتل بقرة وحشية فعليه إنسية — فقال مالك : يستأنف فى كل ما وقع من ذلك الحكم به . و به قال أبو حنيفة، وقال الشافعى : إن آجترأ بحكم الصحابة مما حكموا فيه جاز . وآختلفوا هل الأجزية فى الآية على الترتيب أو التخيير، فقال مالك وأبو حنيفة بالتخيير، وقال زفر بالترتيب. وآختلفوا هل يقوّم الصيد أو المثل إن اختار الإطعام فيشترى بقيمته طعاما، فقال مالك : يقوّم الصيد وقال الشافعى : يقوم المثل، ولم يختلفوا فى تقدير الصيام بالطعام فى الجمـلة و إن اختلفوا فى التفصيل، فقال مالك : يصوم لكل مدّ يوما وهو الذى يطعم عندهم كل مسكين، و به قال الشافعى وأهل الحجاز، وقال أهل الكوفة : يصوم لكل مدين يوما وهو القـدر الذى يطعم كل مسكين عنـدهم . وآختلفوا فى قتل الصيد خطأ هل فيـه جزاء أولا؟ فالجمهور على أن فيه الجزاء وقال أهل الظاهر : لا جزاء عليه .

وآختلفوا فى الجماعة يشـتركون فى قتل الصيد فقال مالك : على كل واحد منهم جزاء كامل وقال الشافعى : عليهم جزاء واحد، وفرق أبو حنيفة بين المحرمين يقتلون الصـيد و بين المحلين يقتلونه فى الحرم فقال : على كل من المحرمين جزاء وعلى المحلين جزاء واحد .

وآختلفوا هل يكون أحد الحكمين قاتل الصيد ؟ فذهب مالك إلى أنه لا يجوز وقال الشافعى : يجوز وآختلف أصحاب أبى حنيفة على القولين جميعا .

وآختلفوا فى موضع الإطعام فقال مالك : فى الموضع الذى أصاب فيه الصيد إن كان ثم طعام و إلا ففى أقرب المواضع إليه، وقال أبو حنيفة : حيثما أطعم جاز، وقال الشافعى : لا يطعم إلا مساكين مكة .

وأجمع العلماء على أن المحرم اذا قتل الصيد عليه الجزاء ، وآختلفوا فى الحلال يقتل الصيد فى الحرم فقال جمهور فقهاء الأمصار : عليه الجزاء ، وقال داود وأصحابه : لا جزاء عليه ، ولم يختلف المسلمون فى تحريم قتل الصيد فى الحرم وإنما آختلفوا فى الكفارة .

وجمهور فقهاء الأمصار على أن المحرم إذا قتل الصيد وأكله فإنه ليس عليه إلا كفارة واحدة ، وروى عن عطاء وطائفة : ان فيه كفارتين . وهذه مشهورات المسائل المتعلقة بالصيد .

وآتفق العلماء على أن صيد البر محرّم على المحرم إلا الفواسق الخمس المنصوص عليها فى حديث آبن عمر وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خمس من الدواب ليس على المحرم جناح فى قتلهن ، الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور ، والجمهور على إباحة قتل هذه الدواب وكذلك آتفقوا على أن صيد البحر حلال كله للمحرم وإن آختلفوا فى تفسيره كما آختلفوا فيما يلحق بالفواسق مما لا يلحق بها فقال مالك : الكلب العقور إشارة إلى كل سبع عاد فأما ما ليس بعاد من السباع فليس للمحرم قتله ، ولم ير قتل صغارها التى لا تعدو ولا ما كان منها أيضا لا يعدو ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل من الكلاب العقورة إلا الكلب الإنسى والذئب ، وقال الشافعى : كل محرم الأكل فهو فى معنى الخمس ، ولا خلاف بينهم فى قتل الحية والأفعى والأسود وقال مالك : لا أرى قتل الوزغ ، والأخبار بقتلها متواترة لكن مطلقا لا فى الحرم ، وآختلفوا فى الزنبور فألحقه بعضهم بالعقرب و بعضهم رأى أنه أضعف نكاية من العقرب .

وآتفق العلماء على أن السمك من صيد البحر وآختلفوا فى غير السمك بناء منهم على أن ما يحتاج منه إلى زكاة ليس من صيد البحر وأكثر من ذلك ما كان محرما لا يعتبر من صيد البحر ، ولا خلاف بين من يحل جميع ما فى البحر فى أن صيده حلال . وآختلفوا فيما يعيش فى البر والبحر معا ، وقياس قول أكثر العلماء أنه يلحق

بالذى عيشه فيه غالبا وهو حيث يولد . والجمهور على أن طير الماء محكوم له بحكم حيوان البر ، وروى عن عطاء أنه قال فى طير الماء : حيث يكون أغلب عيشه يحكم له بحكمه .

واختلف العلماء فى نبات الحرم هل فيه جزاء أم لا ؟ فقال مالك : لا جزاء فيه وإنما فيه الإثم فقط ، وقال الشافعى : فيه الجزاء فى الدَّوْحة (الشجرة العظيمة) بقرة وفيما دونها شاة وقال أبو حنيفة : كل ما كان من غرس الإنسان فلا شىء فيه وكل ما كان نابتا بطبعه ففيه قيمته ، والأصل فى هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث : « ولا يُعْضَدُ شجرها ولا ينفر صيدها » .

(٣) حكم إتيان المحظورات فى الإحرام

أجمع العلماء على أن فدية الأذى المذكورة فى قوله تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ واجبة على كل من أماط الأذى من ضرورة ، وألحق به مالك من أماطه من غير ضرورة ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن حلق من غير ضرورة فإنما عليه دم فقط ، والمتعمد والناسى فى وجوب الفدية سواء عند مالك وأبى حنيفة والثورى والليث ، وقال الشافعى فى أحد قوليه ، وأهل الظاهر : لا فدية على الناسى .

وأجمع العلماء على أن فدية الأذى ثلاث خصال على التخيير الصيام والإطعام والنسك ، والجمهور على أن الإطعام لستة مساكين ، والصيام ثلاثة أيام ، والنسك أقله شاة ، وروى عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الإطعام لعشرة مساكين ، والصيام عشرة أيام ، وقد اختلف الفقهاء فيما يطعمه لكل مسكين فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام فى ذلك مدان بمدّ النبى صلى الله عليه وسلم لكل مسكين ، وروى عن الثورى أنه قال : من البر نصف صاع ومن التمر والزبيب والشعير صاع ، وروى أيضا عن أبى حنيفة مثله وهو أصله فى الكفارات .

والجمهور على أن كل ما منعه المحرم من لبس الثياب المخيطة وحلق الرأس وقص الأظفار أنه إذا آستباحه فعليــه الفدية دم على آختلاف بينهم فى ذلك أو إطعام ولم يفرقوا بين الضرر وغيره فى هذه الأشياء وكذلك آستعمال الطيب وقال قوم: ليس فى قص الأظفار شيء وقال آخرون : فيه دم، وحكى آبن المنذر الإجماع على منع المحرم من قص الأظفار. واختلفوا فيمن أخذ بعض أظفاره، فقال الشافعى وأبو ثور : إن أخذ ظفرا واحدا أطعم مسكينا واحدا و إن اثنين فاثنين و إن ثلاثة فعليه دم فى مقام واحد، وقال أبو حنيفة فى أحد أقواله :لا شيء عليه حتى يقصها كلها، وقال أبو محمد آبن حزم : يقص المحرم أظفاره وشاربه وهو شــذوذ وقال : لا فدية إلا فى حلق الرأس للعــذر الذى ورد فيه النص . وقد أجمع العلماء على منع حلق شعر الرأس، واختلفوا فى حلق الشعر من سائر الجسد، فالجمهور على أن فيه الفدية وقال داود : لا فدية عليه . واختلفوا فيمن نتف من رأسه الشــعرة والشعرتين أو من لحيته فقال مالك : ليس على من نتف الشعر اليســير شيء إلا أن يكون أماط به أذى فعليــه الفدية وقال الحسن : فى الشعرة مدّ وفى الشعرتين مدان وفى الثلاث دم، وبه قال الشافعى وأبو ثور، وقال عبد الملك صاحب مالك : فيما قل من الشعر إطعام وفيما كثر فدية .

وآختلفوا فى موضع الفــدية فقال مالك : يفعل من ذلك ما شاء أين شاء بمكة وبغيرها وإن شاء ببلده لا فرق فى ذلك بين الإطعام وذبح النسك والصيام وهو قول مجاهد، والذى عند مالك هاهنا هو نسك وليس بهدى، فإن الهدى لايكون إلا بمكة أو بمنى، وقال أبو حنيفة والشافعى : الدم والإطعام لا يجزيان إلا بمكة، والصوم حيث شاء وقال آبن عباس : ما كان من دم فبمكة وما كان من إطعام وصيام فحيث شاء وعن أبى حنيفة مثله .

واختلف العلماء فى حلق الرأس هل هو نسك من مناسك الحج أو هو مما يتحلل به منه؟ ولا خلاف بين الجمهور فى أنه من أعمال الحج وأنه أفضل من التقصير إلا للنساء فسنتهن التقصير، ومعظم الفقهاء على أنه نسك فى الحج والعمرة وأنه واجب على

كل من فاته الحج وأحصر بعدو أو مرض، وقال أبو حنيفة : لا حلق ولا تقصير على المحصر بعدو، و بالجملة فمن آعتبر الحلق أو التقصير نسكا (عبادة) أوجب فى تركه الدم ومن لم يجعله نسكا لم يوجب فيه شيئا .

(٤) كفارة المتمتع

نص الله سبحانه عليها فى قوله ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وجمهور العلماء على أن ما آستيسر من الهدى شاة، وذهب آبن عمر إلى أن الهدى لا يطلق إلا على الإبل والبقر، وأن معنى قوله تعالى فما آستيسر من الهدى أى بقرة أدون من بقرة و بدنة أدون من بدنة، وأجمعوا على أن هذه الكفارة على الترتيب و إن لم يجد الهدى فعليه الصيام . واختلفوا فى حد الزمان الذى ينتقل بآنقضائه فرضه من الهدى إلى الصيام فقال مالك : إذا شرع فى الصوم فقد آنتقل واجبه إليه، وقال أبوحنيفة : إن من وجد الهدى فى أثناء صوم الثلاثة الأيام لزمه و إن وجده فى صوم السبعة لم يلزمه، وأجمعوا على أنه إذا صام الثلاثة الأيام فى العشر الأول من ذى الحجة أنه قد أتى بها فى محلها لقوله سبحانه ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ وآختلفوا فيمن صامها فى أيام عمل العمرة قبل أن يهل بالحج أو صامها فى أيام منى ؟ فأجاز مالك صيامها فى أيام منى ومنعه أبو حنيفة فقال : إذا فاتته الأيام الأول وجب الهدى فى ذمته ، ومنعه مالك قبل الشروع فى عمل الحج وأجازه أبو حنيفة، وآتفقوا على أنه إذا صام السبعة الأيام فى أهله أجزأه، وآختلفوا إذا صامها فى الطريق، فقال مالك : يجزئ الصوم وقال الشافعى : لا يجزئ .

(٥) مفسدات الحج ومفوتاته

ولا خلاف أن من فاته الحج بعد أن شرع فيه إما بفوات ركن من أركانه و إما من قبل غلطه فى الزمان أو من قبل جهله أو نسيانه أو إتيانه فى الحج فعلا مفسدا له فإن عليه القضاء إذا كان حجا واجبا وهل عليه هدى مع القضاء؟ الجمهور: على وجوب الهدى عليه، وآختلفوا أيضا هل يقضى الحج التطوع أو لا .

ومما يخص الحج الفاسد عند الجمهور دون سائر العبادات أنه يمضى فيه المفسد له ولا يقطعه وعليه دم، وشذ قوم فقالوا : هو كسائر العبادات .

وآتفقوا على أن الحج يفسد بترك أركانه التى هى شرط فى صحته على آختلافهم فيما هو ركن مما ليس بركن، وكذلك يفسده الجماع باتفاق إن كان قبل الوقوف بعرفة أو قبل الطواف والسعى بالنسبة للعمرة، وآختلفوا فى فساد الحج بالوطء بعد الوقوف بعرفة وقبل رمى جمرة العقبة وبعد رمى الجمرة وقبل طواف الإفاضة الذى هو الواجب فقال مالك والشافعى : يفسده الوطء قبل رمى جمرة العقبة وعليه الهدى والقضاء . وقال أبو حنيفة والثورى : عليه الهدى بدنة وحجه تام وروى مثله عن مالك والجمهور على أن من وطئ بعد رمى جمرة العقبة وقبل الطواف لا يفسد حجه ويلزمه الهدى . وقالت طائفة : فسد حجه وهو قول آبن عمر . واختلفوا فى صفة الجماع الذى يفسد الحج وفى مقدماته، فالجمهور على أن التقاء الختانين يفسد الحج ويحتمل من يشترط فى وجوب الطهر الإنزال مع التقاء الختانين أن يشترطه فى الحج، وآختلفوا فى إنزال الماء فيما دون الفرج فقال أبو حنيفة : لا يفسد الحج، وقال الشافعى : ما أوجب الحد أفسد الحج، وقال مالك : الإنزال نفسه يفسد الحج وكذلك مقدماته من المباشرة والقبلة، وآستحب الشافعى فيمن جامع دون الفرج أن يهدى . وآختلفوا فيمن وطئ مرارا فقال مالك : ليس عليه إلا هدى واحد وقال أبو حنيفة : إن كرر الوطء فى مجلس واحد كان عليه هدى واحد وإن كرره فى مجالس كان عليه لكل وطء هدى، وقال محمد بن الحسن يجزيه هدى واحد وإن كرر الوطء ما لم يهد لوطئه الأول، وعن الشافعى الثلاثة الأقوال إلا أن الأشهر عنه مثل قول مالك، وسوى مالك بين الوطء عمدا ونسيانا، وقال الشافعى فى الجديد : لا كفارة على الناسى . وآختلفوا هل على المرأة هدى؟ فقال مالك : إن طاوعته فعليها هدى وإن أكرهها فعليه هديان، وقال الشافعى : ليس عليه إلا هدى واحد كقوله فى المجامع فى رمضان، وجمهور العلماء : على أنهما إذا حجا من قابل تفرقا أى الرجل والمرأة، وقيل : لا يفترقان وهو مروى عن بعض الصحابة والتابعين وبه قال أبو حنيفة وفى أى الأماكن يفترقان؟ قال الشافعى :

يفترقان من حيث أفسدا الحج، وقال مالك: يفترقان من حيث أحرما إلا أن يكونا أحرما قبل الميقات . ولا خلاف بين العلماء أن التحلل الأصغر الذى هو رمى الجمرة يوم النحر — يحل به الحاج من كل شىء حرم عليه إلا النساء والطيب والصيد فإنهم آختلفوا فى ذلك، أما التحلل الأكبر بطواف الإفاضة فانه يحل للحاج كل ما حرم عليه بالاتفاق . وآتفقوا أيضا على أن المعتمر يحل من عمرته إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وإن لم يكن حلق ولا قصر لثبوت الآثار بذلك إلا خلافا شاذا، روى عن ابن عباس أنه يحل بالطواف وقال أبو حنيفة : لا يحل إلا بعد الحلق، فإن جامع قبله فسدت عمرته .

وآختلف العلماء فى الهدى الواجب بالجماع فقال مالك وأبو حنيفة: شاة، وقال الشافعى: بدنة، وإن لم يجدها قومت البدنة دراهم والدراهم طعاما، فإن لم يجد صام عن كل مد يوما، قال: والإطعام والهدى لا يجزى إلا بمكة أو بمنى والصوم حيث شاء وقال مالك : كل نقص دخل فى الإحرام من وطء أو حلق شعر أو إحصار فان صاحبه إن لم يجد الهدى صام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع ولا يدخل الإطعام فيه، فمالك شبه الدم اللازم هنا بدم التمتع، والشافعى شبهه بالدم الواجب فى الفدية، والإطعام عند مالك لا يكون إلا فى كفارة الصيد وكفارة إزالة الأذى .

يفوت وقت الحج بفوات الوقوف بعرفة يوم عرفة وأجمعوا أن من هذه صفته لا يخرج من إحرامه إلا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة أعنى أنه يحل ولا بد من عمرة وحج من قابل، واختلفوا هل عليه هدى أو لا ؟ فقال مالك والشافعى وأحمد والثورى وأبو ثور : عليه الهدى، وقال أبو حنيفة : لا هدى عليه، واختلف العلماء فى القارن إذا فاته الحج هل يقضى حجا مفردا أو مقرونا بعمرة؟ فذهب مالك والشافعى إلى أنه يقضى قارنا وقال أبو حنيفة : ليس عليه إلا الإفراد ، وجمهور العلماء: على أن من فاته الحج لا يقيم على إحرامه ذلك إلى عام آخر، وهذا هو الاختيار عند مالك إلا أنه أجاز ذلك ليسقط عنه الهدى ولا يحتاج إلى التحلل بعمرة .

(٦) الكفارات المسكوت عنها

آتفق الجمهور على أن أعمال الحج أقسام ثلاثة : فرض لا يجب بتركه دم، وسنة مؤكدة يجب بتركها الدم، ونفل مرغب فيه لا يجب بتركه دم ولا شيء آخر؛ وكذلك آتفقوا على أن ما كان من التروك مسنونا ففي فعله فدية الأذى، وما كان مرغبا فيه فليس في تركه شيء ، ولكن آختلفوا فيما يعتبر فرضا أو سنة أو يعتبر سنة أو نفلا، وأهل الظاهر لا يوجبون دما أو فدية إلا فيما ورد فيه النص إذ لا قياس عندهم خصوصا في العبادات .

وها نحن أولاء نذكر لك أفعال الحج ومحظوراته واحدا واحدا ونبين ما فيه دم أولا : (١) مجاوزة الميقات من غير إحرام قال قوم : لا دم عليه وقال قوم : عليه الدم وإن رجع وهو قول مالك وآبن المبارك، وروى عن الثوري، وقال قوم : إن رجع اليه فليس عليه دم وإن لم يرجع فعليه دم وهو قول الشافعي وأبي يوسف ومحمد، ومشهور قول الثوري، وقال أبو حنيفة : إن رجع ملبيا فلا دم عليه وإن رجع غير ملب كان عليه الدم، وقال قوم : هو فرض ولا يجبره الدم؛ (٢) غسل الرأس بالخطمي قال مالك وأبو حنيفة : من فعله يفتدي، وقال الثوري وغيره : لا شيء عليه؛ (٣) دخول الحمام رأى فيه مالك الفدية والأكثرون على الإباحة؛ (٤) لبس ما نهى عن لباسه ، فيه الفدية على قول الجمهور . وآختلفوا فيمن لبس السراويل لعدم الإزار ، فقال مالك وأبو حنيفة : يفتدي، وقال الثوري وأحمد وأبو ثور وداود : لا شيء عليه إذا لم يجد إزارا . وآختلفوا فيمن لبس الخفين مقطوعين مع وجود النعلين فقال مالك : عليه الفدية ، وقال أبو حنيفة : لا فدية عليه والقولان عن الشافعي . وآختلفوا في لبس المرأة القفازين (لباس اليدين) «الجوانتي» هل فيه فدية أو لا ؟ وقد تقدّم كثير من هذه الأحكام في باب الإحرام؛ (٥) ترك التلبية، قيل : فيه دم، وقيل لا : وقد تقدّم؛ (٦) نكس الطواف أو نسيان شوط من أشواطه، يعيد الطواف من فعل ذلك باتفاق ما دام يمكنه . وآختلفوا إذا بلغ الى أهله فقال

قوم منهم أبو حنيفة : يجزيه الدم، وقال قوم : بل يعيد ويجبر ما نقصه؛ (٧) ترك الرمل فى الثلاثة الأشـواط لا يجبر بالدم على قول ٱبن عباس والشافعى وأبى حنيفة وأحمد وأبى ثور، وٱختلف فى ذلك قول مالك وأصحابه ؛ (٨) تقبيل الحجر أو يديه بعد وضعهما عليه فى ترك ذلك دم؛ (٩) نسيان ركعتى الطواف حتى يرجع الشخص الى أهله فيه دم عند مالك، وقال الثورى : يركعهما ما دام فى الحرم، وقال الشافعى وأبو حنيفة : يركعهما حيث شاء؛ (١٠) طواف الوداع، لا يجبر بدم عند من يرى أنه فرض ومن لا يراه فرضا ، ٱختلفوا فيمن تركه ولم تُمكن له العودة اليـه ، فقال مالك : ليس عليه شيء إلا أن يكون قريبا فيعود، وقال أبو حنيفة والثورى : فيه دم إن لم يعد وإنما يرجع عندهم ما لم يبلغ المواقيت ؛ (١١) عدم إدخال الحِجْر فى الطواف فيـه دم إلا اذا أعاده قبل أن يخرج من مكة وهـذا عند أبى حنيفة ؛ (١٢) المشى فى الطواف مع القدرة عليه، قال مالك :هو من شرط الطواف كالقيام فى الصلاة فإن عجز كان كصلاة القاعد ويعيد عنـده إلا إذا رجع إلى بلده فإن عليه دما . وقال الشافعى : الركوب فى الطواف جائز؛ (١٣) ترك السعى فيه دم إذا ٱنصرف إلى بلده وهو عند من لا يراه واجبا، ومن رآه تطوعا لم يوجب فيه شيئا؛ (١٤) تقديم السعى على الطواف إذا لم يعده حتى يخرج من مكة فيه دم عند بعضهم؛ (١٥) الدفع من عرفة قبل الغروب فيه دم عند أبى حنيفة والثورى عاد أولم يعد، وقال الشافعى وأحمد : لا شيء عليه إذا عاد ودفع بعد الغروب؛ (١٦) الوقوف بعرنة من عرفة فيه دم عند مالك، والشافعى يرى أن لا حج له . وتقدّم مثل ذلك كثير .

القول فى الهدى

النظر فى الهـدى يشتمل : (١) على معرفة حكمه؛ (٢) وعلى معرفة جنسـه ؛ (٣) وعلى معرفة سنّه؛ (٤) وكيفية سوقه؛ (٥) ومن أين يساق؛ (٦) والى أين يساق وهو موضع نحره؛ (٧) وحكم لحمه بعد النحر .

(١) حكم الهدى — الهدى المسـوق فى الحج منه واجب ومنه تطوّع ، والواجب منه ما هو واجب بالنذر ومنه ما هو واجب فى بعض أنواع هـذه العبادة

ومنه ما هو واجب لأنه كفارة ، فالواجب فى بعض أنواع هـذه العبادة هو هدى المتمتع باتفاق وهدى القارن باختلاف ، وأما الذى هو كفارة فهـدى القضاء على مذهب من يشترط فيـه الهدى وهدى كفارة الصيد ، وهدى القاء الأذى والتفث وما أشبه ذلك من الهدى المقيس على المنصوص كما قدمنا .

(٢) جنس الهدى — اتفق العلماء على أن الهدى لا يكون إلا من الأزواج الثمانية التى نص الله عليها وأن الأفضل فى الهدايا الإبل ثم البقر ثم الغنم ثم المعز .

(٣) سنّ الهدى — أجمعوا على أن الثّنى[1] فما فوقه يجزى منها وأنه لا يجزى الجَـذَع[2] من المعز فى الضحايا والهدايا ، واختلفوا فى الجذع من الضأن فأكثر أهل العلم يقولون بجوازه فى الهدايا والضحايا ، وكان ابن عمر يقول : لا يجزئ فى الهدايا إلا الثّنى من كل جنس ، ولا خلاف فى أن الأغلى ثمنا من الهدايا أفضل وليس فى عدد الهدى حدّ معلوم ، وكان هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة .

(٤) كيفية سوق الهدى — يساق الهدى مقلدا مشعرا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلد هديه بذى الحليفة وأشعره وأحرم وتقلد الإبل والبقر بنعل أو نعلين أو غيرهما إذا لم يجد وهـذا باتفاق ، أما الغنم فلا تقلد عند مالك وأبى حنيفة وتقلد عنـد الشافعى وأحمد وداود وأبى ثور ، ويستحب توجيه الهـدى الى القبلة حين توجيهه ، ومالك يستحب فى الإشعار طعن الهدى فى سنامه حتى يسيل منه الدم وأن يكون من الجانب الأيسر ، والشافعى وأحمد وأبو ثور يستحبونه من الجانب الأيمن .

(٥) من أين يساق الهدى — يرى مالك أن السـنة فى الهدى أن يساق من الحل ولذلك ذهب الى أن من اشترى الهدى بمكة ولم يدخله من الحل عليه أن

---

(١) الثنى من الإبل : ما دخل فى السنة السادسة ومن البقر والغنم ما دخل فى الثالثة وعلى مذهب أحمد هو من المعز ما دخل فى الثانية .

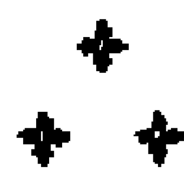
(٢) الجذع : من أسنان الدواب ما كان شابا فتيا وهو من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة ، ومن البقر والمعز ما دخل فى السنة الثانية وقيل : من البقر ما دخل فى الثالثة ، ومن الضأن ما تمت له سنة وقيل : أقل منها .

يقفه بعرفة وإن لم يفعل فعليه البـدل ، وأما من أدخله من الحل فيستحب له أن يقفـه بعرفة وهو قول آبن عمر وبه قال الليث ، وقال الشافعى والثورى وأبو ثور : وقوف الهدى بعرفة سنة سواء أدخل من الحل أم لا ، ولا حرج على من لم يقفه ، وقال أبو حنيفة : توقيف الهدى بعرفة ليس بسنة .

(٦) منحر الهدى — محله أى الموضع الذى يحل نحره فيه — البيت . قال تعـالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ هَدْيًا بَالِـغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ وأجمع العلماء على أن الكعبة لا يجوز لأحد أن يذبح فيهـا وكذلك المسجد الحرام ، وقال مالك : المراد بالكعبة فى الآية مكة ولهذا لم يجز لمن نحر هديه فى الحرم إلا أن يحره بمكة ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن نحره فى غير مكة من الحرم أجزأه ، وقال الطبرى : يجوز نحر الهدى حيث شاء إلا هدى القران وجزاء الصيد فانهما لا ينحران إلا بالحرم ، وبالجملة فالنحر بمنى إجماع من العلماء وفى العمرة بمكة إلا ما آختلفوا فيه من نحر المحصر ، وعند مالك إن نحر للحج بمكة وللعمرة بمنى أجزأه ، وحجة مالك أنه لا يجوز النحر بالحرم إلا بمكة قوله صلى الله عليـه وسلم « كل فجـاج مكة طريق ومنحر » وآستثنى مالك من ذلك هدى الفدية فأجاز نحره بغير مكة . هـذا مكانه وأما زمانه فقال مالك : إن ذبح هدى التمتع أو التطوع قبل يوم النحر لم يجزه ، وقال الشافعى : يجوز فى كليهما قبل يوم النحر ، وجوزه أبو حنيفة فى التطوع والجمهور على أن الصيام المعدول به عن الهدى يجوز حيث شاء لأنه لا منفعة فى ذلك لأهل الحرم ولا لأهل مكة وإنما اختلفوا فى الصدقة المعدولة عن الهدى ، فجمهور العلماء : على أنها لمساكين مكة والحرم لأنهـا بدل من جزاء الصيد الذى هو لأهل الحرم ، وقال مالك : الإطعام كالصيام يجوز بغير مكة .

وتستحب فى النحر التسمية لأنها ذكاة وآستحب بعضهم التكبير معها ، ويستحب للمهدى أن يلى نحر هـديه بيده وإن آستخلف جاز ويسن أن تنحـر قيـاما .

(٧) الانتفاع بالهدى — فى ذلك مسائل مشهورة : (١) ركوب الهدى، فذهب أهل الظاهر إلى جوازه لضرورة ومن غير ضرورة بل أوجب بعضهم ركوبه وكره جمهور فقهاء الأمصار ركوبه من غير ضرورة؛ (٢) أكل لحمه، أجمع العلماء على أن هدى التطوع إذا بلغ محله أكل منه المتطوع كسائر الناس وإذا عطب قبل ذلك خلى بينه وبين الناس ولم يأكل منه، بل قال أبو داود وأبو ثور: لا يأكل منه رفقته أيضا، وآختلفوا فى الواجب على من أكل منه فقال مالك : عليه بدل الهدى وقال أبو حنيفة والشافعى وأحمد والثورى وآبن حبيب من أصحاب مالك: عليه قيمة ما أكل أو أمر بأكله طعاما يتصدق به، وروى عن على وآبن عباس وآبن مسعود وجماعة من التابعين. وما عطب فى الحرم قبل أن يصل الى مكة هل بلغ محله أو لا ؟ فيه الخلاف وهو مبنى على الخلاف المتقدم هل المحل هو مكة أو الحرم ؟ وأما الهدى الواجب فإن عطب قبل محله فلصاحبه أن يأكل منه لأن عليه بدله، بل أجاز بعضهم أن يبيع لحمه ليستعين به فى بدله — وكره مالك ذلك — وآختلفوا فى الأكل من الهدى الواجب إذا بلغ محله فقال الشافعى : لا يؤكل من الهدى الواجب كله ولحمه كله للمساكين وكذلك جله إن كان مجللا والنعل الذى قلد به وقال مالك : يؤكل من الهدى الواجب جزاء الصيد ونذر المساكين وفدية الأذى، وقال أبو حنيفة لا يؤكل من الهدى الواجب إلا هدى المتعة والقران .



وإلى هنا تم ما قصدنا من أحكام الحج فى المذاهب وآختصرنا ذلك من بداية المجتهد كما أعلمناك سابقا .

جدول بمعظم أحكام الحج فى المذاهب الأربعة

العمـــل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
الحـــج	(١) فرض فورا	فرض تراخيا	فرض فورا	فرض فورا
العـــمرة	سنة مؤكدة	»	سنة مؤكدة	»
الإحرام بالحج أى نيته	(٢) شرط وركن	ركن	ركن	ركن
» بالعمرة أى نيتها	شرط وقيل ركن	»	»	»
قرن الإحرام بالتلبية	(٣) سـنة	سـنة	سنة وقيل واجب	سـنة
الإحرام من الميقات	(٤) واجب	واجب	واجب	واجب
الغسل للإحرام	سـنة	سـنة	سـنة	مستحب
التطيب للإحرام	»	»	مكروه	»
التلبيـــة	»	»	واجبة	سـنة
طواف القدوم	»	»	واجب	»
نية الطواف	شرط	(٥) شرط	»	شرط
بدء الطواف من الحجر الأسود	واجب	»	»	»
جعل البيت عن يسار الطائف	»	»	شرط	»
المشى فى الطواف لقادر عليه	»	سـنة	واجب	»
الطهارة من الحدثين فى الطواف	»	شرط	شرط	»
طهارة البدن والثوب والمكان فى الطواف	سـنة	»	»	»
كون الطواف من وراء الحجر	واجب	»	»	»
» » فى المسجد	»	»	»	»
» » سبعة أشواط	(٦) واجب	»	»	»

(١) عند محمد على التراخى . (٢) أى شرط ابتداء حيث يصح حصوله قبل أشهر الحج . وركن انتهاء حيث لا يصح استدامته بعد أشهر الحج ليحج به من قابل . والفرق بين الشرط والركن أن الشرط خارج عن الشئ والركن جزء منه وكل منهما لا بد منه لصحة الشئ . (٣) السـنة لا يلزم تركها شئ ولكن يفوت الثواب . (٤) يلزم بتركه دم . (٥) فى الوداع والتطوع فقط . (٦) الأربعة الأشـواط الأولى ركن والثلاثة الأخيرة واجبة فى طواف الزيارة سنة فى الطواف الواجب .

(تابع) جدول بمعظم أحكام الحج فى المذاهب الأربعة

العمـــل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
الموالاة بين أشواط الطواف	سنة	سنة	واجب	شرط
ستر العورة فى الطواف	واجب	شرط	شرط	»
ركعتا الطواف	واجب (١)	سنة وقيل واجب	واجب (٢)	سنة
الطواف للعمرة	ركن	ركن	ركن	ركن
السعى بين الصفا والمروة فى الحج أو العمرة	واجب	»	»	»
وقوع السعى بعد طواف	»	شرط	واجب	شرط
نية السعى	»	»	شرط	»
بدء السعى بالصفا وختمه بالمروة	»	»	»	»
المشى فيه مع القدرة	»	سنة	واجب	»
كون السعى سبعة أشواط	»	شرط	شرط	»
الموالاة بين أشواط السعى	سنة	سنة	واجب	»
» » السعى والطواف	»	»	»	سنة
الحلق أو التقصير فى العمرة	واجب	واجب	»	واجب
المبيت بمنى ليلة عرفة	»	سنة	»	مستحب
الوقوف بعرفة	ركن	ركن	ركن	ركن
وقت الوقوف بعرفة	من بعد الزوال إلى طلوع فجر يوم النحر			
مد الوقوف إلى ما بعد الغروب إن وقف نهارا	واجب	واجب وقيل سنة	ركن	واجب
الدفع من عرفة مع الإمام أو نائبه	»	سنة	واجب	سنة
الجمع بمزدلفة بين صلاتى المغرب والعشاء..	»	»	سنة	»
المبيت بمزدلفة (٣)	»	واجب	واجب	واجب

(١) ولكن يعادان ولا يجبران بالدم . (٢) ويجب فيهما عند المالكية أن يكونا بوضوء الطواف كما يجب أن لا يصليا بالحجر أو الكعبة وأن لا يفصل بينهما وبين الطواف فاصل طويل .

(٣) ولكن يكفى فى تحصيل الواجب المكث لحظة فى النصف الثانى من الليل عند الشافعى ولحظة بعد الفجر عند أبى حنيفة ومقدار حط الرحال وصلاة العشاءين وتناول شىء من الطعام والشراب عند مالك .

(تابع) جدول بمعظم أحكام الحج فى المذاهب الأربعة

عمل	حكم الحنفية	حكم الشافعية	حكم المالكية	حكم الحنبلية
الوقوف بمزدلفة « المشعر الحرام » فى وقته (١)	واجب	واجب	سنة أو مستحب	واجب
رمى جمرة العقبة يوم النحر (٢)	»	»	واجب	»
الحلق أو التقصير فى الحج	»	ركن	»	»
الترتيب بين الرمى والذبح والحلق	»	سنة	سنة	سنة
كون الحلق فى الحرم وأيام النحر	»	»	»	»
طواف الإفاضة	ركن أكثره	ركن	ركن	ركن
كونه فى أيام النحر	واجب	»	واجب فى ذى الحجة	سنة يوم العيد
تأخير طواف الإفاضة عن الرمى	سنة	سنة	واجب	سنة
رمى الجمار الثلاث فى أيام التشريق (٣)	واجب	واجب	»	واجب
عدم تأخير الرمى الى الليل	سنة	سنة	»	سنة
المبيت بمنى ليالى أيام التشريق (٣)	»	واجب	»	واجب
طواف الوداع	واجب	»	مستحب	»

حكم المناسك وأسرارها

نذكر تحت هذا العنوان كلمة ممتعة للسيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار الغرّاء وهى القسم الأخير من رسالته فى مناسك الحج ، قال أحسن الله اليه تحت هذا العنوان : يظن كثير من الناس الذين لا يعرفون كنه هذا الدين القويم من غير أهله ومن

(١) وقته من طلوع الفجر الى شروق الشمس . (٢) وقتها المستحب من طلوع الشمس الى الزوال ولا يجوز رميها قبل الفجر خلافا للشافعى ويجوز رميها الى غروب شمس يوم النحر فان رماها بالليل وجب عليه دم عند مالك وإن أخرها الى الغد عليه دم عند مالك وأبى حنيفة . (٣) وذلك فى يومين فقط لمن تعجل وفى ثلاثة لغيره .

المنسوبين إليه على سبيل الحنسية لا التدين أن بعض مناسك الحج من العبادات الوثنية وأن الاسلام أقرها تأنيسا لمشركى العرب، وقد سئلنا عن ذلك سؤالا مطولا نشر فى باب الفتوى من المجلد السادس عشر، فنذكر هنا ملخص ما أجبنا به من حكم الحج وأسراره ولولا ضيق الوقت لزدنا عليه وهو :

حكمة استلام الحجر الأسود — من عرف معنى العبادة يقطع بأن المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود ولا الكعبة، ولكن يعبدون الله تعالى وحده باتباع ما شرعه فيهما . بل كان من تكريم الله تعالى لبيته أن صرف مشركى العرب وغيرهم من الوثنيين والكتابيين الذين كانوا يعظمونه قبل الإسلام عن عبادته ، وقد وضعوا فيه الأصنام وعبدوها فيه ولم يعبدوه ، ذلك أن عبادة الشيء عبارة عن دعائه وكل قول أو عمل مبنى على اعتقاد أن له سلطة غيبية يترتب عليها الرجاء بنفعه لمن يعبده أو دفع الضرر عنه، والخوف من ضره لمن لا يعبده أو لمن يقصر فى تعظيمه، سواء أكانت هذه السلطة ذاتية لذلك الشيء المعبود فيستقل بالنفع والضر أم كانت غير ذاتية له بأن يعتقد أنه واسطة بين من لجأ اليه و بين المعبود الذى له السلطة الذاتية . ولا يوجد أحد من المسلمين يعتقد أن الحجر الأسود ينفع أو يضر بسلطة ذاتية له ، ولا بسلطة تقرب من يعبده و يلجأ إليه إلى الله تعالى ، ولا كانت العرب فى الجاهلية تعتقد ذلك وتقوله فى الحجر كما تقول فى أصنامها : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى﴾ ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ و إنما عقيدة المسلمين فى الحجر هى ماصرح به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند تقبيله ؛ قال: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك — رواه الجماعة كلهم — أحمد والشيخان وأصحاب السنن . وقد بينا فى المنار من قبل أن هذا القول روى أيضا عن أبى بكر رضى الله عنه و روى مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم، وأن أثر عمر كان العمدة فى هذا الباب للاتفاق على صحة سنده . قال الطبرى : إنما قال عمر ذلك (أى مع أنه معلوم من الدين بالضرورة) لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام فخشى أن

يظن الجهال أن آستلام الحجر الأسود من باب تعظيم الأحجار كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية ، فأراد أن يعلم الناس أن آستلامه اتباع لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لأن الحجر يضر وينفع بذاته اه .

بقى أن يقال : اذا كان هذا الحجر لا ينفع ولا يضر — كما قال عمر فى الموسم تعليما للناس وأقره جميع الصحابه عليه — وكان آستلامه وتقبيله لمحض الطاعة والاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يتبع فى سائر العبادات ، فما حكمة جعل ما ذكر من العبادة؟ وهل يصح ما قيل : من أن النبي صلى الله عليه وسلم تركه فى الكعبة مع أنه من آثار الشرك تأليفا للشركين وآستمالة لهم إلى التوحيد؟ والجواب أن الحجر ليس من آثار الشرك ولا من وضع المشركين ، وإنما هو من وضع إمام الموحدين إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم ، جعله فى بيت الله ليكون مبدأ للطواف بالكعبة يعرف بمجرد النظر اليه فيكون الطواف بنظام لا يضطرب فيه الطائفون ، وبهذا صار من شعائر الله يكرم ويقبل ويحترم لذلك كما تحترم الكعبة لجعلها بيتا لله تعالى وإن كانت مبنية بالحجارة فالعبرة بروح العبادة النية والقصد ، وبصورتها الآمتثال لأمر الشارع واتباع ما ورد بلا زيادة ولا نقصان ، ولهذا لا تقبَّل جميع أركان الكعبة عند جمهور السلف ، وان قال به وبتقبيل المصحف وغيره من الشعائر الشريفة بعض من يرى القياس فى الأمور التعبدية . وتعظيم الشعائر والآثار الدينية والدنيوية بغير قصد العبادة معروف فى جميع الأمم لايستنكره الموحدون ولا المشركون ولا المعطلون ، وأشد الناس عناية به الإفرنج فقد بنوا لآثار عظماء الملوك والفاتحين والعلماء العاملين الهياكل العظيمة ونصبوا لهم التماثيل الجميلة ، وهم لا يعبدون شيئا منها ، فلماذا نهتم بكل ما يلفظ به كل قسيس أو سياسى يريد تنفير المسلمين من دينهم إذا موه علينا فى شأن تعظيم الحجر الأسود فزعم أنه من آثار الوثنية ، ونحن نعلم أنه أقدم أثر تاريخى دينى لأقدم إمام موحد داع إلى الله من النبيين المرسلين الذين عرف شيء صحيح من تاريخهم وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذى أجمع على تعظيمه مع المسلمين اليهود والنصارى؟

بقى من حكمة استلام الحجر وتقبيله ما اعتمده الصوفية فيها أخذا مما ورد فى بعض الأحاديث الضعيفة كحديث ابن عباس « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه » رواه الطبرانى ، فقالوا : وهو أنه رمز لمبايعة الله تعالى فكأن الحجر يمين الله تعالى ، ومستلمه مبايع له على توحيده والإخلاص له واتباع دينه الحق ، والأعمال الرمزية معروفة فى جميع الأديان الإلهية . وقال المهلب : حديث عمر يرد على من قال إن الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده — ومعاذ الله أن تكون لله جارحة — وإنما شرع تقبيله اختبارا ليعلم بالمشاهدة طاعة من يطيع ، وذلك شبيه بقصة إبليس حيث أمر بالسجود لآدم اه . وليس مراد من قال إنه يمين الله أن لله جارحة ، وإنما أراد ما ذكرنا ، والعمدة فى رد هذا القول عدم صحة الحديث فيه ، فإن صح وجب قبوله ومعناه ظاهر ، وقال الخطابى : معنى كونه يمين الله فى الأرض أن من صافحه فى الأرض كان له عند الله عهد ، وجرت العادة بأن العهد يعقده الملك بالمصافحة لمن يريد موالاته والاختصاص به فخاطبهم بما يعهدونه . وقال المحب الطبرى : إن كل ملك إذا قدم عليه الوفد قبل يمينه ، فلما كان الحاج أول ما يقدم سن له تقبيله نزل منزلة يمين الملك ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ اه .

ولعمرى لو أن ملوك الإفرنج وعلماءهم أمكنهم أن يشتروا هذا الحجر لعظم تغالوا فى ثمنه تغاليا لا يتغالون مثله فى شىء آخر فى الأرض ، ولوضعوه فى أشرف مكان من هيا كل التحف والآثار القديمة عندهم ، ولحج وفودهم إلى رؤيته وتمنى الملايين لو تيسر لهم لمسه واستلامه ، وناهيك بمن يعلم منهم تاريخه وكونه من وضع إبراهيم أبى الأنبياء عليهم السلام وأنهم ليتغالون فيما لا شأن له من آثار الملوك أو الصنائع .

هذا وأن من مقاصد الحج النافعة تذكر نشأة الاسلام دين التوحيد والفطرة فى أقدم معابده وإحياء شعائر إبراهيم التى طمستها وشوهتها الجاهلية بوثنيتها فطهرها الله ببعثة ولده محمد الذى استجاب الله به دعوته ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ عليهما الصلاة والسلام . روى

أحمد وأصحاب السنن والحاكم عن يزيد بن شيبان قال : أتانا ابن مِرْبع (كمنبر واسمه يزيد) الأنصارى ونحن بعرفة — فى مكان يباعده عمرو عن الإمام[1] — فقال : أما إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم، يقول لكم : « قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من أبيكم ابراهيم » هذا سياق أبى داود وقد سكت عليه . وقال الترمذى : حديث ابن مربع الأنصارى حديث حسن لانعرفه إلا من حديث ابن عيينة عن عمرو بن دينار .

وجملة القول أن مناسك الحج من شريعة إبراهيم وقد أبطل الإسلام كل ما ابتدعته الجاهلية فيها من وثنيتها وقبيح عملها كطوافهم بالبيت عراة، وأن الكعبة من بناء إبراهيم واسماعيل عليهما السلام كما هو ثابت عند العرب بالإجماع المتواتر بينهم، وكانوا يعظمونها هم والأمم المجاورة لهم بل والبعيدة عنهم كالهنود، ومن الثابت أيضا أنهم لما جدّدوا بناءها أبقوا الركنين اليمانيين على قواعد إبراهيم، وإنما اقتصروا من جهة الركنين الشاميين، ولذلك ورد استلام الركنين اليمانيين دون غيرهما، ويقال لأحدهما : الركن الأسود لأن فيه الحجر الأسود وللآخر : اليمانى فإذا ثنوهما قالوا : اليمانيين تغليبا كما يقولون فى تثنية الركن الشامى والركن العراقى : الشاميين . ولما كانت الكعبة قد جدّد بناؤها قبل الإسلام وبعده ولم يبق فيها حجر يعلم باليقين أنه من وضع إبرهيم إلا الحجر الأسود لامتيازه بلونه وبكونه مبدأ المطاف — كان هو الأثر الخاص المذكر بنشأة الاسلام الأولى فى ضمن الكعبة المذكرة بذلك بوضعها وموضعها وسائر خصائصها، زادها الله حفظا وشرفا . وقد علم بهذا أن الحجر له مزية تاريخية دينية وإن كان الأصل فى وضعه بلون مخالف للون البناء اهتداء الناس بسهولة الى جعله مبدأ للطواف . ولنا مع علمنا بهذا أن نقول إن الله تعالى أن يخصص ما شاء من الأجسام والأمكنة والأزمنة بما شاء لروابط العبادة والشعائر، فلا فرق بين تخصيص

(١) هذه الجملة مدرجة فى الحديث أدرجها فى الرواية عمرو بن دينار ومعناها أنهم فى مكان بعيد عن موقف الامام بحيث لا يسمعون كلامه فقوله : يباعده عمرو يعنى يذكر عمرو بن عبدالله بن صفوان التابعى أنه بعيد عن الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم أى فلذلك أرسل اليهم رسولا .

الحجَر الأسود بما خصصه به وبين تخصيص البيت الحرام والمشعر الحرام وشهر رمضان والأشهر الحرم بما خصت به، ومبنى العبادات على الاتباع لا على الرأى .

حكمة رمى الجمار

إذا وعيت ماتقدم كان نورا بين يديك تبصر به حكم سائر مناسك الحج، أعنى أنها مما تعبدنا الله تعالى بها لتغذية إيماننا بالطاعة والامتثال سواء عرفنا سبب كل عمل منها وحكمته أم لا، وأنها إحياء لدين إبراهيم أبى الأنبياء وإمام الموحدين المخلصين، وتذكير بنشأة الإسلام ومعاهده الأولى. وإن لاستحضار ذلك لتأثيرا عظيما فى تغذية الإيمان وتقوية الشعور به والثقة بأنه دين الله الخالص الذى لايقبل غيره، فإن جهلنا سبب شرع بعض تلك الأعمال أوحكمتها لايضرنا ذلك ولا يثنينا عن إقامتها، كما اذا ثبت لنا نفع دواء من الأدوية مركب من عدة أجزاء وجهلنا سبب كون بعضها أكثر من بعض، فان ذلك لايثنينا عن استعمال ذلك الدواء والانتفاع به، ولايدعونا إلى التوقف وترك استعماله الى أن نتعلم الطب ونعرف حكمة أوزان تلك الأجزاء ومقاديرها .

أبسط مايتبادر الى الذهن من منشإ هذه العبادة أن هذه المواضع التى تسمى الجمرات كانت من معاهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فشرع لنا أن نقف عند كل واحدة منها نكبر الله سبع تكبيرات نرمى عند كل تكبيرة حصاة صغيرة بين أصابعنا نعد بها التكبير، والعدّ بالحصى — ومثله النوى فى مثل الحجاز — من الأمور المعهودة عند الذين يعيشون عيشة السذاجة، فنجمع بهذا الذكر بهذه الكيفية بين إحياء سنة إبراهيم الذى أقام الدين الحق فى هذه المعاهد وبين التعبد لله تعالى بكيفية لا حظ للنفس ولا محل للهوى فيها . والعبادة منها شعائر يجتمع لها الناس وتقصد الأمة بعملها إظهار الدين والاجتماع والتآلف على عبادة الله تعالى ، وكل أعمال الحج من هذا القبيل ، ومنها ما يقصد به تربية كل فرد نفسه وتزكيتها فقط كالتهجد وذكر الله فى الخلوة، فلا يقال إن الذكر والتكبير لا يختص بذلك الزمان والمكان، لأن هذا

القول لا يصح إلا فى غير الشعائر إذ الشعائر لابد فيها من التخصيص والتوقيت لأجل جمع الناس عليها بنظام كالأذان وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين .

أما كون رمى الجمار شرع لذكر الله تعالى فسيأتى حديث عائشة المصرح به ، وأما سبب وقوف إبراهيم فى تلك المعاهد لذكر الله وتكبيره وعدّه بالحصى فلا يضرنا جهله ويكفينا أن نقتدى به فى هذه الشعيرة كشعيرة الطواف وغيرها من المناسك. وورد فى بعض الأحاديث الضعيفة السند أن إبليس عرض له هنالك أى يوسوس له ويشغله عن أداء المناسك فكان يرميه كل مرة فيخنس ثم يعود . وروى الطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس : لما أتى خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ثم ذكر الجمرة الثالثة كذلك .

وروى عن محمد بن إسحاق قال : لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام جاءه جبريل عليه السلام فقال له طف به سبعا : ثم ساق الحديث وفيه أنه لما دخل منى وهبط من العقبة تمثل له إبليس عند جمرة العقبة فقال له جبريل : كبر وارمه سبع حصيات ، فرماه فغاب عنه ، ثم برز له عند الجمرة الوسطى فقال له جبريل : كبرّ وارمه فرماه ابراهيم سبع حصيات ، ثم برز له عند الجمرة السفلى فقال له جبريل : كبر وارمه ، فرماه سبع حصيات مثل حصى الخذف ، فغاب عنه إبليس . ثم مضى إبراهيم فى حجه — الحديث . وليس تمثل الشيطان للأنبياء ولا ظهوره لهم بغريب فى قصصهم ففى الإنجيل المعتمد عند النصارى أنه ظهر للمسيح عليه السلام وجربه تجارب طويلة . فإذا صح أن إبليس عرض لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى أثناء أداء مناسكه بظهور ذاته أو مثاله أو بمجرد التصدى للوسوسة والشغل عن ذكر الله تعالى فلا غرابة فى قذفه ورجمه كما يطرد الكلب ، فمن المعروف فى الأخلاق والطباع أن يأتى الانسان بعمل عضوى يظهر به كراهته لما يعرض له

حتى من الخواطر القبيحة ودفعه عنه و براءته منه ، فأخذ الحصيات ورميها مع تكبير الله تعالى من هـذا القبيل ، و إن حركة اليد المشيرة الى البعد لتفيد فى دفع الخواطر الشاغلة للقلب...والرجم بالحجارة بقصد الدلالة على السخط والتبرى أوالإهانة معهود من الناس وله شواهد عند الأمم كرجم بنى اسرائيل مع يشوع النبي (يوشع عليه السلام) لعجان بن زراح وأهـله وماله من ناطق وصامت كما فى ٧ : ٢٤ و ٢٥ من سفر يشوع ، وكرجم النصارى لشجرة التين التى لعنها المسيح ، ورجم العرب فى الجاهلية لقبر أبى رغال فى المُغَمَّس بين مكة والطائف لأنه كان يقود جيش أبرهة الحبشى الى مكة لأجل هدم الكعبة حرسها الله تعالى .

والعمدة فى رمى الجمار ماتقدم من قصد التعبد لله تعالى وحده بما لاحظ للنفس فيه اتباعا لإبراهيم أقدم رسل الله الذين بقيت آثارهم فى الأرض ، ومحمد خاتم رسل الله ومكمل دينه ومتممه الذى حفظ كله فى الأرض صلى الله عليهم أجمعين .

قال أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى بيان أسرار الحج من الإحياء : «وأما رمى الجمـار فليقصد به الانقياد للأمر إظهارا للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك . ثم ليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعـالى فى ذلك الموضع ليدخل على حجـه شبهة أو يفتنه بمعصية ، أمره الله عز وجل أن يرميـه بالحجـارة طردا له وقطعا لأمله . فان خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ، فاعلم أن هـذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه فى قلبك ليفتر عزمك فى الرمى ، ويخيل إليك أنه لا فائدة فيه ، وأنه يضاهى اللعب فلم تشتغل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجـد والتشمير فى الرمى ، فبـذلك ترغم أنف الشيطان . واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى فى العقبـة وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس فيه » اهـ .

حكمة الرمل فى الطواف والسعى بين الصفا والمروة

الطواف بالكعبة المعظمة والسعى بين الصفا والمروة من مناسك الحج وشعائر الإسلام عن عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وروى أن هاجر رضى الله تعالى عنها كانت تسعى بينهما وَالِهة حيرى عند حاجتها إلى الماء زمن ولادتها إسماعيل حتى هداها الله تعالى الى بئر زمزم . والحكمة فى هذه العبادة ما ذكرناه فى الكلام على رمى الجمار من إقامة ذكر الله تعالى فى هذه المعاهد التى هى أقدم معاهد التوحيد المعروفة فى الأرض وإحياء سنن المرسلين فيها، قال صلى الله عليه وآله وسلم « إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله » رواه أبو داود والترمذى وقال حسن : صحيح من حديث عائشة . وأذكاره معروفة فى المناسك . وأما الرمل فيه فهو سنة نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة ومعناه سرعة فى المشى مع تقارب الخطوات من غير عدو ولا وثب، ويسمى الخبب أيضا، فهو دون العدو وفوق المشى المعتاد، فإن زادت السرعة كان عدوا .

أما سبب الرمل فى الطواف والسعى بهمة ونشاط بين الصفا والمروة فهو كما يؤخذ من عدّة أحاديث إظهار قوة المسلمين للمشركين ، وكان قد علم النبى صلى الله عليه وسلم أن المشركين قالوا عام الحديبية فى المؤمنين : قد أوهنتهم حمّى يثرب . وروى فى الصحيح أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة لعمرة القضاء قال المشركون : إن محمدا وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال لذلك أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يرملوا فى ثلاث طوفات ويمشوا فى أربع من الأشواط السبعة من طواف القدوم فقط . وكان خطر لعمر بن الخطاب أن يتركه لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم فعله لسبب عارض ، ثم بدا له فمضى عليه لأنه علم أن المحافظة على ما فعله النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم ينه عنه كالمحافظة على ما كان فعله جدّه إبراهيم صلى الله عليه وسلم إن لم تكن أولى، روى أبو داود وابن ماجه عنه أنه قال : « فيم الرَّمَلَان اليوم والكشف عن المناكب وقد أطأ الله الإسلام

(أى وطاًه وأحكمه) ونفى الكفر وأهله ؟ مع ذلك لا ندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأصله فى البخارى بلفظ "فما لنا والرمل إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله — ثم قال — شيء صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نحب أن نتركه"؛ وقوله : «راءينا» مشاركة من الرؤية أى أريناهم قوتنا وأننا لا نعجز عن مقاومتهم ، وقيل : هو من الرياء بمعنى إراءة ما هو غير الواقع أى أريناهم من الضعف قوة . والرياء مذموم لأنه خداع والخداع جائز فى الحرب وهذا من قبيل الحرب ، وقوله فى الرواية الأولى : والكشف عن المناكب معناه الاضطباع وهو أن يؤخذ الرداء من تحت إبط اليد اليمنى فيلقى على كتف اليسرى فتظهر المناكب ، وحكمته عين حكمة الرمل ، وقيل : إنما هو لأجل التمكن منه وقد ورد فى الصحيح أن المشركين قالوا عند ما رأوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يرملون مضطبعين : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم أجلد من كذا وكذا ، وفى رواية أجلد منا .

فعلم من هذا أن الرمل أو الهرولة كما قال السائل إنما شرعت فى الطواف لسبب ، وأنا نحافظ عليه لتمثيل حال سلفنا الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم اتباعا وتذكرا لنشأة الإسلام الأولى فى عهدهم ، وهل توجد أمة من الأمم غيرنا تعرف من نشأة دينها هذه الدقائق بيقين ؟ لالا ! فالحمد لله رب العالمين .

حكمة ذبائح النسك

حكمة ذبائح الهدى والأضاحى معروفة لا يجهلها عامة المسلمين ، وهى طاعة الله تعالى وتقواه و إظهار نعمته بتوسعة المسلمين على أنفسهم وعلى الفقراء والمساكين فى أيام العيد التى هى أيام ضيافة الله للؤمنين ، وهى من مناسك الحج لأنها إحياء لسنة إبراهيم وتذكر لنعمة الله عليه وعلى الناس بفداء ولده إسماعيل من الذبح الذى ابتلاه الله واختبره به لتظهر قوة إيمانه بالله تعالى و إيثاره لرضاه . ونعمة الله بذلك على الناس كافة إنما هى من حيث إن إسماعيل هو جد محمد صلى الله عليهما وسلم الذى أرسله الله تعالى خاتما لرسله وهاديا للناس كافة .

قال الله تعالى فى البُـدْن التى تنحـر للنسك ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ وقال فى ذبائح النسـك عامة ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

جملة القول فى حكمة الحج والاعتبار به

اعلم أيها الحاج أن ما ورد فى الحـديث الصحيح من أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وأن «من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» سببه أن الحج إذا أدى كما يحب الله تعالى يقوى الإيمـان ويزكى النفس ويطهرها حتى يظهر أثر ذلك فى الأخلاق والمعاملات مع الله والناس .

فاذا أردت أن يكون حجـك مبرورا فعليك أولا أن تتوب الى الله تعالى توبة صادقة وأن يكون حجك لوجه الله وابتغاء مرضاته بآمتثال أمره وتحقيق حكمة شرعه فى النسك وغيره .

وذلك بأن تعلم أنك بحج بيت الله تعالى مقبل على الله تعالى مع إخوانك المؤمنين كما تقبلون عليه فى الآخرة ، وتذكر أن ثياب الإحرام كأكفان الموتى ، وأن المحرمين يتساوى كبيرهم وصـغيرهم وأميرهم ومأمورهم فى الزى وترك ما هو غير ضرورى للحياة من نعيم الدنيا ومميزاتها ومفاخرها وأثاثها ورياشها وزينتها وطيبها وفى أداء المناسك كلها ولا سيما الوقوف بعرفات الذى يشبه الوقوف بين يدى الله تعالى يوم القيامة . فتدبر هذه المعانى وتذكر أنك بين يدى الله تعالى وأنه يسمع تلبيتك التى سمعت معناها ، فآجتهد أن تكون صادقا فيها وتدبر معناها ومعانى سائر الأذكار والدعوات ، وتذكر عند تقلبك فى المناسك نشأة الدين الأولى فى عهد سـيدنا إبراهيم وعهد ولده سيدنا محمد وهما أفضل الرسل عليهما الصلاة والسلام وعلى سائر رسل الله تعـالى . وأنك تطوف حيث طافا وتسعى حيث سعيا وتقف حيث وقفا وتذكر الله وتدعوه حيث ذكرا ودعوا ، ولكنهما تحملا من العناء والبلاء فى إقامة دين الله فى تلك البلاد ما لا تتحمل شيئا منه .

فاذا أنت تذكرت وتدبرت ما ذكر يخشع قلبك وجوارحك وتدمع عيناك، ويقوى شعور الإيمان فى نفسك حتى يغلب باذن الله تعالى ما كان فيها من آثار الأوزار السابقة، وتعود بصفائها وطهارتها الى أصل الفطرة، وهـذا معنى خروجك من الذنوب كيوم ولدتك أمك. فيجب أن تحرص بعد الحج على المحافظة على هذه النفس الزكيـة الطاهرة كما تحرص على نفس ولدك الذى تربيه تربيـة صالحة أن ينغمس فى الفسق والشرور، ولا تنس ما فى الحج من فوائد تعارف شعوب المسلمين وقبائلهم وتآلفهم. فحرص على هذه الفائدة والله الموفق، فنسأله تعالى أن يوفقنا لاداء مناسكنا على الوجه الذى يحبه و يرضاه، و يجعـل ذلك ذخيرة لنا الى يوم نلقاه. والحمد لله أولا وآخرا.

قبل أن نتكلم على مكة وما فيها من المشاعر نتقدم اليك بكلمة جغرافيـة عن بلاد العرب ثم بموجز تاريخى عن هذه البلاد وسير الفتوحات الإسلامية منها الى أرجاء المعمورة حتى تكون عليما بتاريخ المسلمين وأين هم الآن فاستمع علمنا الله وإياك.

فصـــل جغـــرافى موجز (١)

فى وصف بلاد العرب

(ا) حدودها وشواطئها وأهمية موقعها

(١) حدودها — شبه جزيرة العرب أو «جزيرة العرب» كما يسميها العرب أو «الجزيرة» فقط كما يسميها بعضهم هى ثالثة أشباه الجزائر الأسيوية الكبيرة الواقعة فى جنوب آسيا . تحدها البحار من ثلاث نواح فتفصلها عما يليها فى هــذه النواحى فصلا تاما . يحدّها البحر الأحمر غربا، والمحيط الهندى جنوبا، وبحر عمان والخليج الفارسى شرقا . أما حدودها الشمالية العامة فمبهمة غير واضحة، فقد يلحقون بها شبه جزيرة سيناء وبادية الشام والجزيرة والعراق وقد لا يفعلون . وهذه الجهات تعدّ منها من الوجهة الطبيعية وإن كانت لا تعــدّ منها من الوجهة السياسية . وعلى كل حال فمساحة الجزيرة العربية تبلغ نحو ألف ألف ميل مربع أى نحو ثلث القارة الأوربية .

(٢) شواطئها — يكاد الشاطئ الغربى يكون خطا مستقيما وهو على العموم قليــل المرافئ الصالحة لرسوّ السفن . وأهم الجزائر الواقعة بالقرب منه والتابعة لبلاد العرب جزائر فرسان وكمران وبريم الواقعة عنــد مدخل مضيق باب المندب . والشاطئ الجنوبى الممتدّ فى تقوّس وانحناء من مضيق باب المنــدب الى رأس الحدّ به عدّة ثغور حسنة ، أهمها عدن والمكلة والشحر وبالقرب منــه جزيرة سقطرى وجزائر كوريا موريا . وأما الشاطئ الشرقى الممتدّ من رأس الحدّ الى الكويت فرملى قريب الغور ، وتقع قريبا منه جزائر البحرين الشهيرة . هــذا ويبلغ طول الشواطئ العربية من السويس الى مصب الفرات نحو ٤٠٠٠ ميل .

(١) هــذا الفصل والفصل التاريخى الذى يعقبه بقلم حضرة عبد الحميد افندى العبادى أستاذ التاريخ والجغرافيا بمدرسة القضاء الشرعى .

(٣) أهمية موقعها — هـذا الموقع المتوسط الذى تقعه بلاد العـرب بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط وبين آسيا وأفريقية الشمالية اللتين هما أهم أقطار العالم التجارية فى العصور القـديمة والمتوسطة ومن أهم أقطاره التجارية فى العصور الحديثة قد جعـل لبلاد العرب منذ أقدم أزمنـة التاريخ أهمية تجارية عظيمة بحرية وبرية كما يعلم المطلع على تاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام .

(ب) الجو والنبات والحيوان

(١) الجو — ليس جو بلاد العرب على حالة واحدة فى جميع أنحائها بل هو يختلف اختلافا بينا من مكان لآخر . فالجهات المنخفضة القريبـة من البحار حارة وغير صحية، والجهات المرتفعة جافة صحية . ويسقط المطر بنجد فى فصـل الربيع والخريف . وقد تنخفض درجة الحرارة شتاء باليمن فتفوت درجة التجمد . وقد ترتفع فى الصيف فتبلغ ٨٠° (بمقياس فهرنهايت) وتستفيد هذه البلاد من الرياح الموسمية فيسقط بها المطر فى مارس ويولية وأغسطس وسبتمبر . وقد يدوم فصـل المطر فى الحجاز نحو خمسة أسابيع من فصـل الخريف . وأما الجهات الشمالية فالمطر بها نادر وإذا سقط فإنما يسقط فى فصل الشتاء .

(٢) النبات — تعدّ اليمن أخصب أنحاء الجزيرة العربيـة، ويزرع بها البن والفاكهة والخضروات . ومن حاصلات الحجـاز الحناء والبلسم . وأهم حاصلات حضرموت البخور . وأهم مزروعات عمان والأحساء النيـلة . وأما النخل فينمو فى أكثر أنحاء الجزيرة . وقد جلب الى بلاد العرب من الخارج شجر جوز الهند والموز فنما بها نموّا حسنا .

(٣) الحيوان — أهمـه الإبل والغنم والخيل والحمير، وكلها تعـدّ فى الطبقة الأولى من نوعها ولا سيما مهارى (مهرة) وخيل نجـد . ويوجد النعام ببعض الصحارى العربيـة غير أنه قليـل . ويكثر السمك بخليج عمان، ويستخرج من مغاصات اللؤلؤ الشرقية ما قيمته سنويا نحو ٣٠٠,٠٠٠ جنيه .

(ج) الوصف الطبوغرافى

مقدمة — كان جغرافيو الاغريق والرومان يقسمون بلاد العرب بالنظر الى طبيعة أرضها الى ثلاثة أقسام : بلاد العرب الحجرية ، و بلاد العرب السعيدة ، و بلاد العرب الرملية ؛ فأما الأولى فكانت عندهم شبه جزيرة سيناء ؛ وأما الثانية فهى بلاد اليمن ؛ وأما الثالثة فكل ما عدا هذين الإقليمين من بلاد العرب . وأما العرب فكانوا يقسمونها باعتبار المواضع والأقاليم . وأساس تقسيمها عندهم جبال السراة التى تمتد من أطراف بادية الشام الى اليمن ؛ فتقسم جزيرة العرب الى قسمين : غربى ، وشرقى . فالغربى وهو أصغرهما ينحدر من سفح ذلك الجبل حتى يصل الى شاطئ البحر الأحمر ، وقد صار هابطا أو غائرا فسموه الغور أو تهـامة ؛ والقسم الشرقى وهو أكبرهما يمتـد شرقا وهو على ارتفاعه الى أطراف العراق والسماوة فسموه نجدا لهذا السبب . وسموا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد (الحجاز) وهو عبارة عن جبال تتخللها المدن والقرى . وجعلوا ما تنتهى به نجد فى الشرق حتى يصل الى خليج فارس بلاد اليمامة والبحرين وعمان وما والاها و يسمونها العروض ، وسموا القسم الجنوبى بلاد اليمن وحضرموت والشحر .

وأما الجغرافية الحديثة فتميل الى تقسيم بلاد العرب باعتبار قربها من البحر أو بعدها عنه . وعلى هذا الاعتبار تنقسم بلاد العرب الى قسمين كبيرين : (١) بلاد العرب المتصلة بالبحر وتشـمل الحجاز وعسيرا واليمن وحضرموت ومهرة (الشحر) وعمان والأحساء (البحرين) ؛ (٢) بلاد العرب غير المتصلة بالبحر وهذه تشمل نجدا والصحارى الداخلية . وسنتبع هذا التقسيم ونذكر كلمة موجزة عن كل قسم من هذه الأقسام :

بلاد العرب المتصلة بالبحر

(١) **الحجـاز** — أهم الأقطار العربية من الوجهة التاريخية ، فيه نبت الإسلام ومنه درج كما سترى فى الفصل التاريخى الآتى . وهو يمتد بوجه عام من رأس خليج

العقبة الى حدود اليمن اذا اعتبرنا عسيرا داخلة فيه كما يصنع بعض الجغرافيين . وبه من الأودية وادى الحمد ووادى الرمة . وأهم مدنه مكة المشرفة والمدينة المنورة والطائف الشهيرة بفواكهها الجيدة . وأهم ثغوره الواقعة على البحر الأحمر، الوجه والحوراء وينبع ورابغ وجدة ، وكلها محطات للحجاج المصريين . ويتزله من القبائل العربيه الآن عرب الحويطات فى الإقليم الشمالى المسمى حسمى، وعرب عنزة شمالى المدينة، وبلى ما بين العقبة والوجه، وقريش شمالى عرفة والطائف، وهذيل فى جبال التى بين مكة والطائف، وثقيف فى جنوب وشرق الطائف .

(٢) عسير — تتسع جبال السراة جنوبى مكة والطائف فتكون الإقليم المعروف بعسير والواقع بين الحجاز شمالا واليمن جنوبا . وهذا الإقليم على العموم من أخصب وأجمل الأقاليم العربية وأغناها من الوجهة الاقتصادية . أهم أوديته : وادى ضنع ووادى بيشة. وأهم مدنه : أبها ومحايل وصبيا. وأهم ثغوره: القنفدة . وأهم قبائل عسير : قبائل قحطان التى هى أصل القبائل اليمنية .

(٣) اليمن — وتنقسم الى قسمين غير متساويين : تهامة اليمن التى هى عبارة عن امتداد تهامة عسير والحجاز، ونجد اليمن ويتضمن أربع هضاب فرعية : هضبة نجران فى الشمال، وهضبة مأرب فى الشرق، وهضبة صنعاء فى الوسط، وهضبة تعز فى الجنوب . وأهم مدن اليمن صنعاء، وهى العاصمة ثم صعدة ومأرب الشهيرة بآثارها القديمة وبريم وتعز ولحج وزبيد . وأهم ثغور اليمن الحديدة ومخا الواقعتان على البحر الأحمر، وعدن الواقعة على المحيط الهندى والتابعة لانجلترا (وكذلك جزيرة بريم الواقعة عند مدخل مضيق باب المندب) .

(٤) حضرموت — وهى عبارة عن الإقليم الواقع شرقى اليمن . سطحها جبلى يتخلله واد متسع يساير الشاطئ نحو مائة ميل ويسمى وادى الكسر . وأهم مدن حضرموت : شبام . وأهم ثغوره : المكلا وسيحوت . وبحضرموت، كما باليمن آثار حضارة عربية قديمة .

(٥) مهرة — وكان جغرافيو العرب يسمونها (الشحر) وتمتد شرقا من سيحوت الى حاسك وتشتهر منذ القدم بالبخور والصموغ . وأهم ثغورها : الشحر ومرباط . هذا وأرض مهرة الممتدة من حاسك الى عمان قاحلة وداخلها غير معروف بالمرة .

(٦) عمان — هي أبعد جهات العرب من ناحية الشرق . يمتد شاطئها من رأس الحد الى الرأس المعروف برأس مسندم . وتكثر به المرافئ الجيدة كما يكثر السمك بمياهه . وأهل عمان مشهورون من قديم الزمان بالمهارة فى الملاحة والاتجار مع بلاد الهند . وأما سطح عمان فجبلى يبلغ غاية ارتفاعه فى الجبل الأخضر . وعاصمة عمان هى مسقط وتقع الى الشمال منها صحار عاصمة عمان القديمة .

(٧) الأحساء — وكانت تعرف فى عهد الدول العربية الإسلامية بالبحرين أو هجر التى كانت عاصمتها إذ ذاك . وأما لفظ الأحساء فاسم المدينة التى أنشأها القرامطة فى القرن الرابع الهجرى بالقرب من هجر . والأحساء ثلاثة أقسام : قسم جنوبى ويعرف بالقواسم ، وقسم متوسط هو عبارة عن شبه جزيرة (قطر) التى تشتهر هى وجزائر البحرين باستخراج اللؤلؤ ، وقسم شمالى غربى يمتد من قطر الى الكويت ويسمى (القطيف) وأهم مدن قطر الحفوف ، وأهم مدن القطيف الكويت التى ستكون يوما ما مركزا تجاريا عظيما لحسن موقعها الجغرافى . وأهم حاصلات الأحساء : البلح ويضرب المثل بكثرته .

بلاد العرب الداخلية

ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : البادية ونجد والدهناء .

(١) البادية — ونطلقها مجازا على الأرض الواقعة شمال نجد وإلا فهى عبارة عن بادية العراق والجزيرة والشام . ويلى هذه البوادى بادية السماوة التى سلكها خالد بن الوليد عند منصرفه من العراق الى الشام بأمر أبى بكر الصديق . وهى فلاة لا يأمن سالكها الهلاك فيها عطشا وجوعا . وتلى بادية السماوة الواحة المعروفة قديما بدومة الجندل وتعرف اليوم بالجوف . وهذه الواحة واقعة على الوادى

الآتى من حوران والمعروف بوادى السرحان . وتلى الجوف صحراء (النفود) وهى فلاة قاحلة لا ماء بها .

(٢) نجـــد — هضبة عظيمة تلى (النفود) ويبلغ ارتفاعها أحيانا أكثر من ٥٠٠٠ قدم، تشقها أودية تكثر زروعها وحيوانها . وأهم هذه الأودية : وادى الرمة ووادى الدواسر . ونجد تنقسم الى أقسام : حرة خيبر فى الغرب، والقصيم فى الشمال ونجد الأصـلى فى الجنوب . ويقع الى الجنوب والشرق من نجـد الإقليم المعروف باليمامة والذى يطلق العرب عليه وعلى البحرين معا اسم (العروض) . هذا وجو نجد أصح أجواء بلاد العرب، وأهم بلدان نجد الرياض وحائل وعنيزة، وتنزله فى الوقت الحاضر من القبائل بنو سبيع وعنزة وقبائل تنتمى الى بنى هلال المشهورة .

(٣) الدهناء — صحراء مترامـيـة الأطراف مجهولة الداخل تمتد من جنوبى نجد الى الحدود الصحراوية لعمان ومهرة وحضرموت واليمن . ليست بها عيون ولا أودية، وانما تجودها الأمطار فى فصل المطر فتعشب فيؤمها البـدو بخيامهم وإبلهم فيرعونها نحو ثلاثة أشهر، فاذا حل فصل الجفاف ارتحلوا عنها . ويطلق على هذه الفلاة أسمـاء مختلفة ، فالقسم الواقع منها بين شرق اليمن وشمال غربى حضرموت يسمى (صيهد) . والجزء الواقع شمال شرقى حضرموت يسمى (الأحقاف). والجزء الواقع شمال مهرة يسمى (وبار) على أنها تسمى بوجه عام (الدهنـاء) لحمرة رمالها . وكثيرا ما يطلقون عليها (الربع الخالى) أى غير المعمور .

التقسيم السياسى الحاضر

إن حال بلاد العرب السياسـية مضطربة فى الوقت الحاضر إضطرابا كبيرا ، وذلك نتيجة الحرب العالمية الكبرى وزوال سلطة الدولة العثمانية عن هذه البلاد . غير أنه يمكننا أن نقول فى تصوير الحال السياسـية العامة لبلاد العرب إن بها اليوم من الإمارات ما يأتى :

(١) الإمارة الزيدية فى القسم الجبلى من اليمن .

(٢) الإمارة الإدريسية فى أراضى الشافعية من تهامة اليمن وبعض تهامة عسير.

(٣) السلطنة السعودية الوهابية فى جميع نجد بما فى ذلك إقليم عسير .

(٤) الحكومة الهاشمية التى انحصرت فى جدّة .

(٥) إمارة آل الصباح بالكويت عند نهاية الخليج الفارسى .

(٦) مشيخة قطر .

(٧) مشيخة حضرموت وهى تحت الحماية الانجليزية .

(٨) سلطنة عمان المستقلة ويسكنها الخوارج الأباضية .

ولا يمكن القول بما ستؤول اليه الأحوال السياسية فى هذه البلاد، نسأله تعالى أن يوفق أهلها الى ما فيه جمع شملهم وتوحيد كلمتهم ورجوعهم كما كانوا فى صدر الإسلام إخوانا متحابين كمة فى نفوسهم إنه بالإجابة جدير .

فصـــل تاريخى موجز

فى حال العرب قبل الإسلام وقيام الدولة الإسلامية وآنتشار الدين الإسلامى

١ — كلمة فى العرب قبل الإسلام

الدول العربية قبل الإسلام — إن الجزيرة العربية التى سبق وصفها قد تناوب زعامتها من قديم الزمان ثلاثة شعوب سامية يطلق عليها جميعا آسم (العرب) ولا نعلم للأسف من تاريخها السابق على الإسلام غير اليسير المستمد من آثارهم التى كشفت حديثا ببلاد اليمن وبادية الشام، ثم مما رواه الرواة من أشعارهم وأخبارهم،

وما كتبه عنهم مؤرخو الأمم المتحضرة التى عاصرتهم وآتصلت بهم كالمصريين والإغريق والروم والفرس . تلك الشعوب الثلاثة هى :

(١) العرب البائدة — الذين عاصروا الكلدانيين القدماء ومنهم العمالقة بشمالى الجزيرة والشام ومصر ، وعاد بالأحقاف ، وثمود بالحجر ، وطسم وجديس باليمامة والأنباط بشمالى الجزيرة . هؤلاء العرب قد بادوا وآنقطعت أخبارهم ، غير أنا نعلم من القرآن وبعض الآثار أنهم كانوا على حضارة راقية ولا سيما إذا آعتبرنا ما يروى عن مدينتهم (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) وقد بقى ذلك الجيل حتى غلبه على أمره جيل عربى ثان يعرف :

(٢) بالعرب القحطانيــة نسبة إلى جدّهم قحطان — والراجح أنهــم نزحوا إلى جزيرة العرب من بعض جهات الفرات ، وكانت لهم باليمن دول آشتهرت منها «الدولة المعينية» و الدولة السبئية» (من حوالى ٨٥٠ إلى ١١٥ ق . م) و «دولة حمير» و «التبابعة» (١١٥ق . م — ٥٢٥ م) وقد برعت العرب القحطانية فى الزراعة لخصب أرضهم ، وفى التجارة لحسن موقع بلادهم من الوجهة الجغرافيــة ، فكانت عروض التجارة ترد اليهم من الشرق بطريق البحر ثم ينقلونها على ظهور الجمال إلى الشام ومصر . و برعوا كذلك فى الصناعة فدبغوا الجلود وطبعوا الســيوف وصنعوا الرماح وغير ذلك . وكان لهم حكومات وملوك ومدن كبيرة منها (مأرب) و (صنعاء) وقصور فخمة ، منها : (ناعط) و (غمدان) وسدود عظيمة يستعان بها فى خزن المـاء الزائد عن الحاجة زمن المطر لينتفع به وقت الحاجة اليه كسدّ مأرب . هذا ولا يزال علمـاء الآثار من الأوربيين يجدّون فى البحث عن آثار العرب القحطانية وربمـا أوضحوا فى المستقبل ما غمض من تاريخهم .

ولمـا ضعف شأن الدولة السبئية بعد القوة وأهملت مرافق الزراعة والصناعة تصدع سدّ مأرب ثم آنبثق فأهلك الحرث والنسل ، ولقــد أشار القرآن الكريم الى هــذا الحادث فى سورة سبإ فقال ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ

وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ[1] خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ وربما كان ذلك فى أواخر القرن الثانى الميلادى . فهاجر أكثر القبائل اليمنية من بلادهم وتفرقوا فى طول الجزيرة وعرضها . فكان منهم دولة المناذرة اللخميين التى قامت بالحيرة بالعراق وكانت خاضعة لأكاسرة الفرس (٢٦٨ م — ٦٣٢ م) ودولة الغساسنة التى قامت ببادية الشام وفلسطين وكانت خاضعة لأمبراطرة الروم (٢٠٠ — ٦٣٣ م) . ودولة كندة التى قامت بنجد وكانت مستقلة (٤٠٠ — ٥٦٠ م ؟) وخلف الدولة السبئية دولة أخرى هى دولة حمير والتبابعة فكانت لها العظمة والقوة ردحا من الزمن حتى آستولى الرومان على مصر وآتخذوا البحر الأحمر طريقا تجاريا إلى اليمن والشرق فساءت حالها لكساد تجارتها البرّية ، ونهض إليها الأحباش وتغلبوا عليها سنة ٥٢٥ م ، وبعد ذلك بقليل من الزمن زالت عنها سلطة الأحباش بفضل البطل العربى المشهور سيف ابن ذى يزن وحلت محلها سلطة الفرس . وكان ذلك كله سببا فى آنتقال الزعامة على بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال فأصبحت فى الجيل العربى الثالث المعروف :

(٣) بالعرب الإسماعيلية أو العدنانية — وهم أشهر الأجيال العربية لظهور الإسلام فيهم ، وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل — عليهما السلام — الذى نزل هو وزوجه هاجر وولدهما إسماعيل أرض مكة وحفروا بها بئر زمزم وبنوا الكعبة . ومن ذلك الحين أخذ اليمنيون يتوافدون على تلك البقعة ويعمرونها حتى نشأت مكة المكرمة . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله على لسان سيدنا ابراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ونشأ إسماعيل عليه السلام بين هؤلاء اليمنية (وخاصة قبيلة جرهم) وتزوج منهم ، وعلى مر

(١) ثمر مرّ بشع .

الزمن تكاثر أبناؤه وآنتشروا بالحجاز ونجد وما وراء ذلك من مشارف الشام والعراق، غير أنه بقيت منهم بمكة قبيلة كان لها فيما بعد شأن عظيم . تلك هي قبيلة قريش .

إمارة قريش بمكة — بقي أمر مكة بأيدي ملوك من جرهم . وكان لبني إسماعيل مكانة محترمة لما لأبيهم من بناء الكعبة . ولكن لم يكن لهم من الحكم شيء . فلما كان حادث سد مأرب وآرتحال القبائل اليمنية من ديارها كان منها من عرج على مكة وهم بنو خزاعة الأزديون فحاربوا جرهما وأجلوها عن مكة وآستبدوا بحكم مكة دون قريش حتى ظهر قصيّ بن كلاب حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى فجمع شتات قريش ووحّد كلمتهم فكان لهم بذلك قوة مكنتهم من أن يزاحموا خزاعة ويغلبوها على حكم مكة . ولم يبق بأيديهم غير سدانة البيت الحرام فآشتراها قصيّ بزق خمر من سادنه المعروف بأبي غُبْشَان وإلى ذلك يشير الشاعر بقوله :

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت — بزق خمر فبئست صفقة الشارى .

وبذلك أصبح قصيّ سيد مكة والمتولى شؤون الكعبة التى كانت تحج اليها العرب من جميع أنحاء الجزيرة فكان له من مظاهر الرياسة :

(١) رياسة دار الندوة التى أنشأها بمكة وكانت تجتمع فيها قريش للفصل فى أمورها العظيمة .

(٢) اللواء فكان لا تعقد راية الحرب إلا بيده .

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة فلا يفتح بابها إلا هو وهو الذى يلى أمر خدمتها .

(٤) سقاية الحاج ورفادته .

وكان لقصيّ من الولد، عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وكان عبد مناف قد ساد فى حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبد الدار وكان أسنّ منه، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش فلم ينازع عبد مناف أخاه فى ذلك، ولما توفى ترك أربعة أولاد، هاشما، وعبد شمس، والمطلب، ونوفلا، فنافسوا بنى عمهم عبد الدار فى هذه المصالح التى رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرتهم، وآفترقت

قريش طائفتين، طائفة تنتصر لبنى عبد مناف وطائفة تنتصر ابنى عبد الدار وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الفريقين وهو اقتسام هذه المصالح، فكان لبنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فى نصيبهم فأصابت القرعة هاشم بن عبد مناف .

وهاشم بن عبد مناف فيما يروى أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء وكانت فى اليمن ورحلة الصيف وكانت إلى الشام قصد الاتجار، وربما كان ذلك على أثر المعاهدات التى أبرمتها قريش على أيدى بنى عبد مناف مع من بجوارها من الملوك . روى الطبرى فى تاريخه أن بنى عبد مناف أول من أخذ لقريش العصم فانتشروا من الحرم . أخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام الروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشى الأكبر، فاختلفوا لذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلا من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير فاختلفوا بذلك الى اليمن . وقد امتن الله على قريش بهاتين الرحلتين فى قوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ وَٱلصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ .

الخلاف بين الهاشميين والأمويين — وكان ذلك الشرف كله لهاشم بن عبد مناف فأثار ذلك فيما يروى غيرة أمية بن عبد شمس وكان مثريا من المال والبنين ولكنه مع ذلك لم يكن له من رياسة قريش شىء . وجرت بين العم وابن أخيه منافرة غلب فيها أمية على أمره فكان ذلك بدء النزاع بين الهاشميين والأمويين .

فلما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب ثم من بعده ابنه عبد المطلب فى السقاية والرفادة، وتميز إمارة عبد المطلب بثلاث حوادث كبار :

(١) كشفه عن بئر زمزم التى كانت طُمَّت وخفيت معالمها .

(٢) تجدد النزاع بين الهاشميين والأمويين ، وذلك أن حرب بن أمية بن عبد شمس نفس على عبد المطلب شرفه ورياسته وجرت بينهما منافرة كالتى كانت بين أبويهما فغلب حرب على أمره ،وكذلك آستمر الخلاف بين الهاشميين والأمويين وكانت له فيما بعد آثار عظيمة فى الإسلام .

(٣) واقعة الفيل وكانت عام ٥٧١ م . وسببها أن أبرهة الحبشى لما أقام باليمن أنشأ بصنعاء كنيسة فخمة وأراد أن يكون حج العرب إليها دون الكعبة ، فلما لم يتيسر له ذلك من طريق السلم آعتزم أن يسير إلى الكعبة ويهدمها . غير أنه فشل فى ذلك كما نطق به القرآن فى سورة الفيل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (١) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٢) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ (٣) مَأْكُولٍ﴾ .

وقد رزق عبد المطلب عشرة أبناء كان أحدهم عبد الله الذى ولد له سيدنا محمد عام الفيل على أصح الروايات .

الحال الدينية للعرب قبل الإسلام — قد آختلفت أديان العرب فى جاهليتهم فمنهم الدهريون الذين قالوا : ما يهلكنا إلا الدهر، ومنهم الصابئة عبدة النجوم والكواكب ، ومنهم الوثنيون عباد الأصنام والأحجار والأشجار . ومنهم اليهود والنصارى . غير أن عبادة الأصنام كانت الغالبة عليهم وكانت الكعبة مجمع أصنامهم . ومن أشهر أصنام العرب ، ود ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، واللات ، والعزى ، ومناة ، وهبل ، والخلصة وقد ورد ذكر كثير منها فى القرآن الكريم .

تلك الحال الدينية قد تغيّرت بعض الشىء قبيل الإسلام إذ ظهر فى حواضر الجزيرة آحاد من العرب لم تطب نفوسهم عن ذلك الضرب من التعبد ورأوا أن هناك حقيقة غابت عنهم أوهم ضلوا عنها . روى ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحاق أن قريشا اجتمعت يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم فخلص منهم أربعة نفر نجيا

(١) جماعات جماعات . (٢) طين متحجر . (٣) العصف : ورق الشجر .

هم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو، فقال بعضهم لبعض (تعلموا والله ما قومكم على شيء . لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ . يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء) فتفرقوا فى البلدان : فأما ورقة بن نوفل فآستحكم فى النصرانية وأما عبيد الله فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم آرتدّ . وأمّا عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر وتنصر . وأما زيد بن عمرو فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه . هذه الحركة تبين لنا ما كان وقتئذ فى نفوس العرب من استعداد لقبول دين يلائم الفطرة كالدين الإسلامى .

ممـا تقدّم كله نعلم أنه لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة واحدة تؤلف بينهم . فأما من الوجهة الدينية فقد رأينا تعدّد نحلهم . وأما من الوجهة السياسية فقد كان منهم الخاضع للفرس كأهل اليمن أولا ومناذرة الحيرة أخيرا، أو للروم كغساسنة بادية الشام، ومنهم من لم يخضع لحكومة أجنبية وهم سائر العرب . على أنه قد كانت لهم أمور عصمتهم من التدابر المطلق : منها إجماعهم على تعظيم الكعبة واختصاصهم قريشا بسدانتها واحترامهم للأشهر الحرم واشتراكهم فى إقامة الأسواق العامة التى كانوا فيها يتبايعون و يتحاكمون و يتناشدون الشعر وذلك مثل سوق عكاظ وغيره .

و إنما الرجل الذى قام بجمع شتات العرب وجعل منهم أمة واحدة ذات دين واحد وحكومة واحدة وعصبية واحدة هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد المرسلين وخاتم النبيين .

٢ — قيام الدولة الإسلامية وامتداد سلطانها

نشأة محمد عليه الصلاة والسلام — ولد نبينا — كما سبقت الإشارة بمكة عام الفيل سنة ٥٧١م من أبوين قرشيين هما عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وآمنة بنت وهب بن عبد مناف . وقد توفى أبوه قبيل مولده وأمه قبل أن يبلغ السادسة

وجده وهو فى الثامنة فأصبح فى كفالة عمه أبى طالب . غير أن فقر عمه دفعه الى العمل والارتزاق . وكان فى مكة أرملة من فضليات النساء ذات ثروة ويسار . تلك هى (خديجة بنت خويلد) فلما رأت أمانة محمد عرضت عليه أن يسافر الى الشام للاتجار بمالها ففعل فأعجبت به وعرضت عليه أن يتزوجها فقبل ذلك وقد بلغ الخامسة والعشرين . فلما بلغ الأربعين من عمره أرسله الله رحمة للعالمين فأخذ يذيع أصول الدين الإسلامى ويدعو اليه خاصته فآمنت به زوجته خديجة وابن عمه على بن أبى طالب وصدقه أبو بكر بن قحافة وأفراد غيرهم من كبار قريش . ثم كثر سواد المسلمين . غير أن قريشا شق عليها ترك دينها وتسفيه أحلامها فناصبت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العداء وتمادوا فيه حتى اضطر بعض أصحابه الى الهجرة الى الحبشة فنزلوا على ملكها ضيوفا كراما واضطر النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الى الهجرة من مكة الى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته وكان قد أصبح له بالمدينة أنصار من أهلها اعتنقوا الإسلام وعرضوا عليه نصرتهم . وقد هاجر النبي الى المدينة واتخذها مستقرا له فكانت أول عواصم الإسلام .

فتح بلاد العرب ٢ — ١١ هـ — وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم منذ هاجر الى المدينة سلسلة غزوات كانت بينه وبين أعدائه من يهود المدينة وقريش مكة وسائر القبائل العربية وانتهت بأن عم الإسلام جزيرة العرب، ونحن نذكر أهم هذه الغزوات على سبيل الإجمال .

غزوة بدر سنة ٢ هـ — بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن عيرا لقريش آتية من الشام وعليها أبو سفيان بن حرب فأراد أخذها فنهضت قريش لحمايتها . والتقى الجمعان قريبا من المدينة على ماء بدر فى ١٧ رمضان سنة ٢ هـ . فانتصر المسلمون على قلة عددهم وكثرة عدوهم وقتلوا جمعا من صناديد قريش فيهم (أبو جهل بن هشام) ألد أعدائه عليه الصلاة والسلام . ومعركة بدر من معارك التاريخ الفاصلة، فقد اعتز بها الإسلام وقوى شأن المسلمين كما سترى .

وعلى أثر واقعة بدر خرج النبي صـلى الله عليه وســلم الى بنى قينقاع وهم قبيلة يهودية بالمدينة قد نقضت عهدها مع النبي وآذت المسلمين فأخرجها من المدينة .

غزوة أحد سنة ٣ هـ — صممت قريش على الثأر لنفسها ممن انتصر عليها فى واقعة بدر . فخرجت بقيادة أبى سفيان تريد المدينة فخرج اليهم النبى صـلى الله عليه وسلم عام ٣ هـ . والتقى بهم عند جبل أحد وكاد النصر يكون للمسلمين، لولا أن بعض أصحاب النبي صـلى الله عليه وسـلم خالف أمره فانكشف المسلمون وحمل عليهم من خلفهم خالد بن الوليد حملة شديدة اضطرت كثيرا من المسلمين الى الفرار، وجرح النبي صـلى الله عليه وسـلم يومئذ وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا أن قريشا اكتفت بأن قتلت من المسلمين بقدر من قتلوا منها فى واقعة بدر وثنت الأعنة راجعة الى مكة . وعلى أثر تلك الواقعة علم النبي صلى الله عليه وسلم أن يهود بنى النضير يأتمرون بقتله فخرج اليهم وأخرجهم من المدينة الى خيبر (١) .

غزوة الخندق سنة ٥ هـ — وتعرف أيضا بغـزوة الأحزاب، لأن كثيرا من قبائل العرب ويهود خيبر ظاهروا فيها قريشا وساروا جميعا الى المدينة يريدون القضاء على الإسـلام والمسلمين وحاصروا المدينة ولكنهم لم يستطيعوا أخذها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حصنها وحفر حولها بإشارة سلمان الفارسى خندقا عميقا . وكان القتال فى تلك الغزوة قاصرا على المبارزة الفردية والترامى بالنبل . وأخيرا اجتمعت على الأحزاب سياسـة النبي صلى الله عليه وسـلم التى فرقت ألفتهم ومطر وريح وجنود سلطها الله عليهم، فكانت تكفأ قدورهم وتقلب أخبيتهم فارتدوا عن المدينة ولم يبلغوا مراما .

صلح الحديبية سنة ٦ هـ — وأقام النبي صلى الله عليه وسـلم بالمدينة الى ذى القعدة من السنة السادسـة للهجرة، ثم خرج يريد مكة معتمرا لا محاربا وسار حتى بلغ (الحديبية) وكانت قريش قد سمعت بقدومه فتأهبت للذود عن بلدها، وبعد

(١) وسيأتى تفصيل هذه الغزوة عند الكلام عن زيارتنا لأحد .

أخذ ورد عقد الفريقان الصلح على أن يكون بينهما هدنة لمدة عشر سنوات ، وعاد المسلمون من غير أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت .

وبتلك الهدنة أمن المسلمون شر قريش وأصبحوا مطلق الحرية يروحون ويجيئون كيف شاءوا وعظم نفوذ النبي صلى الله عليه وسلم . فكتب الى ملوك الدول المجاورة لبلاد العرب يدعوهم الى الإسلام ، فمنهم من أسلم كنجاشي الحبشة ومنهم من ردّ ردّا جميلا كهرقل قيصر الروم والمقوقس حاكم مصر — أنظر كتابه صلى الله عليه وسلم

كتاب النبي عليه السلام للمقوقس

A copy of the letter of the prophet Mohammad to El Mokawkas.

صورة كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعث به للمقوقس عظيم القبط في السنة السابعة للهجرة
مع حاطب بن أبي بلتعة ... وجد نفس الكتاب بعض سياح الإفرنج
[illegible] فطلبه [illegible] رهبان القبط بدير
أخميم [illegible] مصر [illegible] إلى السلطان عبد المجيد خان العثماني وأعطاه
[illegible] والنبوة [illegible] ونقلت هذه الصورة [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله
ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام
على من اتبع الهدى أما بعد فإني
أدعوك بدعاية الإسلام أسلم
تسلم يؤتك الله أجرك مرتين
فإن توليت فعليك إثم القبط
يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة
سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا
بعضا أربابا من دون الله فإن
تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مس
لمون

الله
رسول
محمد

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى
أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت
فعليك إثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا
ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون محمد رسول الله

(رســم ٣٢٠)

الى المقوقس رسم ٣٢٠ — ومنهم من ردّ ردّا قبيحا وأهان رسول النبي ، كالحارث ابن شمر الغساني وكسرى الفرس .

فتح خيبر سنة ٧ هـ — على أن المسلمين ، وان كانوا قد أمنوا شر قريش بصلح الحديبية ، كان لهم عدوّ بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر . ذلك العـدو هو يهود خيبر الذين لم ينسوا ما حل بهم و بإخوانهم . فسار اليهم النبي عليه الصلاة والسلام ونازل حصونهم واستولى عليها كلها .

ولما حان الحول على عمرة الحديبية ، خرج النبي صلى الله عليه وسـلم معتمرا فأخلت قريش مكة على حسب شرطها فى صلح الحديبيـة . وقضى النبي صلى الله عليه وسـلم وأصحابه مناسك الحج ثم عاد الى المدينة . وكان لتلك الحجة أثر كبير فى نفوس قريش ، حتى إن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما دخلوا فى الإسلام على أثرها .

فتح مكة سنة ٨ هـ — كان صلح الحديبية يقضي بأن يسود السـلم بين المسلمين وقريش عشر سنوات ، ولكن قريشا نقضت عهدها واعتدت على بعض أحلاف النبي صلى الله عليه وسلم ، فسار النبي صلى الله عليه وسلم فى أصحابه معتزما فتح مكة . وخرج أبو سفيان يتجسس الأخبار فظفرت به جنود النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه إلا أن يسلم ، وعنـد ذلك منحه النبي من العفو ما لم يكن يطمع فيه وخلى سبيله . فعـاد أبو سفيان الى مكة وحمل أهلها على الاستسلام لمن لا يستطيعون مناهضته . فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تلك البلدة التى طالما جاهدته وآذته وكان بوسعه أن ينتقم منها أشـدّ الانتقام ، ولكنه عفا عن أهلها وقال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم سار الى الكعبة فكسر ما حولها من الأصنام . وقد أعقب ذلك أن أسلم أهل مكة جميعا .

غزوة حنين سنة ٨ هـ — فلما رأت ذلك قبيلة هوازن، وكانت منازلها بالقرب من مكة، توقعت أن يغزوها النبي صلى الله عليه وسلم فأجمعت على أن تغزوه قبل أن يغزوها، وانضمت اليها ثقيف وقبائل أخرى . فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك سار اليهم والتقى بهم فى وادى حنين فى طريق وعرة . فبغته العدو وكادت الهزيمة تدور عليه، لولا ثباته وشجاعة الأنصار فإنهم أعادوا الكرة على الأعداء وهزموهم وغنموا أسلابهم .

غزوة تبوك سنة ٩ هـ — كان النبي صلى الله عليه وسلم فى سنة ٨ هـ قبل فتح مكة قد أرسل جيشا بقيادة زيد بن حارثة، الى عرب بادية الشام فتكاثرت الروم والعرب على ذلك الجيش وقتل زيد بن حارثة، ولولا تدبير خالد بن الوليد لأبيد الجيش كله . فلما كان عام ٩ هـ . بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الروم يجمعون له لحشد جيشا جرارا تبلغ عدته ثلاثين ألف مقاتل واتجه به نحو الشمال . على أنه لم يلتحم بالروم بل بسط نفوذه على القبائل العربية الشمالية، بأن فرض الجزية على (آيلة) و (دومة الجندل) وغيرهما، ثم عاد وكانت هذه آخر غزواته عليه الصلاة والسلام .

وفى ذلك العام أخذت العرب تدخل فى دين الله أفواجا وكثرت الوفود على النبي صلى الله عليه وسلم قادمة من جميع أنحاء الجزيرة العربية، فكان عليه الصلاة والسلام يرسل معهم من أصحابه من يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين .

حجة الوداع و وفاته عليه الصلاة والسلام — ولما كانت السنة العاشرة حج النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه آخر حجة له، وخطب الناس فى هذه الحجة خطبة بليغة مؤثرة تعرف (بخطبة الوداع) أوضح للناس فيها كثيرا من أمور الدين وألقى عليهم فيها من النصائح الغالى الثمين، وقد تقدمت الحجة بالتفصيل وسيأتى نص الخطبة . ثم عاد الى المدينة المنورة .

وفى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة اعتلت صحته عليه السلام فاستأذن نساءه فى أن يمرض فى بيت زوجته السيدة (عائشة) فأذن له . ولما كان

يوم الاثنين ١١ ربيع الأول من سنة ١١ هـ . لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد خلف وراءه دينا يساير الفطر والعقول هو الدين الإسلامى، وأمة بالمعنى الصحيح هى الأمة العربية ووضع أساس دولة سيكون لها شأن عظيم هى الدولة الإسلامية.

٣ ــ انتشار الدين الإسلامى بالسياسة

الحرب بين العرب وبين الروم والفرس

مقدّمة ــ وضع النبي عليه الصلاة والسلام أساس الدولة العربية، وفى الأرض دولتان كبيرتان هما دولة الروم المسيحية ودولة الفرس المجوسية . فأما دولة الروم فكانت قد أصابها الضعف وتفرق الكلمة ، لضعف امبراطرتها من بعد جستنيان وللنزاع الدينى الذى كان قائما بين الملكانية والنساطرة بالشام، وبين الملكانية واليعاقبة بمصر . هذا النزاع قد فصل فى الحقيقة هذين القطرين عن الدولة الرومانية من الوجهة الدينية وجعلهما على وشك الانفصال عنها من الوجهة السياسية .

وأما دولة الفرس التى كان يحكمها المتأخرون من ملوك الأسرة الساسانية فلم تكن حالها خيرا من حال الدولة الرومانية، وذلك لأسباب كثيرة منها ظهور نحل دينية غريبة مفسدة للنظم الاجتماعية، وضعف المتأخرين من ملوك الأسرة الساسانية، وكثرة الطامعين فى ملكهم من أقربائهم وقوّاد جيوشهم، وحروبهم الكثيرة مع الدولة الرومانية .

تلك حال الدولتين اللتين اصطدمت بهما الدولة العربية الناهضة فزعزعت أركان الأولى وقوّضت دعائم الثانية، وذلك أن أبا بكر الصديق أوّل خلفاء الإسلام بعد أن قضى على حركة (الردّة) التى ظهرت فى جزيرة العرب قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وأعاد الى هذه الجزيرة وحدتها السياسية، انتهز عودة الجيوش العربية الظافرة فسير بعضها الى الشام والبعض الآخر الى العراق لفتح بلاد هى عربية قبل

كل شيء، ألا وهي بلاد الغساسنة والمناذرة ، ولكن القتال مع هؤلاء ترقى بطبيعة الحال الى قتال مع الدولتين الحاميتين لهم أى مع دولتى الروم والفرس . ونحن متكلمون أولا على الحروب التى نشبت بين العرب والروم وانتشار الإسلام فى الشام ومصر وشمالى أفريقية وأسبانيا . ثم نعود فنتكلم على نشوب الحرب بين العرب والفرس وانتشار الإسلام فى الأقطار الأسيوية التى دخلها الإسلام قرين السياسة .

(ا) فتح الشام

سيّر أبو بكر الصديق الى الشام جيشا ضخما تبلغ عدّته ٣٥٠٠٠ مقاتل، وكان أربعة أقسام :

(١) قسم يقوده أبو عبيدة بن الجراح وكانت وجهته حمص .

(٢) وقسم يقوده يزيد بن أبي سفيان وكانت وجهته دمشق .

(٣) وقسم يقوده شرحبيل بن حسنة وكانت وجهته وادى الأردن .

(٤) وقسم يقوده عمرو بن العاص وكانت وجهته فلسطين .

واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ — فلما رأى ذلك هرقل امبراطور الروم قدم بنفسه الى حمص، ومن ثم وجه أربعة جيوش تبلغ عدّتها ٢٤٠٠٠٠ مقاتل لسحق الجيوش العربية . فلما رأى قوّاد العرب ذلك اتفقوا فيما بينهم على أن يجمعوا جيوشهم فى صعيد واحد وأن ينزلوا جميعا اليرموك . فأمر هرقل قوّاده أن ينزلوا اليرموك أيضا وبقى الجمعان متواقفين ثلاثة أشهر، فأوجس أبو بكر فى نفسه خيفة على المسلمين وأمر خالد بن الوليد بالسير من العراق الى الشام، فقدم خالد وعهد اليه قوّاد العرب أمر القيادة، فعبّأ الجيوش تعبئة قائد خبير ثم حمل على الروم فهزمهم وأفنى أكثر جيشهم وانتصر العرب انتصارا مبينا . وفى أثناء المعركة جاء البريد بوفاة أبى بكر وتولى عمر بن الخطاب وعزل خالد عن القيادة العليا وجعلها لأبى عبيدة، وذلك لأمور كان ينقمها عمر من خالد .

وكانت واقعة اليرموك فاصلة فى أمر الشام، فقد استولى أبو عبيدة وخالد بعدها على دمشق وعلى مدن الساحل وكذلك حمص واللاذقية وقنسرين وحلب، واضطر هرقل أخيرا الى الفرار الى القسطنطينية .

فتح القدس سنة ١٥ هـ — وفى أثناء ذلك كان عمرو بن العاص يجد فى فتح فلسطين . وكان أرطبين حاكم فلسطين قد بث الجند فى بيت المقدس وغزة والرملة، ورابط بجيشه فى أجنادين شرقى بيت المقدس . ففصل عمرو فصائل من جيشه لمراقبة تلك الجنود ، ثم زحف بمعظم الجيش الى أرطبين فهزمه عند أجنادين واضطره الى الفرار الى مصر . واستولى عمرو عقب الواقعة على مدن الساحل الفلسطينية . وأما بيت المقدس فحاصره أربعة أشهر وأبى بطريقه (سترونيوس) أن يسلم المدينة لأحد غير الخليفة نفسه . فجاء عمر فلسطين وتسلم المدينة وابتنى بها مسجده المشهور .

(ب) فتح مصر والنوبة

عند ما قدم عمر بن الخطاب الى بيت المقدس لتسلمه سنة ١٥ هـ . اقترح عليه عمرو بن العاص أن يبعثه بجيش لفتح مصر فلم يجبه عمر الى ذلك . فلما كان عام ١٨ هـ . واضطربت حال الشام عقب طاعون (عمواس) قدم عمر الى دمشق فأعاد عمرو اقتراحه . وقد أجابه الخليفة هذه المرة وهو متخوف متردد . ومن الحجج التى أدلى بها عمرو تبريرا لما طلب : (١) أن مصر مضطربة الحال مفتحة الأبواب؛ (٢) أنها غنية جدا؛ (٣) أن أرطبين الذى كان حاكم القدس قد لجأ اليها وأخذ يحشد الجنود ليسترد الشام .

زحف عمرو على مصر — غادر عمرو قيسارية على رأس ٤٠٠٠ مقاتل وبلغ العريش سنة ١٨ هـ . ثم سار منها الى الفرما فاستولى عليها من غير جهاد كبير وجردها من معدات دفاعها، ثم سار الى بابيس ملتزما حدود الصحراء فلما بلغها قاتل

الروم عندها وقتل قائدهم أرطبين واستولى على البلد، ثم تركها الى قرية أم دنين الواقعة على رأس الدلتا[1] .

واقعة عين شمس سنة ٢٠ هـ — على أن عمرا أدرك حرج موقفه فأرسل الى الخليفة يستمدّه وشغل جنده فى أثناء ذلك بغزو الفيوم، فلما جاء المدد وقدره ٤٠٠٠ مقاتل عسكر بجميع جنوده شمالى عين شمس ثم التقى بالروم فى واقعة عين شمس المشهورة وهزمهم هزيمة كان من أثرها سحق الجيش الرومانى والاستيلاء على الإقليم المسمى مصر الواقع عند رأس الدلتا وإتمام إخضاع الفيوم والشروع فى حصار حصن بابليون .

أخذ حصن بابليون سنة ٢٠ هـ — وكان المقوقس رئيس بطركية الإسكندرية فى ذلك الوقت داخل الحصن وكانت له مآرب سياسية يودّ الوصول إليها بكل الوسائل، فأخذ ييئس الروم من الانتصار على العرب واستطاع أن يبعث وفدا الى جزيرة الروضة لمفاتحة العرب فى أمر الصلح فلم يفلح الوفد أولا، ثم عقد الصلح أخيرا على أن يؤدّى الروم للعرب الجزية، وكتب المقوقس معاهدة بذلك وبعث بها إلى هرقل ليقرّها . فدهش الامبراطور لذلك ولم يقرّ المعاهدة بل استدعى المقوقس الى القسطنطينية، فلما رأى العرب ذلك واصلوا الحصار وبيناهم كذلك اذ بلغهم موت هرقل فكان ذلك مثبطا للرومان مقويا للعرب، وتسوّر الزبير بن العوّام الحصن وتبعه الجند، فاستسلمت الحامية الرومانية لهم .

فتح الاسكندرية سنة ٢١ هـ — وعلى أثر ذلك شرع عمرو فى الزحف الى الإسكندرية فالتقى بالروم فى طريقه اليها عند دمنهور، فهزمهم فى واقعة كبيرة انحاز بعدها الجيش الرومانى الى الإسكندرية واقتفى العرب أثرهم . وكانت الإسكندرية اذ ذاك مدينة عظيمة حصينة بها نحو ٥٠٠٠٠ مقاتل وكانت فوق ذلك مفتوحة من ناحية البحر . لذلك ترك عمرو بظاهرها جيشا يحاصرها ثم سار هو لفتح المدن

(١) وموقعها الآن ما بين الأزبكية وعابدين .

الساحلية . وفى أثناء ذلك عاد المقوقس الى الاسكندرية وأخذ يعمل على إنفاذ مآربه القديمة . وقد أفلح سعيه هذه المرة اذ أقنع الامبراطور الجديد بضرورة تسليم الاسكندرية . ثم شرع يفاوض عمرو بن العاص فى شأن الصلح والتقى به فى بابليون وعقدا معاهدة تقضى بأن تؤدى الجزية للمسلمين وأن تجلو الجيوش الرومانية عن الاسكندرية والا يتدخل المسلمون فى الشؤون الدينية المسيحية وأن يسمح لليهود بالاقامة بالاسكندرية مع شروط أخرى . وبمقتضى هذه المعاهدة دخل العرب الاسكندرية وتمّ لهم الاستيلاء على مصر . ثم غزوا على أثر ذلك بلاد النوبة وصالحوا ملكها على جزية يؤدّيها لمصر كلّ عام .

(ج) فتح بلاد المغرب

لم يكد عمرو بن العاص يفرغ من مصر حتى شرع فى الزحف غربا وقد تم له فتح الاقليم المعروف ببرقة ثم صار ولاة مصر من العرب من بعده يعملون على إخضاع بلاد المغرب و إدخال الإسلام فيها فكانوا يلقون فى ذلك عناء عظيما وذلك لوعورة أرض المغرب وتنائيها عن المشرق ولاستبسال البربر فى القتال زمن الحرب وعدم إخلادهم الى الهدوء زمن السلم ولأن الروم كانوا يساعدون البربر احتفاظا بسلطانهم فى تلك البلاد بعد أن زال سلطانهم عن الشام ومصر . هذه الصعاب كلها جعلت الإسلام يسير فى بلاد المغرب سيرا بطيئا بل جعلته أحيانا يرجع القهقرى . كما حدث عند ما تجمع الروم والبربر على عقبة بن نافع وقتلوه هو ومعظم جيشه سنة ٦٢ هـ . وعند ما ثاروا بزهير بن قيس البلوى وقتلوه ، وعند ما قامت الكاهنة (دهياء) والتفّ البربر حولها (٧٤ — ٧٩ هـ) على أن البربر نزلوا أخيرا على حكم العرب عند ما عهد أمر إخضاعهم الى القائد الكبير موسى بن نصير فإنه قمع فتنتهم ونشر فيهم الإسلام .

(د) فتح الأندلس

بعد أن تمّ لموسى بن نصير أمر المغرب ولى على طنجة وما حولها مولاه طارق ابن زياد وعاد هو الى القيروان عاصمة المغرب لذلك العهد . وكانت حال الأندلس

فى ذلك الوقت مختلة معتلة لضعف الحكومة القوطيـة التى كانت تحكمها . فطمع طارق فى فتحها فعبر الزقاق (مضيق جبل طارق) بإذن موسى سنة ٩٢ هـ . ونزل بشاطئ أسبانيا الجنوبى والتحم بالقوط يقودهم ملكهم (رذريق) فى معركة عظيمة على النهر المعـروف بوادى بكة . فهزمهم واسـتولى على المدن الأندلسية الجنوبية ثم سار الى طُليطُلة عاصمة الدولة القوطية واستولى عليها . وعند ذلك التحق به موسى ابن نصير ليفوز بشرف الفتح وسار القائدان العظيمان معا يفتحان مدن الأندلس حتى بلغا جبال البرانس وبذلك أصبحت أسبانيا (ما عدا الجـزء الشمالى الغربى) يخفق عليها علم الدولة الإسـلامية . وقد أتيح لتلك الأرض أن تقوم بهـا للسلمين دولة عظيمة هى الدولة الأموية الأندلسية وحضارة رائعة يذكرها التاريخ بكل إعجاب .

(هـ) قيام البحرية الإسلامية وفتح أكبر جزائر البحر الأبيض المتوسط

كان الباعث للعـرب على إنشاء الأساطيل البحرية خوفهم من غارات الروم على الشام ومصر من ناحية البحر . وقد أنشأ معاوية بن أبى سفيان أيام ولايته على الشام لعثمان بن عفان أسطولا لهذ الغرض وجعل عليه عبد الله بن قيس الحارثى . وقد فتح هـذا الأسطول جزيرة قبرس وساعده فى ذلك الأسـطول المصرى يقوده عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

واستولى المسلمون بمرور الزمن على أهم جزائر البحر الأبيض المتوسط . ففى عام ٢١٠ أخرج عبـد الله بن طاهر والى مصر مهاجرة الأندلس من الاسكندرية الى اقريطش (كريت) بعد أن زودهم بالمـال والسلاح فساروا اليها وافتتحوها ونشروا فيها الاسلام . وافتتح المسلمون جزائر البليار عند فتحهم أسبانيا فى أواخر القرن الأول الهجرى . وكذلك افتتحت الدولة الأغلبية التى كانت حاكمة تونس (١٨٤ — ٢٩٦هـ) جزيرة صـقلية وجنوبى إيطاليا فكان ذلك سببا فى قيام حضارة إسـلامية بصقلية

لا يزال بعض آثارها ماثلا الى اليوم . فلما ظهر الترك العثمانيون استولوا على رودس وكثير من جزائر بحر الأرخبيل وأدخلوا فيها الإسلام .

(و) فتح العراق (١٢ — ١٤ هـ)

كانت وقائع خالد بن الوليد وغيره من قواد العرب مع المرتدين فى اليمامة والبحرين يتطاير شررها الى القبائل العربية النصرانية النازلة ببادية العراق والمحتمية بالحكومة الفارسية فكانت خيل لا تخلو من قتال بين الفريقين . هـذا هو السبب القريب فى قيام الحـرب بين العرب والفرس غير أنه كان ثمـة سببان جوهريان لهـذه الحرب هما رغبة أبى بكر فى نشر الاسلام وشـغل العرب بالجهاد بعد حروب الردّة . لذلك أمر خالد بن الوليد بعـد انتهائه من واقعة اليمامة أن يسير الى العراق وينضم بجيشـه الى جيش المثنى بن حارثة الذى كان يقاتل فى البحرين . وكذلك أمر عياض بن غنم أن يلحق بهما . فجتمع جيشا خالد والمثنى وكانت عدتهم نحوا من ٢٠,٠٠٠ مقاتل والتقى خالد بالفـرس فى وقعة (الحفـير) فكان النصر لخالد . وقد أثار ذلك الانتصار عصبية بكر وتغلب النازلتين غربى الفرات وبعثهما على طلب الثأر لمن قتل خالد منهم . وانضم اليهم كثير من الجند الفارسى . فلما علم بذلك خالد سار اليهم والتقى بهم فى وقعة (أليس) وانتصر عليهم بعد قتال عنيف .

وزحف خالد بعد ذلك الى الحيرة عاصمة المناذرة فاستسلمت اليه بشروط معينة ثم ذهب لنجدة عياض بن غنم عند دومة الجندل فاستولى على هذه البلدة وعاد الى الحيرة والتقى بتغلب والفـرس فى وقعة الفراض وانتصر عليهم . ثم خرج الى الحج خفية وعاد ولم يشعر جنده بذلك . فلما علم أبو بكر بحجه هـذا عتب عليه وأمره بأن يتوجه بنصف الجيش الى الشام حيث كان المسلمون مرابطين باليرموك كما تقدّم القول فأطاع خالد واستخلف على بقية جيش العراق المثنى بن حارثة .

واقعة القادسية سنة ١٤ هـ — رأى المثنى بن حارثة بعـد ارتحال خالد قلة جنده وحرج موقفه فخف الى المدينة ليخبر أبا بكر بحقيقة الحال فوجده فى مرضه

الأخير . فلما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كان أول ما عمله أن نفذ مشيئة أبى بكر فأرسل مددا الى المثنى يقوده أبو عبيدة بن مسعود الثقفى . فانتصر أبو عبيدة فى أول الأمر على الفرس ولكنه خالف نصيحة القائد المجرب المثنى بن حارثة فاشتبك مع الفرس فى واقعة الجسر التى انتهت بقتله وفناء معظم جيشه . فلما بلغ الخليفة ذلك جدّ فى إرسال الجند الى العراق . أما المثنى فتراجع الى حدود الصحراء واستمد من يليه من القبائل العربية النصرانية فأمدّوه عصبية منهم لإخوانهم العرب واشتبك مع الفرس فى واقعة البويب فكان النصر له عليهم .

فى ذلك الوقت تولى على الفرس شاب حمى هو يزدجرد آخر آل ساسان فعزم على طرد العرب من بلاده وساق على العراق ١٢٠,٠٠٠ مقاتل يقودهم قائده رستم . فرأى المثنى أن لا قبل له بلقاء ذلك الجيش الجرار وتراجع مرة أخرى الى الصحراء ريثما ترد عليه النجدة من المدينة . ولكنه لم يمدّ له فى عمره حتى يرى آثار إخلاصه وحسن بلائه فقد توفى بعد قليل من الزمن من جراح أصابته فى واقعة الجسر .

ومن حسن حظ الجيش العربى أن أدركته النجدة يقودها سعد بن أبى وقاص . رابط سعد فى سهل القادسية بجيش يبلغ (مع مدد جاء من الشام أثناء القتال) ٤٠,٠٠٠ مقاتل . وكان الجيش الفارسى حياله على الجانب الشرقى للفرات . وظل الجيشان متوقفين مدة طويلة حتى نفد صبر يزدجرد وأمر رستم ببدء القتال فعبر رستم الفرات ونشب بين الفريقين قتال عظيم دام ثلاثة أيام ثم انجلى عن انتصار باهر للعرب . وكانت تلك الواقعة فاصلة فى شأن العراق فانها استتبعت ارتجاع الحيرة وما والاها من المدن التى كانت سقطت فى أيدى الفرس ثم الزحف الى المدائن عاصمة الفرس وأخذها . كذلك كان من نتائجها فرار يزدجرد واستيلاء العرب على الأرض الواقعة جنوبى الموصل وقرقيسياء . وعند ذلك أمر الخليفة سعدا ألا يتابع الفتح واكتفى من بلاد الفرس بالعراق . فاتخذ سعد المدائن مقرّا له وشرع ينظم شؤون الحكومة الجديدة . غير أن غارة من الفرس على العرب كانت السبب فى واقعة

جلولاء التى استولى بها العرب على حلوان . وفر يزدجرد الى الرى وأصبحت جبال زجروس حدّا فاصلا بين العرب والفرس .

(ز) فتح فارس

واقعة نهاوند سنة ٢١ هـ — على أن عمر بن الخطاب اضطر لأن يأذن للعرب بمناجزة الفرس لتوالى غارات هؤلاء عليهم . فأمر سعد بن أبى وقاص أن يسيّر الجنود بقيادة النعمان بن مقرّن لقتال الفرس فالتقى النعمان أخيرا بالفرس قرب نهاوند وانتشب بين الفريقين قتال عنيف قتل فيه النعمان بن مقرّن فقام مكانه حذيفة ابن اليمان فحمل على الفرس وهزمهم شر هزيمة .

وكانت هذه الواقعة فاصلة فى شأن فارس اذ استتبعت استيلاء العرب على همذان والرى كما استتبعت فرار يزدجرد الى ماوراء النهر (حيث توفى فى خلافة عثمان) ثم أمر عمر ففتح العرب الأقاليم الفارسية التى لم تكن فتحت .

(ح) فتح أواسط آسيا ودخول الإسلام فيها

حدث فى فارس بعد وفاة عمر بن الخطاب خروج عام على العرب فأمر عثمان والى البصرة عبد الله بن عامر بأن يقمع هذه الثورة ، فقام ابن عامر بذلك سنة ٣١ هـ . ثم تابع الزحف متجها شمالا بشرق فاستولى على أكبر مدن خراسان وهى نيسابور ومرو وسرخس وبلغ بلخ وطخارستان . فلما كان عصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فتح العرب الاقليم المسمى « ما وراء النهر » (٨٦—٩٦ هـ) وكان فتحه على يد قتيبة بن مسلم عامل خراسان ، فاستولى على بخارى سنة ٨٨ هـ . وسمرقند سنة ٩٢ هـ . وبلغ حدود الصين سنة ٩٦ هـ . وأصبح الإسلام دين أهل تلك البلاد وزهت بها المدنية الاسلامية زهاء عظيما .

(ط) فتح الهند وانتشار الإسلام فيها

قد بلغ العرب فى فتوحهم الاسلامية الأولى جهات الهند الشمالية ولكنهم لم يستقروا بها ولا استداموها إقليما تابعا لهم . فلما كانت ولاية الحجاج على العراق والمشرق وجه الى الهند محمد بن القاسم سنة ٩٢ ﻫ . لفتحها ونشر الاسلام فيها . فسار ابن القاسم فى جيش لا يزيد عن ١٠,٠٠٠ مقاتل ففتح السند والبنجاب ، ووقف الفتح العربى عند هذا الحدّ لاضطراب أمر بنى أمية وظل إقليم السند زهاء قرنين من الزمان يحكمه أمراء من العرب .

على أن الفتح الحقيقى لبلاد الهند ونشر الاسلام فيها إنما جاء على أيدى أتراك خراسان لا عرب الجزيرة . وقد قام بذلك العمل الجليل أربع دول تاريخها فى الحقيقة متصل غير منفصل الأولى الدولة الغزنوية التى حكمت بلاد الأفغان والبنجاب (٣٥١ — ٥٨٢ ﻫ) وكان أكثر رجالها جدّا فى فتح الهند محمود بن سبكتكين . الثانية الدولة الغورية التى حكمت بالأفغان و بلاد الهند (٥٤٣ — ٦١٢ ﻫ) وقد دان لها سهل الهندستان كله . الثالثة دولة سلاطين دهلى (٦٠٢ — ٩٦٢ ﻫ) وكان مقر حكومتها بالهند نفسها لا خارجها كما كانت الحال من قبل . الرابعة دولة المغول بالهند كلها (٩٣٢ — ١٢٧٥ ﻫ) وقد انبسط سلطانها على الهند كلها تقريبا وظلت كذلك حتى اضمحلت وآلت الزعامة على الهند الى الانجليز فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى .

ولا بأس بأن نلمّ فى هذا المقام بأهم الأمور التى مكنت المسلمين وهم فئة قليلة أجنبية من أن ينزلوا بلاد الهند على سعتها وكثرة سكانها واختلاف نحلهم و يؤسسوا لهم بها الدول ذات الأعمار الطويلة . إن الهنود على الرغم من كثرتهم الهائلة كانوا طوائف متقاطعة متخاذلة من الوجهتين السياسية والأدبية . وكان سوادهم الأعظم من طبقة الزراع المستضعفة من قديم الزمان والتى أمات الاستبداد ما بها من حب الاستقلال فأصبحت لا تهتم لسقوط حكومة وقيام أخرى ما دام الكفاف من

العيش ميسورا لها . لذلك قلما نجد الهنود يناهضون المسلمين . أما المسلمون فكانوا بإزاء ذلك يدا واحدة يقاتلون لنصر الاسلام ونشره بين الوثنيين . ثم إن الديمقراطية التي يتصف بها الاسلام قد جعلت كثيرا من الهنود يدخلون فى الاسلام فى حين أن من لم يدخل فيه كان يفضل حكومة المسلمين الأجنبية على حكومة (الراچات) الوطنية لأن الأولى كانت أبرّ بهم وأرحم .

(ى) دخول الاسلام فى جنوب أوربا الشرقى

للتُّرك فضل كبير فى نشر الدين الاسلامى فهم الذين نشروه فى بلاد الهند كما تقدم القول، وهم الذين عملوا على حفظه من غلبة التشيع فى القرن الخامس الهجرى كما يعلم المطلع على تاريخ السلاجقة، وهم الذين رفعوا لواءه ردحا من الزمن بجنوب أوربا الشرقى .

والترك عامة فرع من الجنس التترى الذى حكم كثيرا من البلاد الأسيوية فى الأزمنة القديمة . ومواطن الترك الأصلية هى سهول بحر قزوين وبحر آرال وما وراء النهر وما والاها من الجهات . وقد تدرجوا فى الظهور فى التاريخ الاسلامى فكانوا أول الأمر خدما فى بيوت الأمراء وقصور الخلفاء فجندا فولاة أقاليم فسلاطين إبان حكم السلاجقة وخلفائهم من الأتابكة . ولما جاء التتار فى القرن السابع الهجرى قضوا على بقايا السلاجقة إلا دولة الروم السلجوقية بآسيا الصغرى فانها امتنعت عليهم حينا من الزمن . وكان من بين القبائل التركية الخراسانية التى سارت مغربة فرارا من التتار قبيلة صغيرة تعرف (بالأوغوز) يبلغ عددها ٤٠٠ فارس . تلك القبيلة هى أس الترك العثمانيين الذين أتموا فتح آسيا الصغرى وأقاموا دولة أسلامية عظيمة بجنوب أوربا الشرقى .

سار بهذه القبيلة زعيمها المسمى (أرطغرل) يرتاد لقومه منتجعا فأدّى به السير الى آسيا الصغرى . وبينما هو ذات يوم يطاع إذ رأى فيما يرى جيشين يقتتلان وآنس فى أحدهما علائم الانهزام . فانحاز اليه كرما منه فتغيرت بذلك حال الجيشين

المتحار بين اذ انهزم الذى كان هازما وغلب الذى كان من قبـل مغلوبا . وما لبث أرطغرل أن علم أنه نصر السلطان علاء الدين السلجوقى على جيش تترى . واعترافا له بتلك اليد البيضاء أقطعه السلطان المذكور أرضا له على حدود الدولة البيزنطيـة فى آسيا الصغرى عرفت فيما بعد (بسلطانونى) ذلك الأقطاع هو أس الدولة التركية العثمانيـة .

نمو الدولة التركية — ولبث أرطغـرل أميرا على ذلك الإقطاع حتى توفى سنة ٦٨٠ هـ . فتولى بعـده ابنه عثمان الذى ينسب اليه الترك (٦٨٠ — ٧٢٦ هـ) فثبت قدمه فى إقطاعه، ثم شرع فى الاستيلاء على الحصون البيزنطية التى تتاخم أرضه حتى قارب (بروسه)، وفى عام ٦٩٩ هـ . قضى التتار على الدولة السلجوقية بآسـيا الصـغرى فكان ذلك سببا فى اسـتقلال سلطانونى ومن ذلك الحين أخذ سلاطين الترك يعملون من جهة على إخضاع جميع آسيا الصغرى لسلطتهم ومن جهة أخرى على التـدخل فى شئون الدولة البيزنطية بقصد الاسـتفادة من ضعفها ثم إسقاطها والحلول محلها . وقد تم لهم ذلك كله . والذى بدأ سياسة الفتح الأوربية هو أرخان ابن عثمان (٧٢٦ — ٧٦١ هـ) فانه بعـد أن نظم شئون دولتـه وأنشأ جيش الانكشارية الشهير أخذ يتدخل فى الشئون الأوربية وكانت الدولة البيزنطية اذ ذاك فى منتهى الانحطاط وكان يتنازع عرشها رجلان أحدهما يسمى كنتاكوزين والآخر باليولوغ وكان كل منهما يستعين أرخان على خصمه . فمدّ أرخان يد المساعدة الى أولها فكافأه على ذلك بأن زوجه من ابنته ، وعند ما زحف الصربيون على القسطنطينية فى عام ٧٥٣ هـ . اسـتعان كنتاكوزين بصهره أرخان فأرسل اليه مددا يقوده ابنه سليمان . وقد تمكن كنتاكوزين بهذا المدد من ردّ الصربيين . ولكى يكافئ سليمان على صنيعه هذا نزل له عن حصن (ترمب) القائم بالشاطئ الأوربى للدردنيل واتفق فى العام القابل أن حدث زلزال عظيم فى تراقيـة دك حصون البـلاد وهدم أسوار غاليبولى فاستولى عليها الترك فكان ذلك بدء ملكهم بأوربا .

وفى عهد السلطان مراد الأول (٧٦١ — ٧٩٢ هـ) بلغ الترك فى فتوحهم نهر الطونة بعد أن هزموا الصرب والبلغار والمجر والأفلاق والألبان فى واقعة (قوصوه) الشهيرة سنة ٧٩٢ هـ . وبهذه الفتوح كلها أصبحت أملاك الترك تكتنف القسطنطينية من جميع جهاتها . وبذلك طمع محمدا الثانى الملقب بالفاتح (٨٥٥ — ٨٨٦ هـ) فى أخذها والقضاء على الدولة البيزنطية ، وقد تم له ذلك فى عام ٨٥٧ هـ . وأصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة التركية . وقد اتبع محمد الفاتح ذلك العمل الخطير بأن أتم إخضاع البوسنة والصرب والمورة وجزائر الأرخبيل وشواطئ البحر الأسود الجنوبية والقرم وألبانيا . ونزلت جنوده بجنوبى إيطاليا . وبذلك أصبحت شبه جزيرة البلقان بأيدى الترك .

ثم وقف نمو الدولة التركية فى أوربا لأن بايزيد بن مراد الأول لم يكن ميالا للحروب بوجه عام ولأن سليمان ابنه (٩١٨ — ٩٢٦ هـ) شغل بمحاربة الفرس ومماليك مصر والشام وكان مظفرا فى حروبه فقد أذل الفرس وأدخل الشام ومصر فى حكم الترك وحمل فيما يقال الخليفة العباسى الذى كان مقيما إذ ذاك بالقاهرة على أن ينزل له عن الخلافة ففعل وأصبحت الخلافة فى آل عثمان .

فلما تولى ملك آل عثمان السلطان سليمان القانونى (٩٢٦ — ٩٧٤ هـ) استؤنف الفتح والتوسع فى أوربا ففتح السلطان بلاد المجر ودفع جيوشه فى النمسا حتى بلغ عاصمتها ويانا وحاصر هذه العاصمة مرتين ولكنه لم يستطع أخذها لمناعتها واستبسال أهلها .

ذلك أقصى ما بلغته حدود الدولة التركية فى أوربا . على أنها لم تستدم ذلك الملك الواسع طويلا فقد أصابها الضعف بعد القوة لفساد إدارتها وسياستها فى الداخل ولنهوض الدول المجاورة لها : الروسيا والنمسا وبولونيا واجتماعها كلها على محاربة الترك وانتقاص ملكهم فصار الترك يجلون شيئا فشيئا عن أملاكهم الأوربية وغير الأوربية حتى أصبح ملكهم منحصرا فى آسيا الصغرى .

٤ ـ الأقطار التى دخلها الاسلام بمجرد الدعوة
ومقدار انتشار الاسلام فى الوقت الحاضر

إن الأقطار التى سبق الكلام عليها هى التى شملتها الدول الإسلامية فى الأعصر الإسلامية المختلفة وهى التى دخلها الاسلام قرين السياسة . على أنه ينبغى ألا يستفاد من ذلك أن الاسلام قام بالقوة كما يرى كثير من النـاس مسلمين وغير مسلمين . فالحقيقة أن الدولة الاسلامية كانت من كثير من الوجوه ذات صفة مدنية وأنهـا نمت نمو الامبراطوريات الواسعة القديمة والحديثة . أما الدين الاسلامى فقد انتشر فى أكثر الأحوال بمجرد الدعوة من جانب الفاتحين أو بمجرد اطمئنان القلب اليه من جانب من فتحت عليهم بلادهم وذلك كما حدث فى الشام ومصر فقد دخلهما الاسلام والمسيحية فيهما متشعبة المذاهب منقسمة الآراء منحطة النفوذ فكان ذلك سببـا فى انصراف كثير من أهلها عنها ودخولهم فى الاسلام . وقد يكون انتشار الاسـلام لسبب آخر هو مجرد الرغبة فى التخلص من دفع الجزية وأن يكون الذميون والمسلمون فى مستوى أدبى واحد . ونحن لانذهب بعيدا فى تقرير هذه الحقيقة فالقرآن والسنة حثا فى كثير من المواطن على احترام الذميين ودعوتهم الى الاسلام بالتى هى أحسن . وكان المسلمون عادة لا يكرهون أحدا على الدخول فى دينهم بل كانوا يكتفون منهم فى الغالب بالجزية والسيرة الحسنة .

ومما يدل على صدق النظرية التى تقول بانفصال الدين عن السياسة فى التاريخ الاسلامى أن الدين الاسلامى قد دخل أقطارا كثيرة مجردا من وسائل الفتح والتغلب السياسى ونحن نختم هذا الفصل التاريخى بذكر هذه الأقطار ثم نتبع ذلك بكلمة تبين مقدار انتشار الاسلام فى أنحاء العالم فى زمننا الحاضر .

(أ) الصحراء الكبرى ـــ السودان ـــ غرب أفريقية وشرقها

عرفناك قبلا أن الإسلام دخل مصر والنوبة وبلاد المغرب فى الصـدر الأول للاسلام ، والآن نقول إن الدين الإسلامى قد سرى أثره من هذه الأقطار الى الأقطار

الأفريقية التي تليها وهى الصحراء الكبرى وبلاد السودان وغربى أفريقية . وكان ذلك فى أغلب الأحوال بمجرّد الدعوة ومحض اختلاط المسلمين بأهل تلك الأقطار من وثنيي البربر والزنوج . وقد ابتدأ ذلك منذ القرن الخامس الهجرى عند ما قام عبد الله بن يس داعية الدولة المرابطية وعمل على نشر الإسلام فى قبائل الصحراء الكبرى . وقد تابعه فى ذلك ابن تومرت الملقب بمهدى الموحدين (٥٢٤ — ٦٦٥ هـ)، ثم قفى على أثر هؤلاء فى نشر الدعوة بالصحراء الكبرى والسودان وغربى أفريقية مشايخ الطرق التى ظهرت فى شمال أفريقية وأخصها القادرية والتيجانية والسنوسية. فبمجهودات هؤلاء جميعا أصبح الإسلام دين تلك الأقطار، مع أنها خاضعة لدول أوربية مسيحية قوية .

وكما انتشر الإسلام فى تلك الأقطار بمجرد الدعوة فإنه انتشر كذلك فى شرقى أفريقية، فقد دخل الإسلام منذ الصدر الأول بلاد الصومال وزنجبار والجالا وكان ذلك بارتحال رجال من عرب اليمن الزيديين وعرب البحرين الى تلك الجهات واستقرارهم بها وللعلائق التجارية التى كانت على العموم بين عرب الجزيرة وبين وثنيي تلك الجهات .

(ب) الروسيا

دخل الإسلام بلاد الروسيا فى زمن الدولة العباسية (القرن الرابع) وكان دخوله فى الأقاليم الروسية المعروفة إذ ذاك ببلاد البلغار، وهى عبارة عن حوض نهر الولغا وكان دخوله تلك النواحى للعلائق التجارية التى كانت بين المسلمين وبين أهل هذه البلاد . على أن الإسلام نما وانتشر فى جنوبى الروسيا وجنوبها الشرقى عند ما غلب عليها التتار المعروفون بالطائفة الذهبية فى القرن السابع الهجرى . فإنهم اعتنقوا الإسلام بمحض رغبتهم، وأول من فعل ذلك منهم ملكهم الوثنى بركة خان (٦٥٤ — ٦٦٤ هـ) الذى كان معاصرا وحليفا للظاهر بيبرس سلطان مصر لذلك العهد . ولا يزال الإسلام دين هذه الجهات حتى يومنا هذا .

(ج) الصين

ليس بأيدينا من المصادر الموثوق بها ما يبين تاريخ دخول الإسلام بلاد الصين وانتشاره بها . على أنا نعرف من بعض المصادر الصينية والإسلامية أنه قد كانت علاقات سياسية بين الدولتين الإسلامية والصينية منذ خلافة عثمان بن عفان ، وقد ابتعث هذه العلاقات استعانة فيروز بن يزدجرد بإمبراطور الصين لارتجاع بلاده . وتقول التواريخ الصينية كذلك إن سفيرا صينيا قدم على الخليفة هشام بن عبد الملك موفدا من قبل أمبراطور الصين . وان الأمبراطور هسوان تسنج عند ما ثار به بعض رعيته واغتصب منه العرش استعان بالخليفة المنصور العباسى ، فأرسل اليه الخليفة جنـدا إسلاميا ارتجع به بعض مدنه من الثوار . وقد استقر هؤلاء الجنود بالصين ولم يعودوا الى بلادهم فكان ذلك بدء استقرار الاسـلام بالصين . على أن العلاقات التجارية التى كانت بين العرب والصين من قديم الزمان كانت سببا آخر فى سكنى عدد غير قليل من تجار المسلمين بالثغور الصينية . فلما كانت غارة التتار فى القرن السابع الهجرى وما حدث على أثرها من اضطراب فى العالم الإسلامى الشرقى نزح عدد كبير من الصناع والتجار المسلمين الى بلاد الصين واستقروا بها وابتنوا المساجد وانتظموا فى سلك الحكومة الصينية .

(د) أرخبيل الملايو

قد دخل الإسلام جزيرة سومطرة منذ القرن الأول الهجرى ، وكان ذلك بواسطة تجار العرب . ثم نما بهذه الجزيرة على مر الزمن بواسطة دعاة وتجار من الهند وبلاد العرب على السواء كما يستفاد من كلام الرحالة الإسلامى ابن بطوطة والرحالة الايطالى ماركو بولو (القرن السابع الهجرى) ودخل الإسلام كذلك جزيرة جاوه فى القرن السادس الهجرى وعظم شأنه بها حتى قامت بها حكومة إسلامية قوية . ثم اقتبست الإسـلام من هاتين الجزيرتين سائر جزائر الملايو — بورنيـو وسيلبيس والفلبين وكذلك اهنـد الصينية ، هذا والإسلام فى الوقت الحاضر أخذ يتغلب على الوثنيـة

فى جزائر الملايو وقد بلغ عدد حجاج المستعمرات الهولندية بتلك الجزائر فى سنة ١٩١٠ نحو ١٤٠٢٤٠ حاجا .

انتشار الاسلام فى الوقت الحاضر — هذه هى الأقطار التى دخلها الإسلام بمجرد الدعوة . ولا يستفاد مما تقدم أن هذه الأقطار والأقطار التى دخلها الإسلام مع السياسة إسلامية بحتة، فقد تقلص ظل الإسلام عن بعضها كالأندلس وأكثر الأملاك العثمانية الأوربية وبعضها توجد به أقلية إسلامية كما هى الحال فى الصين والهند بوجه عام . وقد اختلفت الأحصائيات فى تقدير عدد المسلمين فى أنحاء العالم فى الوقت الحاضر، والمتفق عليه أنهم لا يقلون عن ٢٠٠ مليون نسمة ولا يزيدون عن ٢٥٠ مليون نسمة .

مكة المكرمة

مجمل الكلام على مكة — أسماؤها — موقعها — جبالها — شوارعها وحاراتها — أقسامها العامة — مبانيها — مستشفى الغرباء — التكية المصرية — مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أو داره — دار خديجة بنت خويلد — دار الأرقم — بستان الشريف عون الرفيق باشا — تأثير السيول فى مكة وتاريخها — سكان مكة — جنسيتهم — أخلاقهم — أزياؤهم — لغتهم — دينهم — عاداتهم — جو مكة — تجارتها — نقودها — مياهها — عين زبيدة — أمراء مكة .

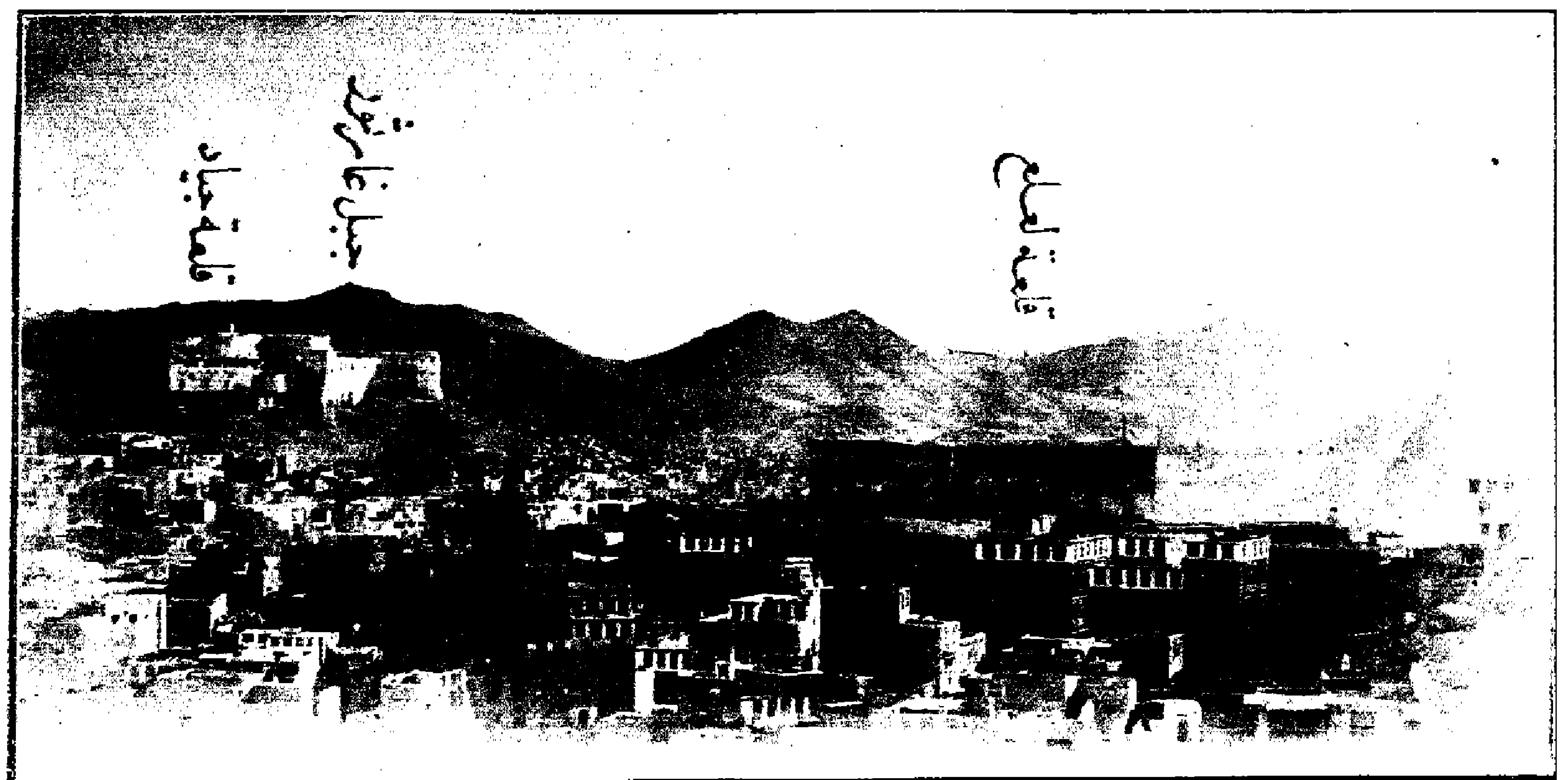
أسماء مكة — ذكر العلماء أن لمكة ستة عشر اسما نذكر أشهرها وهى أربعة نطق بها القرآن أولها : «مكة» قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وقالوا سميت بذلك لقلة مائها، أخذا من قولهم : امتك الفصيل ضرع أمه اذا امتصه . وقيل : لأنها تمك الذنوب أى تذهب بها ، وثانيها «أم القرى» قال تعالى ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ، وثالثها « بكة » — بالباء الموحدة — قال تعالى

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾، ورابعها « البلد الأمين » وقد أقسم الله به فى قوله ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ .

موقعها — مكة واقعة على ٢١° و ٢٨ ق عرضا شماليا ، وعلى ٣٧° و ٥٤ ق طولا شرقى باريس، وترتفع عن سطح البحر الأحمر بنحو ٢٧٩ مترا، وهى عاصمة بلاد الحجاز ، وطولها من الشمال الى الجنوب ميلان، وعرضها شرقا من جبل أبى قبيس الى أسفل جبل قعيقعان من الغرب ميل واحد ، يقطع الماشى طولها فى نحو نصف ساعة، ومع كون عرضها دون طولها يقطع فى زمن أكثر مما يقطع فيه الطول، وذلك لوجود أماكن على تلال فى كل من جانبيها . وهى ببطن واد يحيط به سور من الجبال الشامخة قد بنيت عليها الحصون المحكمة ، وليس بسورها الجبلى ثغرات إلا حيث مداخلها الأربع ، ففى الشمال الشرقى الطريق الى مِنًى، وفى الجنوب الطريق الى اليمن، وفى الشمال الغربى الطريق الى وادى فاطمة ، وفى الشرق الطريق الى جُدّة. وتلك الجبال تكوّن سلسلتين شمالية وجنوبية تتركب الأولى من جبل الفلج غربا ثم جبل قعيقعان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كداء (بفتح أوّله ومدّ آخره) وهو فى أعلى مكة ومن جهته دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثانية تتركب من جبل أبى حديدة غربا يتلوه جبلا كُدَى وكُدَىّ (كلاهما بضم أوله والأوّل مقصور والثانى مصغر) بانحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرقيهما ثم جبل الخندمة .

شوارع مكة ومبانيها — نذكر لك أهم شوارعها وما فيها من البنايات الضخمة والمساجد والآثار مفردين الهام منها بالوصف التفصيلى قارنين ذلك بالصور الكاشفة إن شاء الله فنقول : شوارع مكة ضيقة غير منتظمة ما عدا شارعا مشهورا يقطعها من جنوبها الغربى الى شماليها الشرقى يبتدئ من الشيخ محمود أو جرول مارّا بباب العمرة الى أمام التكية المصرية ثم على المسعى وعلى طريق القشاشية وسوق الليل الى آخر مكة من جهة المعلاة، وعرض الشارع بين ثمانية أمتار وعشرة وعشرين، ومن الحارات النافذة الى الشارع المذكور، حارة الباب، وحارة الشبيكة، والسوق

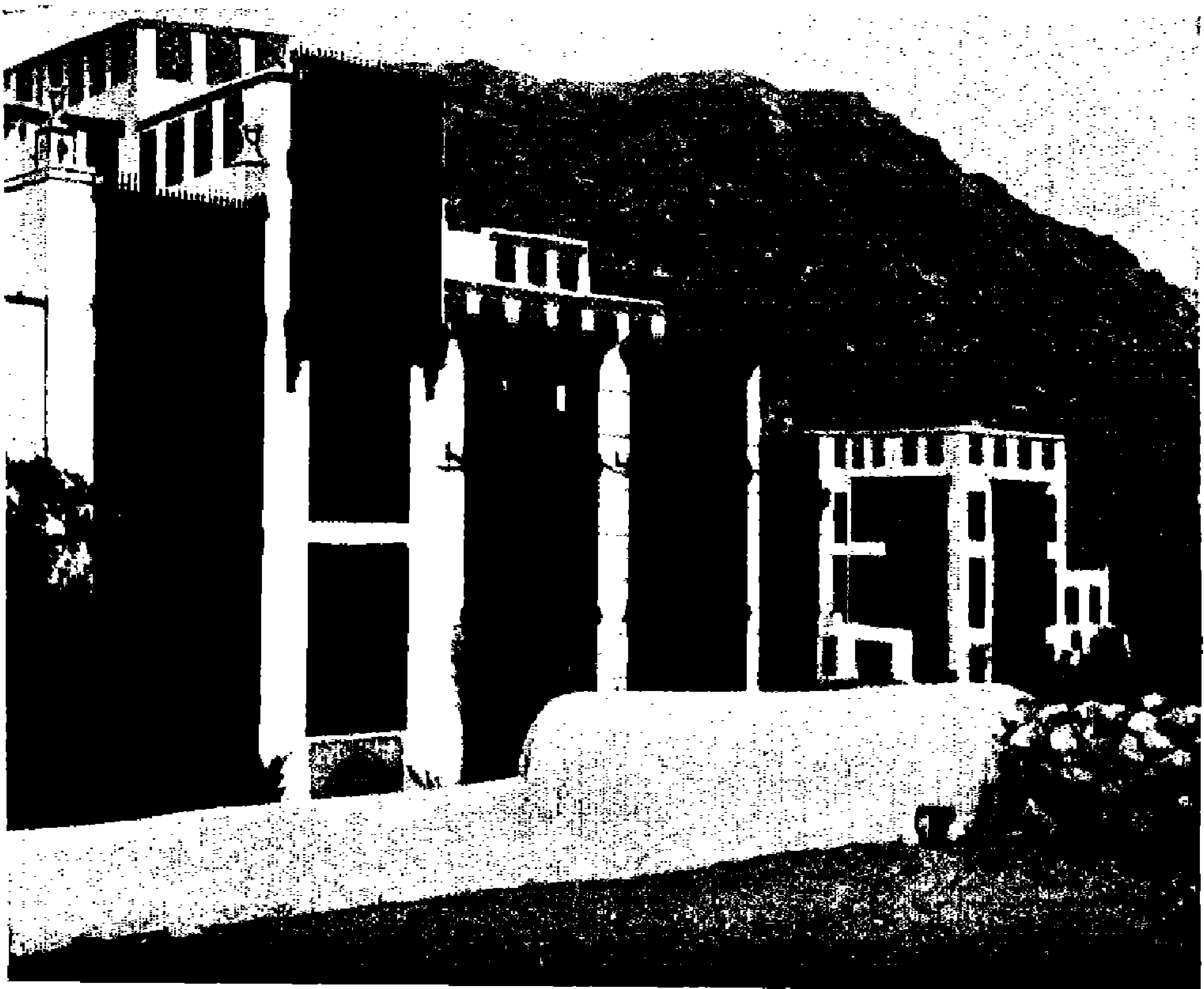
٦٠ مكرر من جبل ابي قبيس الى جبل غارثور



بدل لعلع يقرأ الهندى

60 bis— A view of the route from Mountain Abikobeis to Garsour.

بيوت بمكة التي على الطراز الجديد بجياد للسقاف



62. A view of the houses of Mecca on the modern style in Giad in 1321.

[illegible]

منازل السيد عمر السقاف المشيده بمكه   سكن الوالى



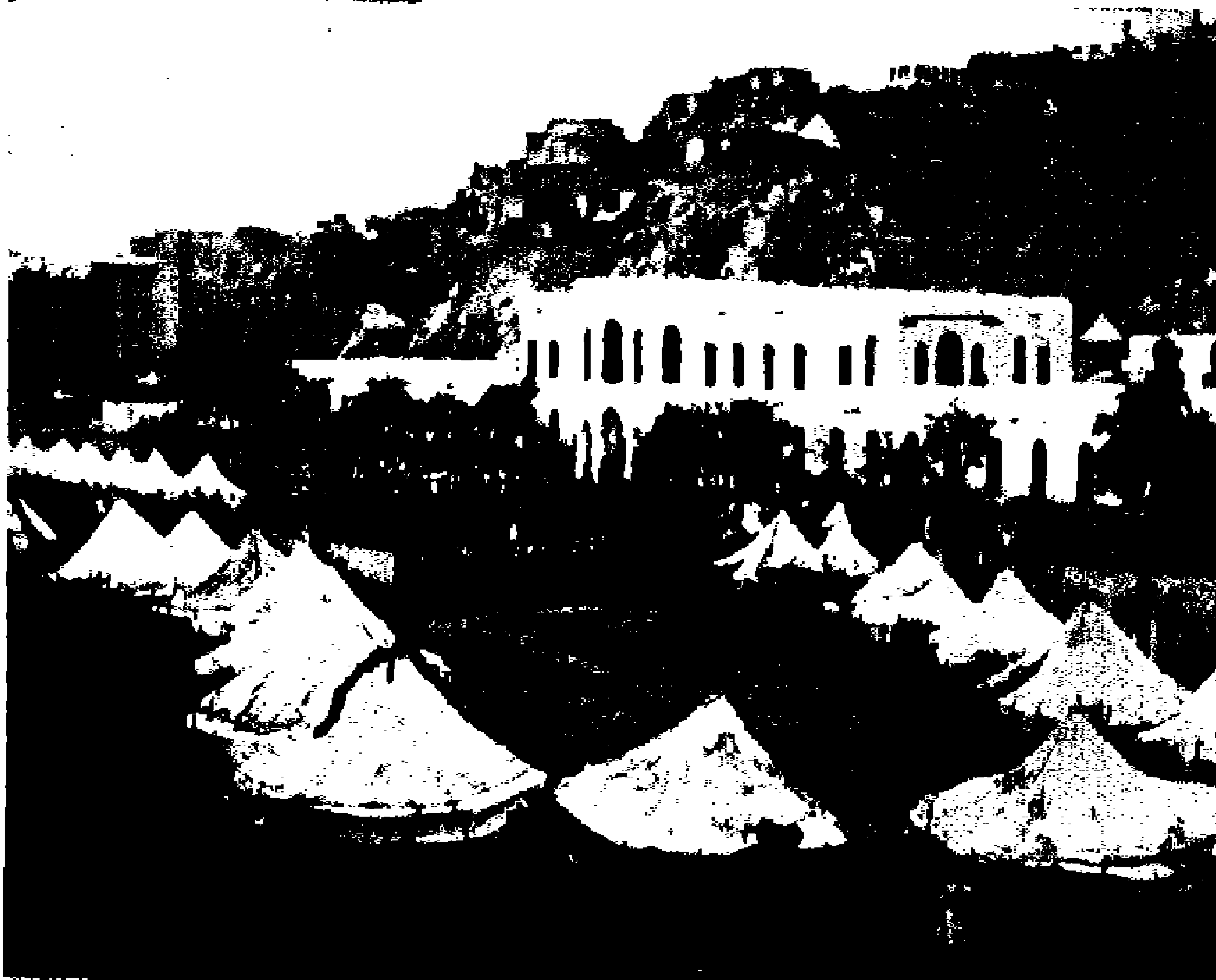
63. Houses built at Gyad, belonging to Sayed Omar El Sakkaf

[illegible]

صحيفة ١٧٩

قشلاق العساكر الشاهانية بجياد



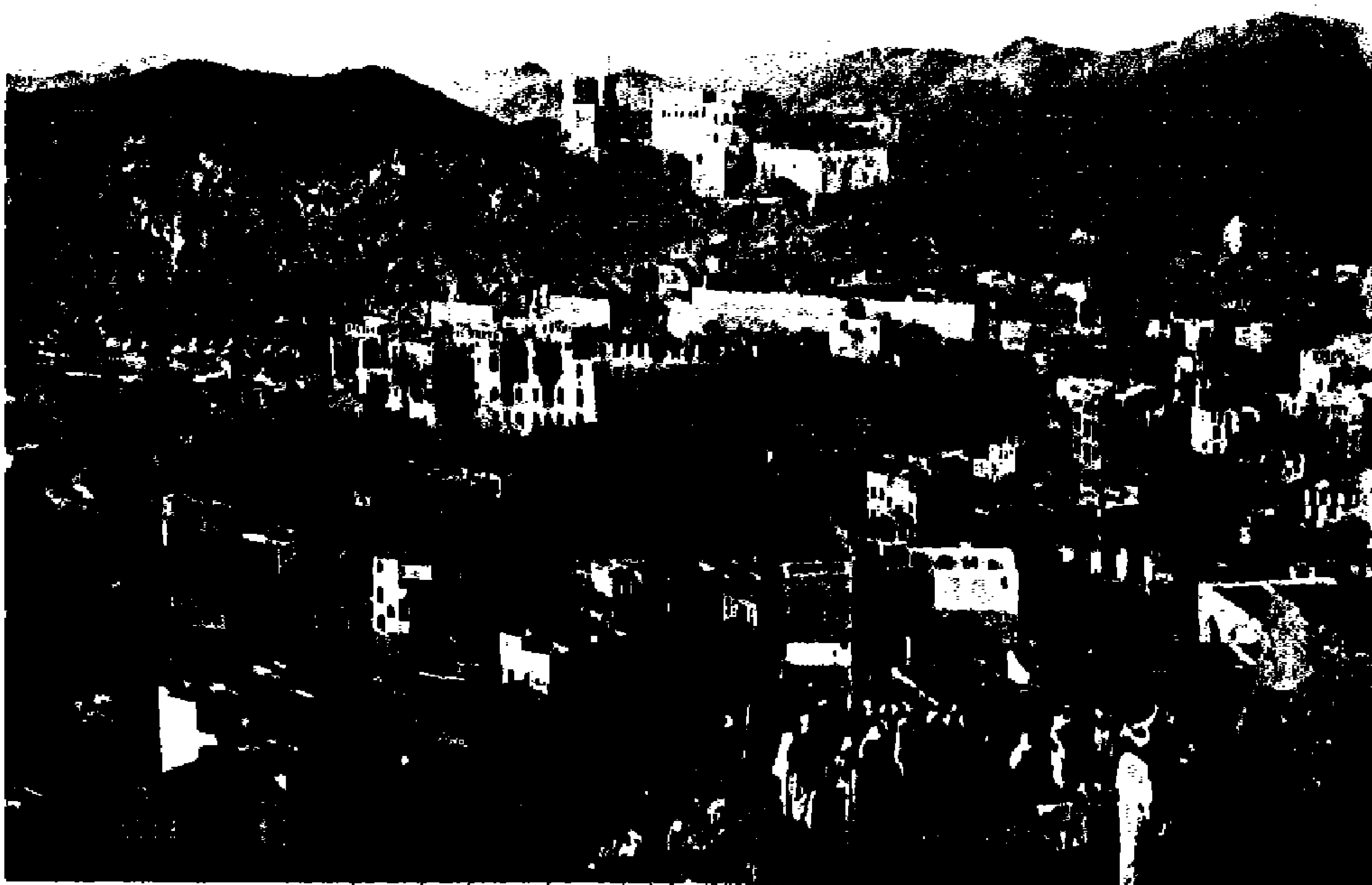


64. A view of the Turkish Barracks in Giad at Mecca in 1321.

صحيفة ١٨٠

بيوت مكة من الجنوب الغربي وبها قلعة جياد





65. The Southern view of the houses of Mecca and the Citadel of Giad.

منظر تكية محمد علي باشا بمكة المكرمة



70. The Charity house of Mohamed Aly Pasha at Mecca

الصغير ، وجياد وسوق الليل وسوق الصفا والمسعى، والقشاشية عن اليمين، ويليها الغزة ثم سوق المعلاة والبياضية، وعن يسار القشاشية المسعى الى المروة الذى به يسارا باب السلام ويمينا طريق المدعى ثم الجودرية ثم المحناطة، ومن حارة الباب ينفذ الى سوق الشامية ومنه الى المروة (الرسم ٦٠) .

ومن الجهات التى بها مبانٍ نخمة أو آثار جمة :

(١) جهة جرول — وعندها جبل جحيشة وفيها الحفائر وبستان لدولة الشريف عون الرفيق وبئر ذى طوى الذى آغتسل منه النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل الى مكة (رسم ٢٦) والمكان المعتاد للمحمل المصرى «والمسافرخانة» التى بناها السلطان عبد الحميد وقدّمنا لك وصفها ومقياس المياه الذى تراه فى شرقى (الرسم ٦١) على شكل عمود .

(٢) المسفلة — فى جنوب المسجد الحرام وبها بستان الشريف عبد الله ومولد سيدنا حمزة والخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

(٣) شعب جياد — فى الجنوب الشرقى للمسجد الحرام وهو أجمل مواقع مكة لعلوه وسعة طرقه وكثرة بيوته التى على الطراز التركى والتى يسكنها غالبا موظفو الولاية من الأتراك وفى مقدّمتهم الوالى وترى فى (الرسم ٦٢) نموذجا منها وهو بيت للسيد محمد السقاف ذى الأملاك الواسعة بمكة والمدينة وجُدّة، وكذلك فى (الرسم ٦٣) وبهذا الشعب التكية المصرية تجاه المسجد الحرام فى (الرسم ٧٠)، وكذلك ديوان الحميدية مقرّ الحكومة العثمانية الذى تراه غربى المسجد فى (الرسم ٨٥) ، والثكنات العسكرية للجنود الشاهانية التى تراها فى (الرسم ٦٤) ، وترى فيه خيما يسكنها الجنود الذين ليس لهم أماكن فى الثكنات .

والديوان والثكنات كلاهما من إنشاء الأمين الحازم المصلح الكبير المشير عثمان باشا نورى والى الحجاز وتجد مكتوبا على باب الحميدية الشرقى :

دار حوت لسعد سلطاننا * عبدالحميد كل حسن وطيب
أشادها بحى أم القــــرى * عثمان والينا بشكل عجيب
بشرى لنا قد جاء تاريخها * نصر من الله وفتــح قريب

وعلى الباب الغربى :

دار سلطان الورى عبد الحميد * قدبدت كالبدر فى البيت الأمين
شادها عثمان والينــا الذى * تَوَّجَ الأحكام بالعـــدل المبين
أرّخ المجـــد ونادى فى العــلا * أدخـلوها بسـلام آمنين

وعلى الباب الجنوبى المتوسط كتب (دائرت حكومت سنية) .

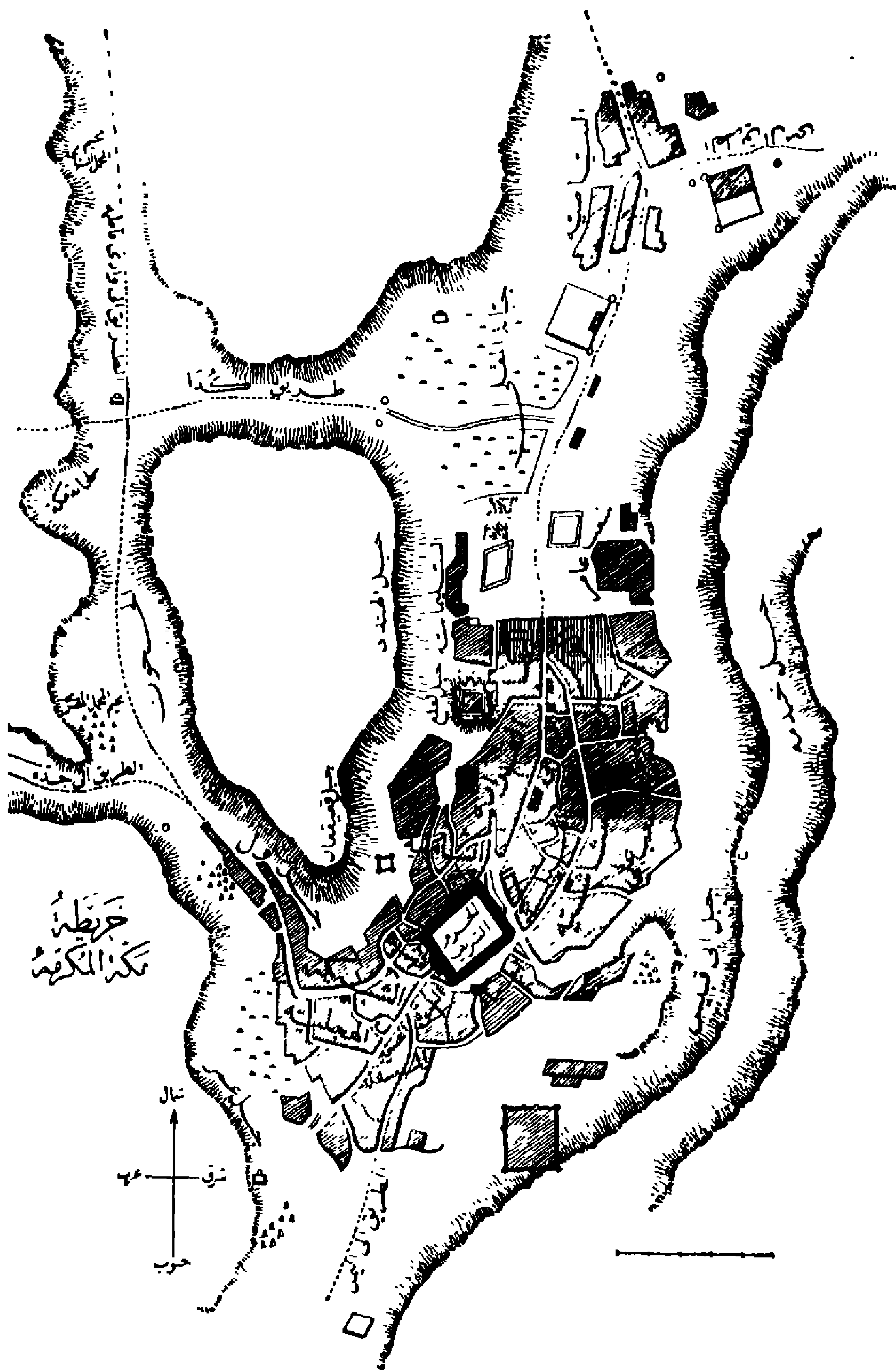
وعلى الباب الجنوبى الجانبى كتب سطر بالخط الثلث الجميل على شكل دائرة ، العبارة الآتية (دائرة فرقة عسكرية) .

وفى جياد أيضا ميدان لأستعراض العساكر وفيه المطبعة الأميرية ودار للبريد (البوستة) والإشارات البرقيــة (التلغراف)(١) ومركز الصحة ودار عظيمة للشريف عبد المطلب وبيت لأمين الدفاتر (الدفتردار) ومسجد صغير ــ زاوية ــ للشاذلية وترى فى (الرسم ٦٥) منظرا عاما لجياد، والبناء الذى فى أعلى الرسم على قمة الجبل قلعة جيــاد .

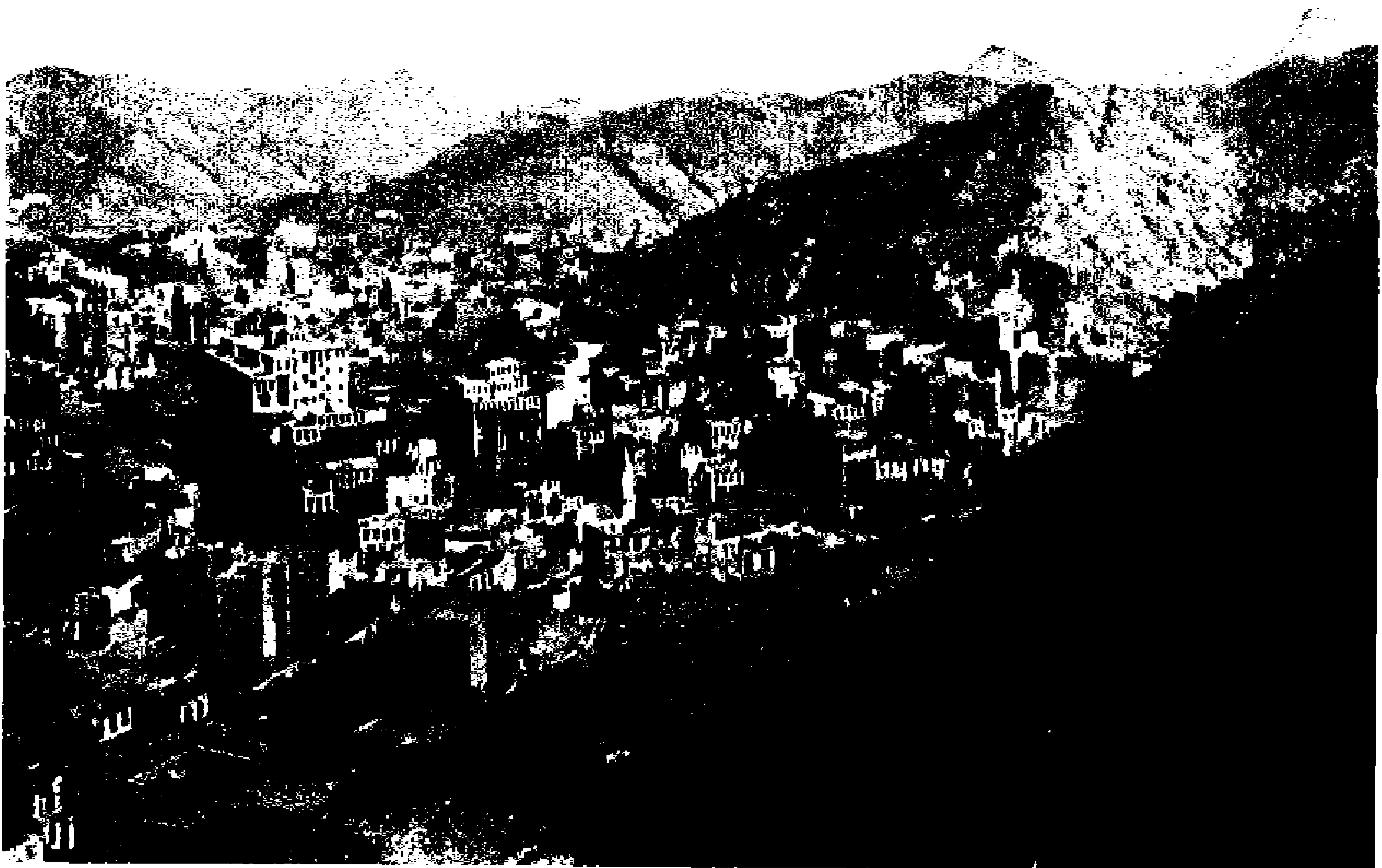
(٤) القشاشية ــ فى شرق المسجد الحرام ويطل عليها جبل أبى قبيس ، وفى الجهة الشرقية منها شعب علِى أو شعب بنى هاشم انظر (خريطة مكة) وبالقشاشية دار الخيزران وهى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى وبها بيوت بنى شيبة حجبة

(١) لا عناية ولا نظام للإشارات البرقية ولا بالخطابات فقلما تصــل إشارة الى صاحبها ، والخطابات تحضر من جدّة إلى مكة على ظهور الجمــال فى غرارات (زكايب) وتلقى بطرقة فى دار البريد فيأتى الحجاج أو المطوّفون أو خدمهم فيفرزون هذه المكاتبات فان عثروا على شىء لهم أو لأصحابهم وأقاربهم أخذوه ، وكان خليقا بالحكومة العثمانية أن تعنى بذلك عناية شديدة لأن أولئك الحجاج الذين شط بهم المزار فى حاجة الى تعرّف الأخبار عن أهليهم وأصحابهم وربما تضمنت أخبارا هامة يترتب على جهلها ضرر كبير .

خريطة مكة المكرمة



منظر منازل مكة وغار حراء الشهير بجبل النور



66. Houses of Mecca as seen from the top of Abu-Kobis hills from the East, showing Gar Herak and the Birth Place of the Prophet.

منازل مكة من الشرق والشمال



67. The northern and eastern view of the houses of Mecca in 1321.

الكعبة، وبيوت محسن بك وعبد الله بك وأحمد باشا الحجازى وكان واليا على الحجاز وهو والد المرحوم منصور باشا يكن ودار أبى سفيان التى جعلها الرسول عام الفتح مأمنا لمن لجأ اليها إذ قال : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن وهى الآن مستشفى وبها بيت خديجة بنت خويلد أو مولد فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وبها أيضا بيت أبى جهل وهو الآن ميضأة تجاه باب المسجد الحرام المسمى باب النبى عليه السلام .

(٥) الغــــزة — فى الشمال الشرقى للمسجد الحرام وبهــا بيت الإمارة الذى شيده محمد على باشا جد الأسرة الخديوية ثم الملكية ويقيم به الآن شريف مكة عون الرفيق باشا وتراه فى الشمال الشرقى من (الرسم ٦٧) وواضح بالرسم واجهتان منه إحداهما ذات « مشربيات » صنعت صنعا بديعا من الخشب الهندى الأحمر وفيها أيضــا مخزن أميرى عام تخزن به الحبوب للحكومة والأهالى وكذلك مخزن كبير للصدقات والحبوب التى ترد من مصر كل عام ومن دونهم منازل لأهل مكة .

(٦) شعب بنى عامر — شمالى الغزة به مولد النبى صلى الله عليــه وسلم ومولد على رضى الله عنه قريبا منه وبيوت لبنى هاشم . وهذه الجهات الشرقية كانت مساكن بنى عبد المطلب فى الجاهلية وفيها الآن كثير من الأشراف أما باقى قريش فكانوا فى الجهــة الأخرى من المسجد الحرام خصوصا جهة الشمال انظر (مساكن الجهة الشرقية فى الرسم ٦٦) .

(٧) الشامية — فى شمالى المسجد الحرام مع غربيــه وهى شارع تجارى عظيم أشبه بشوارع الموسكى والتربيعة والغورية وخان الخليلى عندنا بمصر ويباع فيها السبح والأقمشة الهنــدية والتركية وفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذى يبيعــه حجاج اليمن بأثمان رخيصة جدا .

(٨) القرارة — شمالى الشامية وبها منزل الشريف عبد المطلب أمير مكة سابقا وهو البناء الفخم الذى تراه واضحا فى الشمال الشرقى (للرسم ٦٨) وفيه ترى منظرا عاما لبيوت القسم الشمالى وبالقرارة مسجد صغير — زاوية — للجيلانى .

(٩) السليمانية بها النقا والمنحنى والمعابدة والبياضية والمعلاة أى المقبرة — كلها شوارع وجهات فى شمالى المسجد الحرام فوق القرارة والغزة ، وبالمعابدة محل للصاغة وبيت للشريف غالب أمير مكة سابقا ومسجد الإجابة والراية ومساكن للهنود والحضارم ومحل للخضراوات والمسلى والإبل والأغنام ومساكن « البيشة » وهم عساكر أمير مكة وكذلك بها مساكن قبائل من العربان وفيها معاطن للإبل ومرابض للغنم وبالبياضية منزل للسيد محمد صالح الشَّيْبي أمين المفتاح وكذلك بستان له ، والمعلاة من زمن بعيد مقبرة أهل مكة وتقدم الكلام عليها مع رسومها .

وفى مكة على الجملة ٦ جوامع كبيرة خلاف المسجد الحرام و ٦٧ مسجدا ، المشهور منها مسجد الراية بشرق البلد ومسجد الجن بغربها ومسجدا الإجابة والبيعة شماليها وزاوية السنوسى فى الجنوب الشرقى ، والسنوسى له فى الحجاز شأن كبير ومعظم الأعراب شيعته وكذلك أهل مكة وكثير منهم على طريقة يسمونها الرشيدية وأهلها أتباع الشيخ ابراهيم الرشيدى ، ومنهم الأدريسية أتباع الشيخ أحمد بن إدريس ، والمرغنية وهم شيعة المرغنى المعروف بمصر والسودان وبها محكمة شرعية تحت قبة مجاورة للمسجد الحرام بجهته الشمالية تراها شرقى المئذنتين المتقاربتين فى (الرسم ٩١) والقبة التى بينهما على المكتبة السليمانية وترى فى الشمال الغربى قلعة الهندى ، وسيأتى ذكر المكتبة والقلعة قريبا ، وظاهر بالرسم ست مآذن من مآذن المسجد الحرام ، والبناء الفخم الذى فى أعلى الشكل سراى الشريف عبدالله باشا أمير مكة سابقا وقد احترقت . وفى مكة ٦ مدارس للعلوم و ٤٣ مكتبا للصبيان ، وكانت فى سنة ١٣٠٣ — ٣٣ وكان عدد التلاميذ بها ١١٥٠ وأشهر هذه المدارس المدرسة الصولية التى بناها الطيب الأثر الشيخ رحمة الله الهندى

سراي الشريف عبد المطلب بالقرارة بمكة



68. The palace of El Sherif Abdul Mottaleb at El Karara in Mecca.

صاحب كتاب إظهار الحق ، ويدرس فيها القرآن وعلم التجويد وشيء من اللغة العربية والحساب والهندسة وينفق عليها من تبرعات أهل الهند ، ومدرسة أخرى تماثل الأولى أو تزيد عليها . وبمكة مكتبتان صغيرتان الأولى فى باب أم هانئ تسمى كتبخانة شروانى زاده محمد رشدى باشا والى الحجاز سابقا وأخرى فى باب الدريبة قرب باب السلام تسمى بالكتبخانة السليمانية أسسها السلطان عبد المجيد وكونها من شتات كتب المسجد وغيرها مما أرسله إليها من الاستانة ، ولكل مكتبة من هذين فهرس بخط اليد وأمين يقوم بشؤونها ، والكتب التى بهما نحوية وفقهية وأدبية وتاريخية وأكثرها باللغة العربية وفيها شيء بالفارسية والأوردية (هندية) والتركية والجاوية (لغة الملايو) . وبمكة مستشفى عسكرى وآخر للغرباء — يأتى وصفه — وبها ١٧ مصنعا ومدبغتان للجلود ومسلختان ومخزنان كبيران . وبها قلاع ثلاث تحكم على المدينة ويقيم بها عساكر الدولة : أولاها قلعة جياد التى أنشأها فى سنة ١١٩٦ هـ . الشريف سرور بن مساعد أمير مكة بعد أن اشترى ما حولها من البيوت وأنفق فى عمارتها مالا كثيرا ، وقد نقض بعد سنتين كثيرا من بنائها وأعاده متقنا على أحسن شكل كما تراه فى أعلى (الرسم ٦٥) ، وثانيتها قلعة الهندى التى بناها الشريف غالب بن مساعد سنة ١٢٢١ هـ . فى الجهة الشمالية وكانت صغيرة وحدث فيها خراب فعمرها ووسعها المشير عثمان نورى باشا شيخ الحرم ووالى الحجاز وقد أحكم بناءها ورتبها فى سنة ١٣٠٠ هـ . زمن السلطان عبد الحميد الثانى ، وثالثتها قلعة لعلع التى أنشأها أيضا الشريف غالب أيام محاربة الوهابيين له وهو الذى أقام الأبراج بأطراف مكة . وبمكة حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر . واحد بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠ هـ . والثانى بالقشاشية ويسمونه حمام النبى . وبها ثلاث تكايا : أهمها التكية المصرية أمام باب المسجد الحرام المسمى باب جياد — وسيأتى وصفها — وفيها عشرون مسقى — سبيلا — وعشرون صهريجا مملوءة بمياه عين زبيدة ، ويختلف طولها وعرضها من ٥ أمتار إلى ١٠ ، والعمق من مترين ونصف الى ١٣ مترا ، وفم الصهريج سعته ٨٠ سنتيا

ولبعضهم فتحتان وثلاث الى ٦ فتحات على خط واحد وتنزح المياه منها بواسطة السقائين الذين أكثرهم من العبيد، وبيوت الأمراء أنابيب مائية ذات «حنفيات»، وبمكة ١٩ رباطا يأوى إليها الفقراء، و٨٠ طاحونة خيل، و٦٠ تنورا، و٩٥ قهوة بلدية رصت فيها «التكك» والكراسى التى مقاعدها شباك مصنوعة من الليف أو الخوص المجدول. ويشرب فيها الشاى والقهوة والنرجيلة «الشيشة» التى يجهزونها بالتمباك الحمى عادة ويكثرون استعمالها ويضيفون الى البن اليمنى الحبهان والقرنفل والحبة السوداء مما يجعل للقهوة نكهة جميلة. وبها محجر صحى «كورنتينا» معطل وصيدلية ومتجران كبيران للجوهرات الثمينة، و١٧ مجيرة «كوشة» لعمل الجير، و٨ مصانع للفخار، ومخزن كبير للغاز.

وبمكة ٣٠٠٠ دكان و ٦٥٠٠[1] بيت مبنية بالجص والحجر الأصم ذى اللون الأسود تتخلله نقط حمراء وبيضاء. والبيت يتكون من طبقة الى خمس طبقات وأكثرها ليس به فناء، وأجمل بيوت مكة على الإطلاق بيوت جليس الشريف المسمى (البو) وبيوت محمد على كاتب الشريف فإنها مبنية على الطراز الحديث من جهة التقسيم والهيئة والزخرف والزينة وهى تضارع بعض البيوت الجميلة بمصر والاسكندرية. وبيوت الأمراء وإن كانت عظيمة إلا أنها على الطراز القديم. وبمكة كثير من البساتين الصغيرة والبرك الصناعية ذات الفوارات المائية.

وها نحن أولاء نصف لك بالتفصيل بعض الأماكن الشهيرة كما وعدنا.

مستشفى الغرباء والفقراء — هذا المستشفى بالجهة الشرقية من المسجد الحرام وقد أنشئ فى سنة ١٠٨٦ هـ — كما هو مكتوب عليه — فى زمن السلطان الغازى محمدخان الرابع، وقد زرت هذا المستشفى فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣١٨ (١٦ أبريل سنة ١٩٠١) فوجدت به طبيبين يدعى أولهما اسماعيل افندى ثروت طبيبا أول وثانيهما عثمان افندى اسماعيل طبيبا ثانيا ورأيت صيدليا اسمه حسن افندى تحسين والكل مجمل بالثياب

(١) تعداد الأماكن السابقة نقلته عن التقويم التركى لبلاد الحجاز لسنة ١٣٠٩ هـ. وهو مطبوع بمكة بالمطبعة الأميرية.

الجيدة النظيفة، وبه ما يقرب من ٥٠ سريرا وقد مررت بأقسامه فوجدت إهمالا شديدا ولا سيما قسم الأمراض العفنة فالملابس والمفروشات فى غاية القذارة تنبعث عنها الروائح الكريهة ولايصلحها إلا حرقها وقد اعترف الطبيب الذى صاحبنى بذلك وكان يريد عدم مرورى بهذا القسم من شدة عفونته، وقد رأيت كثيرا من المرضى نائما على الألواح قد اشتد به المرض حتى صيره هيكلا عظميا كالهيا كل التى نراها بالمتحف المصرى، وأن مريضا هذا حاله لا ينتظر إبلاله من مرضه وهو يتنشق تلك الروائح الخبيثة التى تفتك بالأصحاء فضلا عن المرضى، ولولا وضعى المنديل على أنفى وضغطى عليه لما استطعت المرور، وبلغنى أنه قلما يدخل فيها مريض فيشفى، فإذا كان ذلك شأنها فاغلاقها خير من فتحها، فان الهواء النقى قد يشفى المريض مما ألم به. والأدوية تأتى الى هذا المستشفى من الأستانة أما الأغذية والمفروشات فمن ديوان مكة المكرمة.

التكية المصرية — هى من الآثار الجليلة ذات الخيرات العميمة وأنها نعمت صدقة جارية لمسديها ثواب جزيل وأجر عظيم، وقد أنشأها ساكن الجنان محمد على باشا رأس الأسرة الخديوية فى سنة ١٢٣٨ هـ. كما هو مسطور بدائرة القبة التى بوسط التكية تظل الصنابير «الحنفيات» التى يتوضأ منها الناس والتكية بشارع جياد قيمت مكان دار السعادة التى كانت محل حكومة بنى زيد من الأشراف، ويرد إليها الفقراء فى الصباح والمساء فيتناول الفقير فى كل مرة رغيفين وشيئا من «الشربة»، وربما أعطى أكثر من ذلك إن كان فقره مدقعا، وكثير من نساء مكة وحواريها الفقراء يتعيشن بما يأخذن ويكتفين بذلك عن مسألة الناس، ويصرف يوميا من الخبز ما يقرب من ٤٠٠ أقة (حاصل ٣ أرادب من القمح) و ١٥٠ أقة من الرز، وفى يوم الخميس تزاد كمية الأرز الى ٤٢٠ أقة، ويصرف فى هذا اليوم فقط مائة أقة من اللحم، وفى كل أيام رمضان يكون المرتب كمرتب يوم الخميس ويزيد عليه ٥٠ أقة من الحمص، ويصرف من السمن ما يكفى لطبخ هذه المقادير، والفقراء يزداد عددهم حتى يبلغ ٤٠٠٠ شخص وذلك من شهر رمضان حتى آخر ذى الحجة

لورود كثير من الحجاج الفقراء من السودانيين (التكارنة) والمغاربة وغيرهم ثم يتناقص العدد بعد ذلك الى ٤٠٠ تقريبا .

وللتكية ناظر ومعاون وكتبة يقومون جميعا بخدمة الفقراء، وبها طاحونة يتناوب إدارتها أربعة بغال تطحن القمح. وفيها مطبخ واسع به ثمانية أماكن يوضع عليها أوان ثمان من ذات الحجم الكبير (قزانات) وفيها مخبز ذو بابين يخبز به العيش ومخزن وحجر للمستخدمين انظر التكية (في الرسم ٧٠) وفي مدة الحج يسكنها بعض عمال المحمل كالطبيب والصيدلي وكاتب القسم العسكري وبعض الضوئية والعكامة والسقائين . ويوضع بها أمتعة الأمير والأمين وبعض الموظفين عند ذهابهم الى عرفات . وفي التكية بيوت أدب وصنابير (حنفيات) ماء ومكان جميل مفروش في وسطه بركة ماء صناعية (فسقية) ويجلس به أمير الحج وأمين الصرة وكتابه حينما يصرفون المرتبات، ومكتوب على باب التكية بالخط الثلث الجميل البيتان الآتيان :

لعباس مولانا الخديوى فضائل * عليها دليل كل يوم مجدد
رأيناه قد أحيا تكية جده . فقلنا أعباس بنى أو محمد

(سنة ١٣١٩ و١٢٣١ ه)

ولو سمعت الأدعية المتصاعدة من قلوب الفقراء لرب هذه النعمة لأكبرت هذا العمل ومسديه، وانساقت نفسك الى أمثاله ان كان لديك سعة في المال وبسطة .

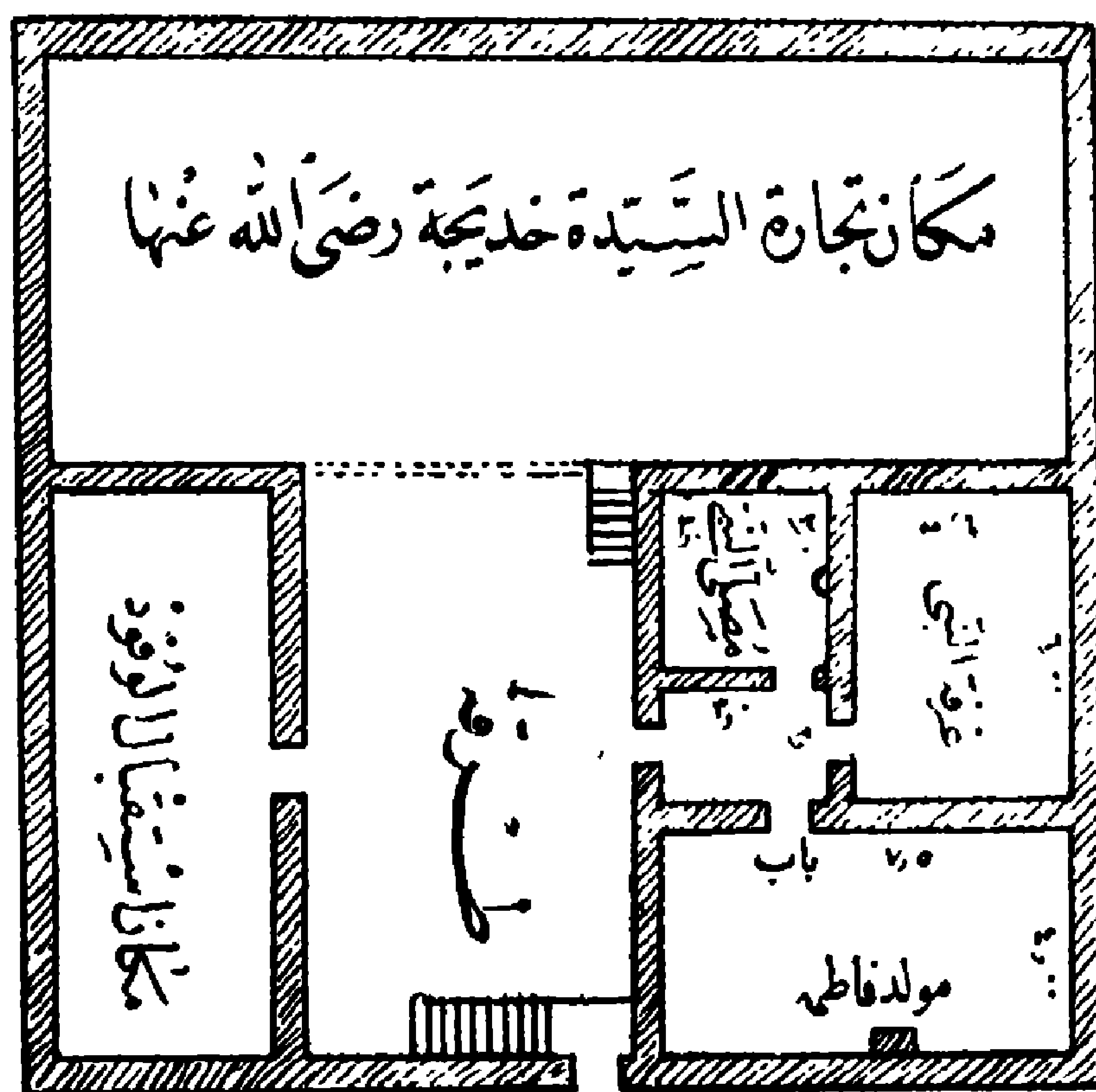
أما التكايا الأخرى فلم أزرها لأنه لا يأوى اليها فقير . وقد سطر بواجهة تكية السيدة فاطمة قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ وأنها أنشئت في سنة ١٠٨٦ هـ . زمن السلطان الغازى محمد خان الرابع كما أسلفنا .

مولد الرسول صلى الله عليه وسلم — مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بشعب بني عامر شرقي مكة وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف وينزل اليه بواسطة درج من الحجر يوصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر مترا في عرض ستة أمتار وفي جداره الأيمن (الغربي)

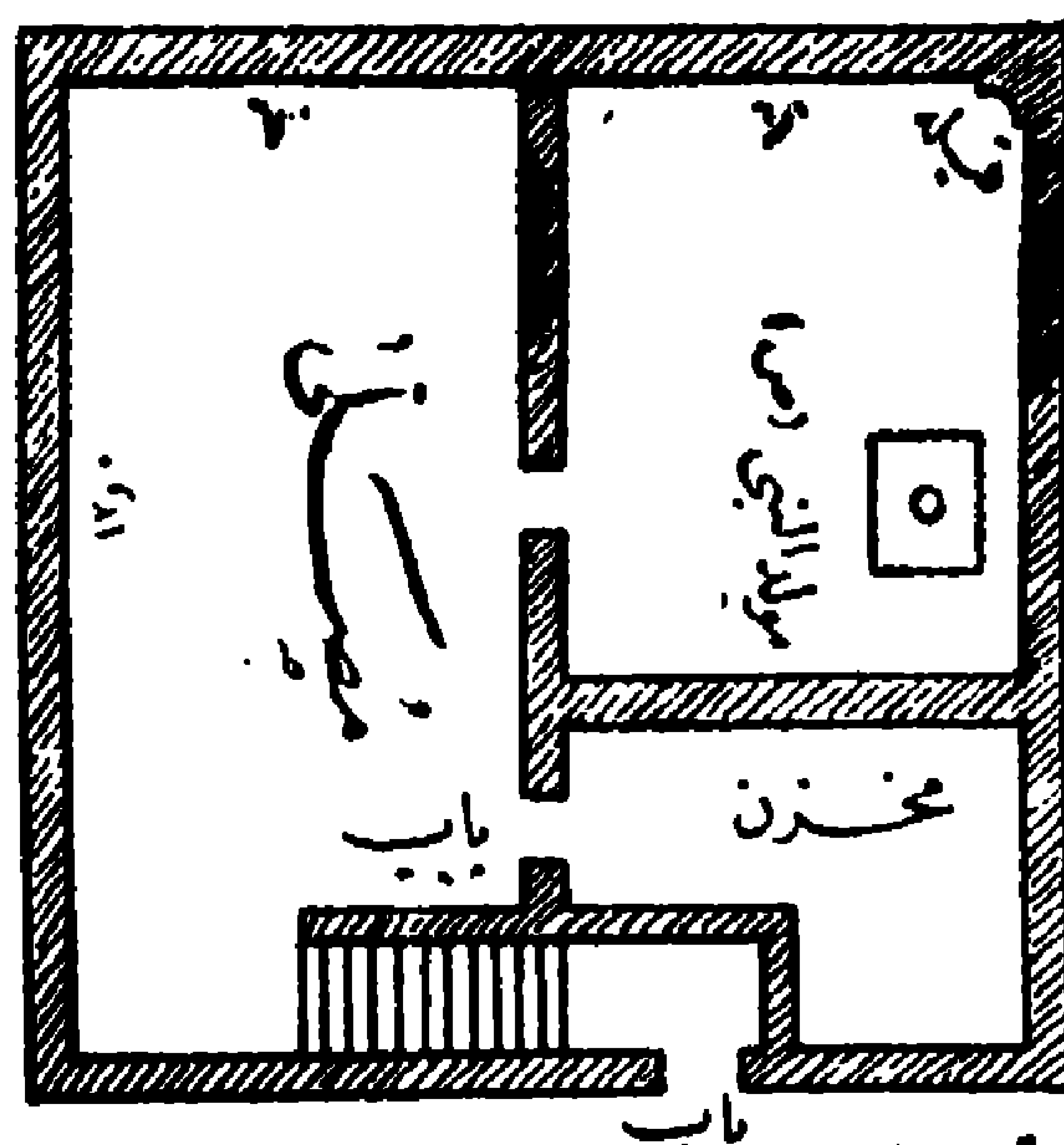
باب يدخل منه الى قبة فى وسطها (يميل الى الحائط الغربى) مقصورة من الخشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهـذه القبة والفناء الذى خارجها يكونان الدار التى ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم (رحلة البتانونى ص ٥٢ طبعة ثانية) ، وجاء فى تاريخ مكة لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى المتوفى فى العقد الثانى من المائة الثالثة فى ص ٤٢٢ طبع ألمانيا : أن البيت الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم هو فى دار محمد بن يوسف الثقفى أخ الحجاج، وكان عقيل بن أبى طالب أخذ من الرسول صلى الله عليه وسلم داره لما هاجر، وفيها يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى عام حجة الوداع لما قيل له : أين تنزل يا رسول الله "وهل ترك لنا عقيل من ظل"؟ ولم تزل الدار بيد عقيل و ولده حتى باعها ولده من محمد بن يوسف الثقفى فأدخلها فى داره التى يقال لها البيضاء وتعرف اليوم بدار ابن يوسف، و بقيت الدار كذلك حتى حجت الخيزران أم الخليفتين موسى وهارون سنة ١٧١ هـ . فجعلت دار الرسول مسجدا يصلى فيه وفصلته من دار ابن يوسف وأشرعته فى الزقاق الذى فى أصل تلك الدار و يقال له : زقاق المولد قال أبو الوليد : إنه سمع جده و يوسف بن محمد يثبتان أنه المولد وأنه ذلك البيت لا اختلاف فيه عند أهل مكة اهـ . ولكن جاء فى المواهب اللدنية أنه اختلف فى مكان ولادته صلى الله عليه وسلم فقيل : ولد بمكة فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف الثقفى ، و يقال : بالشعب — شعب بنى هاشم — و يقال : بالردم ، و يقال : بعسفان اهـ . هذا وقد جاء برحلة العياشى (ص ٢٢٥ ج ١) بعد أن ذكر خلاف أهل السير فى مولده صلى الله عليه وسلم ما يأتى : والعجب أنهم عينوا محلا من الدار مقدار مضجع وقالوا له : موضع ولادته صلى الله عليه وسلم ، و يبعد عندى كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها وعلى القول بأنه فيها ففى أى شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور، وعلى القول بتعيين الدار، فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار وانقطاع الآثار والولادة وقعت فى زمن الجاهلية

وليس هناك من يعتنى بحفظ الأمكنة ولا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، و بعد مجيء الإسلام قد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بتقييد الأماكن التى لم يتعلق بها عمل شرعى لصرفهم اعتناءهم رضوان الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذب عنها بالسنان واللسان، وكان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الاسلام من مساجده عليه السلام ومواضع غزواته ومدافن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك فى المشاعر الجليلة، فما بالك بما وقع فى الجاهلية لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له كمولد علىّ ومولد عمر ومولد فاطمة رضى الله عن جميعهم . فهذه الأماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان هذا مولد فلان. وفى ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وان كانوا أهل جاهلية، وأما مولد غيره ممن ولد فى ذلك العصر فتكاد العادة تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبهه أو أحد من أهل بيته اه . كلامه (يلاحظ أن العياشى كتب رحلته فى حجتيه سنة ١٠٥٩ و سنة ١٠٦٤ هـ) . وقد جاء فى كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للتقى الفاسى الذى كتبه فى العقد الثانى من المائة التاسعة بعد الهجرة وصف مولد الرسول وقال بعد الوصف : وقد خفى علينا كثير من عمارته والذى علمته من ذلك أن الناصر العباسى عمّره فى سنة ٥٧٦ هـ . ثم الملك المظفر صاحب اليمن سنة ٦٦٦ هـ . ثم حفيده المجاهد سنة ٧٤٠ هـ . وفى سنة ٧٥٨ هـ . من قبل الأمير شيخون أحد كبار الدولة بمصر، وفى دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر باشارة مدير دولته يلبغا الخاسكى سنة ٧٦٦ هـ . وفى آخر سنة ٨٠١ هـ . وفى أول التى بعدها من المال الذى أنفذه الملك الظاهر برقوق صاحب مصر لعمارة المسجد الحرام وغيره بمكة، وكانت عمارة هذا المولد بعد موته اه . وقد جدّد القبة التى على موضع الولادة السلطان سليمان خان سنة ٩٣٥ هـ . وفى سنة ٩٦٣ هـ . أهدى هو أيضا ثلاثة قناديل ذهبا منها اثنان للكعبة والثالث يعلق بالمولد، وقد علقت بيد الشريف أبى نمىّ .

صحيفة ١٨٩



رسم نظرى تقريبى لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظرى تقريبى لمولد النبى (ص) او دار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

71. The birthplace of the Prophet and the house of Sayyeda Khadija, Mecca.

وفى سـنة ١٠٠٩ هـ . أمر السلطان محمد خان آبن السـلطان مراد خان بعمارة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، و بنى فى أعلاه قبة عظيمة ومنارة ، ووقف عليه وقفا بالديار الرومية ورتب له مؤذنا وخادما و إماما ، وجعل لكُلٍّ شىء معين يحمل إليه كل عام ، ثم جعلت له السلطنة العثمانية مدرّسا يدرس فيه و يتقاضى مرتبا فى نظير ذلك أنظر (المئذنة والقبة متجاورتين فى وسط الرسم ٦٦ وآنظر الرسم النظرى ٧١) .

دار خديجة بنت خويلد أو مولد فاطمة رضى الله عنهما — هـذه الدار بزقاق الحجر بمكة و يقال له أيضا : زقاق العطارين على ماذكره الأزرقى وتعرف بمولد فاطمة رضى الله عنها لكونها ولدت فيها هى و إخوتها أولاد خديجة من النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر الأزرقى : أن النبى صلى الله عليـه وسلم بنى بخديجة فيها وأنها توفيت فيها ، ولم يزل النبى صلى الله عليه وسلم ساكنا بها حتى هاجر الى المدينة فأخذها عقيل بن أبى طالب ثم اشتراها منه معاوية وهو خليفة فجعلها مسجدا يصلى فيـه ، ولكن ذكر فى موضع آخر أن معتبا بن أبى لهب أخذ بيت خديجة فباعه من معاوية بمـائة ألف درهم وهذا يخالف ما ذكره من أن عقيلا أخذ بيتها وباعه من معاوية والله أعلم بالصواب ، وهـذه الدار الآن قد آرتفع عنها الطريق فيـنزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة على يسارها مسطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ٣٠ سنتيا ومسطحها نحو عشرة أمتار طولا فى أربعة عرضا ، وفيها مكتب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صـغير يصعد إليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة أبواب الذى على اليسار لغرفة صـغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولا فى أقل منها عرضا ، وهذا المكان كان معدا لعبادته صلى الله عليه وسلم ، وفيه كان ينزل الوحى عليه ، وعلى يمين الداخل إليه مكان منخفض عن الأرض يقال : إنه كان محل وضوئه صلى الله عليه وسلم ، والباب الذى فى قبالة الداخل الى الطرقة يفتح على مكان أوسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار فى عرض أربعة وهو المكان الذى كان يسكنه النبى صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها ، أما الباب الذى على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار فى طول

نحو سبعة أمتار ونصف، وفى وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذى ولدت فيه السيدة فاطمة رضى الله عنها — لا تنس ما أسلفناه فى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم للعياشى — وفى جدار هذه الغرفة الشرقى رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون: إنها من رحى السيدة فاطمة التى كانت تستعملها فى حياتها، وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمسطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر مترا، وعرضه سبعة أمتار، وأظن أنه المكان الذى كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها انظر (الرسم ٧١) . هذا وصف الدار على ما جاء برحلة البتانونى (ص ٥٣) وهو ما شاهدناه ثم قال البتانونى بعد ذلك هذه الدار التى كانت مقرّا له صلى الله عليه وسلم ومحل إقامته فى مكة ومبعثه إلى الخلق كافة اذا أنعمت بها نظرك وأمعنت فيها فكرك لا تراها إلا «البساطة» بنفسها، دار تحتوى على أربع غرف؛ ثلاث داخلية منها : واحدة لبناته ، والثانية له ولزوجه، والثالثة له ولربه، والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس؛ بالله ما هذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع! اه .

وقد جاء فى كتاب شفاء الغرام للفاسى وصفه لدار خديجة عن مشاهدته وهو مخالف للشكل الذى نراها عليه الآن قال : غالب هذه الدار الآن على صفة المسجد لأن فيها رواقا فيه سبعة عقود على ثمانى أساطين — أعمدة — فى وسط جدره القبلى ثلاثة محاريب وفيه ست وعشرون سلسلة فى صفين وأمامه رواق فيه أربعة عقود على خمس أسطوانات، و بين هذين الرواقين صحن، والرواق الثانى أخصر من الرواق المقدّم لأن بقربه بعض المواضع التى يقصدها الناس بالزيارة فى هذه الدار وهى ثلاثة مواضع، الموضع الذى يقال له : مولد فاطمة رضى الله عنها، والموضع الذى يقال له : قبّة الوحى وهو ملاصق لمولد فاطمة، والموضع الذى يقال له : المختبأ وهو ملاصق لقبة الوحى، زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يختبئ فيه من الحجارة التى يرميه بها المشركون والله أعلم بحقيقة ذلك، وذرع الموضع الذى يقال له : المختبأ أربعة أذرع وثلث ذراع، وذلك من الجدر الذى فيه المحراب الى الجدر المقابل له وهو طرف جدر

قبّة الوحى الغربى هذا ذرعه طولا ،وذرعه عرضا ثلاثة أذرع وثلثا ذراع ، وذلك من الجدر الذى فيه بابه الى الجدر المقابل له ، وذرع الموضع الذى يقال له : قبّة الوحى من الجدر الذى فيه بابه الى الجدر المقابل له ثمانية أذرع وثلثا ذراع هذا ذرعه طولا ، وأما ذرعه عرضا فثمانية أذرع ونصف بذراع الحديد المقدّم ذكره ، والموضع الذى يقال له مولد وضمة طوله خمسة أذرع إلا ثمن ، وعرضه من وسط جدره ثلاثة أذرع وثلاثة أثمان الذراع ، وفى هذا الموضع موضع صغير يشبه بركة مدوّرة ، وسعتها طولا من داخل البناء المحوط عليها ذراع وعرضها كذلك ، وفى وسطها حجر أسود يقال : أنه مسقط رأسه ، وذرع الرواق المقدّم من هذه الدار من وسط جدريه على الاستواء ثمانية وثلاثون ذراعا هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا سبعة أذرع وربع ، وذرع ما بين كل اسطوانتين منه خمسة أذرع وربع ، وذرع الرواق المؤخر من هذه الدار من جدر قبة الوحى فى الجدر المقابلة له ثلاثة وعشرون ذراعا ، هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا عشرة أذرع وكان تحرير ما ذكرنا من ذرع المواضع بذراع الحديد (٥٧ سنتيا تقريبا) كله بحضورى ، وعلى باب هذه الدار مكتوب أنها عمرت فى خلافة الناصر العباسى وفى زمن الملك الأشرف ابن شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون صاحب مصر ، وفى الرواق المقدّم من هذه الدار أن المقتدى العباسى أمر بعمله ، وعمر بعض هذه الدار فى أول دولة الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق من المال الذى أنفذه أبوه لعمارة المسجد الحرام وغيره ، ولم يعمر ذلك إلا بعد موته فى آخر سنة إحدى وثمانمائة أو فى التى بعدها ، ومما عمر فى هذا التاريخ من هذه الدار الموضع المعروف بقبة الوحى بعد سقوطه ، وبلغنى أن القبة الساقطة كانت من عمارة الملك المظفر صاحب اليمن رحمهم الله تعالى ، وإلى جانب هذه الدار حوش كبير على بابه حجر مكتوب فيه : إن هذا الموضع مربد مولد فاطمة رضى الله عنها ، وأن الناصر العباسى عمره ووقفه على مصالح دار خديجة التى إلى جانبه . اه .

وهذا الوصف فى العقد الثانى من المائة التاسعة بعد الهجرة . هذا وتجد مكتوبا بالحروف البارزة على لوح من الرخام وضع فى حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل

ما يأتى (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الإمام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وجعل منافعه ومستغلاته وأجره عائدا على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوى على ما يرى الناظر المتولى له فى ذلك من الحظ الوافر والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا لثواب الدار الآخرة، تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين، وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على بن أبى البركات الذورنى الانبارى فى سنة أربع وستمائة، ومن غيّر ذلك أو بدّله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين إلى يوم الدين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين) وقد عمر الدار السلطان سليمان فى سنة ٩٣٥ هـ. وفى هذه الدار صفيحة من حجارة مبنى عليها فى جدر البيت الذى كان يسكنه النبى صلى الله عليه وسلم، وقد اتخذ أمام الصفيحة مسجدا، وهذه الصفيحة مرتفعة فى الجدر عن الأرض قدر ما يجلس تحتها الرجل، وذرعها ذراع فى ذراع وشبر، ويقولون: إن هذه الصفيحة كان يستتر بها الرسول من الحجارة التى ترمى عليه من دار أبى لهب ودار عدى بن الحمراء، ولكن هذا لم يسمع من ثقة، وأصح ما انتهى إليه الخبر أن أهل مكة كانوا يتخذون فى بيوتهم صفائح من حجارة تكون شبه الرفاف يوضع عليها المتاع والشيء من الصينى والداجن يكون فى البيت، فقل بيت يخلو من تلك الرفاف فالصفيحة التى فى دار خديجة من هذا القبيل (ص ٤٢٣ أزرقى) .

دار الأرقم الشهيرة بدار الخيزران — هذه الدار فى زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا وبابها يفتح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار فى عرض أربعة وعلى يسارها « إيوان » مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار، وفى وسط الحائط التى على يمينها باب يدخل منه الى غرفة طولها ثمانية أمتار فى عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير، وفى زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان

أحدهما فوق الآخر مكتوب فى أعلاهما بالحرف البارز : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الإسلام ، أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين) ومكتوب فى الثانى بسم الله الرحمن الرحيم : (هـذا مختبأ رسول الله المعروف بدار الخيزران أمر بعمله و إنشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن على ابن أبى منصور الأصفهانى وزير الشام والموصل الطالب الوصـول الى الله تعالى الراجى لرحمته أطال الله فى الطاعة بقاه وأناله فى الدارين مناه فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة) « رحلة البتانونى ص ٥٥ » . وقد جاء فى شفاء الغرام للفاسى : أن طول المسجد (الحجرة التى على اليمين) الذى فى هذه الدار ثمانية أذرع إلا قيراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلث وأنه مكتوب فيه ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ : هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الخيزران وفيـه مبتدأ الإسلام أمر بتجديده الفقيرة الى الله مولاة أمير الملك مفلح سنة ست وذهب بقية التاريخ) فتجد فرقا فى هذه العبارة والعبارة السابقة ، وقال بعد ذلك : وعمره أيضا الوزير الجواد، وعمرته مجاورة يقال لهـا : مرة العصمة ، وعمر أيضا فى سـنة ٨٢١ هـ . والذى أمر بهذه العمارة ما عرفته . والمتولى لصرف النفقة فيها علاء الدين على بن ناصر محمد بن الصارم المعروف بالقائد . اهـ .

ودار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى كان يجتمع فيها المسلمون سرا يتعلمون الدين و يقيمون الشعائر حتى أسلم عمر رضى الله عنه وعزّ به الاسلام وجهر المسلمون بدينهم، وكان إسلام عمر بدار الأرقم : وها نحن أولاء ننقل اليك عن سيرة ابن هشام قصة إسلامه لمـا فيها من العبر والمواعظ قال ابن اسحاق : وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عَمْرو بن نفيل وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبدالله النحام قد أسلم وكان يخفى إسلامه فرقا ـــ خوفا ـــ مِنْ قومه، وكان خَبَّابُ بن الأَرَتّ

يختلف — يذهب — الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذكر له أنهم آجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبدالمطلب وأبو بكر بن أبى قحافة الصدّيق وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبدالله فقال له : أين تريد ياعمر؟ فقال: أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرّتك نفسك من نفسك ياعمر! أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأى أهل بيتى؟ قال: خَتَنُك(١) وآبن عمك سعيد بن زيد آبن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما ، قال : فرجع عمر : عامدا الى أخته وختنه وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة فيها طه يقرئها إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر تغيّب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليها فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التى سمعت؟ قالا له : ما سمعت شيئا ، قال : بلى! والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لاتخافى وحلف لها بآلهته ليردّنها اذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فآغتسل فأعطته الصحيفة وفيها

(١) الختن محركة : الصهر وكل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

(طه) فقرأها، فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال له يا عمر: والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر ابن الخطاب فالله الله ياعمر: فقال له عند ذلك عمر: فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا — بيت الأرقم — معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عَمَد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال يارسول الله: هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف، فقال حمزة ابن عبد المطلب: فأذن له فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إئذن له، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بِحُجْزَته — حجزة الإزار معقده — أو بجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة — جذبه — وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يارسول الله جئتك لأومن بالله و رسوله وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم و ينتصفون بهما من عدوهم؛ فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم. اهـ.

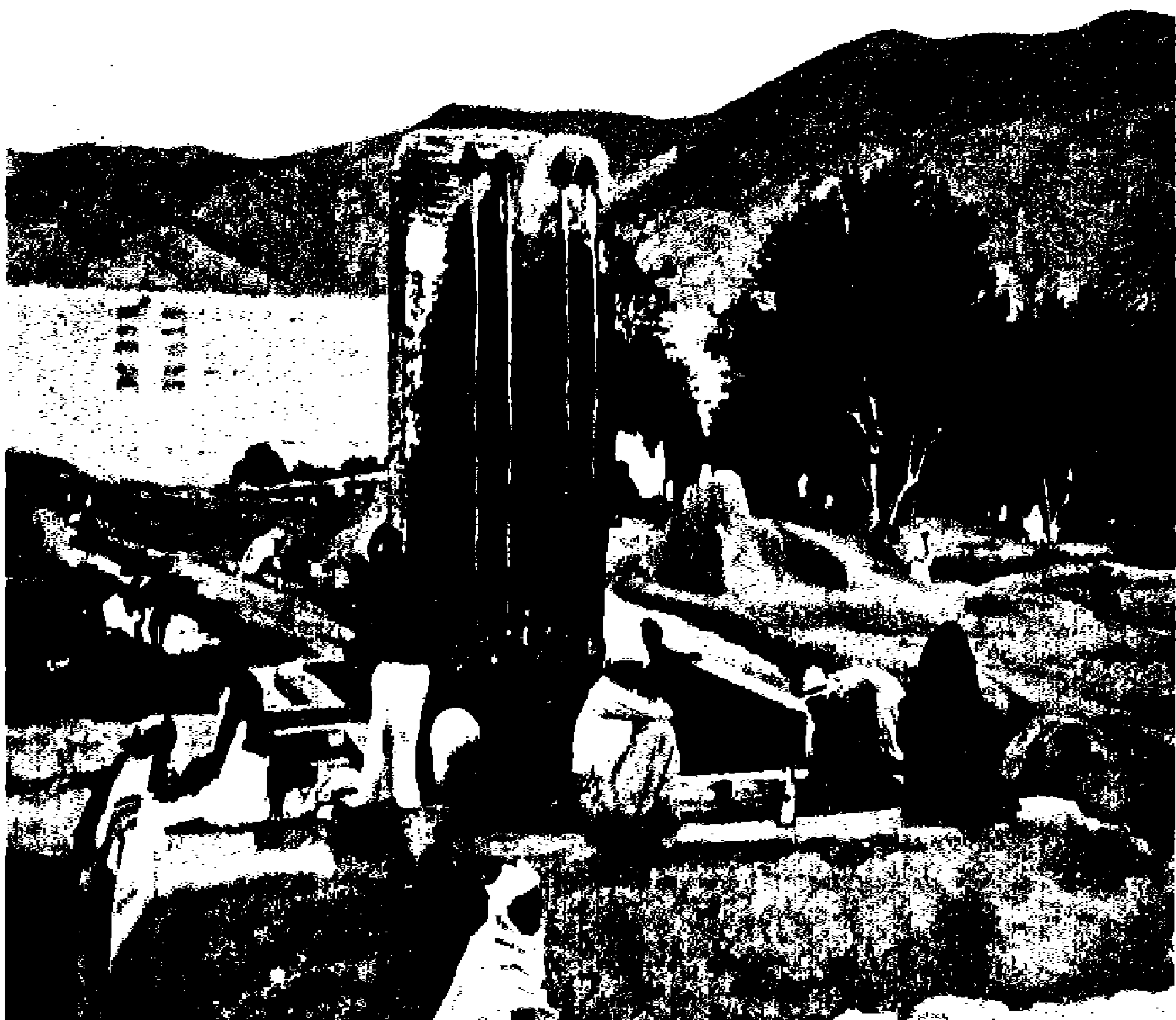
بستان دولة شريف مكة — هو حديقة غناء بجهة جرول مستطيلة الشكل طول ضلعها البحرى ٢٧٠ مترا، والغربى ١٨٠ مترا وارتفاع سورها المحيط بها متران، وفى وسطها خزان للماء مربع الشكل طول ضلعه ٦١ مترا، وسمك حائطه من الأعلى ثلاثة أمتار وربع، وارتفاعه أربعة أمتار، وهو مبنى بالحجر الأزرق وجدره من

الداخل والخارج مجصصة بالجير المخلوط بسحوق الآجر، ويصعد إليه من الجهة الشمالية أوّلا على أربع درجات ثم بعدها ١٦ درجة عن اليمين ومثلها عن اليسار، فله سلمان بعد الأربعة الأولى، وفى آخر السلم درجة كبيرة فى مستوى أعلى الخزان والسلم مصنوع من حجر متين زادته الصنعة رونقا وجمالا وفى زوايا الخزان الأربع من الداخل درج منتظم على شكل ربع الدائرة، كل زاوية فيها ١٤ درجة طول العليا منها متر والسفلى ستة أمتار ونصف، وهذا الدرج للنزول منه الى قاع الخزان، وفى منتصف كل جدار من جدر الخزان بحذاء الأرض فتحتان ارتفاع كل فتحة ثلاثة أرباع المتر فى عرض نصفه وذلك لتصريف المياه منها الى البستان، وهذا الخزان الكبير لا مثيل له فى الأقطار الحجازية لهذا عنينا بوصفه . وبالبستان أيضا خزانان بينهما أربعة أمتار ارتفاع كل منهما ستة أمتار وبأعلى كل منهما فتحتان تقذفان المياه الى بركة يشرب منها الناس ويغسلون أوانيهم وثيابهم ويغتسلون منها، وترى الماء حين نزوله أبيض اللون يمثل قطعا فضية تلاحق رميها ؛ وإنه لمنظر جميل فى بلاد قفرة قلت فيها المياه .

والمزروع من أرض البستان نحو الربع، وفيه شجر الجوافة والجوز الهندى والبرتقال والليمون والنخيل والعنب والورد والبرسيم الحجازى والكرنب والكرات والباذنجان والطماطم الى غير ذلك، ولا يفوتنا ذكر ما فيه من شجر الكادى الذى يستخرج منه عطر الكادى ذو الرائحة الجميلة، وشكل الشجرة كالصبارة إلا أن طولها يفوق المترين ولها جذوع كثيره ضاربة فى الأرض، وورقها عريض أشبه بسعف النخل من جانبه العريض وله شوك كثير .

وقد أذن لنا دولة الشريف بدخوله والاستظلال بشجره فى ساعات القيلولة، وكان معسكرنا بحذائه وشدّت طنب بعض الخيام بجداره . وقد تناولنا من الجوافة التى كانت به وقت لبثنا بمكة : انظر (الرسم ٧٢) وترى فيه الناس وهم يأخذون المياه و يغتسلون، وقد بلغنى أخيرا أن هذا البستان محى أثره بعد وفاة منشئه الشريف عون

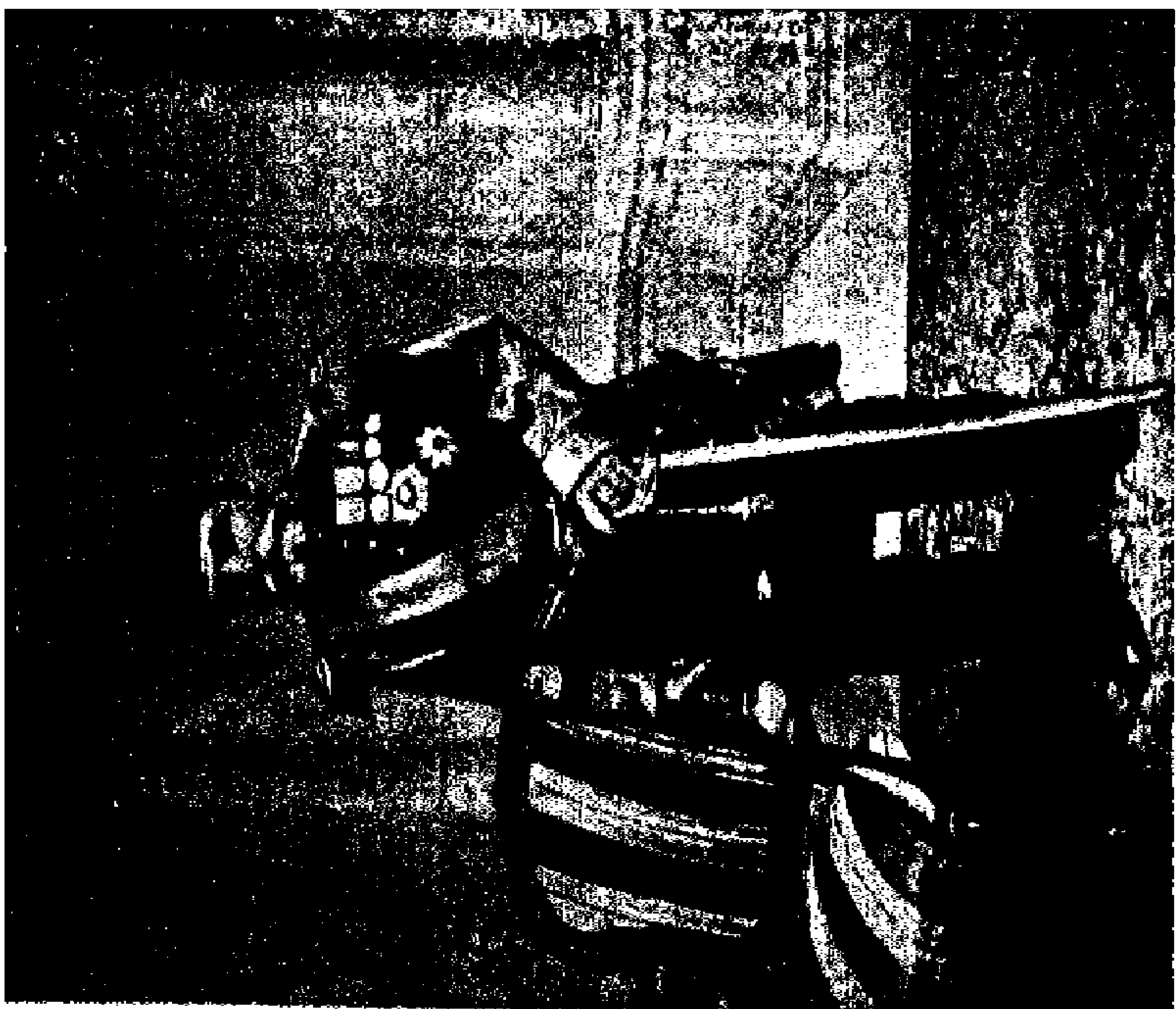
حديقة الشريف عون الرفيق وبها منحدر مياه من عين زبيدة



72. The garden of El Sherif Oun El Rafik with a water-fall from the well of Zobeidah.

[illegible]

العادل [illegible]



73. El Moshir Osman Pash Noury, the Wali of El Hejaz

[illegible]

الرفيق باشا فتحقق بذلك المثل " الجزاء من جنس العمل " وذلك أن والى مكة العادل المشير عثمان نورى باشا[١] كان قد أنشأ بالقرب من معسكر المحمل بستانا بهجة للناظرين فيه من الأشجار أجملها ومن الثمار أطيبها وأباحه لأهل مكة يتنزهون فيه و يستظلون بوارف ظله ، وكان أول ما أنشئ بمكة من متنزهات ، فما كان من الشريف إلا أن سعى به لدى الخليفة فعزله ، وأمر بإزالة البستان الذى أنشأه وأنفق عليه الآف الجنيهات .

تأثير السيول فى مبانى مكة — إن مكة فى واد تحف به الجبال فاذا هطلت الأمطار بشدة تجمعت فى الأودية بسرعة وهرعت الى مكة فكونت فى كثير من أماكنها بحيرات ترى البيوت فيها أشبه بالجزر، واذا علمت أن المسجد الحرام وطئ عن الشوارع بنحو ثلاثة أمتار أدركت أنه عند طغيان السيول يتحوّل الى بحيرة بعيدة الغور ، لذلك تنبغى العناية بتأسيس البيوت حتى لا يجرفها السيل أو يأتى عليها من قواعدها ، وللسيول بمكة حوادث غريبة دعتنا الى أن نسطر لك بعضها .

ففى زمن جرهم أيام كانوا ولاة البيت جاء سيل جارف هدم الكعبة فبنته جرهم على قواعد اسماعيل ، وكان البانى رجلا أزديا يدعى أبا الجارود .

(١) ولى أمر الحجاز لأول مرة سنة ١٢٩٩ هـ . وهو رجل ذكى شهم سياسى تحيل فى القبض على الشريف عبد المطلب الذى هم بالخروج على الدولة فعزلته من إمارة مكة وولت مكانه عون الرفيق باشا وقد وشى هذا بعثمان نورى باشا لما أن غل يده عن المكوس والمظالم التى كان يتقاضاها من العربان والحجاج ، فعزل بالوشاية بعد خمس سنوات وعين واليا على اليمن ثم أعيد الى ولاية الحجاز وقد أصلح مجرى عين زبيدة وعمل فيها صنابير (حنفيات أو بازانات) وهو الذى أنشأ ديوان الحميدية ودار البريد والثكنات العسكرية بمكة وجدة وأنشأ سور ينبع ، وقد أنشأ الحديقة المذكورة فى ولايته الثانية ولم يكن موضعها مقبرة و إنما كان فضاء واسعا ، ولما امتلأت نفس عون منه خرج الى المدينة فى جمع من علماء مكة وأشرافها وضم إليه علماء المدينة وأشرافها وكتبوا الى السلطان يطعنون فى الوالى وأنه يكره الأشراف ويسبهم و يهينهم و يحتقرهم و إنه حول مقبرة المسلمين الى متنزه ، فما كان من السلطان إلا أن عزل العادل المصلح ، وكان خليقا بأمير المؤمنين أن يتبين فى قول الشريف كما أمر الله فى كتابه وأن لا يحكم على متهم إلا بعد استجوابه واستماع قوله .

(أنظر الوالى فى الرسم ٧٣)

وفى زمن خزاعة جاء سيل عظيم دخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة ورمى بالشجر وجاء برجل وآمرأة ميتين، فعرفت المرأة وكانت بأعلى مكة يقال لها : قارة وسمى السيل باسمها ولم يعرف الرجل، فبنت خزاعة بناء حول البيت أداروه وأدخلوا الحجر فيه ليحصنوا البيت فلم يزل ذلك البناء الى زمن قريش .

وفى سنة ٨٠ هـ . نزل سيل عظيم دفعة واحدة ذهب ببعض الحجاج و بأمتعتهم وكان يحمل الإبل عليها الأحمال والرجال والنساء ودخل المسجد فأحاط بالكعبة و بلغ الركن وهدم بيوتا كثيرة انقضت على كثيرين فأماتتهم، فرقى الناس الجبال واعتصموا بها وسمى ذلك السيل « سيل الجحاف » وفيه يقول عبد الله بن عمارة

لم ترعينى مثل يوم الاثنين * أكثر محزونا وأبكى للعين
اذ خرج المخبيات يسعين * شواردا الى الجبال يرقين

وفى سنة ١٠٤ هـ . وقع سيل يقال له : المخبل لأنه أصاب الناس بعده مثل الخبال من مرض حدث بهم عقبه فى أجسامهم وألسنتهم، وكذلك حصل سيل آخر فى هذه السنة .

وفى سنة ٢٠٨ هـ . حدث سيل عظيم أحاط بالكعبة و بلغ الباب والحجر الأسود وهدم أكثر من ألف دار ومات به أكثر من ألف ،ملأ المسجد والوادى بالطين والبطحاء وذهب بصناديق الباعة فألقى بها فى المسفلة ، وفى ذلك كتب عبيد الله آبن الحسن الى المأمون يستنجد به : « يا أمير المؤمنين إن أهل حرم الله تعالى وجيران بيته وألّاف مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بعز معروفك من سيل تراكمت جرياته فى هدم البنيان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الأموال وجرف الأثقال حتى ما ترك طارفا ولا تالدا للراجع اليها فى مطعم ولا ملبس فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة الى البكاء على الأمهات والأولاد والآباء والأجداد، فأجرهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم و إحسانك اليهم تجد الله مكافئك عنهم ومثيبك على الشكر منهم » فوجه المأمون اليهم الأموال الكثيرة وكتب اليه (أما بعد، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله الى

أمير المؤمنين فبكاهم بعين رحمته وأنجدهم بصيب نعمته وهو متبع لما أسلف اليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ان أذن الله فى تثبيت نيته على عزمه) فكان كتابه أسر لأهل مكة مما بعث اليهم .

وفى سنة ٢٥٣ هـ . دخل مكة سيل عظيم أحاط بالكعبة وقارب الحجر الأسود وهدم دورا كثيرة وملأ المسجد غُثَاءً حتى جرف بالعجلات .

وفى سنة ٣٤٩ هـ . لما برز الحج قافلا جاءهم سيل فأخذهم عن آخرهم وألقى بهم فى البحر وما أتى مصر منهم أحد نسأل الله العافية .

وكذلك حدثت سيول فى سنى ٥٥٩ و ٥٧٣ و ٦٥٠ و ٦٦٩

وفى سنة ٧٣٣ هـ . فى آخر ذى الحجة وقعت أمطار وصواعق منها صاعقة على أبى قبيس قتلت رجلا، وثانية بالخيف قتلت رجلين، وثالثة بالجعرّانة قتلت رجلين أيضا .

وفى سنة ٧٣٨ هـ . وقعت سيول جاء معظمها من وادى إبراهيم ودخلت المسجد وعلت على العتبة قدر شبرين، ودخل المطر قناديل المطاف وهدم مايربو على ٨٠٠ دار وغرق ناس ومات آخرون تحت الأنقاض .

وفى سنة ٧٥٠هـ . نزل مطر وصاعقة وريح سوداء أوقعت جميع الأعمدة المتجدّدة حول المطاف التى جدّدها فارس المدين فى سنة ٧٤٩ هـ . ولم يبق منها إلا عمودان .

وفى سنة ٨٠٢هـ . نزل سيل كأفواه القرب جعل فى مكة بحرا زاخرا وملأ المسجد الحرام حتى كان عمقه خمسة أذرع ودخل الكعبة من شق بابها وأسقط عمودين بما عليهما وهدم دورا كثيرة ومات به نحو ٦٠ شخصا ما بين غرقى وهدمى .

وفى سنة ٨٢٥ هـ . وقع مطر عظيم صحبته صاعقة أماتت أربعة أشخاص .

وكذلك حصلت سيول فى سنى ٩٧١ و ٩٨٣ و ١٠٢١ و ١٠٢٤ و ١٠٣٣

وفى سنة ١٠٣٩ هـ . نزل مطر شديد أمات نحو ١٠٠٠ شخص فى يوم وليلة ودخل المسجد الحرام وبلغ طوق القناديل وأسقط الجانب الشامى من الكعبة بوجهه

وأخذ معــه من الجدار الشرقى الى البــاب، ومن الغربى من الوجهين نحو السدس ودخل بيوتا فأخرج منها الأمتعة وذهب بها الى المسفلة .

وفى سنة ١٠٧٣ هـ . نزل مطر شديد وصل من المسجد الحرام الى القناديل .

وفى سنة ١٠٩١ هـ . أمطرت السماء مطرا لم يشاهد مثله خرّب أكثر البيوت خصوصا ما كان بسوق الليل والمسفلة والأطراف المنحدرة، ودخل المسجد الحرام و بلغ الى نصف الكعبه، وكان ذلك اليوم يوم خروج الحج المصرى ففرق المسافرين، ومن غريب الاتفاق أن حمل السيل جملا محملا ودخل به الى الحرم فلم يزل السيل يدفعه — وقد انقطع حمله — حتى رقى على منبر الخطيب ولم يزل به الى الصبح من اليوم الثانى وقد أرّخ بعضهم هذا السيل بقوله (طغى المــاء) .

وفى ســنة ١٠٩٣ هـ . عملت فى المسفلة (أسفل مكة) قناة عظيمة لتصرف السيل الى بركة ماجن .

وفى يوم السبت ٢١ ذى الحجة من سنة ١٣٢٥ (٢٥ يناير سنة ١٩٠٨) فى حجتى الرابعة نزل مطر شديد وجرى السيل من كل جهات مكة بشكل لم يسبق له مثيل منذ ٣٣ سنة على مابلغنى، وكان السيل أشبه بمــاء النيل المنحدر وكان عرضه وهو ينحدر من جبال جياد نحو ٥٠ مترا وسمعنا دوى صاعقة بجيــاد مثلت صوت جملة من المدافع الضخمة أطلقت فى لحظة واحدة، وقد ملأ الشوارع حتى كان عمقه فى شارع وادى ابراهيم مترين تقريبا، ولذلك دخل المسجد الحرام من أبوابه وانقطع المرور من الطرق إلا بالسباحة، وكنت ترى الشقادف ورحال الإبل سابحة فى المــاء وتســمع دويا للمــاء كأنك أمام القناطر الخيرية وقد فتحت عيونهــا وتجد الناس فى (الرسم ٧٤) وقد خرجوا من المسجد الحرام من باب الرحمة يستعدّون لاجتياز هذه المياه وقد كشفوا عن سوقهم ورفعوا ثيابهم الى ركبهم ودون ذلك وأكثر.

الحجاج يجتازون السبيل بمكة سنة ١٣٢٥

74. A photo of the pilgrims passing through El Sabil in Mecca in 1325.

حقوق الطبع والنشر محفوظة [illegible] سنة ١٣٦١

[illegible]

75. Mosque & Mausoleum of El Sayyeda Maymuna, wife of the Prophet Mohamed, at Sarif between Mecca & Medina.

سكان مكة — قال تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً(١) لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ وقال ﴿ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ(٢) ﴾ لهذا هرع المسلمون من أقطارهم المختلفة الى الاقامة بمكة المكرمة احتماء بحرم الله وابتغاء لفضل الله ورضوانه وقصد التجارة للدنيا والآخرة وذلك من يوم أن انتشر الاسلام فى أطراف المعمورة الى يومنا هذا .

وقد كان من أثر ذلك أن كان المكيون من أجناس مختلفة وأمم متباينة ؛ فمنهم المكى الصميم ، ومنهم أعراب البوادى الذين توطنوا مكة يمنيين وحضرميين وحجازيين ونجديين ، ومنهم الهنود والجاوة والبخاريون والأفغان والأعجام والشوام والأتراك والمصريون والسودانيون والمغاربة وكثير غيرهم من الأمم الاسلامية ، ولما كان للغربة والهجرة أثر كبير فى الجد والنشاط كان معظم التجارة بأيدى الأغراب ، فالأشياء الثمينة والبيوت التجارية العظيمة بأيدى أولئك .

قال صديقنا الفاضل لبيب بك البتانونى فى رحلته : ومن اختلاط هذه الأجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطا فى خَلْقهم وخُلُقهم فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الأناضولى وعظمة التركى وآستكانة الجاوى وكبرياء الفارسى ولين المصرى وصلابة الشركسى وسكون الصينى وحدة المغربى وبساطة الهندى ومكر اليمنى وحركة السورى وكسل الزنجى ولون الحبشى ، بل تراهم جمعوا بين رقة الحضارة وقشف البداوة ، فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك وضعته بين يديك إذ هو قد استوحش منك وأغلظ فى كلامه حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه فى حضرتك .

وقد وصل هذا الخلط الى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية وقفطان مصرى وجبة شامية ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص فى حزام الأشراف مفضضا أو مذهبا بشكل جميل جدا ، وكثيراً

(١) مكانا يثوب الناس إليه ويرجعون .

(٢) المقيم والطارئ .

مايكون مرصعا بالأحجار الكريمة، وقد ترى الصانع الفقير يلبس القميص وعلى طوقه الوشى المشغول بالحرير وعلى رجل سراويله شي يشبه « الركامة » وهو حافى القدم غير أنك لا تلاحظ هذا فى طبقة الأشراف التى ترفعت عن هذا الخليط فلم يؤثر فيهم الغريب ولم يتغلب عليهم خلق جديد ، بل أخلاقهم أخلاق عربيــة بحتة هى التى ورثوها عن آبائهم السالفين .

ثم قال : والذى يؤسف له أن هــذا الخلط وصل الى لغتهم فتراهم يتكلمون فى الأكثر بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة أو فارسية أو تركية وهم ينونون المضاف فيقولون : فى هذا حق فلان مثلا : هذا حقٌّ فلان مع ابدال القاف جيما مصرية ، ومنهم من يمد الحرف المنون فيقول « هــذا حقون فلان » أو يؤنث لفظه فيقول « حقة فلان » ولا يحذفون النون من الفعل فى صيغة الأمر للجمع فيقولون : « هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا وآركبوا ويسـتعملون الترخيم فى غير المنادى فيقولون : « قم لِعِنا » أى قم لعنــدنا ويقولون : فى الإبل « البِل » بكسر الباء وفى الجبل « البَل » بفتحها ويقولون كِمنا أى كانا (خلصنا) ويقولون : « وصابتى» فى وامصيبتى، والَّلن فى اليمن ، ومما يكثر سماعه منهم قولهم : « دَحِين » فى هذا الحين و « اِزْهَم فلان » فى ادع فلانا، ويعبرون عن الرجل بلفظ « زلَمَــة » ويجمعون الرجل على «أوادم» ويقولون «زَكِّنُه» أى فكره أو نبهه وقل كذا أى اعمل كذا ويقولون « أبيض » للاستحسان و « سنِّع » فى اصنع أو أتقن و «آتجعمص» فى اجلس و « فصِّخ حذاك » أى اخلع نعالك ، ويقولون : « مِشْلح » للعباءة ، و«شاية» للقفطان، و«امرح» :آجر، و«الوَدَن» للفدان من الأرض، «والصَّمادة» للكوفية، و « زكن عليه » أى أكد عليه، و « زِل » بمعنى مر، و « آندر » بمعنى آخرج ، و « إلَّا » بمعنى نعم، ويسمون الأولاد « البزورة » فيقولون : بزورة فلان أو بزران فلان أى أولاده ، ويسـتعملون لفظة « هرِّج » فى معنى كلم فيقولون : ما هرَّجته أى ما كلمته ، ويستعملون لفظ « صاقن » التركيــة للتنبيه والاحتراس

و « قرپوز » للبطيخ الخ ، وهذا كله مع كثرة أغلاطهم وعدم مراعاة قواعد العربية فى النطق والكتابة .

وما كان ينبغى بأم البلاد العربية أن تكون لغة أهلها على هذه الشاكلة ، وكان جديرا بها أن تكون موئل العربية الفصحى ومنهلها العذب كما كانت كذلك فى أيام الجاهلية وصدر الاسلام ، ولكنه الاهمال يذهب بالمجد التليد والعز القديم . وأكثر أهل مكة يعرف التركية ومن المطوفين من يتكلم بلغات مخصوصة كالهندية والأوردية — هندية أيضا — والجاوية والصينية والفارسية وأهل البادية لغتهم عربية بحتة ، ولكن لا تكاد تفهمها ولكل قوم لهجة خاصة ، فمنهم من يقلب القاف زايا فيقول « زربة » فى قربة ، ومنهم من يقلب الكاف سينا فيقول « سواسب » فى كواكب و « سبد » فى كبد الخ .

وسكان مكة يزيدون على ١٢٠ ألفا كلهم مسلمون إذ قد حرم الاسلام أن يقربها مشرك ، قال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا (١) وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً (٢) فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فلم يسكنها مشرك من ذلك العام ، وذلك ليكون مبعث الاسلام ومشرقه الأول بمنجى ممن يدسون للسلمين الدسائس ويثيرون الفتن ، بل مازال عمر فى خلافته يجدّ حتى طهر جزيرة العرب ممن يدين بغير الاسلام فكانت للسلمين حصنا حصينا وحرزا منيعا خلا من مثارات الفتن وأهل الأهواء والريب .

عادات المكيين — جاء فى رحلة صديقنا لبيب بك أن من عادات أشراف مكة أن يرسلوا أولادهم وهم فى نعومة أظفارهم الى البادية وخصوصا الى قبيلة عدوان التى فى شرق الطائف وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينشئون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى اذا ترعرعوا عادوا الى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من أشعارهم وأخذوا من عاداتهم وأخلاقهم التى من أحسنها الفروسية والحرية فى القول والفعل .

(١) سنة تسع . (٢) فقرا .

ومن عادة الشريف أن يجلس للحكم فى دار الإمارة كل يوم من الساعة الخامسة نهارا الى قبيل العصر فتعرض عليه المسائل العامة .

ومن عادته أن يستقبل صباح الجمعة فى دار الإمارة الوالى وكبار الموظفين والأشراف والوجوه .

ومن عادات المكيين التأنق فى المأكل والمشرب واللباس وتكثر فى لباسهم الألوان الزاهية خصوصا الأخضر والأحمر والأزرق والوردى، وترى فى مساكنهم كثيرا من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة ولاسيما البسط العجمية النادرة المثال .

ومن عاداتهم تقديم الشاى فى أى وقت تحية للقادم عليهم وإقامة المآدب فى حفلة يسمونها قَيْلَة ويتفاخرون بكثرة صنوف الطعام، وليس لأطعمتهم نظام مخصوص، فمنها : الهندى والمغربى والشامى والتركى والمصرى ويقعد المدعوون فى هذه الولائم على سماط يمدّ على الأرض ويقدّم اليهم الطعام لونا فلونا، وبعد ذلك يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغانى وآلات الطرب كالعود والقانون والرباب ثم ينصرفون وفى الأكثر تكون هذه الحفلات فى ضواحى مكة كالزاهر والشهداء، وهنالك يبكرون اليها ويقضون يومهم فى سرور وألعاب رياضية كالمسابقة بالجرى أو لعب الكرة أو النرد أو الشطرنج .

ولأهل كل حارة من حارات مكة وليمة يقيمونها للشريف كل سنة فى أحد متنزّهاتهم خارج البلد، فيحضر مع خاصته فى موكبه ويتناولون الطعام وتقام الألعاب حتى آخر النهار وبعد فترة من الليل يعود فى موكبه الى مكة .

ومن عاداتهم أن يتناولوا الطعام مرتين فى اليوم فى الضحوة وبعد صلاة العصر، ويتظاهرون بالكرم والشجاعة خصوصا فى شهر رمضان وقد كانوا يفطرون فى المسجد الحرام بعد صلاة المغرب فيمدّون الموائد هناك ولكن أبطل عون الرفيق باشا هذه العادة لما يتبعها من تقذير المسجد وقد أمرنا بنظافة المساجد وتعطيرها، ومن عادة كثير منهم شرط وجنات الصبيان ثلاث شرطات فى كل وجنة .

ونساؤهم يدخن بالنرجيلة (الشيشة) ويفشو بينهن الزار ويخرجن الى الأسواق بملاءات واسعة سوداوات فى الأكثر وبرقع كثيف فيه ثقبان صغيران فى محاذاة العينين، وفى أقدامهن خفاف ضخمة أغلبها ذو لون أصفر .

ومن عادتهم فى عرسهم أن يدعوا الأهل والأصدقاء رجالا ونساء ويجلس الرجال خارج البيت فى المكان المعدّ لهم ، ويمدّ لهم فى العشاء سماط طويل يجلسون عليه جميعا مرة واحدة فيأكلون وينصرفون . أما النساء فيدخلن البيت فيجدن على باب القاعة التى يجلسن فيها قصعة كبيرة مملوءة بمعجون الحناء، فتصبغ المرأة منها إحدى يديها ثم تدخل الى قاعة الجلوس و بعد السلام تجلس مع الجالسات يتجاذبن أطراف الحديث حتى منتصف الليل، واذ ذاك يزففن العروس الى بعلها ثم يعدن الى بيوتهن بعد أن يطوّقن عنقها بعقود من زهر الفل أو ثمر التفاح وهو فى قدر البندق .

ومن عادتهم فى مآتمهم أنه حينما تفيض الروح الى بارئها تصرخ امرأة من أقرب الناس اليه صرخة أو صرختين إعلاما بالمصيبة ، فيتوارد اليها النساء فيجدن قصعة على باب القاعة التى يجلسن فيها ملئت بمعجون الحناء فيخضبن منها إحدى اليدين ثم يدخلن القاعة معزيات صاحبة المصيبة ثم يجلسن ويأخذن فى الأحاديث المختلفة ثم ينصرفن والميت يأخذه بعض أقاربه الى محل يسمى الشرشوره يغسل فيه ثم يسرعون به الى المقبرة ، ويدفنونه بدون احتفال كبير ثم يتوارد الرجال على أهله معزين ثم ينصرفون لوقتهم .

ومن عادتهم أنهم يعملون حفلة كبيرة عند ختم أولادهم للقرآن، فيسيرون بهم فى موكب يقطع طرق مكة . ويحتفلون فى منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند مدفنها بِسَرِف (الرسم ٧٥) على مسير ثلاث ساعات من مكة على طريق المدينة، فينصبون خيامهم فى تلك الصحراء و يتفاخرون بكثرة الطعام والشراب. ويحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأوّل و يعبرون عن المولد بالحول فيقولون حول النبي وحول ميمونة، ومما تعوّدوه الاصطياف

فى الطائف وفى جبل الهدة فوق جبال كرا، لطيب هوائهما وكثرة بساتينهما ويرتفع الطائف عن بحر جدّة ١٥٤٥ مترا ويرتفع الهـدة عنه ١٧٥٨ مترا والكرا ٨٢٢ مترا[(١)] وأشهر مصيف فى الطائف يسمى شبرا وهو لأشراف ذوى عون، أنشأه الشريف عبد الله باشا وسماه باسم شبرا مصر ثم حدائق المثناة وهى لذوى غالب وهى أحسن حدائق الطائف ومشهورة بخوخها وعنبها، وماؤها أعذب مياه تلك الجهة .

جوّ مكة — جوّها جاف وحار وتختلف درجة الحـرارة فى بعض الشهور عن بعض، ففى يناير تكون ١٨° وفى فبراير ٢٠° وفى مارس ٢٣° وفى أبريل ٢٤° وفى مايو ٢٧° وفى يونيه ٢٩° وكذلك فى يوليه وفى أغسطس ٣٠° وفى سبتمبر ٢٨° وفى أكتوبر ٢٥° وفى نوفمبر ٢٤° وفى ديسمبر ٢٠°، هذا هو الجوّ الاعتيادى وقد تصل الحرارة الى ٣٩°[(٢)]، والأمطار بها قليلة وقد تحدر اليهـا سيول عظيمة تحوّل مكة الى بحيرات وتأتى من الأمطار التى تنزل بالجبال المطيفة بالطائف،وقد وصفنا لك سابقا السيل الذى كان فى سنة ١٣٢٥ هـ . والرياح فى مكة مختلفة المهاب فتارة تهب من الشمال وأخرى من الغرب وثالثة من الجنوب ورابعـة من الشرق، ومنشأ ذلك أن الجبال تطيف بمكة والهواء يعمل فيما بينها شبه دوامات المـاء فتأتى الرياح من جميع الجهات وألطف الأهوية عندهم ماجاء من جهة البحر الأحمر، ثم من جهة الشام، أما ما يهب من الشرق أو الجنوب فحارّ .

تجارة مكة — أكثر الأشـياء التى يتجر بها فى هذا البلد يأتى من الخارج : كالبصرة ومصر وبومباى واليمن والشام وغيرها، وأكثر التجار من الأجانب الذين سكنوا مكة، ومن الأصناف التى يتجرون فيها العطريات والسبح والسجاجيد والأنسجة الحريرية الهندية والشامية وأنواع الحلى وتأتى اليها الخضراوات والفواكه كالعنب والموز والجوز والسفرجل وغيرها من جهة الطائف ومن بركة ماجن التى تبعد

(١) دليل الحج لصادق باشا ولكن فى «سلنامة» — تقويم — الحجاز أن ارتفاع الطائف ١٧٧٥ متر

(٢) سلنامة ١٣٠٥ ص ١٤٩

عن مكة مسير نصف ساعة وكذلك من مزارع جنوبى جبل ثور تبعد عن مكة مسير ساعتين وتأتى أيضا من بساتين وادى فاطمة على بعد خمس ساعات، ومن سولة ووادى الليمون على بعد أربع عشرة ساعة من مكة، وأهم سوق للخضراوات واللحوم السوق الصغير غربى المسجد الحرام أمام باب إبراهيم، والمجوهرات والأشياء الثمينة فى سوق الشامية، ولوازم الحجاج فى سوق الليل شرقى المسجد الحرام . وهاك جدولا بالنقود المستعملة فى مكة وجدة وقيمتها بالقروش العثمانيــة فى زمن الحج و بعــده نقلناه عن رحلة المرحوم محمد صادق باشا .

من بعد الحج	وقت الحج	أسماء العملة	من بعد الحج	وقت الحج	أسماء العملة
ص	ص		ص	ص	
١٧١	١٦٩	الجنيه المصرى	٢٩	٢٨	الريال الشنكوا
١٧٠	١٦٨	« الانجليزى	٢٨	٢٦	« المجيدى
١٥١	١٤٨	« العثمانى	١٣	١٣	الروبيــــة
١٣٣	١٢٨	البنتـــو	—	٥	الفـــرانق
٢٨ ١/٢	٢٨	الريال بطاقة	—	١ ١/٢	القرش المصرى

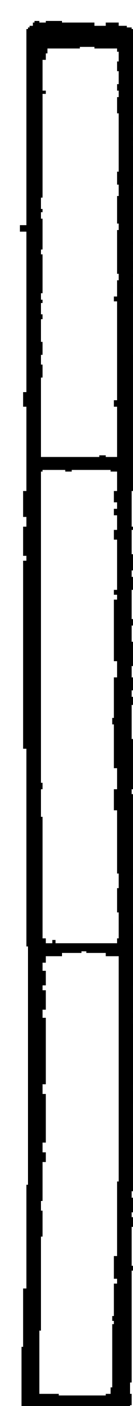
وأكثر النقود استعمالا النقود العثمانيــة وغيرها أكثر ما يتعامل به فى أوان الحج بحسب قيمته .

ميــاه الشرب فى مكة — قدمنا لك نبــذة عن الصهاريج فى مكة ولم نبين إذ ذاك موارد مياهها وها نحن نشبع الكلام فى ذلك إشباعا ونقفك على سر من أسرار القدر وعمل من أجل الأعمال ربمــا شق مثله فى عصرنا عصر الاختراعات والتقدم الباهر فى الصناعات، ولكنها الهمم لا يقف دونها شىء ولا يصدها عن تنفيذ عزماتها صاد ولا سيما اذا صفت النية وخلصت السريرة، فاستمع وفقك الله لخير العمل وأبره، فى طريق الطائف على بعد نحو أربعين كيلومترا من مكة جبال تسمى جبال الثقبة تنبع من عندها عين تسير فى قناة بنيت لها من منبعها حتى عرفة فالمزدلفة فمنى فمكة، وهذه العين تعرف بعين زبيدة، وهذه القناة عرضها من الأعلى متر وقد تزيد، وفراغها

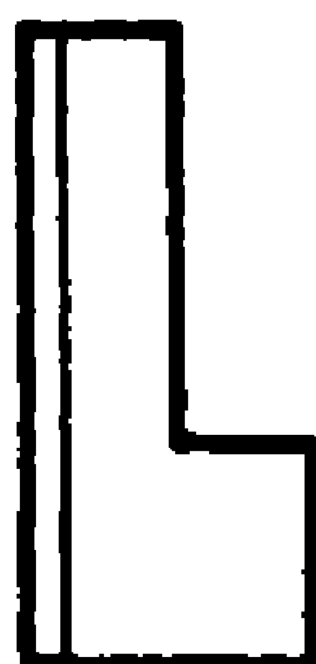
من ٥٠ الى ٦٠ سنتيمترا، وعمقها متر ونصفه، وارتفاع المـاء فى قاعها ٧٠ سنتيمترا وقد يزيد وقد ينقص وهى مغطاة بأبنية الحجارة، وبالغطاء فتحات لأخذ المـاء منها، عرضها ستون سنتيمترا وتنقص أو تزيد، والفتحات يتباعد بعضها عن بعض بمسافات مختلفة حسب الحاجة، وبجانب الفتحات أحواض لشرب الآدميين وأخرى لشرب الحيوان، وسطح القناة تارة يكون مساويا لسطح الأرض وتارة يرتفع عنها وقد يصل الأرتفاع الى ٧ أمتار، وتارة تسير فى تخوم الأرض على مقربة من سطحها أو أبعد، ومن هذه القناة تأخذ كل صهاريج مكة فيشرب أهلها عذبا فراتا، وهذه القناة تدور فى سفح جبل عرفات من ثلاث جهات كما ترى ذلك بخريطة عرفة (رسم ٧٨)، وفيها هنالك فتحات كثيرة بين الفتحة وأختها ٤٫٥٥ أمتار، وعرض الفتحة ٦٨ سنتيا فى عرض ٨٠، وقد يزيد الطول والعرض على ذلك الى متر، وعمق القناة ١٫٣٢ متر، وعرضها ١٫٤٦ متر من الأعلى، ويصعد الى الفتحات بسلالم قد تصل درجات السلم الى١٥، وعلو الدرجة من ٢٥ سنتيا الى ٣٥ سنتيا، وعرضها ٣٠ سنتيا وهذا المقاس إنما كان فى المجرى جنوبى جبل الرحمة فقط، وهذه الحياض ترم وتنظف كل سنة قبل موسم الحج بقليل . ومما لاحظته أن هذه الحياض بعرفة دون حاجة الحجيج ودوابهم، فان الحجيج زادوا على ١٥٠٠٠٠ شخص، ومعهم من الحيوان مالا يقل عن ٣٠٠٠٠ حيوان، فترى الناس فى زحام شديد على هذه الحياض، وليس هناك جند يقى بعضهم صدمات بعض أو يقدمهم الى الأحواض بنظام، وبسبب هذا التزاحم تتقذر المياه حتى لا تصلح لشرب الحيوان فضلا عن الانسان، وبسببه أيضا يعمد النـاس الى أخذ المياه من الفتحات التى فى المجرى والتى يصعد اليها الناس بسلم ذى أربع عشرة درجة، وهنالك يتوضأون أو يغتسلون من نفس المجرى أو ينظفون ثيابهـم وأوعيتهم فيقذرون المياه ولو من أرجلهـم على الأقل . ولولا جريان المـاء لكان من ذلك أضرار محققة بصحة الحجاج .

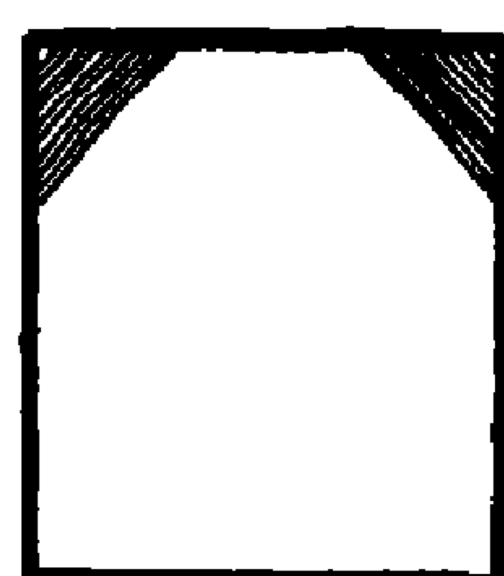
وكان خليقا بالحكومة أن تنظف الحيضان وتجدد ماءها كل يوم من أيام عرفة التى لا تعدو الأربعة وتقيم بجانبها حرّاسا ينظمون حركة الشاربين ويحفظون الميـاه

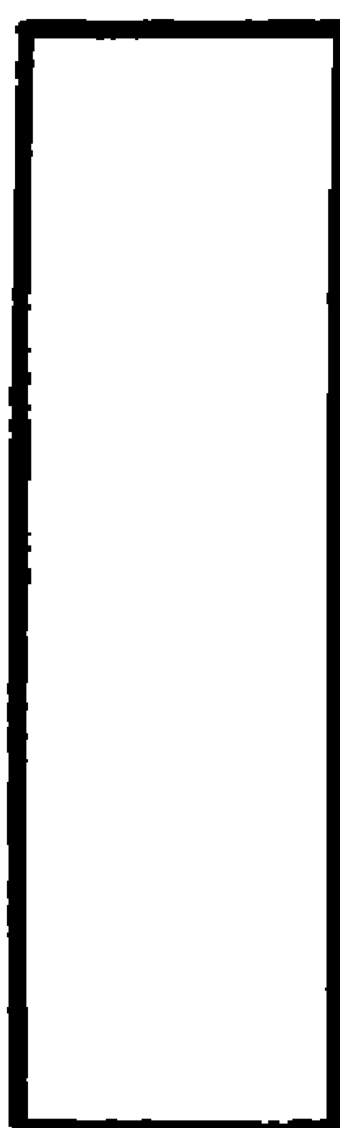
احواض المياه بميدان عرفات

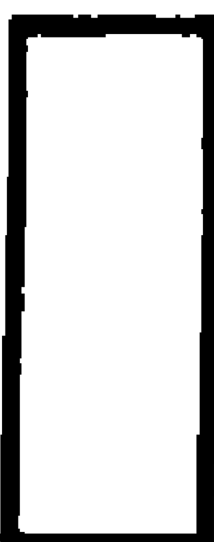


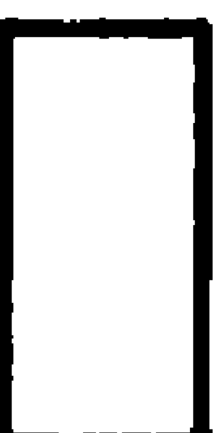












جدول

[illegible]

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ملحوظات عن الاحواض
٠٫٦٠		٥٫٢٠	[illegible]	١	هذا الحوض [illegible] جبل عرفات
٠٫٦٠	[illegible]	٤٫٤٠	[illegible]	٢	" " " " " "
٠٫٧٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	٣	" " " " " "
٠٫٧٥	[illegible]	[illegible]	[illegible]	٤	هذا الحوض [illegible]
١٫١٠	١٫٠٠	[illegible]	[illegible]	٥	هذا الحوض [illegible] جنوبي جبل الرحمة
				٦	[illegible]
				٧	[illegible]

77. The water-cisterns at Arafat.

من الأقذار، وأن دولة الشريف والوالى يصحبهما بعرفة الحراس الكثيرون فما عليهما لو جعلوا من أولئك حرّاسا على الحياض؟ ولا يكلفهم ذلك فتيلا ولا نقيرا، بل ماذا عليهما لو أقاما جنودا فى ميدان عرفة الفسيح يحافظون على الأمن ويضربون على أيدى اللصوص الذين تفاقم شرهم يتربصون غرة من الحاج ليسلبوه ماله ومتاعه؟ بل مما يضمن راحة الحجاج فى ذلك الميدان أن يقسم الى شوارع وحارات يوضع عليها أعلام، فان الحجاج كثيرا ما يضلون خيامهم لسعة الميدان فانه ميلان فى ميلين تقريبا وذلك لا يكلف الحكومة إلا تخطيط الأرض ووضع أسماء الجهات بالخط العريض على رءوس الشوارع وإنه لأمر يسير.

ومما لاحظته أن ليس هناك بيوت خلاء فترى الناس يقضون الحاجة فى الفضاء متدانين ومتباعدين فتتصاعد الروائح الكريهة، فلو أقيمت بيوت أدب على مبعدة من الخيام وآنضاف الى ذلك العناية بالماء لكان الناس فى صحة وهناء، ومن الحسن جدا أن تغطى الحياض بغطاء من الصاج ويجعل فيها صنابير «حنفيات» فبذلك يُجنَّبُ الماء القذر ولا يغيره طول المكث، وكذلك ينبغى أن يجعل للفتحات التى فى مجرى العين أغطية حتى تمنع عن العين الأتربة وآستقاء الناس وتطهرهم منها وغسل ثيابهم وأوانيهم، وإن ما تنفقه الحكومة فى تنظيف الحياض وترميمها فى سنتين ليكفى عمل الأغطية والصنابير فيوفر عليها النفقات الطائلة التى تنفقها كل سنة.

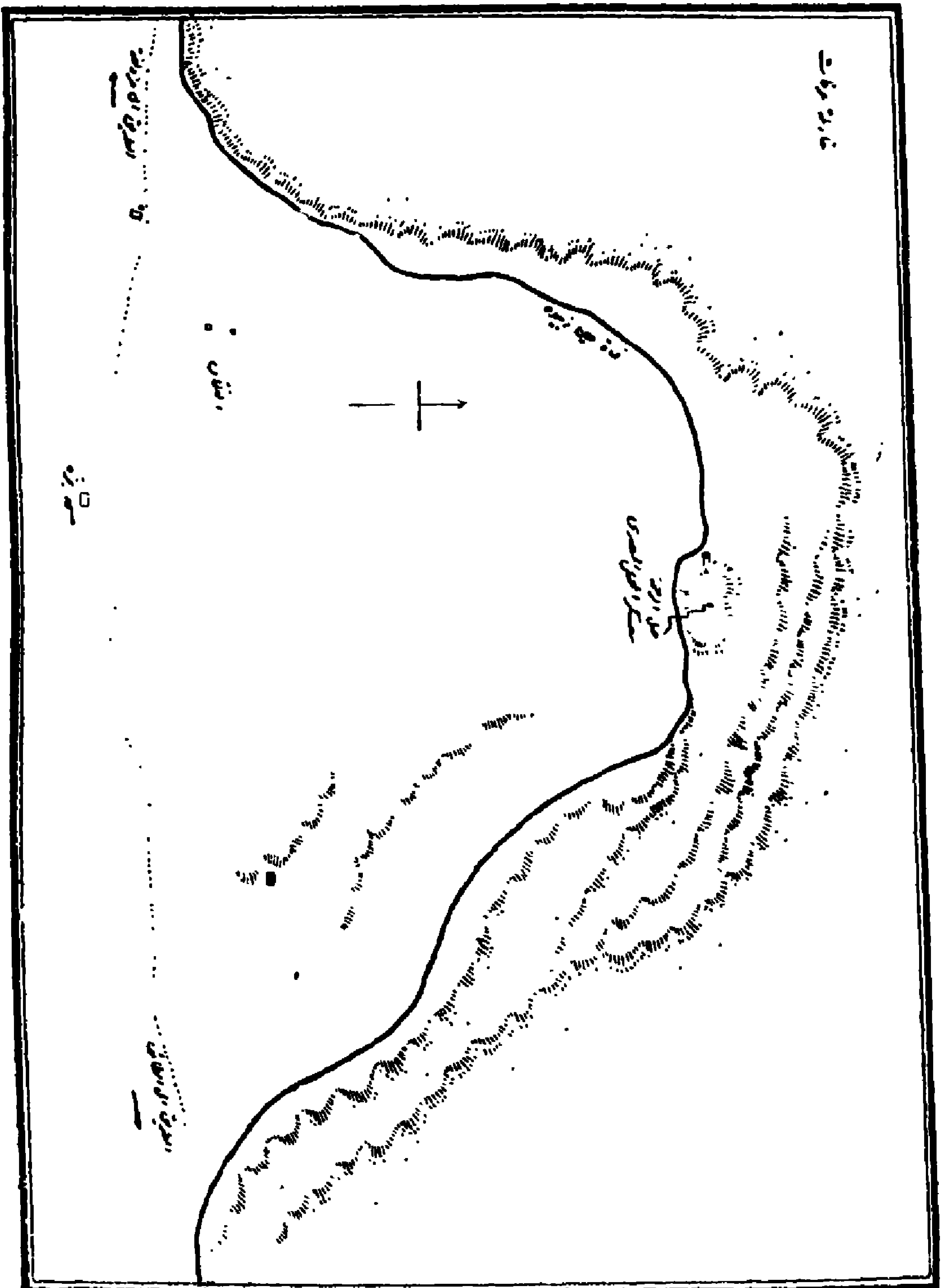
أهمية عين زبيدة — وبما أن عين زبيدة تعتبر كنهر يجرى على مسافة ٤٠ كيلو مترا يستقى منه سكان البلد الحرام والحجيج الوافدون من جميع الأقطار بل وينبتون به المزروعات ويخطون منه البساتين، كان من الواجب علينا أن نقدم بين يديك نبذة تاريخية عن عين زبيدة خاصة والمياه بمكة عامة، ومنها تعرف أن الاسلام آمتزج حبه بلحوم المسلمين ودمائهم وأنه تأصل فى نفوسهم وازع الخيرات والرحمة بِقُطّان الوادى المبارك كما تعرف أن الحج لم يفرضه الله عبثا — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — ولكن أنقذ به أمة فى صحراء جرداء ومكن به الروابط بين المسلمين فى جميع الاقطار: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

المياه فى مكة وضواحيها وتاريخها — كان أهل مكة فيما سلف يشربون من الآبار التى بداخل البلدة وخارجها، فلما كانت خلافة معاوية أجرى الى مكة عيونا عشرة فى قنوات عملها لذلك؛ ولما حج عبد الله بن عامر جمع العيون وصرفها فى عين واحدة واتخذ حياضا بميدان عرفة أجرى اليها ماء العين فبقى الناس فى راحة من جهة الماء بمكة وعرفة، وفى آخر دولة بنى أمية — ١٣٢ — تخربت العيون التى كانت تمد العين الكبيرة فانقطعت المياه عن أهل مكة وأصابهم كما أصاب الحجاج من جراء ذلك جهد شديد حتى كانت القربة تباع بعشرة دراهم — ٢٥ قرشا مصريا — وأكثر، ورجع الناس الى مياه الآبار كما بدءوا واستمروا على ذلك الى خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣) فأمر بإصلاح ما تخرب من العيون، ولكن ما لبثت أن تقطع ماؤها وأصاب الناس من جراء ذلك شدة شديدة؛ فلما بلغ ذلك أم جعفر زبيدة زوجة هارون الرشيد وكانت رغابة فى الأعمال الخيرية أمرت بإجراء عين حنين — عين زبيدة — الى مكة بعد أن استأذنت فى ذلك أمير المؤمنين، ومنبع هذه العين فى ذيل جبل شاهق يقال له «طاد» بين جبال سود عاليات تسمى جبال (الثقبة) فى طريق الطائف من مكة، وكانت عين حنين يسقى بها نخل ومزارع للناس اليها ينتهى جريان الماء وكانت تسمى هذه البقعة حائط حنين وهو موضع غزا فيه النبى صلى الله عليه وسلم غزوة حنين، فاشترت زبيدة هذه الأراضى وأبطلت ما فيها من النخيل والمزارع وبنت للماء قناة يجرى فيها شقت لها الجبال وجعلت لها شحاحيذ (بركا) فى كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند هطول الأمطار، وجعلت فيها قناة متصلة الى مجرى هذه العين فصار كل شحاذ عينا يساعد عين حنين، وهى سبعة تصب فيها ومياهها تارة تزداد وتارة تنقص حسب الأمطار التى تنزل على أمهات تلك الشحاحيذ، ولا زالت تمد تلك القناة حتى وصلت بها الى مكة؛ وكذلك أمرت بإجراء عين وادى النعمان الى عرفة وهى عين منبعها فى ذيل جبل كرا وهو جبل شامخ صعب المرتقى، من أسفله الى أعلاه مسيرة نصف يوم وبعده أرض الطائف، وتنحدر المياه من ذيل الجبل فى قناة الى

موضع يقال له «الأوجر» بوادى النعمان ثم يجرى منه الماء الى موضع بين جبلين شاهقين فى علو أرض عرفات فيه مزارع وفى ذلك يقول القائل :

أيا جبلى نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الىّ نسيمها

ثم أجرى الماء فى قنوات الى عرفات فاتصلت عين النعمان بها ثم أديرت القنوات فى سفح جبل عرفات كما تراه فى الخريطة (نمرة ٧٨) وجعل منها طرق



(الخريطة نمرة ٧٨)

الى البرك التى بأرض عرفات فتمتلئ ماء يشرب منه الحجاج يوم عرفة ثم سير بالقناة نحو الشمال وعلى بعد ١٣٧٨ مترا عمل بازان — بئر فى الأرض قاعه مجرى العين وينزل اليه بدرج ، وقد يكون عميقا وقد يكون قريب الغور حسب بعد القناة عن سطح الأرض أو قربها وهذه البئر تعمل ليستقى منها الناس — اسمه « فقير الذئب الأعلى» وعلى بعد ٤٠٥ متر من هذا البازان بازان «فقير الذئب الثانى» ثم تنعطف القناة نحو الغرب داخلة فى وادى المغمس وتنتهى الى « حوض البقر » على بعد ١٤٢٠ مترا من البازان الثانى ، وفى هذا الحوض ٢٥ خرزة ثم تسير فى باطن الجبل الى موضع يقال له «الخاصرة» بقربه أراض زراعية يقال لها الهمدانية ، ثم ترجع منه يمينا الى « بازان الحقابة » الذى على يمين الآتى من عرفات ، ثم تتوجه يمينا الى « بازان المعترضة» وبعد ذلك تسير القناة فى سفح المأزمين على يسار القادم من عرفات ، ثم تسير الى مزدلفة وتتوجه منها فى وادى النار وفيه عند رأس جبل على يسار الذاهب الى مكة بازان يقال له «فم الوبر» ومنه يكون المجرى متعلقا فى الجبل الى «المفجر» خلف منى ، وعنده أقيم الآن على المجرى آلة بخارية (ماكينة) عند الريع (المكان العالى) الذى يرده أهل منى وهذه الآلة ترفع المياه من المجرى وتوصلها فى أنابيب حديدية الى أحواض بمنى أنشئت أخيرا فى عهد صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول والحجاج يستقون من هذه الأحواض . (انظر الرسم ٧٩) الذى إذا تأملته رأيت فيه المجرى والأنابيب ، ثم يتوجه المجرى منحدرا خلف جبل منى الى فتحات موازية لمدرج منى بجانبها مسجد وحوض لسقيا الدواب يسمى « حوض البقر الثانى » ومنه تسير القناة تحت الأرض الى بئر عظيمة طويت بأحجار كبيرة جدّا تسمى « بئر زبيدة » اليها تنتهى القناة ، وهى من الأبنية العظيمة (انظر مجرى عين زبيدة فى الرسم ٨٠) ولعله كان فى العزم توصيل تلك القناة الى مكة لتختلط بمجرى عين حنين ، ولكن حال دون ذلك مالا نعلمه ، والمسافة بين هذه البئر وبين المنبع ٣٣٠٠٠ متر (رحلة صادق باشا ص ٦١) وبينها وبين منى مسيرة ساعة ركوبا ، ومن هذه البئر يشرب الآن الشريف والوالى وموظفو المحملين وسَراة الحجاج بواسطة نقل الماء فى قرب على ظهور الحيوانات .

منظر الحجاج في ميدان جبل عرفات وبه حوض مياه عين زبيدة



76. Pilgrims on Mount Arafat where a cistern of water from the well of Zobeida is found.



79. A water engine in El Mafgar, behind a hill at Mina, to supply the pilgrims with water by means of pipes



(الخريطة نمرة ٧٠)

وصارت عين نعمان خاصــة بعرفة ومنى فى ذلك الزمن، وقد أنفقت زبيدة على ذلك العمل ١٧٠٠٠٠٠ دينار أومثقال من الذهب، ويروى أنه لما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأحضروا دفاترهم لأجل الحساب ليبرئوا ذمتهم ويخرجوا من عهدة ما تسلموه من الخزينة لهذا العمل، وكانت زبيــدة ساعة ذلك فى قصر عال مطل على الدجلة فأمرت بالدفاتر يلقى بها فى الدجلة وقالت : (تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقى عنده شىء من بقية المـال فهو له ومن بقى له عندنا شىء أعطيناه) وألبستهم الخلع الثمينة — شكرا الله لها سعيها ورحمها الرحمة الواسعة —

ثم أخذت عين مكة ينقطع ماؤها لقـلة الأمطار وتهدُّم بعض من قنواتها وطغيان السيول عليها، فأمر صالح بن العباس فى سنة ٢١٠ هـ. أن تتخذ لها جملة برك فى نواحى مكة تصل اليها مياهها، ويذهب الفائض الى بركة ماجن أسفل مكة؛ وقد كان الخلفاء والسـلاطين كلما بلغهم حدوث خراب فى هذه العيون أو قنواتها يرسلون من يعمرها، ومن أولئك جعفر بن المعتصم (المتوكل على الله) أرسـل مائة ألف دينـار ذهبا الى مكة لاجراء ماء عين عرفات اليها، وكان ذلك لما أن حصلت زلازل فى سنة ٢٤١ هـ. غارت منها عيون مكة، ومنهم إبراهيم بن خلكان عمَّر عين زبيدة فى سنة ٥٠٠ هـ. وقد وجدت فى لوحة بجبل الرحمة على يمين الصاعد اليه هذه الكتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إمام الله ظل ومولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره؛ أمر الإمام الاصفهتيلار الكبير نصـير الدين بن زين الدين صاحب اربل — ولم أعرف ما بعد ذلك — سنة ٥٠٠ هـ. لأبى جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين أعز الله تعالى ببقائه الإســلام».

ووجدت لوحة أخرى تدل على عمارة لأبى العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة ٥٨٤ هـ. ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر سيدنا ومولانا الإمام خليفة الله على كافة أهل الإســلام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره لعمارة عين عرفة والمصانع لحجاج بيت الله الحرام،

أجزل الله ثوابه آمين ، وذلك على يد الأمير الأصفهتيلار الكبير مجير الدين أمير الحاج والحرمين طاستكين نصر أمير المؤمنين أدام الله توفيقه ، وذلك فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة » .

وهناك لوحة ثالثة تدل على عمارة لأمير المؤمنين السابق وفيها « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله ، أمر بعمارة عين عرفة والمصانع التى بها ملتفة مولانا أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره و بلغه سؤله ومناه وأمله ومبتغاه فى سلالته الطاهرة وعترته الزاهرة أمير الأمراء الأجل السيد الاصفهتيلار الكبير مظفر الدين بكيرى بن على صاحب اربل سيف أمير المؤمنين أيد الله سلطانه وأعلى أبدا شانه سنة ٥٩٤ هـ. تقبل الله عن يد عبد الرحمن بن أبي جرمى عفا الله عنه » .

ورأيت لوحة رابعة فيها ما فى اللوحة السابقة بالتاريخ عينه . والمستنصر العباسى عمر عين عرفات فى سنة ٦٢٥هـ . وفى سنة ٦٢٧هـ. وفى سنة ٦٣٣هـ. و بجبل الرحمة كتابة تدل على تعمير المستنصر العباسى هاكها [بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ شرع لعمارة هذه البركة لوجه الله تعالى وأضيافه المباهى بهم الملائكة صلى الله تعالى ورجاء عفوه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ بالاربل الأشرف النبوى الامامى المستنصرى زاده الله تعالى شرفا ، وقد شاده حلالا المطوع بعمارة عين عرفة والبرك التى بها ملتفة بعد عطلها خرابا عشرين سنة ، المولى الأمير الكبير السيد المؤيد المظفر المجاهد شرف الدين جلال الدولة عبد الخلافة المعظم محيي الإمامة المكرمة ملك الملك ومليك المعالى زعيم الجيوش ملك الملك الإمام الأعز أبو الفضائل والمكارم اقنال الخاص النبوى المستنصرى خاص أمير المؤمنين مملوك سيدنا ومولانا الامام الأعظم المفتقر الى الطاعة على جميع الأمم عبد الله خليفة الله فى أرضه المستنصر بالله أمير المؤمنين] .

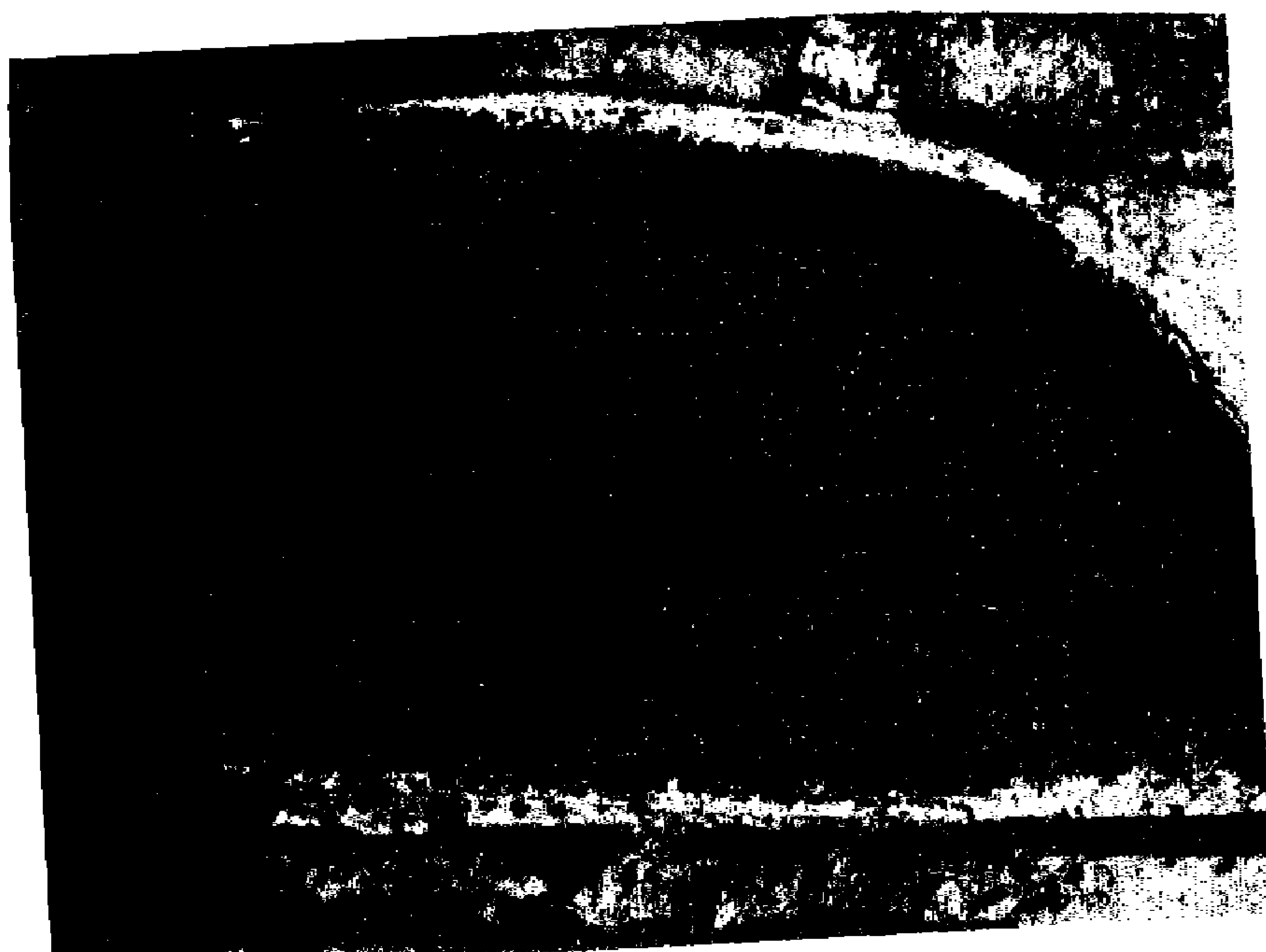
ومنهم جوبان أمير العراقين من قبل السلطان أبي سعيد بن خربندا ملك التتار فانه أمر رسوله الأمير بازان بتعمير عين عرفة وزوده بخمسين ألف دينار فى سنة ٧٢٥ هـ. فلما انتهى موسم هذه السنة نادى فى الناس بمكة من أراد العمل فى العين فله ثلاثة دراهم يوميا ، فهرع اليه العمال وخرج بهم الى العمل وما زالوا يعملون أربعة أشهر

حتى جرى الماء الى مكة وظهر بين الصفا والمروة فى ١٠ جمادى الأولى من سنة ٧٢٦ هـ . وقد زادت المياه عن الحاجة فصرفها الناس فى زرع الخضراوات، وبلغت نفقات ذلك ١٥٠٠٠٠ درهم، قال الفاسى : والسبب فى كفاية ذلك القدر ما وجد فيها حين عمارتها من القناة المعمولة المهيأة من قديم الزمن، وهى أكثر من الثلث وأقل من النصف — ومن هنا نعرف أن بازان اسم لرجل سميت به الأحواض والآبار التى على مجرى العين لقيامه بإصلاحها — وفى سنة ٧٢٨هـ . أجرى الملك الناصر محمد ابن قلاوون عينا الى مكة سارت فى مجرى عين بازان . وفى سنة ٧٤٤ هـ . أجرى نائب السلطنة بمصر عينا من منى إلى بركة السَّلَم، وذلك من طريق منى وعمرت بعد ذلك مرارا، وفى سنة ٨١٨هـ . عمرت عين بازان — حنين — حتى وصل ماؤها إلى مكة بعد انقطاعه عنها . وفى سنة ٨٢٠هـ . انقطع الماء فانتدب الملك المؤيد صاحب مصر والشام والحرمين قائده علاء الدين لعمارة العين فى سنة ٨٢١هـ . وزوده بألفى مثقال ذهبا، فشرع فى عمارتها فى جمادى الآخرة وتممها فى شعبان حيث وصل الماء الى مكة، ولما انقضى موسم هذا العام قل الماء وارتفع سعره فانتدب علاء الدين ثانية فى سنة ٨٢٢ هـ بعض العمال والمهندسين لتعمير مالم يعمر منها وإصلاح ما خرب من عمارته الأولى، فتم ذلك وبلغت المياه مكة فى آخر صفر، وفى سنة ٨٥٢ هـ . عمرت عين حنين بمعرفة «بيرم خواجة» ناظر الحرمين الشريفين، ثم خربت العيون بعد ذلك وأصاب الناس جهد جهيد . وبلغ ذلك الملك الأشرف قايتباى، فأمر بتعمير عين مكة وعين عرفات سنة ٨٧٥ هـ . وبدأت العمارة فى عين عرفات من جبل الرحمة الى وادى النعمان حيث وجدوا الماء هنالك بكثرة فخلوا سبيله الى عرفة فوصلها بعد أن انقطع عنها مائة وخمسين سنة، كان الحجاج يقاسون فيها يوم عرفة الظمأ الشديد وقد أصلح البرك التى بعرفات وملأها بالماء، وكذلك عمر عين حنين حتى وصلت مياهها إلى مكة وعمر أيضا عين خليص وأجراها وبنى قبتها .

وقد رأيت للشريف قايتباى خطبة نقشت فى لوح من الحجر وضع بجبل الرحمة على مقربة من القناة فنقلتها بالقلم الرصاص فى ٩ ذى الحجة سنة ١٣١٨ هـ فى مدة أربع

ساعات ، وذلك لصعوبة قراءتها وشدّة الزحام ، ولولا من يدفع عنى المزاحمين جهده ماتمكنت من نقلها ، وفى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ . تمكنت من أخذ صورتها بالآلة الشمسية (الفتوغرافيا) وقد كتبها الشيخ على بدوى بخطه الجميل لتكون صورة واضحة للأصل الذى لوثته بعض الدماء . (انظر الرسم ٨١) .

[أخذ هذا الرسم فى سنة ١٣٢٥ هـ]



Inscription on a stone at Arafât of Kait Bey's speech concerning the repairs to the well of Zobeida, under taken by his brother Sunkur El Gamali in the year 875.

(الرسم ٨١)

وفى سنة ٩١٦هـ. عمر قانصوه الغورى آخر ملوك الجراكسة بمصر عين حنين حتى جرت وملأت بركة المعلى و بركة ماجن فى درب اليمن من أسفل مكة، وارتفق الناس بذلك؛ وفى أوائل ملك الدولة العثمانية للأقطار الحجازية بطلت العيون لقلة الأمطار وتهدّمت القنوات وانقطعت عين حنين عن مكة، وصار أهلها يستقون من آبار حولها يقال لها العسيلات فى علو مكة قريبة من المنحنى، ومن آبار فى أسفل مكة يقال لها الزاهر فى طريق التنعيم، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدّمت قنواتها حتى كان الحجاج يحملون الماء الى عرفات من الأمكنة النازحة، وكان فقراء الحجاج لا يطلبون يوم عرفة غير الماء لعزته، وكان بعض الأقوياء يستحضره من الأماكن النائية ليبيعه فيربح فيه الأرباح الطائلة، قال العلامة قطب الدين الحنفى : وكنت يومئذ مراهقا فى خدمة والدى رحمه الله وفرغ المـاء الذى حملناه من مكة واشتريت قربة صغيرة جدا يحملها الانسان بأصبعيه بدينار ذهبا، والفقراء يضجون من العطش يطلبون من الماء مايبلون به حلوقهم فى ذلك اليوم الشريف، فشرب أهلنا منها وتصدّقوا بباقى القربة على من كان مضطرا اليها من الفقراء، ثم عطشنا جميعا عقب ذلك وجاء وقت الوقوف والناس فى شـدّة الظمأ يلهفون فأمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله ورحمته والناس إذ ذاك واقفون تحت جبل الرحمة، فصاروا يشربون من السيل تحت أرجلهم و يسقون دوابهم ، وحصل البكاء الشديد من الحجاج لمـا رأوا من رحمة الله بهم وإحسانه اليهم ، ثم صدرت الأوامر السلطانية السليمانية باصـلاح عين مكة (عين حنين) وعين عرفات، وعيّن للعيون ناظرا اسمه مصلح الدين مصطفى، وكان مجاورا بمكة فبذل جهده فى العمارة حتى جرت عين مكة ودخلتها وجرت من أسفلها إلى بركة ماجن ، وأصلح عين عرفات حتى صارت تملأ البرك بعرفات وكان ذلك فى سنة ٩٣١ هـ . ثم اشترى «مصلح الدين» عبيدا سودا وأجرى عليهم الأطعمة من خزائن السلطنة وأناط بهم خدمة العين و إخراج أتربتها من الدبول — جمع دبل وهو الجدول أى النهير — والقنوات، ثم قلت الأمطار و يبست العيون ونزحت الآبار فى سنين متعدّدة من سنة ٩٦٥هـ. وما بعدها حتى كانت سنوات تقارب سنى يوسف

شدادا عجافا، ولم يبق من العيون إلا عين عرفات ولكن قل جريانها. ولما عرضت أحوال العيون على السدة السلطانية السليمانية صدر الأمر بتصليح ذلك، فاجتمع بمكة قاضيها عبد الباقى المغربى وحاكم جدّة خير الدين وغيرهما من الأعيان وتشاوروا فى الاصلاح، فأجمع أمرهم على أن أقوى العيون عين عرفات وعقدوا النية على توصيل الماء من بئر زبيدة خلف منى الى مكة وحسبوا أن تحت الأرض مجرى قديما الى مكة وانهدم، وطلبوا من السلطنة ٣٠٠٠٠ دينار للتعمير سنة ٩٦٩هـ. فالتمست صاحبة الخيرات فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان من أبيها أن يأذن لها فى القيام بهذا العمل الخيرى فأذن لها، وانتدبت لذلك بعد استشارة الوزراء الأمير ابراهيم بن تكرين أمين الدفاتر بديوان مصر وأعطته ٥٠٠٠٠ دينار للقيام بالعمل، وقد وصل الى جدّة لثمان بقين من ذى القعدة سنة ٩٦٩هـ. ثم برحها الى مكة فقابله شريفها محمد بن نمى مقابلة جميلة وأكرم وفادته، وجاء للسلام عليه قاضى مكة حسين الحسنى فعرض عليهما مهمته وزوّداه بالآراء الصائبة وبحث عين عرفة بنفسه حتى أحاط بها خبرا، واستدعى من مصر والشام وحلب والأستانة واليمن طوائف المهندسين والخبراء بالعيون والآبار والحدّادين والبنائين والحجارين والقطاعين والنجارين وغيرهم ممن يحتاج اليه فى العمارة واستحضر آلاتها من مصر، وشرع بمعونة هؤلاء ومعونة مماليكه الأربع المائة فى إصلاح القناة مبتدئين من الأوجر حتى وصلوا الى بئر زبيدة. وهنالك بدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون إذ لم يجدوا بعد البئر دبلا تحت الأرض وعلموا اذ ذاك أن زبيدة اضطرت الى ترك التوصيل الى مكة اضطرارا لصلابة الحجر وصعوبة قطعه وطول مسافته، وأن لاسبيل الى ذلك ألا بنقر دبل تحت الأرض فى الحجر الصوان طولها ألفا ذراع بذراع البنائين — ٧٥ سنتيمترا — حتى يتصل بدبل عين حنين وتتصل عين عرفة بمكة ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الأرض، فانه يحتاج الى النزول فى تخوم الأرض ٥٠ ذراعا عمقا فتجاذب الأمير ابراهيم عاملا اليأس والأمل، ولكن عامل اليأس قضى عليه صادق عزيمته لحفر وجه الأرض حتى إذا ما وصل الى الحجر الصوان أوقد عليه ليلة كاملة ما يقارب مائة حمل من الحطب الجزل فى مكان

طوله سبعة أذرع فى عرض خمسة من وجه الأرض حتى تآكل من الحجر الصوان ١/٢ من الذراع ، ثم أعمل المعاول حتى صادف الحجر الصلب فأوقد عليه النيران كما فعل أولا حتى وصل الى عمق ٥٠ ذراعا ، وبذلك حفر من القناة خمسة أذرع من ألفى ذراع ثم سار على هذا النمط حتى أتم ١٥٠٠ ذراع ، وقد نفد الحطب من الجهات الدانية والنائية وذهب خدمه وأولاده ومماليكه فى سبيل ذلك ، وأنفق ٥٠٠,٠٠٠ دينار ذهبا من الخزائن السلطانية واخترمه أجله بعد ذلك فى رجب سنة ٩٧٤ هـ . فشيعته القلوب وأغدقت عليه صيب الدعوات ودفن بالمعلاة على يمين الصاعد الى الأبطح ، وخلفه على العمل أمير جدّة قاسم بك ولم يقم بكبير عمل لقصور فهمه ومدّ يده وتشبثه برأيه وتوفى ، فخلفه الأمير محمد بك فعاجلته المنية فى رجب سنة ٩٧٩ هـ . ثم تولى العمل قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام السيد حسين الحسنى ، فجدّ جدّه ونشط نشاطه حتى أتم القناة فى خمسة أشهر بعد أن قضى الأمراء السابقون فى ذلك عشرة أعوام ، فجرت عين عرفات الى مكة وتفجرت ينابيعها فى نواحيها لعشر بقين من ذى القعدة سنة ٩٧٩ هـ . وكان هذا اليوم عيدا أكبر للناس مدّت فيه الموائد للأكابر وخلعت الحلل الفاخرة على المهندسين والبنائين ، وتصدّق على الفقراء والمساكين وزفت البشائر الى السلطان سليم وكريمته ذات المجد الأثيل والخير العميم فاطمة هانم ، فأقيمت الأفراح بالأستانة وأغدقت العطايا على قاضى القضاة الذى تم على يده ذلك المشروع العظيم الذى أحيا أم القرى بماء الحياة كما حييت من قبل بإشراق النبوّة من نواحيها وحج الناس اليها من أدانى الأرض وأقاصيها ، وتلك مأثرة للسلطان سليم تقرن بالحمد والثناء وتسطر فى سجل أعماله الطيبة بحروف من نور ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقد حصل بعد ذلك فى العين ومجاريها تعميرات فى سنى ١٠١٩ و ١٠٢٠ و ١٠٢٥ هـ . ورأيت فى لوحة هذه الكتابة « أمر بتعمير عين عرفات مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأفخم خادم الحرمين الشريفين السلطان أحمد خان

ابن السلطان محمد خان أيد الله سلطنته الى آخر الزمان سنة ١٠٢٥ هـ . بمباشرة الفقير اليه سبحانه حسن باشا عفى عنه وكذلك عمرت فى سنى ١٠٦٦ و١٠٨٣ و ١٠٨٤هـ. وقد رأيت مكتوبا على حجر رخام ثبت بجبل الرحمة على يمين الصاعد اليه العبارة الآتية : « يا محمد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حق حمده على إفضاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، أمر حضرة السلطان الأعظم والخاقان الأفخم مولى ملوك العرب والعجم السلطان الغازى محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان عز نصره أجرى عين عرفات وتعمير أبنيتها واتصاله الى الحرم المنيف ، بفضله تعمرت سنة أربع وثمانين وألف ١٠٨٤ من هجرة من له العز والشرف على يد عمدة أعيان الدولة الحاج على أغا بن مصلى قهوجى باشا السطان كان الله له ووفقه لمرضاة الله (وفى الآخر كلمتان لم أعرفهما) » .

وعمرت فى سنة ١٠٨٩ و١٠٩٢هـ. وعملت إصلاحات هامة فى سنة ١٠٩٣هـ. بأمر السلطان محمد خان فنظفت البرك التى بالمعلى وزيد فى ارتفاعها مقدار قامة وأقيم فى وادى النعمان سدّ عظيم يمنع طغيان السيول على المجارى ، وبنى على رأس القنوات الحواجز المسماة بالخرازات فبنى نحو عشرين خرزة وعمل قناة فى أسفل مكة تذهب بمياه السيل الى بركة ماجن ، وفى يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١٠٩٩ هـ . كسر من قنوات العين نحو ثلاثين ذراعا فبعث الشريف من فوره بالمهندسين فأصلحوا ذلك .

وفى سنة ١١٤٣هـ . انقطع ماؤها أجمع وصار الناس يستقون من آبار العسيلات والزاهر وغيرهما ، وقد أصلحت من طرف السلطنة وكذلك عمرت فى سنة ١١٨١هـ. وفى سنة ١٢١٩ هـ . بعد قطع الوهابيين المياه عن مكة حينما حاصروها وتخرب بعض قنواتها فأصلحت ذلك الدولة العثمانية ، وكذلك أصلحها السلطان محمود سنة ١٢٣٥هـ. وفى سنة ١٢٤٢ هـ . انقطع الماء من مكة لخراب حدث بالقنوات بسبب السيول فأرسل والى مصر محمد على باشا من عمر القنوات ، وبعد ذلك بقيت عين مكة يقل

ماؤها بقلة الأمطار ويكثر بكثرتها حتى كانت سنة ١٢٧٨ هـ . إذ حدث سيل عظيم خرب بعض مجاريها فأصلح . وفى سنة ١٢٩١ هـ . كاد ينقطع ماؤها عن مكة فأصلح المجارى والى الحجاز من قبل السلطنة السيد محمد الشروانى باشا مع جماعة من أهل البر. وفى سنة ١٢٩٥ هـ . شكلت بمكة لجنة بسعى بعض الهنود لجمع الإعانات من كافة الأقطار الإسلامية خصوصا مصر والهند وإنفاقها فى إصلاح العيون ، وكان من أعضاء تلك اللجنة الشيخ رحمة الله الهندى صاحب كتاب إظهار الحق ، فجمعت أموالا كثيرة واستقدمت من الهند المهندسين والصناع وخرجت بهم الى عرفة فذرعوا المسافة بين مكة ومنبع عين زبيدة من وادى النعمان فاذا هى تنيف على ١٧٠٠٠ متر[1] ورأوا أن يبدءوا العمل فى عين زبيدة من جهة عرفة ، فأصلحوا نحو ٦٠٠ ذراع فى المجرى من بعد حدود عرفة الى وادى النعمان ، وبنوا فيها عدة خرزات ستروا بعضها وكشفوا باقيها ليستق منها العربان ، وكان شروعهم فى العمل من جهة مكة بتنظيف الدبول وتعمير ما تخرب منها حتى وصلوا الى المفجر ، ووصلوا الماء منه الى منى بآلة بخارية أقاموها هنالك ، ونحتوا لأجل ذلك بعض الجبال ولم يزالوا فى عملهم حتى وصلوا الى عرفة ، وبنوا فى عملهم هذا عدة خرزات فى طريق مكة ، وبازانات بمكة منها : بازان الشعب ، وبازان سوق الليل ، وبازان القشاشية ، وبازان جياد ، وبازانان بحارة المسفلة ، وبازان بحارة الباب ، وبازان الشبيكة ، وبازان الشامية ، وبازان بسوق المعلى يسمى بازان التمارة ؛ وعمروا ما كان خرابا وزادوا موارد الماء بالبلدة وقطعوا الجبل الطويل الذى بأول مكة وبنوا به دبلا يجرى فيه الماء الى حارة جرول التى بنوا فيها بازانا عظيما يستق منه الناس ، وكذلك

(١) هذا ما فى رسالة الزواوى وهو يخالف ما فى رحلة صادق باشا من أن المسافة بين المنبع وبين بئر زبيدة ٣٢ كيلومترا فاذا هى بين مكة والمنبع أكثر من ذلك وهذا هو الصحيح ، فإن صادق باشا لما رجع من الطائف مر بمبدأ المجرى وقطع المسافة بين المبدأ وبين علمى الحرم من جهة عرفة فى ٢ س و ١٦ ق وقطع المسافة بين العلمين ومكة فى ساعة و ٥٠ ق ، فاذا لاحظنا أن المجرى يسير حذاء الطريق فى الأكثر وأن المسافة بين مكة وعلمى الحرم ١٨ كيلومترا تقريبا كانت المسافة بين العلمين ومبدأ المجرى ٢٢ كيلومترا أى أن المجرى طوله ٤٠ كيلومترا من مبدئه الى مكة فهذه المسافة التى نسبها الزواوى الى المهندسين تخالف الواقع .

عمروا بعض التعمير فى العين الأصلية (عين حنين) بعد أن أهملت منذ وصلت عين عرفة إلى مكة. وفى سنة ١٢٩٧هـ. أرسل إلى اللجنة من مصر ٢٥٠٠٠جنيه مع أحد معاونى الداخلية وكان برفقته أحد المهندسين لمباشرة العمارة الجارية مع المعمرين، وقد مكثت اللجنة تشتغل ثلاث سنين دأبا تحت رآسة الحاج عبد الواحد الميمنى ثم أخذ الفتور يدب فى أعضائها وتناولت الحكومة بعض مال اللجنة من صندوقها وأنفقته فى غير مصالح العين فأساء ذلك أهل الهند وقطعوا الإعانات، نوقفت اللجنة عملها وآستعفى رئيسها وأكثر أعضائها وتشكلت لجنة أخرى آستولت على ما بقى بصندوق العين ويقال: إنه كان ٥٧٠٠٠ جنيه، وسارت فى العمل كسابقتها ولكن هذه وجهت كبير عنايتها الى إصلاح عين حنين وكانوا يرون أنها عين مكة الأصلية ثم آنقطع العمل فى العينين فآنقطع ماء عين حنين وقل ماء عين زبيدة وكاد ينقطع فى سنة ١٣٢٤هـ. فتكونت لجنة تحت رياسة الشريف وجمعت إعانات جبرية من مكة والطائف وجدة وكتبت إلى الدولة مستجدية فجمعت عشرات الألوف من الجنيهات، وقدم من الإستانة مهندسون فقاموا بإصلاح كبير خصوصا فى منابع العين من جهة وادى النعمان، وفى سنة ١٣٢٦هـ. قدم مهندس ومفتش من قبل الدولة لتعرف أحوال عين زبيدة فوضعا لها خريتة عظيمة من منبعها الى مكة تركا صورة منها فى مقر اللجنة وأخذا أخرى الى الإستانة، وفى أوائل شهر المحرم سنة ١٣٢٧هـ. شكل أمير مكة الشريف الحسين باشا بن على هيئة جديدة لإصلاح العيون أعضاؤها من أجناس مختلفة ووكل إليها الإصلاح وجعلها حرة فى عملها فاستنهضت هم المسلمين فى الأقطار المختلفة فغمروها بالتبرعات ولا سيما الهند ومصر وجاوة وبدأت فى الإصلاح، وفى آخر سنة ١٣٢٨ هـ. جاء سيل عظيم ملأ المجارى حتى طفت وهدم كثيرا منها فقل المـاء ولجأ الناس الى الآبار القديمة وإنها لكثيرة، فقام شريف مكة وأنجاله وأهل مكة بالاصلاح بأموال من صندوق اللجنة حتى وردت المياه مكة. وفى ١٨ المحرم سنة ١٣٣٠هـ. هجم سيل شديد من وادى نعمان وهجان وسد دبول عين زبيدة بالتراب، وقطع المـاء عن عرفات، فقامت اللجنة بتعمير المتخرب حتى عاد المـاء الى مجراه.

وأنشأت مستغلات جديدة، وقد مكثت هذه اللجنة ثلاث سنين مجدة فى عملها فطهرت المجارى وكشفت عن عيون مختبئة وبنت خرزات كثيرة وأصلحت عدة بازانات وعمرت مستغلات عين زبيدة وأحدثت لها مستغلات أخرى فلها شكرنا الوافر وثناؤنا المستطاب .

وقد أطلنا عليك أيها القارئ الكلام مع تعمدنا الاختصار ولكنها النفوس الطيبة والأعمال الخيرة تأبى إلا أن تنقش على صفحات كل كتاب سيار حتى يكون للناس منها قدوة حسنة فيكون لفاعلها — زيادة الى أجره — أجر من عمل بها الى يوم القيامة .

وإنا نبتهل الى جميع المسلمين فى أن يتقدموا بأموالهم ورجالهم الى تلك العيون التى يستقى منها سكان بيت الله والوفود عليه من كل فج والتى تعب سلفنا الصالح فى إنشائها وتعميرها ولم يضنوا عليها بمال أو رجال ندعوهم ليقوموا نحو هذه العيون بعمل خالد يأمن معه صدمات الليالى وهجوم السيول ويطمئن به أهل مكة وحجاجها على الماء الذى به حياة كل شىء قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] .

الحـــــرم

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ اعلم أنه يحيط بالكعبة ثلاث دوائر : الأولى دائرة المسجد، والثانية دائرة الحرم، والثالثة دائرة المواقيت فلا يعدو امرؤ الدائرة الثالثة قاصدا دخول مكة إلا إذا أحرم — لبس ثياب الإحرام وأهل بالتلبية فحرمت بذلك عليه محرمات الإحرام — وهى ذو الحليفة لأهل المدينة، والجُحْفَة لأهل الشام، وقَرْن لأهل نجد، ويَلَمْلَمَ لأهل اليمن، وذات

(١) روجع فى كتابة المياه بمكة الى الأصل ص ٤٢ والى رحلة صادق باشا ص ٦١ والى شفاء الغرام ص ٢٥٩ والى رسالة السيد محمد صالح الزواوى مفتى المالكية بمكة المكرمة .

عِرق للعراقيين . وذو الحُليفة على عشر مراحل من مكة ، والجحفة على ثلاث ، وقبلها بقليل رابغ ، وذات عِرق على مرحلتين ، وكذلك قرن المنازل و يلملم . والدائرة الثانية دائرة الحرم وقد نصبت عليها أعلام فى جهاتها الأربع ، وقد ذكر المسافات بينها و بين المسجد الحرام التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام ، ونحن نذكرها نقلا عنه مبينين مقدارها بالأمتار[1] ، فحدّ الحرم من جهة الطائف على طريق عرفة من بطن عُرَنَة ٣٧٢١٠ ٢/٧ ذراع بذراع اليد ، أى ١٨٣٣٣ متر وذلك من جدر باب بنى شيبة إلى العلمين اللذين هما علامة لحدّ الحرم من جهة عرفة ، وحدُّه من جهة العراق من جدر باب بنى شيبة إلى العلمين اللذين هما علامة لحدّ الحرم فى طريق العراق واللذين هما بجادة وادى نخلة — ٢٧٢٥٢ ذراع بذراع اليد ، وتعادل ١٣٣٥٣/٥ متر . وحدّه من جهة التنعيم وهى طريق المدينة وما يليها ١٢٤٢٠ ذراع بذراع اليد ، أى ٦١٤٨ متر وذلك من جدر باب العمرة إلى أعلام الحرم التى فى الأرض من هذه الجهة لا التى على الجبل . وحدّ الحرم من جهة اليمن من جدر باب إبراهيم إلى علامة حدّ الحرم فى هذه الجهة ٢٤٥٠٩ ٤/٧ ذراع بذراع اليد ، وتعادل ذلك ١٢٠٠٩/٧٥ متر ، وعلى حدّ الحرم من جهة الجنوب مكان يقال له : أضاة ، ومن الغرب بميل قليل إلى الشمال قرية الحديبية وهى التى تمت بها بيعة الرضوان ، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له : الجعرانة[2] أحرم منه النبىّ صلى الله عليه وسلم مرجعه من الطائف بعد فتح مكة (انظر الرسم ٨٢) وهذه الدائرة جعلها الله مثابة للناس وأمنا بل أمن فيها الحيوان والنبات فحرّم التعرض لصيدها ومنع أن يُخْتَلَى خَلاها (حشيشها) أو يعضد شوكها .

وأوّل من نصب علامات على حدود الحرم إبراهيم عليه السلام بإرشاد جبريل تعظيما للبيت وتشريفا ، ثم قُصَىّ بن كلاب ، وقيل : قبله اسماعيل ، ويروى هذا عن

(١) ذراع الحديد ١/٧ ٥٦ سنتيا كما حررته من قياس جدر الكعبة بالمتر ، ومقارنتها بقياس الفاسى ، وذراع اليد ٤٩ سنتيا بالتقريب استنتجته من قياسه لبعض الأماكن بالذراعين ذراع الحديد وذراع اليد .

(٢) الجعرانة بكسر الجيم وسكون العين وبكسرها وكسر العين وتشديد الراء .

رسم تقريبي للمواقيت وإعلام الحرم

نمرة ٨٢

شمال

شرق — غرب

جنوب

المدينة

ذو الحليفة أبآر علي ميقات المدنيين

الأبواء

رابغ

ميقات الشاميين والمصريين ولكل من حاذاها برا أو بحرا

الجحفة

عسفان

ذات عرق ميقات العراقيين

وادي نخله

علمان

الطريق العراقي

قرن المنازل ميقات النجديين

الحديبية

علمان

التنعيم

علمان

مكة

الطريق إلى جده

منى

مزدلفه

علمان

الطريق إلى الطائف

منبع عين زبيده

الطريق اليمني

اضاءة لبن

علمان

يلملم

معلومات

١	المسافة بين مكة والمدينة مسيرة ١١٧ ساعة بسير الإبل وفي كتب السير القديمة عشر مراحل
٢	من المدينة إلى رابغ مسيرة ٦٦ ساعة ومن رابغ إلى مكة ٥١ ساعة محرم ١٣٢٦
٣	بين كل من ذات عرق وقرن المنازل ويلملم وبين مكة مرحلتان في الكتب القديمة
٤	بين مكة والجحفة اربع مراحل تقريبا
٥	من المسجد الحرام إلى علمي عرفة ١٨٤٢٢ متر
٦	" " " " نخلة ١٤٤٥٢/٥ "
٧	" " " التنعيم ٦١٤٨ "
٨	" " " اضاءة ١٠٠٠٩/٧٠ "
	والمسافات منقولة عن شفاء الغرام للفاسي بعد تحويلها إلى أمتار
٩	من مكة إلى علمي عرفات مسير خمس ساعات
١٠	من مكة لعلمي الحديبية مسير اربع ساعات وربع
١١	راجعنا في عمل هذه الخريطة خريطة صادق باشا وخريطة المساحة وخريطة وزارة الحربية وخريطة الجمعية الانكليزية ديسمبر ١٩١٦ ومعجم البلدان لياقوت وما رأيناه وعملنا عند الطريق
١٢	○ علامة الميقات
١٣	■■ " اعلام الحرم
١٤	--- " الطرق
١٥	الرسم تقريبي بقدر الامكان

(الخريطة نمرة ٨٢)

ابن عباس، وقيل: إن عدنان بن أدّ أول من وضع أنصاب الحرم، ونصبتها قريش بعد ذلك والنبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة قبل هجرته، ونصبها النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح، ثم عمر بن الخطاب فى سنة ١٧ هـ، ثم عثمان بن عفان فى سنة ٢٦ هـ، ثم معاوية رضى الله عنهم ثم عبد الملك بن مروان، ثم المهدىّ العباسى، ثم أمر الراضى بعمارة العلمين الكبيرين اللذين بالتنعيم فى سنة ٣٢٥ هـ. قال الفاسى: واسمه عليهما مكتوب ثم أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة سنة ٦١٦ هـ، ثم الملك المظفر صاحب اليمن سنة ٦٨٣ هـ[1].

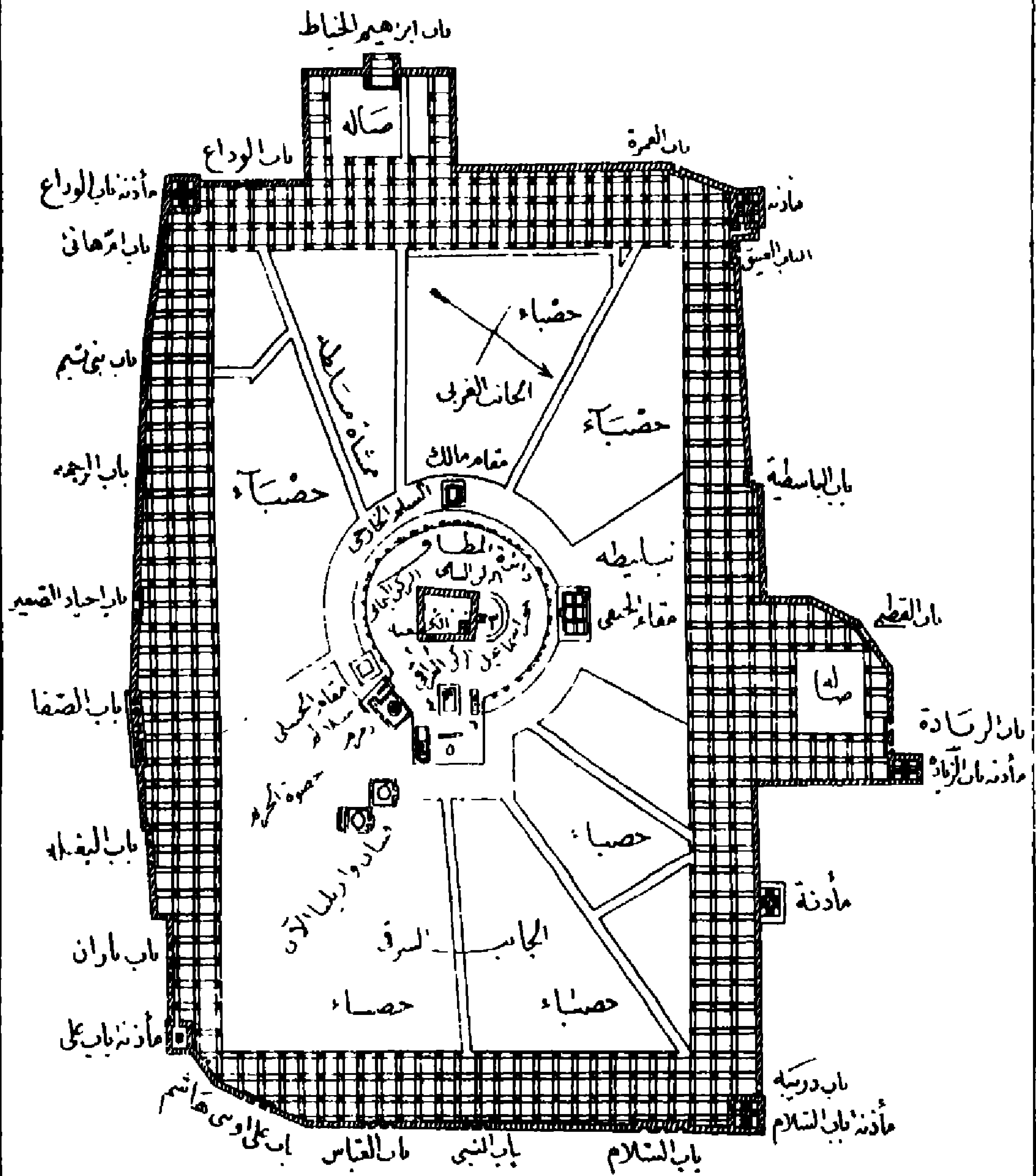
المسجد الحـــرام

وصف عام للسجد — أبواب المسجد — مآذنه — توسعته وعماراته وتاريخ ذلك — مواقف الأئمة فى المسجد الحرام — كيفية الصلاة فيها — مقام إبراهيم عليه السلام — منبر المسجد الحرام وتاريخه — بئر زمزم — سقاية العباس — المماشى الأربع — مزاول المسجد — قناديله — موظفوه — أعمدة المطاف .

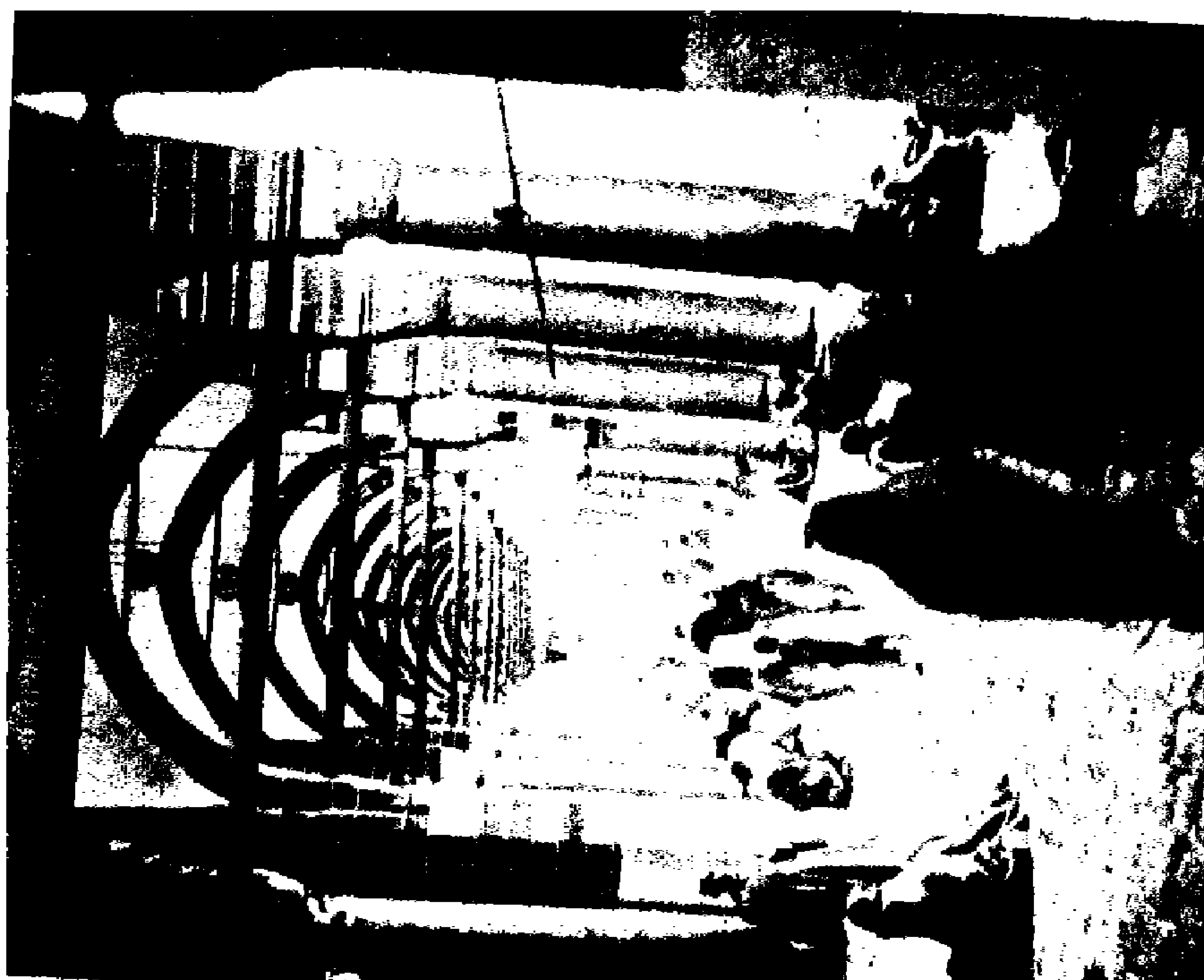
وصف عام للمسجد الحرام — المسجد الحرام وسط مكة وشكله مربع تقريبا . وضلعه الشمالية المقابلة للحطيم ١٦٤ مترا وطول الضلع الجنوبية المقابلة للأولى ١٦٦ مترا، وضلعه الشرقية التى فيها باب السلام ١٠٨ متر، والغربية طولها ١٠٩ متر، فيكون مسطحه من الداخل ١٧٩٠٢ متر أى أربعة أفدنة وربع تقريبا أما من الخارج فمتوسط طوله ١٩٢ مترا وعرضه ١٣٢ مترا، وفى وسط المسجد يميل إلى الجنوب بيت الله أى الكعبة المكرمة . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع ثلاثة أروقة (بواكى) فى الأكثر، يفصل بين كل رواق وآخر صف من الأعمدة مواز لجدر المسجد، ووصل بين كل عمودين بعقد من البناء المتين وأقيم على كل أربعة

(١) لم نعثر على تاريخ الأعلام بعد ذلك مع شدّة حرصنا على الوقوف عليه مع أنه لا بد أن تكون عمرت بعد ذلك مرارا فان بناءها القائم ليس بناء سبعة قرون أو تزيد .

أعمدة قبة محكمة البناء فنشأ من ذلك قباب متجاورة منها تكون سقف تلك الأروقة، وعدد العقود فى الجهة الشمالية من الجدار الشرقى الى الغربى ٤٢ عقدا فى كل صف على استقامة واحدة، أما العقود العرضية فى هذه الجهة فثلاثة ثلاثة إلا فى الطرفين فان العرض عقدان، وعدد العقود طولا فى الجهة الجنوبية ٤٠ فى أطول صف من الجدار الشرقى الى الغربى، وعددها عرضا ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة فى الوسط، وفى الطرف اثنان وواحد، وعددها من الجهـة الشرقية طولا بطول الصحن فقط ٢٤ عقدا فى كل صف، والعرضية ثلاثة ثلاثة إلا فى الطرف الجنوبى فاثنان لانحراف الجدار، وفى الجهـة الغربية قبالة الصحن فقط ٢٤ طولا فى كل صف، والعقود العرضية أربعة أربعـة وقليل ثلاثة ثلاثة، وتجـد عقودا أخرى فى الجهـة الشمالية فى مدخل باب الزيادة وكذلك فى الجهـة الغربية فى مدخل باب إبراهيم، وجملة الأعمدة المقامة عليها تلك العقود ٥٤٥ عمودا منها ٣٠١ من الرخام ومنهـا ٢٤٤ من الحجر الشميسى الأحمر، ومعلق بين كل عمودين خمسة قناديل كبار — فنايير — توضع فيها المصابيح، وفى صرة كل قبة قنديل فاذا ما أضيئت كل هذه مع ما حول الكعبة أحدثت منظرا يملأ النفس بهجة وسرورا. (أنظر المسجد الحرام فى الرسم ٨٣) والجهة الشمالية فى الرسم ما فيها باب الزيادة والشرقية ما فيها باب النبى صلى الله عليه وسلم الخ، وانظر العقود (البواكى) فى (الرسم ٨٤) وترى فى العوارض الخشبية مسامير لمنع وقوف العصافير والحمام عليها اتقاء لقذرها، وما عدا هذه الأروقة من المسجد فصحن واسع توسطته الكعبة (الرسم ٨٥) يحيط بها المطاف المرصوف بالرخام قد أقيم عليه صف من الأعمدة المصنوعة من النحاس الأصـفر وصل بينها بعوارض الحديد تعلق فيهـا المصابيح وأقيم بخارج المطاف تجاه كل ضلع من أضلاع البيت — عدا الضلع الشرقية — سقيفة قامت على أعمدة الرخام يصلى فى الشمالية منها إمام الحنفية وهى ذات طبقتين وفى الغربية إمام المـالكية وفى الجنوبية إمام الحنبلية أما إمام الشافعية فيصلى خلف مقام ابراهيم شرق الكعبة أوفوق البناء المقام على زمزم. وبجوار المطاف فى الجهة الشرقية المنبر وفى جنوبيه قبـة أقيمت على بئر زمزم، وبشمالى البئر باب



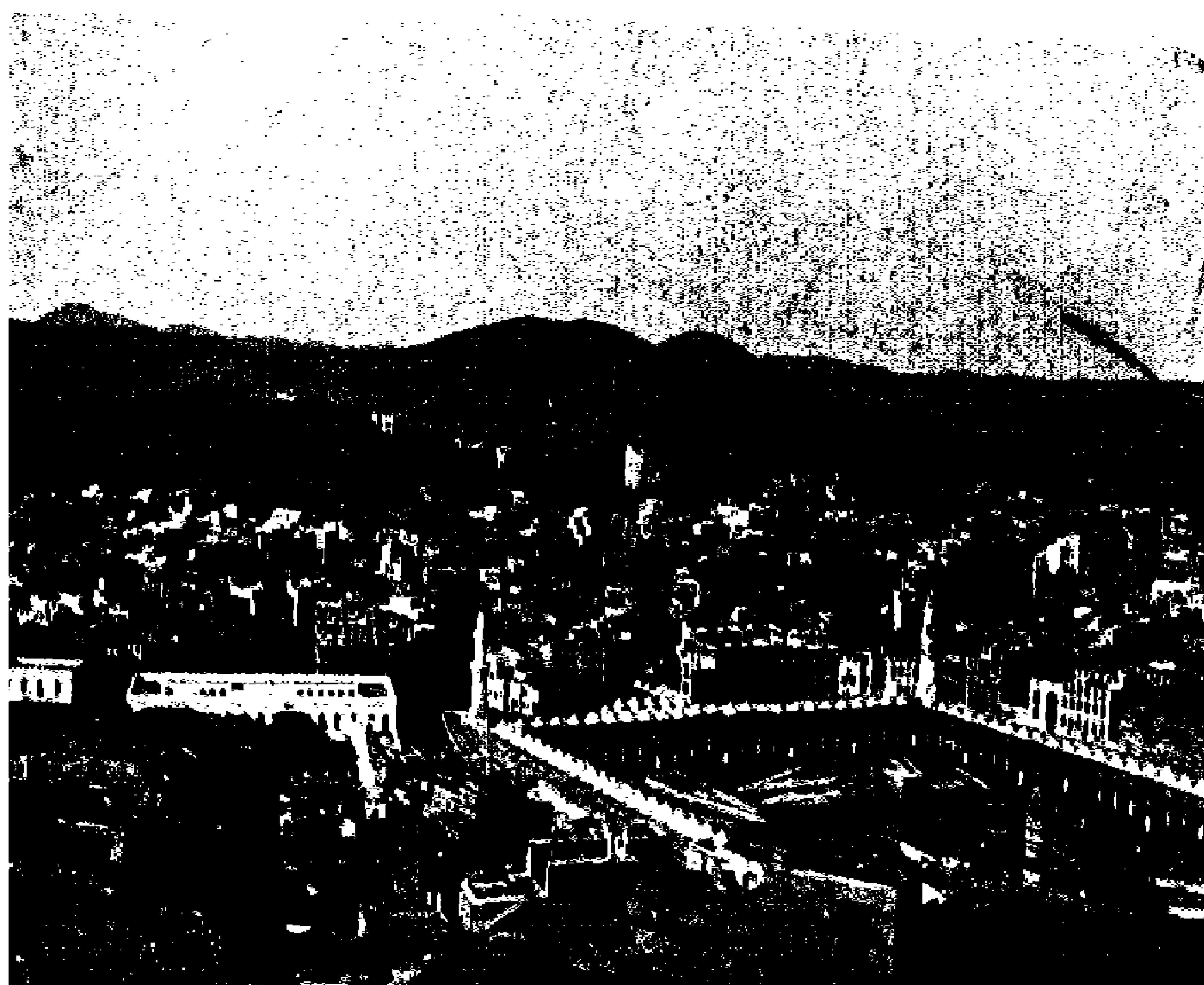
83. The map of El Haram Mosque in Mecca.



84. Arcades of El Haram Mosque as seen from the Interior.

صحيفة ٢٢٨

الحرم المكي من جهة الشمال والغرب والجنوب



85. The Southern, Western and Northern view of the Mosque of Mecca.

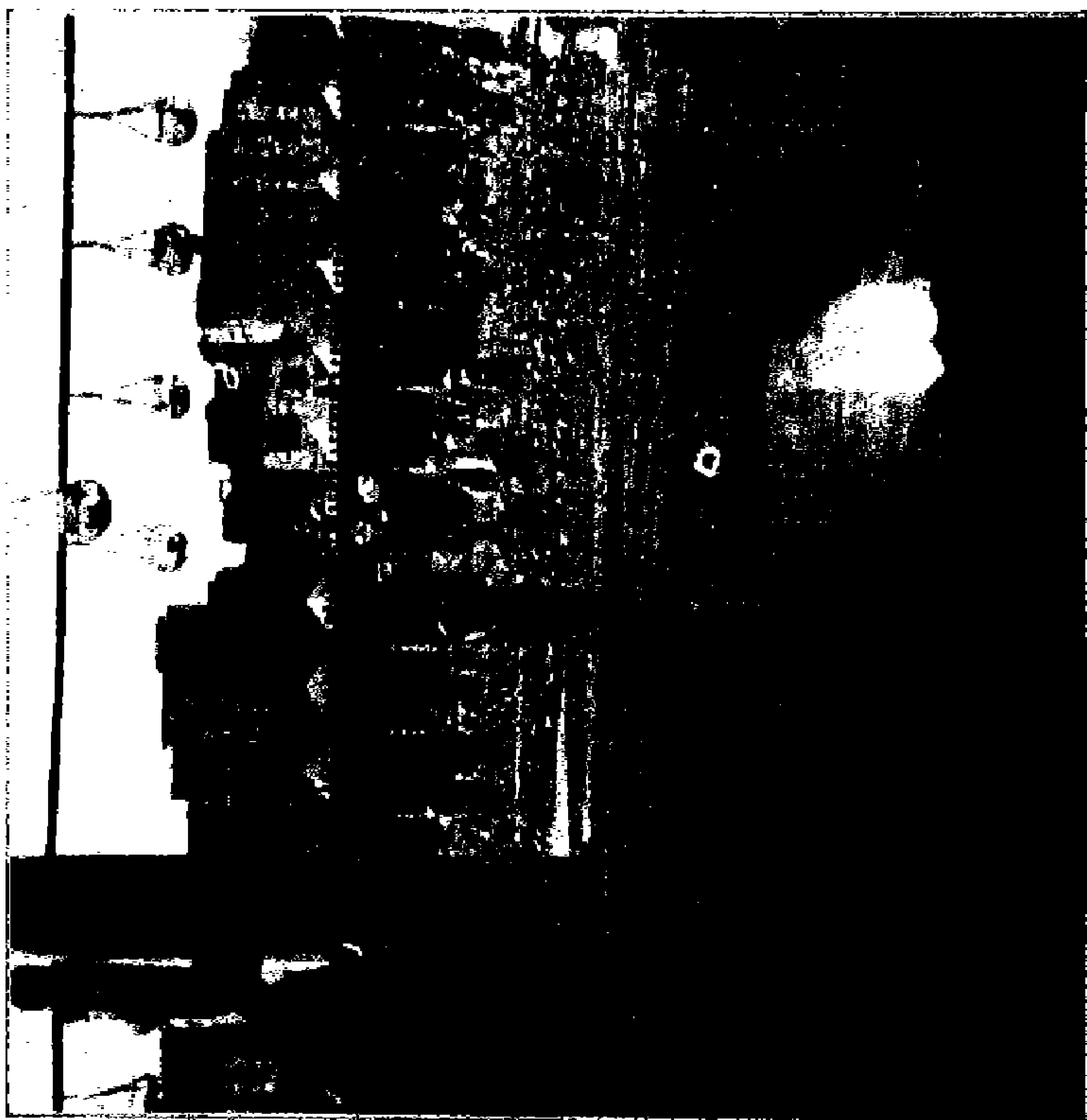
اجتماع الحجاج لصلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة

بهذا الرسم على الشمال زمزم وهى البيضاء ذات القبة وبابها ظاهر وبين الباب والكعبة سلم للصعود عليه داخل الكعبة من افخر الصناعات العربية وبعدها الكعبة والحزام القصب والستارة ظاهرة وفى وجه الكعبة باب بنى شيبه وقناديل الانارة فى وسطه وبعده المنبر وعليه البيرق واثنان اغوات وبعده البواكى وبعده مقام الحنفى ذو الطبقتين والحجاج جلوس



86. The meeting of the pilgrims round the Kaaba for the Friday prayers.

صحيفة ٢٢٩



87. The Pigeons of Hema in Haram Mosque in Mecca

سلم للصعود عليه لدخول الكعبة

87. Stairs to ascend to the Interior of Kaaba.

بنى شيبة يعلوه عقد أقيم على عمودين من الرخام، وقد كتب على باب بنى شيبة تحت الهلال ﴿ أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ وكتب على العقد ﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾ وذلك بماء الذهب ، وكتب فى الجهة المقابلة لمقام إبراهيم والكعبة « الله جل جلاله » ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ « محمد عليه السلام » (أنظر باب بنى شيبة فى الرسم ٨٦ الذى أخذته سنة ١٣٢٥ هـ . والحجاج مجتمعون بالمسجد لصلاة الجمعة) وأرض المسجد منخفضة عن الأرض المحدقة به بنحو ثلاثة أمتار ويصعد من أرضه إلى الأبواب التى على الشوارع بسلالم، والبيت منحدر تدريجا عن هذه الأرض بنحو متر، وصحن المسجد سقفه السماء وفرشه الحصباء إلا ما تخلله من المماشى التى تصل بين الأبواب والأروقة من جهة والمطاف وما يليه من ناحية الكعبة من جهة أخرى فإنها مرصوفة بحجارة الجص كالأروقة ليسلكها الناس ويتجنبوا الحصباء التى كثيرا ما تكون مبللة بمياه الوضوء ، ولذلك فإن المطوفين إذا ما دنت صلاة العصر بسطوا « الأكلمة » والسجادات على هذه الحصباء ليجلس عليها الحجاج ، على أن كثيرا من الناس يفترش الحصباء الساعتين والثلاث انتظارا للصلاة خصوصا فى يوم الجمعة فتراهم يبكرون ويجلسون على الحصباء وقد آشتد القيظ وتسلط على الأدمغة لهيب الشمس كل هذا حرصا على سماع الخطبة، وعرض تلك المماشى قريب من متر ويجلس عليها بعض النساء الفقيرات يبعن الحبوب للحجاج ليقدموها إلى حمام الحمى الذى يوجد بكثرة فى المسجد ولونه أزرق غامق به نقط رمادية وخطوط سود وهو مطوق بالخضرة المحمرة ، والقطاط مسلطة عليه تصطاده ، وكذلك يوجد بالمسجد طير الأبابيل كما يسميه المكيون — وهو أشبه بما نسميه عصفور الجنة — وهذه الطيور لا تنفر من الحجاج لأن الله كتب لها الأمن فى حرمه كما كتبه للناس (انظر الرسم ٨٧) تجد الحمام وهو يلتقط الحب .

وللمسجد خمسة وعشرون بابا ، منها بالشمال ثمانية أبواب وبالشرق خمسة وبالجنوب سبعة وبالغرب خمسة، من هذه ستة أبواب صغيرة (خوخات) والباقى

أبواب كبيرة منها ذو الفتحة والفتحتين والثلاث والخمس، وفى المسجد سبع منارات فى كل زاوية منارة، وثنتان فى الشمال وواحدة فى الشرق .

أبواب المسجد الحرام ووصفها

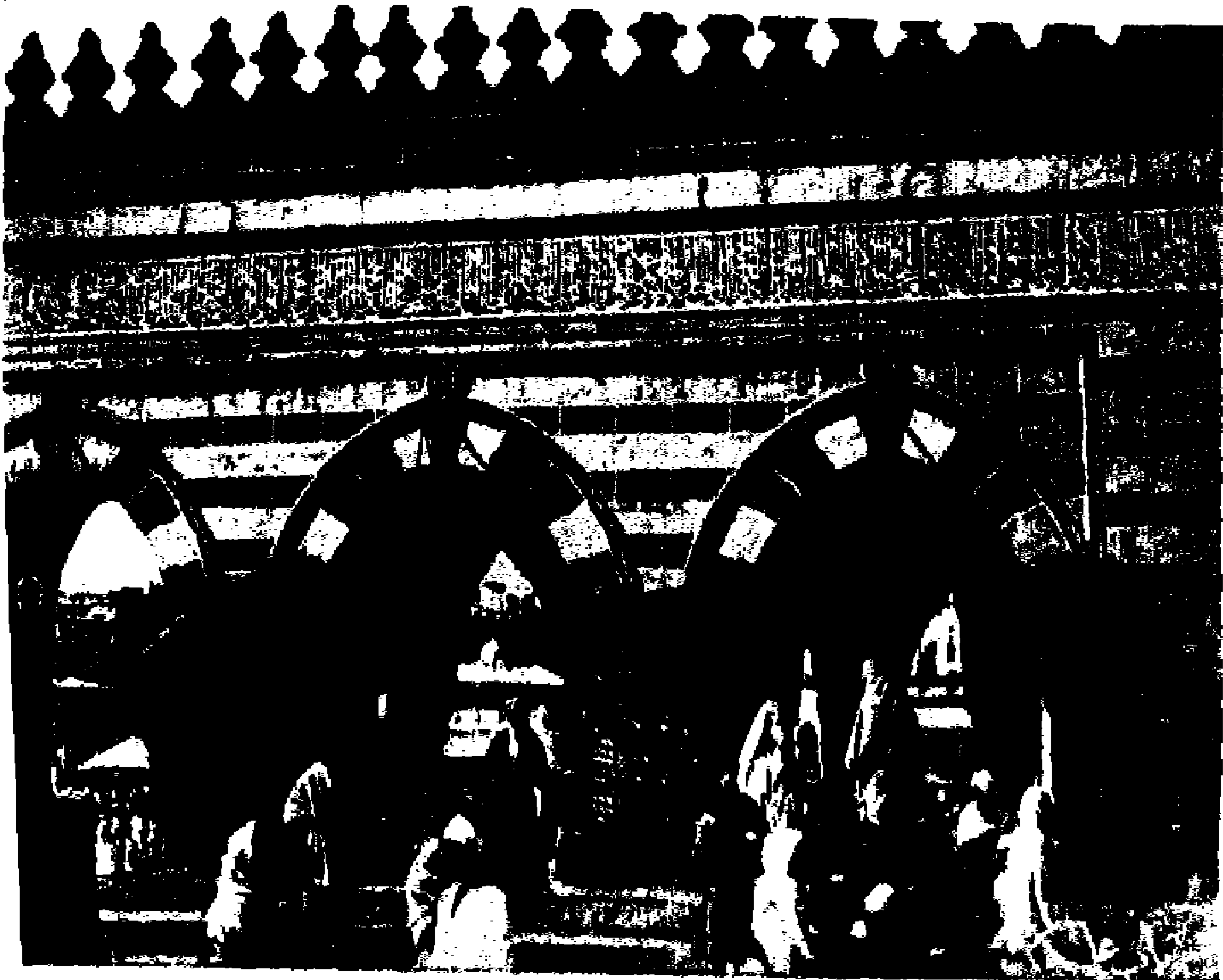
فى الشرق : (١) باب السلام — ويعرف بباب بنى شيبة وبباب بنى عبد شمس وهو ذو فتحات ثلاث، وكتب عليه ما يأتى : أمر بانشاء هذا البيت الشريف السلطان الملك المظفر سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان با يزيد خان بن السلطان محمود خان بن السلطان مراد خان بن السلطان محمد خان آبن السلطان با يزيد خان بن السلطان مراد خان بن السلطان أرخان بن السلطان عثمان خان، وكتابة ذلك فى سنة ٩٣١ ه . وهى منقوشة على الحجر الأبيض ، وهذا الباب يدخل منه الحجاج لأداء طواف القدوم .

(٢) باب قايتباى — وهو خوخة ولا سلم له .

(٣) باب الجنائز — سمى بذلك لأن الجنائز تخرج منه فى الغالب الى مقبرة المعلى، وذكر الأزرقى : أنه باب النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى كان يخرج منه ويدخل الى منزله دار خديجة رضى الله عنها فى زقاق العطارين، ولهذا الباب فتحتان وينزل منه الى مستوى المسجد بثلاث عشرة درجة آرتفاع الدرجة ربع المتر .

(٤) باب العباس بن عبد المطلب — سمى بذلك لأنه يقابل داره بالمسعى وسماه آبن الحاج فى منسكه باب الجنائز ولعل ذلك لأنه كان يصلى فيه على الجنائز ، وهذا الباب ذو فتحات ثلاث للدخول منها، وله إحدى عشرة درجة ومكتوب على يسار الداخل منه على الحائط بخط الثلث الجميل (الله . محمد . أبو بكر . عمر . عثمان) رضوان الله عليهم أجمعين سنة ١٢٩٩ ه . وفوق ذلك كتب بالخط الثلث الدقيق (قد وقع هذا الانشاء الشريف باشارة السلطان الأعظم السلطان مراد خان بن السلطان سليم خان أيد الله ملكه سنة ٩٨٨ ه) .

منظر باب علي بالحرم المكي



88. Door of Aly in Mecca Mosque.

منظر باب الصفا بالحرم المكي



89. View of the door of El Safa at Mecca.

(٥) باب علىّ — ويعرف بباب بنى هاشم، قال الأزرقى : وبباب البطحاء أيضا وفيه ثلاث فتحات وآرتفاعه عن أرض المسجد ١٣ درجة آرتفاع الواحدة منها ٢٨ سنتيمترا وعليه كتابة جميلة للسلطان مراد سنة ٩٨٤ هـ . (آنظر الرسم ٨٨ الذى آستعرناه من خليل افندى قازانلى المصور بالمدينة) .

وبالجهة الجنوبية : (١) باب بازان — سمى بذلك لأن عين مكة المعروفة ببازان قربه — كل محل ينزل اليه بدرج ويكون مستطيلا يسمى بازان — قاله جمال الدين محمد بن محمد نور الدين فى كتابه الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف — وسماه الأزرقى باب بنى عائذ ويسمى الآن أيضا باب القره قول (المخفر) لأنه أمامه، وهذا الباب ذو فتحتين، وله ١٣ درجة، ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ سنة ٩٨٤ هـ . للسلطان مراد بن السلطان سليم خان .

(٢) باب البغلة — وهو ذو فتحتين قال الفاسى : ولم أدر ما سبب هذه الشهرة ، وعرّفه الأزرقى بباب بنى سفيان ، وله إحدى عشرة درجة ينزل منها الى أرض المسجد ، ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ صدق الله العظيم . والحمد لله رب العالمين . وذلك بالخط الثلث .

(٣) باب الصفا — سمى بذلك لأنه يلى الصفا وعرّفه الفقهاء فى المناسك بباب بنى مخزوم وكذا عرّفه الأزرقى وهو ذو خمس فتحات أو طاقات أو أبواب وله أربع عشرة درجة ينزل منها الى أرض المسجد ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (انظر الرسم ٨٩) وترى فيه أقفاصا تحفظ فيها أحذية الداخلين .

(٤) باب إجياد الصغير — كذا سماه ابن جبير وسماه أيضا باب الحلقيين ولا يعرف السبب فى هذا وسماه الأزرقى أيضا باب بنى مخزوم وهذا الباب له طاقان وينزل منه الى المسجد بتسع درجات .

(٥) باب المجاهدية — وأطلق ذلك عليه لأن عنده مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن كذا عرّفه الفاسى ويقال له : باب الرحمة ولم يعرف سبب هذه التسمية (انظر الرسم ٧٤) ، وذكر الأزرقى : أنه من أبواب بنى مخزوم فتلك أبواب ثلاثة متجاورة يطلق على كل منها باب بنى مخزوم لكونهم كانوا ساكنين بتلك الجهة .

(٦) باب مدرسة الشريف عجلان — سمى بذلك لأنها بجانبه كذا عرّفه الفاسى وعرّفه الفاسى بباب بنى تيم ويقال له : باب التكية لأن أمامه التكية المصرية وله فتحتان وينزل منه الى أرض المسجد بأحد عشر سلما ، ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(٧) باب أم هانئ — بنت أبى طالب وبذلك عرّفه الأزرقى وذكر الفاسى أنه يسمى بباب الملاعبة لأنه بحذاء دار تنسب للقوّاد الملاعبة يعنى فى زمنه ، وعرّفه الأقشهرى بباب الفرج ويطلق عليه الآن باب الحميدية (دار الحكومة التركية) لأنها أمامه وأشهر أسمائه الاسم الأوّل لأن ما يليه من المسجد كان دارا لأم هانئ زوج هبيرة بن عمرو المخزومى ، وكان عندها بئر جاهلية فدخلت الدار والبئر فى المسجد فى زيادة المهدى الثانية ، وحفر المهدى عوضها بئرا عند باب الوداع (الحزورة) ولهذا الباب منفذان أو طاقتان وله سلم ١٢ درجة ينزل منه الى أرض

الحرم المكي من جهة باب ابراهيم



90. The Great Mosque at Mecca as seen from Ibrahim's Mausoleum.

داخل الحرم المكي من الجهة الشمالية الغربية



91. The Northern Western view of the Mosque of Mecca.

المسجد الحرام ، ومكتوب عليه باللون الأصفر بالخط الثلث الجميل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

وبالجانب الغربى : (١) باب الحزورة — قال الفاسى : المصحّف الآن بباب عزورة والحزورة آسم لسوق فى الجاهلية كانت فى هذا المكان ودخلت فى المسجد الحرام عند توسعته ويسمى باب البقالية ، قال الأزرقى : ويقال له باب بنى حكيم بن خزام وبنى الزبير بن العوّام ، والغالب عليه باب الحزامية لأنه يلى خط الحزامية ، ويقال له الآن : باب الوداع لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم ، ولهذا الباب فتحتان وسلم من الداخل ذو درجات عشر وعليه بين البابين تاريخ للملك الناصر فرج بن السلطان الشهيد الظاهر أبو سعيد برقوق سنة ٨٠٤ ھ . ومكتوب على الباب يا مبدئ يا معيد . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ . ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

(٢) باب إبراهيم — قال الفاسى : وإبراهيم المنسوب إليه هذا الباب كان خياطا بجاس عنده على ما قيل كما ذكره البكرى فى كتاب المسالك والممالك ، وإن العوام نسبوه اليه . ووقع للحافظ أبى القاسم بن عساكر وآبن جبير وغيرهما من العلماء ما يقتضى أنه الخليل عليه السلام وهو بعيد لا وجه له اه . وهذا الباب فى الزيادة التى فى هذا الجانب ، وهو ذو فتحة واحدة كبيرة وهو أكبر أبواب المسجد ، ومكتوب على يمين هذا الباب ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وعلى اليسار « أمر بعمارة هذا الباب المعظم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى » بدون تاريخ ، انظر داخل المسجد الحرام من جهة باب إبراهيم فى (الرسم ٩٠) الذى ترى فيه قباب المسجد وشرفاته .

(٣) باب صغير — بمدرسة الشريف عبد المطلب .

(٤) باب الداودية — صغير أيضا وله ١٣ سلما .

(٥) باب العمـرة — وسمى بذلك لأن المعتمرين من التنعيم يخرجون ويدخلون منه فى الغالب وسماه الأزرقى باب بنى سهم ، وهو ذو طاق واحد وينزل منه الى مستوى المسجد بثنتى عشرة درجة .

وفى الجانب الشمالى : (١) باب عمرو بن العاص — ويقال له : باب السدّة لكونه سدّ ثم فتح، ويقال له : الباب العتيق، وهو ذو فتحة واحدة صغيرة ويعلو أرض المسجد بخمس عشرة درجة .

(٢) باب الزمامية — وهو باب صغير ذو فتحة واحدة وله تسع درجات تصل بك الى أرض المسجد .

(٣) باب العجلة — لكونه عنـد دار العجلة ولا يدرى ما هذه العجلة، ويقال له باب الباسطية لأنه مجاور لمدرسة عبد الباسط وله فتحة واحدة واثنتا عشرة درجة .

(٤) باب القطبي — ويقـال له : باب الزيادة لكونه غربى الزيادة التى فى شمالى المسجد، وهو ذو فتحة واحدة وله ١٣ درجة .

(٥) باب سويقة — وهو فى صـدر زيادة دار النـدوة أى فى شماليها، ويعرف الآن بباب الزيادة ، وكان يقال هـذا على باب القطبي ، ولبـاب سويقة ثلاث فتحات وينزل منه الى أرض المسجد بثلاث عشرة درجة .

(٦) باب المحكمة — وهو صغير ذو فتحة واحدة ولا سلم له .

(٧) باب الكتبخانة — ويقال له : باب المدرسة ذو فتحة واحدة .

(٨) باب دريبة — وهو فى الطرف الشمالى الشرقى وذو فتحة واحدة .

مآذن المسجد الحرام — له سبع مآذن : (الأولى) مئذنة باب العمرة فى ركن المسجد الشمالى الغربى، وقد بناها المنصور العباسى فى عمارته للمسجد سنة ١٣٩ هـ .

وجدّدها وزير صاحب الموصل سنة ٥٥١ هـ . وأصلحت فى سنة ٨٤٣ هـ . فى ولاية السلطان چقمق ، وفى سنة ٩٣١ هـ . أمر السلطان سليمان بهدم هذه المنارة وإعادة بنائها محكما ، (الثانية) مئذنة باب السلام عمرها المهدى العباسى سنة ١٦٨ هـ . (الثالثة) مئذنة باب علىّ عمرها المهدى أيضا فى التاريخ السالف ، وجدّدت بالحجر الأصفر فى عمارة السلطان سليمان للمسجد . (الرابعة) مئذنة باب الحزورة (باب الوداع) عمرها المهدى أيضا، ثم عمرت زمن الأشرف شعبان صاحب مصر ، وكانت سقطت سنة ٧٧١ هـ . فعمرت فى السنة التالية . (الخامسة) مئذنة باب الزيادة عمرها المعتضد العباسى لما بنى الزيادة سنة ٢٨٤ هـ . ثم جدّدها الأشرف برسباى فى سنة ٨٢٦ هـ . (السادسة) مئذنة قايتباى بالمدرسة المعروفة باسمه ، وهى مجاورة لباب السلام على يسار الداخل الى المسجد وقد عمرت فى حدود سنة ٨٨٠ هـ . (السابعة) مئذنة السليمانية فى المدرسة المعروفة باسمها ، وكل هذه المآذن حصلت فيها زيادات وترميمات فى العمارة الكبيرة التى قام بها السلطان سليم الثانى وأبوه فى المسجد كما ستقف على ذلك بعد، وكذلك رممت فى سنة ١٠٧٢ هـ . على يد سليمان بك والى جدّة والحرم من قبل السلطان محمد كزلار الأغا وكل هذه المآذن يؤذن عليها الآن فى الأوقات الخمس وشيخ المؤذنين أو الميقاتى يؤذن على قبة زمزم فيتبعه باقى المؤذنين على المآذن ومثبت فى الحائط الجنوبى لهذه القبة مزولة أهداها رجل مراكشى الى المسجد وهى فى غاية الضبط والإحكام وعليها ميقاتهم فى النهار . أُنظر فى (الرسم ٩١) ست مآذن من السبع .

توسعة المسجد الحرام وعمارته وتاريخ ذلك — ذكر الأزرق والامام أبو الحسن الماوردى وغيرهما أن المسجد الحرام كان فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله عنه ليس عليه جدار يحيط به ، وكانت الدور محدقة به من كل جانب و بين الدور أزقة يدخل منها الناس، وكانت حدوده حدود المطاف الآن وهو على ذلك من عهد إبراهيم عليه السلام، فلما أن استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه أشترى دورا هدمها ووسع بها المسجد — وكانت تلك أوّل زيادة —

وأبى بعضهم أن يأخذ الثمن وامتنع من البيع فوضع[(١)] أثمانها فى خزانة الكعبة فأخذوها بعد ذلك، وقال لهم عمر: إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ولم تنزل الكعبة عليكم ثم جعل سيدنا عمر على المسجد جدارا قصيرا محيطا به دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه فكان عمر أول من اتخذ للمسجد جدارا ووضع له المصابيح، وذكر القاضى فى جامعه : أن أول من استصبح لأهل الطواف عتبة بن الأزرق وكانت داره لاصقة بالمسجد فكان يضع فى جداره مصباحا كبيرا يضىء لمن يطوف بالبيت . ولما كان زمن عثمان وكثر الناس آشترى دورا وسع بها المسجد وقد أبى قوم أن يبيعوا فهدم عليهم فصاحوا به فقال لهم : إنما جرأكم علىّ حلمى عنكم فقد فعل بكم عمر هذا فلم يصح به أحد ثم أمر بهم الى الحبس حتى شفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأخرجهم . وجعل عثمان للسجد أروقة فكان أول من اتخذ الأروقة له وكانت توسعة عمر فى سنة ١٧ هـ . وتوسعة عثمان فى سنة ٢٦ هـ . وفى سنة ٦٤ هـ . اشترى عبد الله بن الزبير دورا وسع بها المسجد من جانبيه الشرقى والجنوبى توسعة كبيرة، ومن جملة ما اشتراه بعض دار الأزرق جد الأزرقى صاحب تاريخ مكة وكانت شرقى المسجد، وقد آشترى بعضها هذا ببضعة عشر ألف دينار، وفى سنة ٧٥ هـ . حج عبد الملك بن مروان وعمر المسجد ولم يزد فيه ولكن رفع جدره وسقفه بالساج، وجعل فى رأس كل أسطوانة ٥٠ مثقالا من الذهب ثم وسعه ابنه الوليد ونقض عمل أبيه وعمله عملا محكما وسقفه بالساج المزخرف وأزّر المسجد من داخله بالرخام وجعل له شرفا، وجعل على رأس الأساطين الذهب على صفائح الشبه من الصفر (الشَّبَه والشِّبْه نوع من النحاس) وجعل فى وجوه الطيقان من أعلاها الفسيفساء وهو أول من جعلها بالمسجد الحرام وأول من نقل إليه أساطين الرخام . وفى ولاية زياد بن عبد الله الحارثى على مكة أمره أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس

---

(١) تفعل حكومتنا مثل هذا . فمن أخذت منه شيئا للمصلحة العامة وأبى أخذ ثمنه أودعته خزينة المحكمة باسمه .

بزيادة المسجد الحرام فوسعه من جانبه الشمالى ومن جانبه الغربى، ولم يجعل فيما وسعه من الجانبين إلا رواقا واحدا ، وكان ابتداء عمل ذلك فى المحرم سنة ١٣٧ هـ . والفراغ منه فى ذى الحجة سنة ١٤٠ هـ . وكانت زيادته ضعف ما كان عليه المسجد وقد زينه بالذهب وأنواع النقوش وبنى مئذنة بنى سهم . ولما حج المنصور سنة ١٤٠ هـ . رأى حجارة الحجر بادية فأمر عامله زيادا المذكور بتغطيتها بالرخام ليلا حتى اذا أصبح لا يراها إلا مغطاة وقد فعل ما أمر به على السراج قبل أن يصبح الصباح ثم إن المهدى بن أبى جعفر وسع المسجد الحرام بعد موت أبيه من أعلاه ومن الجانب اليمانى ومن الموضع الذى انتهى اليه أبوه فى الجانب الغربى حتى صار على ما هو عليه اليوم ما عدا الزيادتين فانهما أحدثتا بعده كما سيأتى . وكانت عمارة المهدى فى نوبتين الأولى فى سنة ١٦١ هـ . وزاد فيما زاده أبوه رواقين، والثانية فى سنة ١٦٧ هـ . وكان أمر بها لما حج حجته الثانية فى سنة ١٦٤ هـ . ورأى الكعبة فى شق من المسجد فكره ذلك وأحب أن تكون فى وسطه، فدعا المهندسين وشاورهم فى ذلك فقدروا ذلك فاذا هو لا يستوى لهم من أجل الوادى والسيل، وقالوا : إن وادى مكة له سيول قوية العزم ونخشى ان حولنا الوادى عن مكانه أن لا يتم لنا ما نريد، فقال المهدى : لا بد لى من سعة المسجد حتى تكون الكعبة فى وسطه ولو أنفقت فيه جميع ما فى بيوت المال وعظمت نيته فى ذلك وقوى عزمه، فقدر المهندسون ذلك وهو حاضر ونصبوا الرماح على الدور من أول موضع الوادى الى آخره ثم ذرعوه من فوق الرماح حتى عرفوا ما يدخل فى المسجد من ذلك وما يبقى فى الوادى ، ثم خرج المهدى الى العراق وخلف الأموال فاشتروا من الناس دورهم ووسعوا المسجد ولم يكمل ذلك إلا فى خلافة ابنه موسى الهادى لمعاجلة المنية للمهدى، وكان مما عمل بعد موته بعض الجانب اليمانى وبعض الغربى. وأنفق المهدى رحمه الله فى ذلك أموالا عظيمة بحيث صار ثمن الذراع المربع مما دخل فى المسجد الحرام خمسة وعشرين دينارا — اثنى عشر جنيها ونصفا — وثمنه مما دخل فى الوادى خمسة عشر دينارا، ونقل الى المسجد الحرام أساطين الرخام

من مصر وغيرها فى السفن حتى أنزلت بجدّة وحملت منها على العجل الى مكة ، قال الأزرق : ووسع المهندسون باب بنى هاشم الذى يستقبل الوادى وجعلوا إزاءه بابا فى الجهة الأخرى يقابل خط الخزامية — وهو باب الحزورة أو البقالين — وقالوا إذا جاء سيل عظيم ودخل المسجد خرج من ذلك الباب .

وفى خلافة هارون الرشيد عمل أمير مكة عبد الله بن محمد بن عمران الطلحى مظلة للمؤذنين التى على سطح المسجد ليؤذنوا فيها يوم الجمعة وكانوا يؤذنون قبل ذلك فى يومها على سطح المسجد صيفا وشتاء .

ولم يزد فى المسجد الحرام بعد عمارة المهدى سوى زيادة دار الندوة فى الجانب الشامى (الشمالى) وزيادة باب ابراهيم فى الجانب الغربى ، وكان سبب الزيادة الأولى كما فصله الفاسى عن إسحاق الخزاعى أن بعض أهل الخير كتب الى وزير الخليفة المعتضد العباسى يحسن له جعل ما بقى من دار الندوة مسجدا ويقول له : إن هذه مكرمة لم تتهيأ لأحد من الخلفاء بعد المهدى ، فلما بلغ ذلك المعتضد عظمت رغبته وأخرج لذلك مالا عظيما فأخرجت القُمام — جمع قُمامة وهى الكناسة — من دار الندوة وجعلت مسجدا ووصلت بالمسجد الكبير وعمره بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المزخرف ثم فتح لها فى جدار المسجد الكبير اثنا عشر بابا بعقود ستة كبار ، تحت كل عقد منها باب سعته خمسة أذرع فى ارتفاع أحد عشر ، وبين العقود الكبيرة ستة صغيرة تحت كل عقد باب سعته ذراعان ونصف فى ارتفاع ثمانية أذرع وثلث ، وجعل فى هذه الزيادة من الخارج ثلاثة أبواب ، بابان طاقان وباب طاق واحد شارعة الى الطريق التى حولها وجعل سقفها مسامتا لسقف المسجد الكبير وبنى فيها مئذنة وشرفا ، وفرغ من ذلك فى ثلاث سنين ، وذرع هذه الزيادة طولا أربعة وستون ذراعا من الشمال الى الجنوب ، وذرعها عرضا من وسط الجدار الشرقى الى وسط الغربى سبعون ذراعا بذراع الحديد . ولم يبين إسحاق الخزاعى السنة التى فرغ فيها من عمارة هذه الزيادة ولعل ذلك كان فى سنة ٢٨٤ هـ . على مقتضى ما ذكره إسحاق من أن الكتابة الى المعتضد بسبب إنشائها كانت فى سنة ٢٨١ هـ . ثم ذكر

أن القاضى محمد بن موسى لما كان اليه أمر البلد غير الطاقات (الأبواب) التى كانت فى جدار المسجد الكبير وجعل ذلك بأساطين حجارة مدوّرة عليها ملابن — كَلّ خشبية فى نهاية الأعمدة ومبدأ العقود — ساج بعقود من الآجر والجص الأبيض، فوصل الزيادة بالمسجد الكبير وصولا أحسن من الأول حتى صار من فى دار الندوة من مصل ومستقبل يرى القبلة كلها وكان ذلك فى سنة ٣٠٦ هـ . وقد كانت دار الندوة منزلا للخلفاء والأمراء فى صدر الإسلام إذا حجوا ، ولكن أهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث فأخذ يتهدّم بناؤها وألقيت فيها القمام حتى أضيفت الى المسجد .

وأما الزيادة التى فى الجانب الغربى المعروفة بزيادة باب إبراهيم فنقل الفاسى رحمه الله أنه لما كانت أيام جعفر المقتدر بالله أمير المؤمنين أمر أن يجعل هذا المحل مسجدا ويوصل بالمسجد الكبير ، فعمل على ما هو عليه اليوم فاتسع الناس به وصلوا فيه وكان ذلك سنة ٣٧٦ هـ . والمسقى الذى بالزيادة المذكورة من عمل الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون وكان إنشاؤه فى حدود سنة ٧٥٩ هـ . أو فى السنة التى بعدها ، وطول هذه الزيادة ٥٧ ذراعا إلا ربعا وعرضها اثنان وخمسون دراعا وربع .

وفى سنة ٦٤١ هـ . أجرى صاحب اليمن على بن عمر عمارة داخل باب السلام ووقف كثيرا من الكتب للمسجد الحرام . وفى سنة ٧٨١ هـ . أرسل الأمير زين الدين العثمانى من مصر مملوكه سودون باشا لعمارة المسجد الحرام وكان مما عمله تحلية الباب والميزاب وتبييض سطح الكعبة .

وفى ليلة السبت الثامن والعشرين من شوّال سنة ٨٠٢ هـ . ظهرت نار من رباط رامشت المعروف الآن برباط ناظر الخاص عند باب الحزورة المعروف بباب عزورة بالجانب الغربى من المسجد الحرام ، فلم يكن غير لحظة حتى تعلقت النار بسقف المسجد وعم الحريق الجانب الغربى وبعض الرواقين المقدمين من الجانب

الشامى بما فى ذلك من السقوف والأساطين الرخام وصارت قطعا وانتهى الحريق إلى محاذاة باب العجلة وصار ما احترق أكواما عظيمة تمنع من الصلاة فى موضعها ومن رؤية البيت الشريف ثم منّ الله بعمارة ذلك فى مدّة يسيرة على يد الأمير بيسق الظاهرى ، وكان قدومه لذلك سنة ٨٠٣ هـ . فلما رحل الحاج من مكة شرع فى رفع الأكوام حتى فرغ منها ، ثم ابتدأ فى العمارة حتى عاد ذلك كما كان ، وكان الفراغ من ذلك فى أواخر شعبان سنة ٨٠٤ هـ . وعجب الناس كثيرا من سرعة العمارة فى هذه المدّة لأن من رأى ذلك قبل العمارة يقطع بأن هذه العمارة إنما تتم فى مدّة سنتين باعتبار العادة فى العمارات ، فسهل الله فراغها فى تلك المدّة وجعلت الأساطين فى الجانب الغربى كلها من حجارة منحوتة وكذلك الجانب الشامى ما خلا أساطين يسيرة فى مقدّمه فانها رخام مكسر ملصق بالحديد ، ولم يبق من ذلك محتاجا للعمارة إلا سقف الجانب الغربى وما أخره عن إتمام ذلك إلا فقده خشب الساج ولو وجده لأتم ذلك قبل موسم سنة ٨٠٤ هـ . ولما كان المحرّم مفتتح شهور سنة ٨٠٧ هـ . قدم الى مكة الأمير بيسق فأخذ يجمع الخشب ويعدّه للسقف ثم وضعه فى محاله بسرعة ، وكان ذلك الخشب من العرعر جىء به من الطائف الى مكة ، وقد عمر فى تلك السنة مواضع من المسجد كانت متشعبة وسقوفا فيه ونقشه وكان ذلك فى أيام السلطان الناصر فرج بن برقوق . وفى هذه السنة عمرت سقاية العباس بالحجر وكانت بالخشب عمرها الجواد الأصبهانى وزير صاحب الموصل .

وفى سنة ٨١٥ هـ . عمرت أماكن بالمسجد ، وفى سقفه وكان القائم بذلك قاضى مكة جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة من مال تطوّع به أهل الخير .

وقد كثر بعد ذلك الخلل والتشعب فى جدر المسجد وعمده وأبوابه وسقفه فقيض الله لإصلاح ذلك الأمير زين الدين مقبلا القديدى موفدا من قبل ملك مصر وصاحبها الأشرف برسباى ، فقام بعمارة كبيرة فى كل المسجد فأقام عشرات العقود وجدّد كثيرا من أبواب المسجد وعمرت سقوفه وطليت بالنورة وكان ذلك فى سنتى ٢٥ و ٢٦ بعد الثمانمائة .

وفى سـنة ٨٤٢ هـ . عمر الأمير سيدوم سقف المسجد ، وفى سنة ٨٥٢ هـ . رمم بعض أماكنه بيرم خواجه ناظر الحرمين من قبل السلطان چقمق .

وفى سنة ٧٧٨ هـ . عمر السلطان الغورى باب إبراهيم فجعل له عقدا بعد أن لم يكن، وجعل فى أعلاه قصرا وفى جانبيه سكنين و بيوتا تغل بالكراء و بنى ميضأة خارج باب إبراهيم .

وفى سـنة ٩٧٩ هـ . صدر أمر السلطان سليم خان ببناء المسجد الحرام على أكمل درجات الاتقان وأن يعتاض عن السقف بقبب دائرية وأرسل الى سنان باشا صاحب مصر ليبعث من يقوم بهـذا العمل من الكبار، فعين الباشا أحمد بك فكان تعيينا صادف أهله فإنه طبع على حب الخير وعدم الاكتراث بالدنيا وشدّة العطف على الفقراء، وقد وصل مكة سلخ ذى الحجة سنة ٩٧٩ هـ . ومعه الإجازات السلطانية بمباشرة البناء على أن يكون تحت إشراف القاضى حسين مدبر المملكة الحسنية وسفير الأقطار الحجازية، واستصحب أحمد بك شيخ المهندسين بمصر المعلم محمدا المصرى، وقد بدأ بالهدم يتلوه التعمير من باب السلام وكان ذلك فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٩٨٠ هـ . ولم يزل يبنى على الشكل الذى نراه الآن حتى أتم الجانبين الشرقى واليمانى. وقد أتى نعى السلطان سليم خان وتولية ابنه السلطان مراد، وورد منه أمر لأحمد بك بأن يستمر فى عمارة المسجد و يستنجزه الاتمام، فجدّ جدّه فى العمارة حتى أتم المسجد فى أواخر سنة ٩٨٤ هـ . فكان نزهة الناظر وجلاء الخاطر و بلغ ما أنفق فى هـذه العمارة ١١٠٠٠٠ دينار (٥٥٠٠٠ جنيه تقريبا) ومائة ألف من الذهب الإبريز ، وذلك عدا ما وصل من مصر من مواد البناء مثل الخشب والحديد وأهلة القباب المطلية بالذهب، وهـذا الشكل هو الذى تراه بالمسجد الى يومنا هـذا وقد وصفناه لك قبلا .

وفى هـذه العمارة خفض العمال أرض الشارع الموصل الى المسفلة بحيث صار يصرف ماعساه يدخل الى المسجد من مياه السيول التى كثيرا ما كانت سببا فى نقض

أركانه وهدم بنيانه وقد رمم المسجد الحرام فى سنة ١٠٧٢ هـ . سليمان بك والى جدة وشيخ المسجد الحرام بمال زوده به سلطان مصر محمد كزلار الأغا .

هـذا وقد كانت الزيادات التى تخلف من الدور التى دخلت فى تربيع المسجد فى كل عماراته يبنى بعضها مدارس وبعضها أروقة يسكن فيها فقراء طلبة العلم فى المسجد، وكان لهـا أوقاف جمة ولكن كثيرا ما تغيرت أوقافها واستبدل بها غيرها أو خرجت من يد واقف الى يد آخر أقوى منـه ، ومن ذلك مدرسـة قايتباى التى لا تزال للآن على يسار الداخل الى المسـجد من باب السلام فانها بعـد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها ضعفت أوقافها شيئا فشيئا فنقلوها من دار علم الى دار ضيافة كان ينزل فيها أمراء الحج المصرى ثم سار يسكنها بعض أشراف بنى غالب .

مقام ابراهيم عليه السلام — (١) ما المراد به . قال تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قال شيخ المفسرين ابن جرير فى تفسيره اختلف أهـل التأويل فى مقام ابراهيم فقال بعضهم : مقامـه هو الحج كله (أى مشاعره)، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وعطاء، وقال آخرون : مقام ابراهيم عرفة والمزدلفة والجمار، وحكى ذلك عن هؤلاء الثلاثة أيضا، وقال آخرون : مقام ابراهيم الحجر الذى قام عليه ابراهيم حين ارتفع بناؤه وضعف عن رفع الحجارة وأسنده الى ابن عباس، وقالت طائفة رابعة : بل مقام ابراهيم هو مقامه المعروف فى المسجد الحرام وعزا ذلك الى قتادة وعمار والسدى، ثم قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا ما قاله القائلون إن مقام ابراهيم هو المقام المعروف بهذا الاسم الذى هو فى المسجد الحرام، لمـا روينا عن عمر بن الخطاب أنه قال : قلت يا رسول الله ! لو اتخـذت المقام مصلى فأنزل الله ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ولمـا حدثنا يوسف بن سليمان قال : حدثنا حاتم بن إسماعيـل قال : حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا

ثم تقدّم الى مقام ابراهيم فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين، فهذان الخبران ينبئان أن الله تعالى ذكره إنما عنى بمقام ابراهيم الذى أمرنا الله باتخاذه مصلى هو الذى وصفنا، ولو لم يكن على صحة ما اخترنا فى تأويل ذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان الواجب فيه من القول ما قلنا، وذلك أن الكلام محمول معناه على ظاهره المعروف دون باطنه المجهول حتى يأتى ما يدل على خلاف ذلك مما يجب التسليم له، ولا شك أن المعروف فى الناس بمقام ابراهيم هو المصلى الذى فيه قال الله تعالى ذكره ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقد روى الخبرين اللذين ذكرهما ابن جرير البخارى فى صحيحه الأول فى كتاب التفسير والثانى فى كتاب الحج ونرى أن الآية صريحة فى أن المصلى بعض من المقام أى موضع القيام والحجر لا يصلح أن يكون مصلى لصغره فالمقام مكان غيره أكبر منه ولعل الحجر المعروف الآن بمقام ابراهيم كان موضوعا فى مكان قيامه علامة عليه .

(٢) قياس المقام — (الحجر) وتحليته . قال القاضى عز الدين بن جماعة : حررت لما كنت مجاورا بمكة سنة ٧٥٣ ﻫ . مقدار ارتفاع المقام عن الأرض فكان $\frac{٧}{٨}$ الذراع، وأعلى المقام مربع من كل جهة $\frac{٣}{٤}$ الذراع، وموضع غوص القدمين ملبس بالفضة، وعمقه من فوق الفضة سبع قراريط ونصف قيراط من ذراع القماش المستعمل فى مصر . اﻫ .

وأول ما حلى المقام فى خلافة المهدى العباسى لأنه رفع فانثلم لرخاوة حجره، فكتب الحجبة الى المهدى يعرفونه بذلك وأنهم يخشون عليه أن يتفتت، فبعث المهدى فى سنة ١٦١ ﻫ . بألف دينار أو أكثر فضببوا بذلك المقام من أعلاه وأسفله، فلما كان فى خلافة المتوكل زاد فى تضبيب المقام سنة ٢٣٦ ﻫ . ومقدار ما زاده ٨٠٠٠ مثقال من الذهب و ٧٠٠٠٠ درهم من الفضة وكان ذلك فوق حليته الأولى ثم أن جعفر بن الفضل عامل مكة ومحمد بن حاتم قلعا حلية المتوكل وضرباها دنانير ليستعينا بها على ما قيل فى حرب إسماعيل بن يوسف العلوى الذى خرج وأفسد بمكة والحجاز فى سنة ٢٥١ ﻫ . ولم تزل حلية المهدى على المقام الى أن قلعت عنه

فى محرم سنة ٢٥٦ هـ . لأجل إصلاحه لأن الحجبة ذكروا لعامل مكة على بن الحسن العباسى أن المقام وهى وتسللت أحجاره ويخشى عليه ، وسألوه فى تجديد عمله وتضبيبه حتى يشتد فأجابهم لسؤالهم و زادهم ذهبا وفضة الى حليته الأولى، فعمل له طوقان من ذهب فيهما ١٩٩٢ مثقال، وطوق من فضة ، وأحضر المقام الى دار الإمارة وأذيبت له العقاقير بالزئبق وشد بها شدا جيدا حتى التصق ، وكان قبل ذلك سبع قطع زال عنها الالتصاق لما قلعت الحلية عنه سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ . لأجل إصلاحه ، وكان الذى شده بيده فى هذه السنة بِشر الخادم مولى أمير المؤمنين المعتمد العباسى وحمل المقام بعد لصقه وتركيب الحلية عليه لشده الى موضعه وكان ذلك فى يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ .

(٣) موضع المقام والمصلى خلفه — قال التقى الفاسى : روى الأزرقى — توفى سنة ٢١٧ هـ — عن ابن أبى مليكة أن موضع المقام الآن هو موضعه فى الجاهلية وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخليفتين بعده إلا أن السيل — سيل أم نهشل سنة ١٧ هـ — ذهب به فى خلافة عمر رضى الله عنه فجعل فى وجه الكعبة — الجهة الشرقية التى فيها الباب — حتى قدم عمر فرده الى مكانه بمحضر من الصحابة. ونقل المحب الطبرى عن مالك فى مدونته أنه قال : كان المقام فى عهد ابراهيم عليه السلام فى مكانه اليوم وكان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل ، فكان كذلك فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر، فلما ولى عمر رده بعد أن قاس موضعه بخيوط قديمة قيس بها حتى أخروه، قال التقى الفاسى : وهذا يخالف قول الأزرقى وحديث جابر الصحيح، ثم قال بعد كلام طويل : فيتحصل فيمن رده الى موضعه الآن — سنة ٨١٢ هـ — ثلاثة أقوال : أحدها أنه النبى صلى الله عليه وسلم، والثانى أنه عمر، والثالث أنه غيرهما، ثم قال: موضع المقام الآن هو موضعه فى عهد الخليل عليه السلام من غير خلاف أعلمه فى ذلك ، وأما الخلاف فى موضعه اليوم هل هو

موضعه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن أبى مليكة أو لا كما قال مالك، ثم قال وكان ردّ عمر للمقام الى موضعه هذا لما غيره عنه السيل سنة ١٧ هـ .

قال التقى الفاسى : المقام الآن تحت قبة عالية من خشب قائمة على أربعة أعمدة دقيقة من حجارة منحوتة بينها أربعة شبابيك من حديد بين كل عمودين شباك، ومن الجهة الشرقية يدخل الى المقام، والقبة مزخرفة من باطنها بالذهب، ومما يلى السماء مبيضة بالنورة، وأما المصلى الذى هو خلف المقام فعليه ظلة قائمة على أربعة أعمدة منها عمودان عليهما القبة إذ هى متصلة بالقبة ، والظلة مزخرف سقفها من الباطن بالذهب ومبيض من أعلاه بالنورة ، وأحدث وقت صنع فيه ذلك شهر رجب سنة ٨١٠ هـ . واسم الملك الناصر فرج صاحب الديار المصرية والشامية مكتوب فيه بسبب هـذه العمارة ، واسم الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر مكتوب فى الشباك الشرقى بسبب عمارته له سـنة ٧٢٨ هـ . ومقام ابراهيم فى وسط القبـة بين شبابيكها الأربعة الحديدية ، ويحيط بالمقام قبة من الحـديد — مقصورة — مثبتة فى الأرض برصاص مصبوب بحيث لايستطاع قلع القبة التى فوقه إلا بالمعاول وشبهها ، ولعل هذه القبة الحديدية هى التى كانت توضع فوقه عند قدوم الحاج الى مكة صونا له لكونها أشـدّ تحملا للازدحام والاستلام على ما ذكر ابن جبير فى رحلته سـنة ٥٧٩ هـ . وقد ذكر ما يدل على أن المقام لم يكن ثابتا بل كان تارة يجعل فى الكعبة وتارة فى موضعه الآن فى قبة من خشب ، فاذا كان الموسم أبدل بها القبة الحديدية ، قال التقى الفاسى وما عرفت متى جعـل المقام ثابتا فى القبة على صفته التى هو عليها الآن ، وأما القبـة التى فوق القبة الحديدية التى فى جوفها المقام فاظن أن الملك المسعود صاحب اليمن ومكة أوّل من بناها . اهـ .

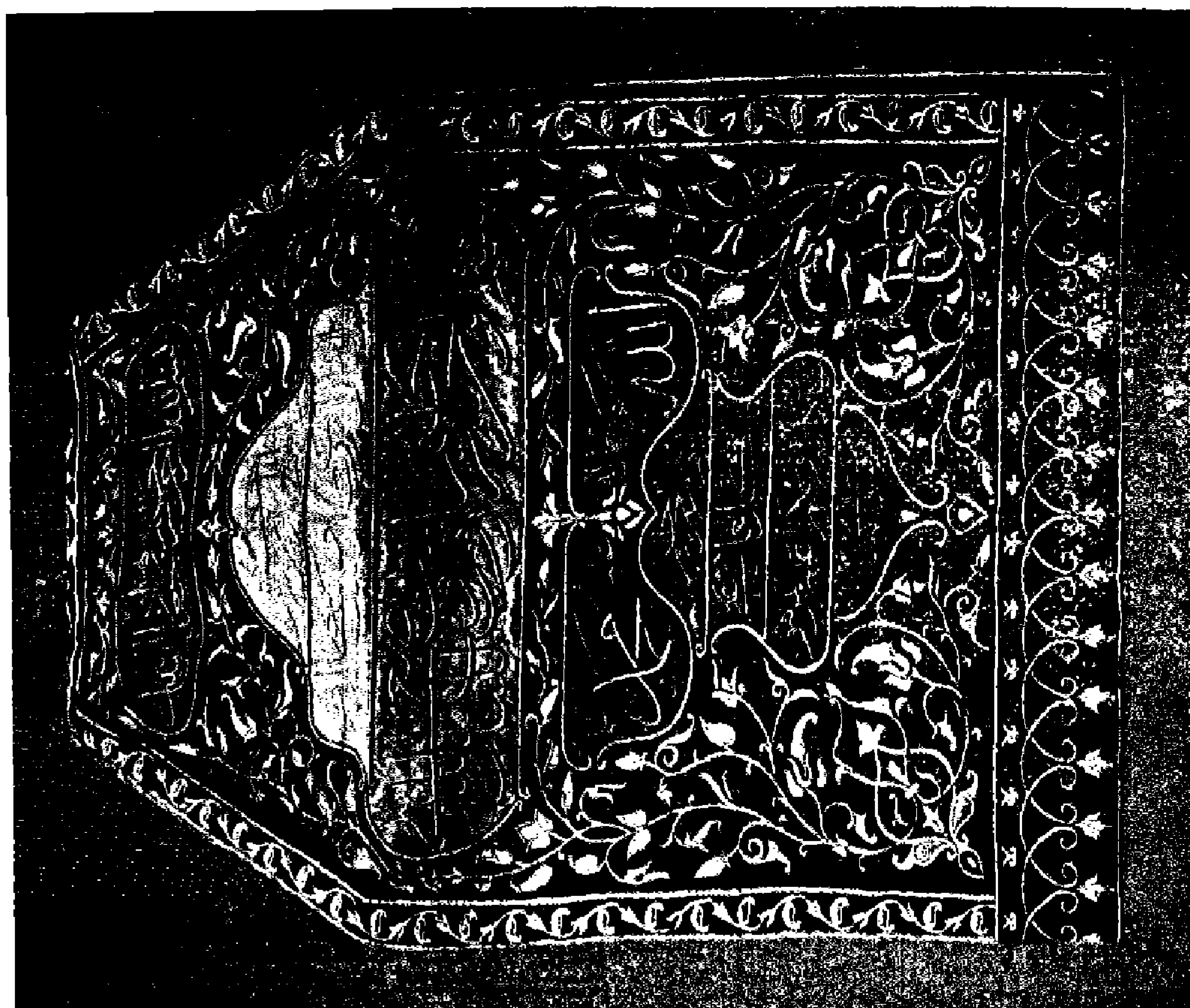
وقد جدّدت قبة المقام فى سنة ٩٠٠ هـ . وكذلك فى سـنة ١٠٤٩ هـ . ونقشها بالذهب فى سنة ١٠٧٢ هـ . سليمان بك والى جدّة ومكة من قبل سلطان مصر محمد

كزلار ، وقد رأيت مكتوبا على القبة من الجهة الجنوبية «أمر بتجديد هذا المقام الشريف مولانا العبد الفقير الى الله تعالى سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره فى ١٥ شهر رجب الفرد سنة ٩٠٠ هـ . ومكتوبا عليها فى الجهة الغربية المقابلة لباب الكعبة « أمر بتجديد هذا المقام المعظم سيدنا ومولانا السلطان المظفر سليم خان بن السلطان بايزيد خان — وعلى الجهة الشمالية بقية أجداده — سنة ١٠٤٩ هـ » . وقد قست المسافة بين المقصورة التى على المقام وجدار الكعبة الذى فيه الباب من الوسط فاذا هى ١٥٫٤٠ مترا، ودخلت المقصورة مع المطوف فوضع من ماء زمزم على أثر القدمين وشربنا منه فى حجتنا هذه سنة ١٣١٨ هـ . وكان خليقا بى و بالمطوف أن نتجنب التبرك بالآثار والشرب من مواطئ الاقدام وأن ندع هذه البدعة جانبا ولا نفعل عند هذا الأثر سوى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة عنده امتثالا لأمر الله تعالى ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ولكنى كنت فى هذا الوقت لما تنضج معلوماتى الدينية فى الحج ومشاعره ولم أكن وقفت تمام الوقوف على تأثير البدع السيئ فى الدين ، وقد دعانى الإنصاف الى ذكر الواقع ودعانى البصر بالدين الى انكار ما حصل ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ .

وقد رسمت المقام فى حجتى سنة ١٣٢٥ هـ . وهو الذى تراه فى (الرسم ٣٣) بجوار الكعبة والمنبر ، و بالتأمل فى الرسم تجد فى كل جهة شباكين وترى فى وسط المقام القبة . وفى (الرسم ٩٣) الجانب الأمامى من كسوة المقام التى تصنعها مصر ، وفى الجدول الآتى ما سطر على كسوة المقام :

صحيفة ٢٣٦

رسم كسوة مقام ابراهيم عليه السلام



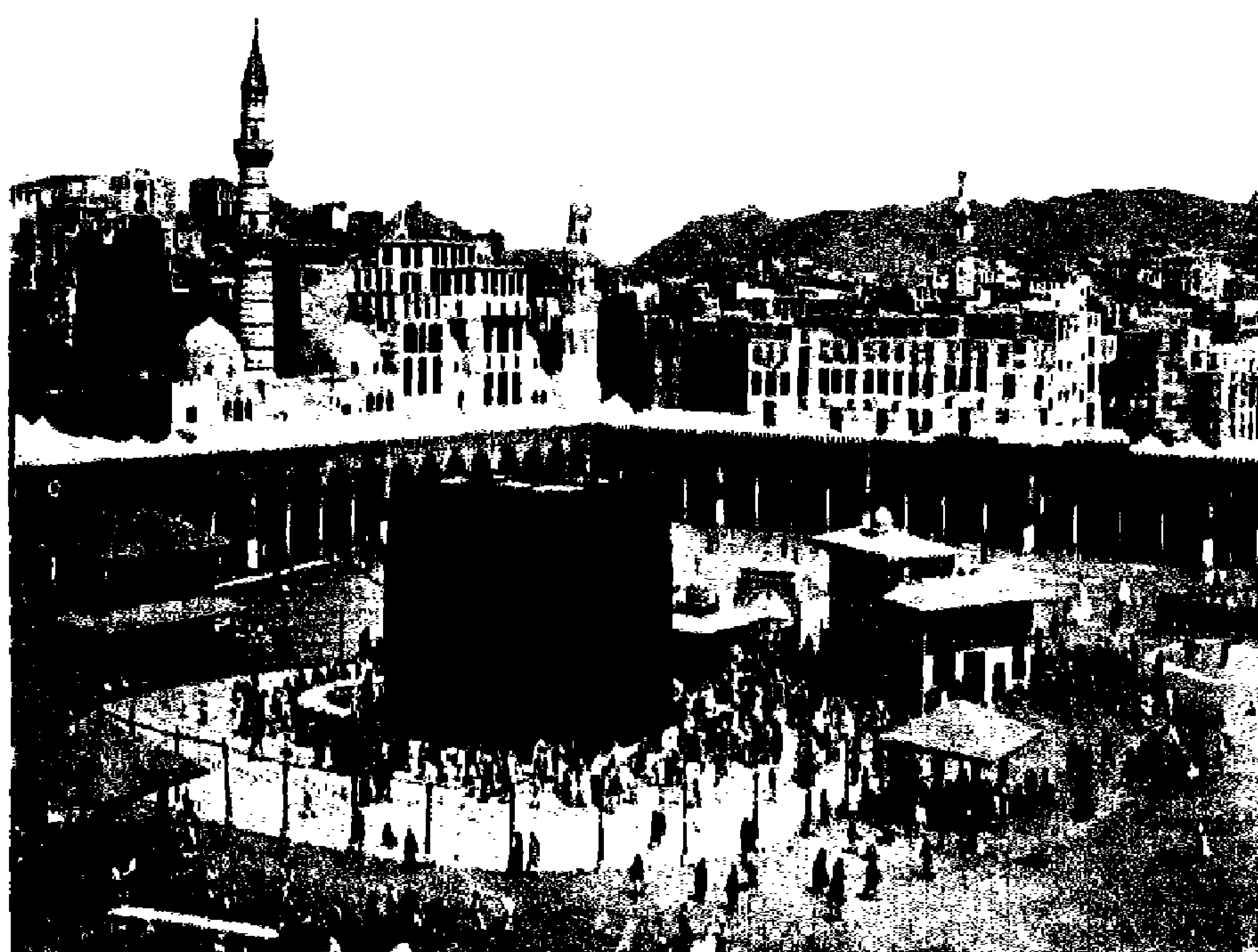
53. The Carpet on Ibrahim's mausoleum.

حقوق الطبع والتصوير محفوظة [illegible]

صحيفة ٢٥٠

منظر الكعبة المعظمة بالمسجد الحرام بمكة المكرمة

[illegible]



92. The Northern-Eastern view of the Kaaba and the Praying Places of the four calophs in the Mosque of Mecca.

ما سطر على كسوة مقام إبراهيم عليه السلام

الوجه الأول	الوجه الثانى	الوجه الثالث	الوجه الرابع
بسم الله الرحمن الرحيم . و إذ جعلنا البيت	مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى	وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى	للطائفين والعاكفين والركع السجود
بسم الله الرحمن الرحيم . و إذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحي الموتى	قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن	إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا	واعلم أن الله عزيز حكيم . صدق الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم . إن أول بيت وضع للناس للذى	ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن	دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع	اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين
الله جل جلاله . محمد صلى الله عليه وسلم	أبو بكر رضى الله عنه عمر رضى الله عنه	عثمان رضى الله عنه على رضى الله عنه	حسن رضى الله عنه حسين رضى الله عنه
بسم الله الرحمن الرحيم قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا	بسم الله الرحمن الرحيم هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا	السلطان محمد خان الخامس ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان	ابن السلطان أحمد خان خلد الله خلافته وأيد بالعدل سلطنته الى انتهاء الزمان ونهاية الدوران سنة ١٣٢٧ ﻫ

المقامات الأربع أو مواقف الأئمة فى الصلوات المفروضة

قال التقى الفاسى فى كتابه شفاء الغرام :

مقام الشافعى خلف مقام إبراهيم بينه وبين جدار الكعبة الشرقى ½ ٣٩ ذراعا بذراع الحديد وبينه وبين الأسطوانتين المؤخرتين من سباط مقام إبراهيم ½ ٩ أذرع — وأقول إن هـذا المقام لاوجود له الآن وإمام الشافعية يصلى فى مقام إبراهيم أو على سطح زمزم قال : ومقام الحنفى بين جدار محرابه الى وسط جدار الحجر ٥/٦ ٣١ ذراعا ، ومن جدار محرابه الى حدّ حاشية المطاف ½ ١٠ أذرع بالعتبة ، وعرض العتبة نصف ذراع وقيراطان ، ومقام المالكى من جدار محرابه الى وسط جدار الكعبة الغربى ٢/٣ ٣٧ ذراعا ومن جدار المحراب الى حاشية المطاف بالعتبة ١/٣ ١٠ أذرع ، ومقام الحنبلى من جدار المحراب الى الحجر الأسود فى الجنوب ٢/٣ ٢٧ ذراعا بعتبة الحاشية « ذراع الحديد ١/٧ ٥٦ سنتيا كما سيأتى بيانه » .

(١) مقام الحنفى قال التقى الفاسى : فى أواخر سنة ٨٠١ هـ. وأوائل سنة ٨٠٢ هـ. بنى مقام السادة الحنفية وهو قائم على أربع أساطين من حجارة عليها سقف مدهون مزخرف، وأعلاه مما يلى السماء مطلى بالنورة وبين الأسطوانتين المقدمتين محراب مرخم، ثم قال : وأنكر عمله على هذه الصفة جماعة من العلماء منهم الشيخ العلامة زين الدين الفارسكورى الشافعى وألف فى ذلك تأليفا حسنا ، والشيخ سراج الدين البلقيني وولده جلال الدين قاضي القضاة بالديار المصرية وكذلك القضاة وأفتوا بهدم هذا المقام وتعزير من أفتى بجواز بنائه على هذه الصفة، ورسم ولى الأمر بهدمه فعارض فى ذلك بعض ذوى الهوى فلم يتم الأمر، وسبب الإنكار ما حصل من شغل الأرض بالبناء وقلة الانتفاع بموضعه وما يتوقع من إفساد أهل اللهو فيه لأجل سترته لهم، وسبب المعارضة أن بعض علماء الحنفية إذ ذاك أفتى بجواز بقائه لما فيه من تظليل المسلمين من الحرّ ووقايتهم من البرد والمطر، وحكمه فى ذلك حكم الأروقة والأساطين التى فى المسجد ، وفى سنة ٨٣٦ هـ . كشف الأمير سودون

المحمـدى سقف المقام المذكور وعمره وزخرفه أحسن ممـا كان ووضع عليـه من أعلاه قبـة خشب مبيضة ترى من فوق ولا أثرلها داخل المقام، وفرش فيه حجارة حمراء من حجر المـاء ثم جدّد مرارا بعد ذلك ، وآخرمرة فى سنة ٩١٧ هـ . واستمر على ذلك الى سنة ٩٢٤ هـ . فلما حج الأمير مصلح الدين الرومى فى موسم سنة ٩٢٣ هـ . بدا له أن يهدمه فهدمه فى مفتتح سـنة ٩٢٤ هـ . وجعله قبة كبيرة شامخة على أربع بتر (قوائم مبنية) عراض جدّا بأربعة عقود، وكل ذلك عمل بحجر المـاء المنحوت ذى اللون الأحمر فالأصفر ، وهـذا الحجر يؤتى به من جهـة الحديبية ويقال له : الشميسى ، وزاد فى طول المقام وعرضه وانتهى بمحرابه الى إفريز حاشـية المطاف وبقيت هذه القبة حتى سنة ٩٤٩ هـ . فأمر بهدمها السلطان لأنها أخذت بناء كبيرا من المسجد، فنفذ الأمر الأمير خشقلدى نائب جدّة ومباشر العمائر السلطانية فهدم هذه القبة فى أوائل شهر رجب سنة ٩٣٩ هـ . ثم شرع فى بناء مقام عظيم للحنفية، وشـكله أربع بتر جميلة فى الأركان أخذت من أنقاض القبة الأولى وهى من حجر المـاء، وستة أعمدة مثمنة من حجر الصوان كل عمود قطعة واحدة؛ فمن ذلك عمودان بين البترتين المقدمتين وآخران بين المؤخرتين وعمود بين البترتين من ناحية باب العمرة وآخر بين البترتين من جهة باب السلام مقابل للأول ، وعلى ذلك عشرة عقود لطاف،وعلى ذلك سقف مزخرف من خشب الساج مصنوع صناعة ظريفة،وفوق هذا السقف ظلة للبلغين بأربع بتر، وسـتة أعمدة ألطف من الأعمدة التحتية وعلى شكلها فى الوضع ، وعلى جميعها سقف مزخرف فوقه جملى (جملون) غطى بالرصاص لدفع المطر وفى وسط السقف الأول طاقة يرى المبلغ منها الإمام، وفى المقام سلم جميل يصعد عليه المبلغ الى الظلة فى أوقات المكتوبة وقد أتم هذا البناء فى ١٣ رمضان من السنة المذكورة، وفى سنة ٩٧٤ هـ . رخم مقام الحنفية بأمر السلطان أحمد خان، وفى سنة ١٠١٠ هـ . رخم محراب هـذا المقام وفى سنة ١٠٧٢ هـ . بنى سليمان بك والى جدّة وشيخ الحرم وناظر عمـارته من قبل السلطان محمد كزلار الأغا — المقام الحنفى بالحجر الصوان المنحوت وبالحجر الأصفر وصفح أعلى سقفه بالرصاص المطلى

بالذهب، وجعل عليه رصافتين طليتا بالذهب كما جعل أمامه أربع رصافيات مطلية بالذهب ونقش نقوشا جميلة بماء الذهب والأصباغ البديعة انظر (الرسم ٩٢) وفيه ترى الجهة الشمالية والشرقية من المسجد والكعبة فى وسط الصحن، والذى فى يسار الرسم مقام الحنفى ذو الطبقتين ومقام المالكى ثم أعمدة المطاف ثم الحجر على شكل نصف دائرة بجوار الكعبة، والذى على يمينها مقام إبراهيم فالقبة فباب بنى شيبة فزمزم عليها قبة أيضا، ويلاصقها سقاية العباس، والذى فى جنوب السقاية مقام الحنبلى .

(٢ و ٣ و ٤) مقامات الشافعى والمالكى والحنبلى . عمر الأمير بيسق هذه المقامات الثلاث فى سنة ٨٠٧ هـ . وكان كل مقام منها عبارة عن بترتين عليهما عقد لطيف فى أعلاه ثلاث شراريف وفيه خشبة معترضة علقت فيها الخطاطيف للقناديل، وبين البترتين من أسفل جدار لطيف بنى من حجارة ونورة فيه محراب إلا مقام الشافعى فانه لا محراب فيه، قال الفاسى فى كتابه شفاء الغرام : وقد ذكرنا صفتها القديمة فى أصل هذا الكتاب ولكن هذا الأصل لم يوجد بعد الفاسى ولا عثر عليه قال ابن ظهيرة فى كتابه الجامع اللطيف : مقام الشافعى كذلك الى يومنا هذا، وأما مقام المالكى والحنبلى فقد أدركتهما كذلك ثم غيرا بعد سنة ٩٣٠ هـ . بأحسن مما كانا عليه فى أيام السلطان سليمان خان، قال : ووصفهما الآن كل مقام بأربع أساطين مثمنة الشكل، كل أسطوانة قطعة واحدة من الحجر الصوان المكى، وتحت كل أسطوانة قاعدة منحوته بتربيع وتثمين، وفوقها أخرى كذلك من الحجر الصوان فوق ذلك سقف من الخشب المدهون المزخرف فوقه أخشاب بهيئة جملى (جملون) عليها صفائح الرصاص لدفع المطر، وفى كل مقام محراب فيما بين الأسطوانتين المقدمتين الى جهة القبلة، وهما كذلك الى هذا التاريخ وكان المباشر لذلك عبد الكريم اليازجى الرومى، وفى سنة ٩٧٤ هـ . رممت المقامات الثلاث بأمر السلطان أحمد خان .

وفى سنة ١٠٧٢ هـ . نقشت الثلاثة بماء الذهب والأصباغ الجميلة وذلك بأمر سليمان بك والى جدّة السابق ذكره، وكذلك جعل فى أعلى كل مقام منها رصافية مطلية بالذهب وأمام كل منها ثلاث كذلك .

كيفية الصلاة فى المقامات الأربع — قال ابن ظهيرة فى كتابه الجامع اللطيف : أما كيفة الصلاة فانهم فى زماننا — منتصف القرن العاشر — يصلون مرتبين الشافعى فى مقام الخليل عليه السلام، ثم إمام الحنفية بعده فى مقامه، ثم إمام المالكية بعده فى مقامه، ثم إمام الحنبلية بعدهم فى مقامه، وهذا فى الفجر والظهر والعصر والعشاء، وأما فى صلاة المغرب فكان فيما أدركناه قريبا يصلى الحنفى والشافعى فى وقت واحد فحصل بذلك التخليط والتشويش على المصلين من الطائفتين بسبب اشتباه أصوات المبلغين فأنهى ذلك الى مولانا السلطان سليمان فبرز أمره بالنظر فى ذلك وإزالة هذا التخليط ، فاجتمع القضاة والأمير على بك نائب جدّه فى الحطيم وقضوا بأن يتقدّم الحنفى فى صلاة المغرب وعند التشهد يدخل إمام الشافعى وكان هذا فى حدود سنة ٩٣١ هـ . واستمر الى وقتنا هذا — عام ٩٤٩ هـ . — فجزى الله الساعى فى ذلك خيرا، وأما المالكى والحنبلى فلا يصلون المغرب أئمة فيما أدركناه، وأما كيفية الصلاة فيما تقدّم من الزمان فكانوا يصلون مرتبين كما فى الأربع الفروض المتقدمة إلا أن المالكى كان يصلى قبل الحنفى مدة، ثم تقدّم عليه الحنفى بعد سنة ٧٩٠ هـ . ونقل الفاسى عن ابن جبير أنه اضطرب كلامه فى الحنفى والحنبلى، لأنه ذكر ما يقتضى أن كلا منهما كان يصلى قبل الآخر، أما صلاة المغرب فكان الأئمة الأربعة يصلونها جميعا فى وقت واحد فيحصل للمصلين بسبب ذلك لبس كبير من اشتباه أصوات المبلغين واختلاف حركات المصلين فأنكر العلماء ذلك وسعى جماعة من أهل الخير عند ولى الأمر إذ ذاك وهو الناصر فرج بن برقوق الجركسى صاحب مصر فبرز أمره فى موسم سنة ٨١١ هـ . بأن إمام الشافعية بالمسجد الحرام يصلى المغرب وحده فنفذ أمره بذلك، واستمر الى أن تولى الملك المؤيد صاحب

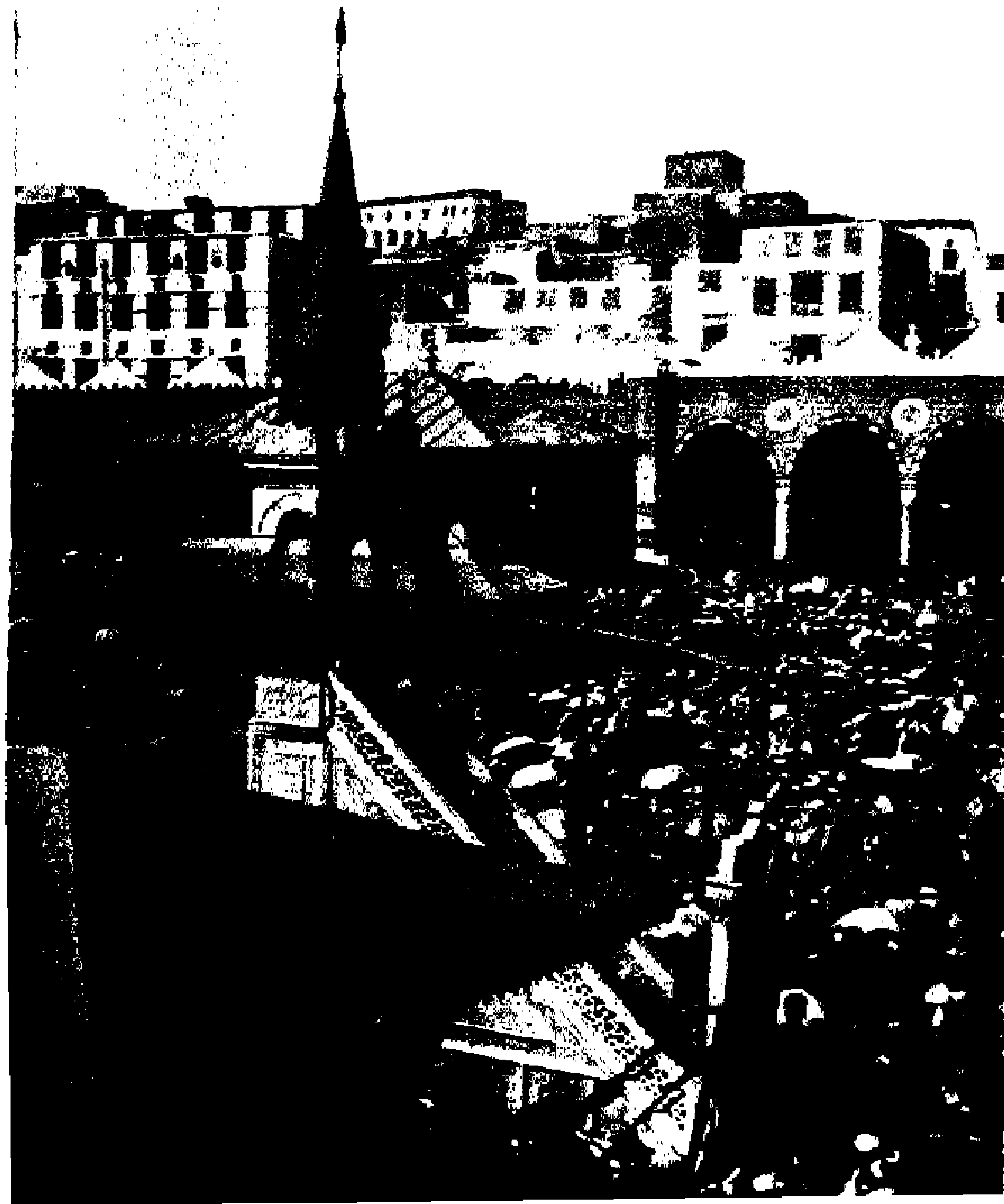
مصر فرسم بأن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب كما كانوا فنفذوا ذلك فى ليلة السادس من ذى الحجة سنة ٨١٦ هـ . وكذلك يجتمع الأئمة الثلاثة غير الشافعى على صلاة العشاء فى رمضان ويجتمع الأئمة الأربعة وغيرهم من الأئمة بالمسجد الحرام فى صلاة التراويح ويحصل بسبب اجتماعهم التشويش على المصليين الذى كان يقع دائما فى صلاة المغرب وأعظم لكثرة الأئمة .

هذا وقد أنكر العلماء من كل المذاهب تعدد لأئمة فى الصلوات الخمس، واستشنعوا ذلك خصوصا فى صلاة المغرب إذ يصلى الكل دفعة واحدة أنظر (شفاء الغرام) أما فى وقتنا هذا (سنة ١٣١٨ هـ) . فالحنفى يبتدئ بالصلاة فى جميع الأوقات ويتلوه المالكى ثم الشافعى ثم الحنبلى إلا صلاة الصبح فيبدأ بها الشافعى ويتأخر بها عنهم الحنفى .

وأما الوقت الذى حدث فيه تعدّد الأئمة فى الصلوات المفروضة فقال الفاسى : لم أعرفه تحقيقا ثم نقل مايدل على أن الحنفى والمالكى كانا مع الشافعى فى سنة ٤٩٧ هـ. وأن الحنبلى لم يكن فى ذلك الوقت وإنما كان إمام الزيدية ، ثم قال : ووجدت ما يدل على أن إمام الحنبلية كان موجودا فى عشر الأربعين وخمسمائة راجع الرسالة التى كتبها الشيخ جمال الدين القاسمى فى بدعة تعدّد الأئمة .

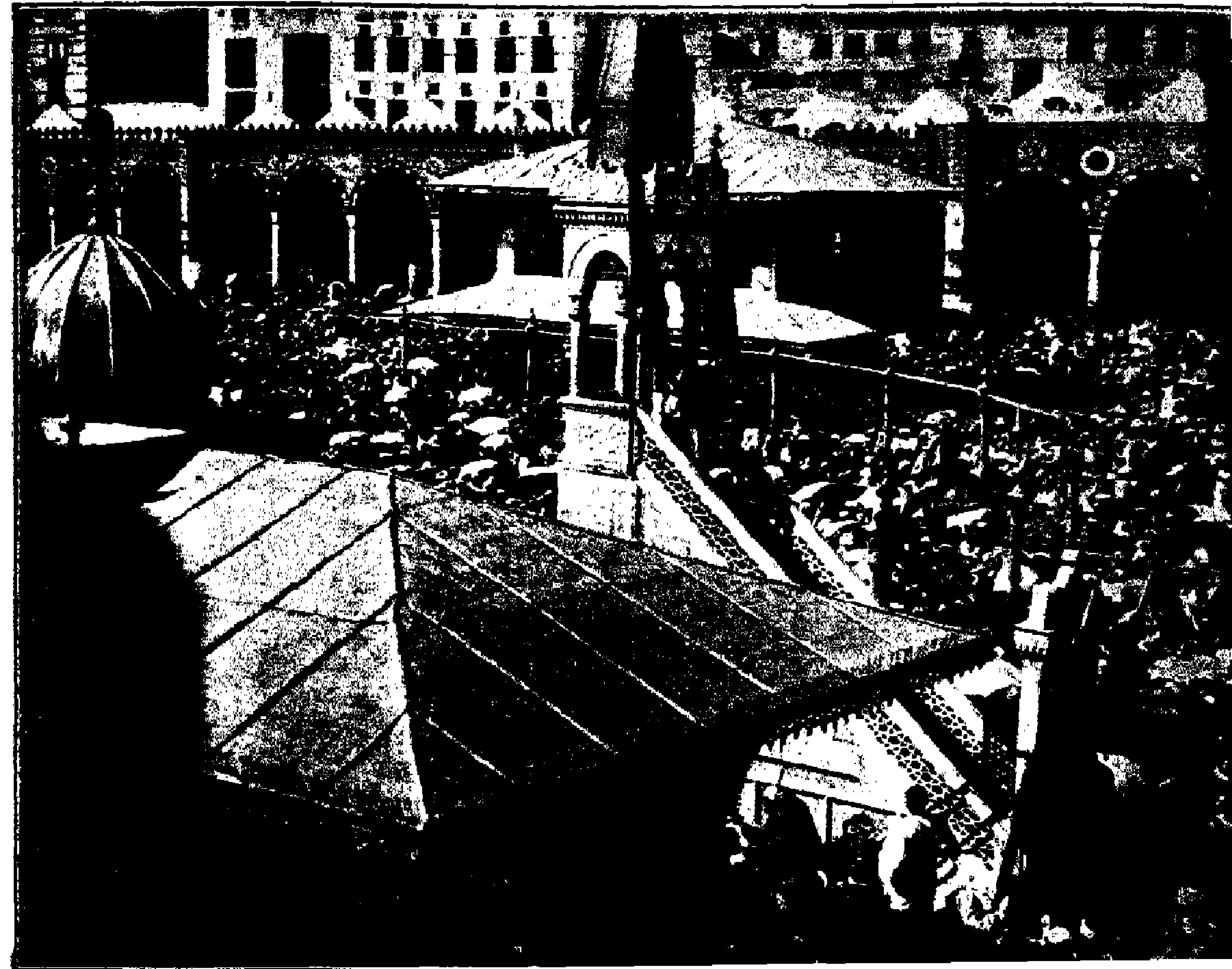
منبر المسجد الحرام — كان الخطباء من الخلفاء والولاة يخطبون بالمسجد الحرام يوم الجمعة قياما على الأرض فى وجه الكعبة وفى الحجر حتى كانت سنة ٤٤هـ. إذ قدم معاوية بن أبى سفيان من الشام حاجا وصحبته منبر من خشب ذو درجات ثلاث خطب عليه بالمسجد الحرام وتركه وكان كلما تخرب عمر، ولم يزل يخطب عليه حتى حج هارون الرشيد فأهدى له عامله على مصر موسى بن عيسى منبرا من خشب ذا درجات تسع ونقش بديع ، فكان منبر المسجد ونقل الأول الى عرفة، ثم أمر الواثق العباسى بعمل منبر للسجد وآخر لمنى وثالث لعرفة ولما حج المنتصر بن المتوكل العباسى فى خلافة أبيه جعل له منبر عظيم فخطب عليه بمكة ثم خرج وخلفه بها

صحيفة ٢٥٣ منظر الخطيب وهو على المنبر فى صلاة الجمعة بالحرم المكى



44. The praecher in the Pulpit during Friday Prays at Mecca Mosque.

صحيفة ٢٥٣ المنبر بالمسجد الحرام والحجاج مجتمعون لصلاة الجمعه



95. The pulpit of the Mosque of Mecca 1325 A. H.

وجعل للمسجد بعد ذلك عدّة منابر، فمن ذلك منبر عمله وزير المقتدى العباسى وأرسله من بغداد وكان منقوشا عليه بالذهب « لا إله إلا الله محمد رسول الله الإمام المقتدى بالله أمير المؤمنين » وقد بلغت نفقاته ألف دينار (٥٠٠ جنيه) ولما وصل الى مكة أحرقه المصريون ولم يبد اعتراضا على ذلك أمير مكة محمد بن جعفر، وأوّل من قطع الخطبة لملوك مصر وخطب لملوك بنى العباس بعد أن قطعت الخطبة لهم نحو مائة سنة وأبى أهل مصر إلا أن تكون الخطبة للمستنصر العبيدى صاحب مصر فخطب له . ثم كان بعد ذلك يخطب حينا لبنى العباس وحينا لملوك مصر يقدم منهم من يجزل له العطاء ، وكانت عادة الخطباء بمكة أن تكيل الثناء للملوك كيلا من ذلك ما كان يقال للملك الكامل فى الخطبة (صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزائر ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل خليل أمير المؤمنين) . ومنها منبر عمل فى دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر فى سنة ٧٦٦ هـ . وقد أصلح مرارا، قال التقى الفاسى هو باق يخطب عليه الآن — سنة ٨١٥ هـ . وما حواليها — ومنها منبر حسن أنفذه الملك المؤيد صاحب مصر فى موسم سنة ٨١٨ هـ . وخطب عليه فى سابع ذى الحجة وهجرت الخطبة على الذى قبله، وفى السنة السابقة أرسل شيخو صاحب مصر منبرا من خشب خطب عليه فى يوم التروية .

وفى سنة ٨٦٦ هـ . أرسل الملك الناصر « خوشقدم » صاحب مصر منبرا من خشب خطب عليه بالمسجد فى ثانى ذى الحجة من السنة المذكورة ، وفى سنة ٨٧٧ هـ . أرسل الملك الأشرف قايتباى الظاهرى منبرا من خشب خطب عليه فى أوّل ذى الحجة سنة ٨٨١ هـ . وفى سنة ٩٦٦ هـ . بعث السلطان سليمان خان بالمنبر الرخام القائم الآن بفناء المسجد وهو آية فى الاحكام ودقة الصناعة ودليل على ما للصناع من البراعة، وتراه فى (الرسم ٩٤) كاملا، وفى (الرسم ٩٥) إذا دققت النظر رأيت الخطيب على المنبر يلبس جبة وقباء (قفطانا) وقد لف على صدره مع رأسه « شالا » .

وقد كتب على المنبر من جهة الكعبة « الحمد لله رب العالمين قد بنى سليمان منبرا لبلد أمين » وعلى الجهة المقابلة لها « إنه من سليمان و إنه بسم الله صدق الله جل اسمه سنة ٩٦٦ هـ . » وقد أرخ القاضى صلاح الدين بن ظهيرة القرشى المكى سنة ورود هذا المنبر بقوله :

شيد الله ملك من * أسبغ الله ظله
وبأم القرى لقد * ضاعف الله نزله
إن ذا المنبر الذى * قدحوى الحسن كله
هاك تاريخه الذى * شهد الخلق فضله
لسليمان منبر * بالدعا شاهد له

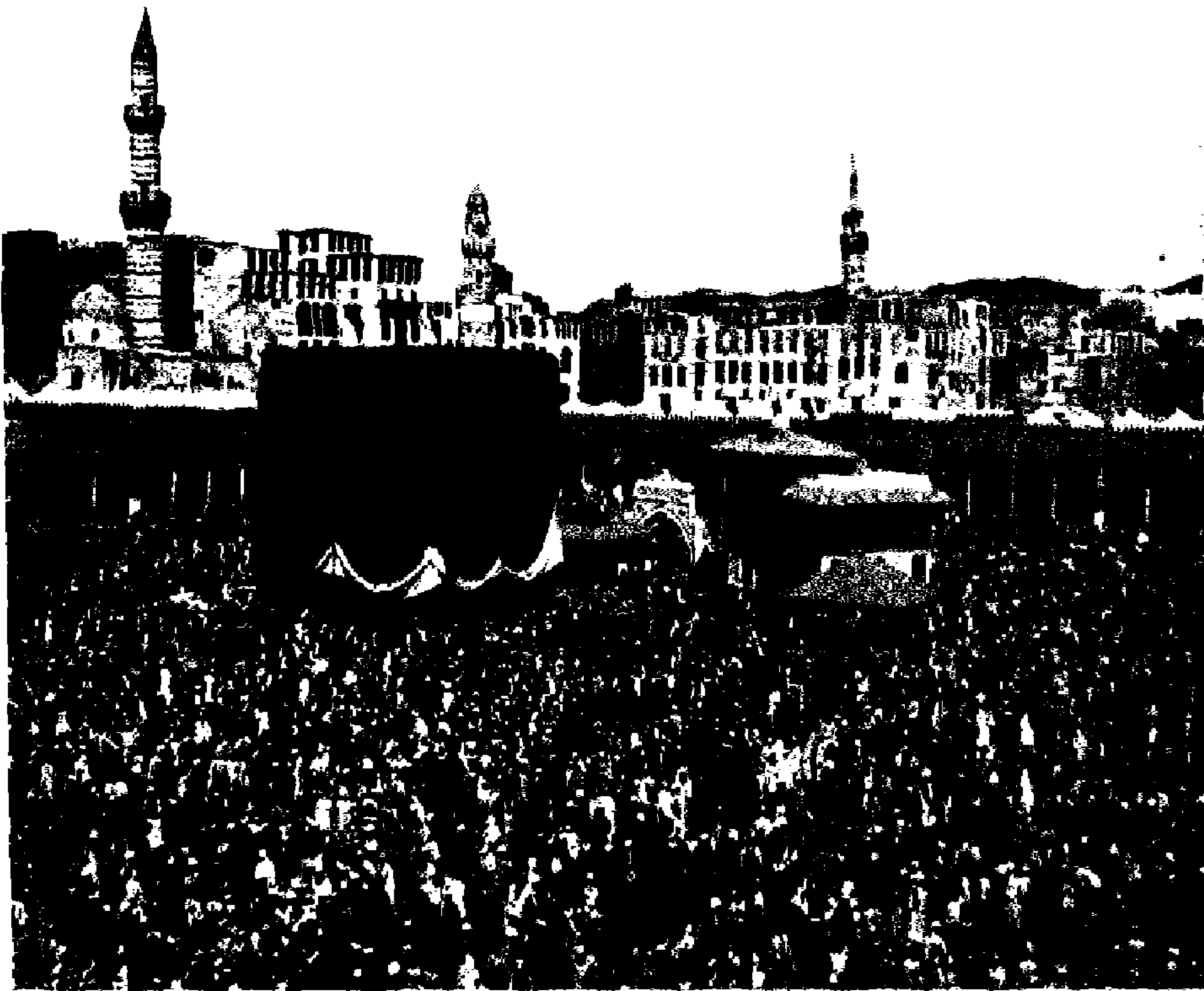
سنة ٩٦٦ هـ

وأوّل خطبة خطبت عليه خطبة عيد الفطر قالها السيد أبو حامد النجارى ، وفى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ١٠٢٠ هـ . شرع فى تركيب هلال المنبر الذى أرسله السلطان وكان أعلى المنبر مبنيا بالآجر فهدم ذلك وجعل له ألواح ركبت فيها الفضة المطلية بالذهب .

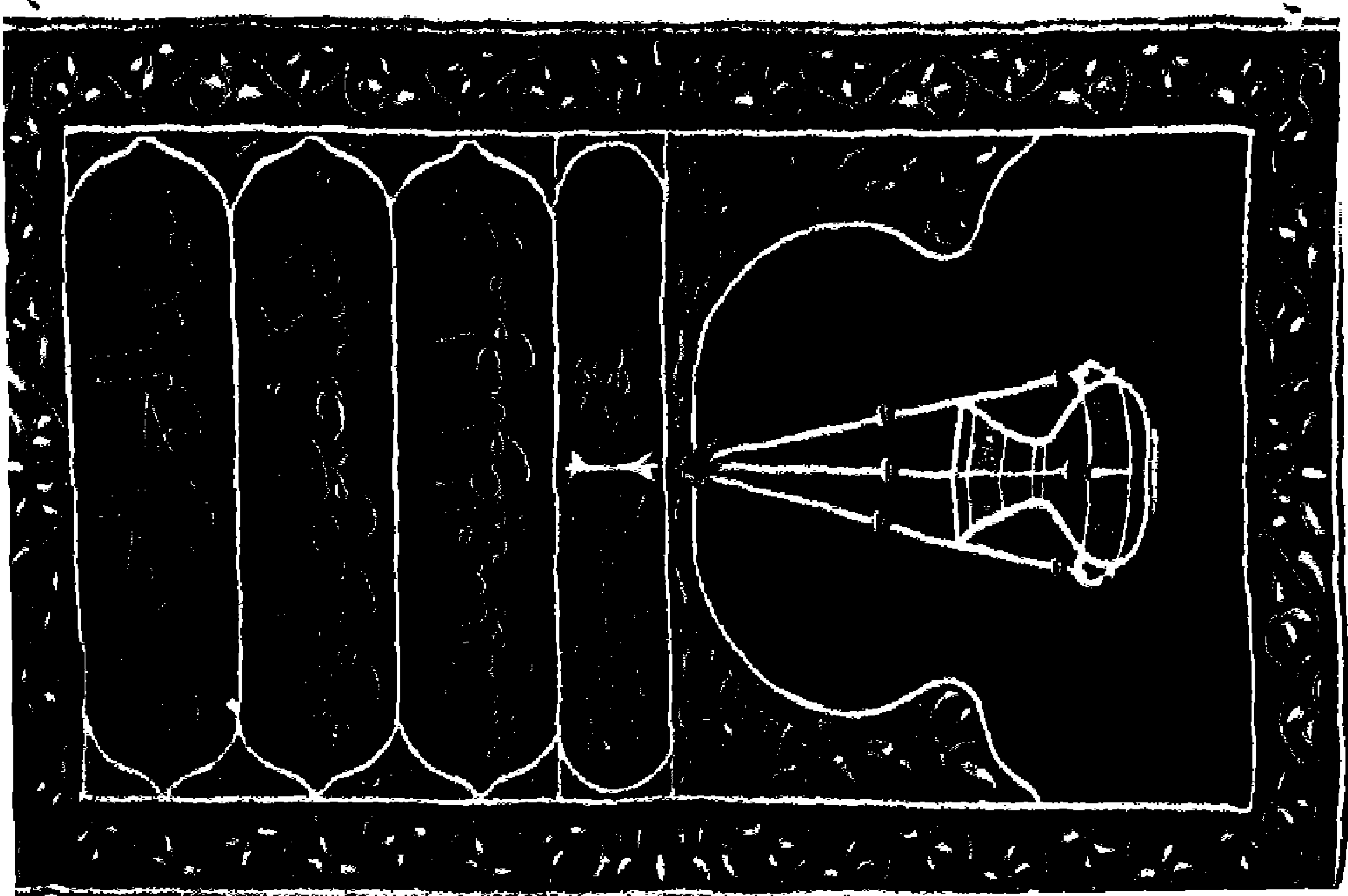
وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة فى المسجد وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الركن الأسود والركن اليمانى ، فاذا أراد الخطيب أن يخطب استلم الحَجَر أوّلا ، ثم دعا وصعد المنبر ، وبعد الخطبة كان ينقل المنبر الى مكانه بجوار زمزم ، فلما أهدى السلطان سليمان الى المسجد الحرام منبره المذكور بقى مكانه واستمرت الخطبة عليه الى اليوم ، وترى فى (الرسم ٩٦) الستارة التى تسدل على باب المنبر وهى من صنع مصر .

والعادة الآن بل ومن قديم الزمان أنه اذا أراد الخطيب أن يخطب للجمعة يقبل بين شخصين من الأغوات يتهادى بينهما بيد كل منهما راية ، ثم يعمد الى الحَجَر الأسود فيقبله ويدعو عنده ، ثم يقصد الى المنبر بين الأغوين وأمامه شخص يضرب بالفرقعة — عود به جلد رقيق — فى الهواء فيسمع من فى داخل المسجد وخارجه

صلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة



97. Pilgrims attending the Friday Prayers round the Kaaba.



96. A view of the curtain of the door of the pulpit in the Mosque of Mecca.

صلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة



98. A view of the Friday Prayer in the Mosque of Mecca in El Hegga in 1325.

صحيفة ٢٥٥



99. A view of Zamzam with the pilgrims drinking from it.

صوتها الشديد، ويقصد بذلك إعلام الناس بخروج الخطيب، فإذا ما كان على باب المنبر ناوله شخص هنالك سيفا وثبتت الرايتان بجانب المنبر، فاذا ما رقى الدرجة الأولى ضربها بسيفه ضربة مسمعة، وكذلك يفعل فى الدرجة الثانية والثالثة، فاذا ما وصل الى العليا فعل بها كذلك ثم يدعو بدعاء خفى ويسلم على الناس يمينا وشمالا فيردّون عليه، ثم يأخذ المؤذنون على ظهر زمزم فى الأذان الثانى وبعد الفراغ منه يشرع فى الخطبة ومما يقوله فيها: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ويشير بأصبعه الى الكعبة ويدعو للخلفاء الأربعة وعمى النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وجدّتهما وكذلك يدعو للخليفة وأمير مكة واذا فرغ من الخطبة صلى وانصرف بجانبه حاملا الرايتين وبين يديه المفرقع يعلم الناس بانتهاء الخطبة والصلاة ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ ويرى فى (الرسم ٩٧) الناس وهم يصلون الجمعة بالمسجد الحرام فى ذى الحجة سنة ١٣٢٠ ﻫ . والذى على يمين الكعبة مقام ابراهيم فباب بنى شيبة فزمزم والسقاية — السقاية الآن مخزن لأدوات المسجد — وفى (الرسم ٩٨) منظر صلاة الجمعة فى ذى الحجة سنة ١٣٢٥ ﻫ .

بئر زمزم — هذه البئر تقع جنوبى مقام إبراهيم بحيث إن الزاوية الشمالية الغربية من البناء القائم عليها محاذية للحجر الأسود على بعد ١٨ مترا منه، وماؤها طعمه قيسونى والبناء القائم عليها مربع من الداخل طول ضلعه ٥,٢٥ أمتار وهو مفروش بالرخام. وهذا البناء طبقتان : فى الأولى منهما خدمة البئر، وفى الثانية خدمة من الخصيان (الأغوات) ويصعدا اليه من يريد الاستحمام على سلم من الخشب انظر (الرسم ٩٢) تجد بناء زمزم فى شرقيه داخل المسجد . ويرى فى (الرسم ٩٩) بناء زمزم والحجاج يدخلون اليه يستقون .

وهى بئر قديمة العهد ترجع الى زمن إسماعيل عليه السلام، فان أمه هاجر لما نزلت به فى مكان البيت وظمئ ولدها إسماعيل طلبت الماء فلم تجده فجاء جبريل عليه السلام وبحث الأرض بعقبه ، فى رواية غمزها بعقبه — وكلتاهما فى صحيح

البخارى — فنبع المـاء على وجه الأرض ، فكان ذلك نشأة زمزم، وأدارت هاجر عليه حوضا خيفة أن يفوتها المـاء قبل أن تمـلأ قربتها، قالوا : ولو تركته لكانت زمزم عينا تجرى على وجه الأرض — على ماورد فى الصحيح — وذكر الفاكهى ما يدل على أن ابراهيم عليه السلام حفر بئر زمزم بعـد أن نبعت العين . وإذ ذاك بدأت عمـارة مكة ولم يكن لأحد فيها قبـل ذلك قرار فسكنتها قبيلة جرهم رغبة فى مائها، وقد غلب ذو القرنين إبراهيم على زمزم ردحا من الزمن ومازال ماؤها ينتفع به سكان مكة حتى استخفت جرهم بحرمة الكعبـة وحرمها فدرس موضعه حتى صار لا يعرف ، وقيل إن جرهما طمست البئر حين نفيت من مكة ، ولمـا كان زمن عبد المطلب بن هاشم جدّ النبى صلى الله عليـه وسلم أرى فى المنـام مكان زمزم فاستبانها وحفرها قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم، وبعد مدة طويلة أخذ ماؤها يقل حتى كاد ينقطع فى سـنة ٢٢٣ هـ . لأن البئر أهملت وهـدم كثير من جوانبها فأخذ رجل من أهل الطائف يقال له محمد بن بشير يعمل فيها . قال الأرزقى : وقد صليت فى قعرها وفيه ثلاث عيون : عين حذاء الركن الأسود وعين حذاء أبى قبيس والصفا وعين حذاء المروة، قال : وكان ذرع غورها من أعلاها الى أسـفلها ٦٩ ذراعا، منها ٤٠ مبنية و٢٩ نقر فى الجبـل من أسفلها، قال التقى الفاسى : وقد قيس بحضورى ارتفاع فم البئر عن سـطح الأرض وقطره ومحيطه فكان الارتفاع ذراعين إلا ربعا والقطر أربعة ونصفا والمحيط خمسة عشر ذراعا إلا قيراطين، وذلك بذراع الحديد ١/٧ ٥٦ سنتيا — قال التقى الفاسى : — أوائل القرن التاسع — وزمزم الآن داخل بيت مربع فى جدرانه تسعة أحواض للمـاء تملا من بئر زمزم ليتوضأ الناس منها ، وفى الحائط المقابل للكعبة شبابيك، وفوق هـذا البيت ظلة للمؤذنين ولم أدر من أقام ذلك على هذه الصفة، ثم ذكر أنه فى سنة ٨٢٢ هـ . أجرى إصلاح كبير بل عمارة جديدة فى هذا البيت وأحواضه والظلة التى فوقه للمؤذنين وأن ذلك كان على نفقة الجناب العـالى الكبير الشيخ على بن محمـد بن عبد الكريم الجيلانى نزيل مكة .

وفى سنة ٩٣٣ هـ . عمل لدائر بيت زمزم طراز مذهب وكتب فيه اسم مولانا السلطان الملك المظفر سليمان نخبة آل عثمان .

وفى سنة ٩٤٨ هـ . جدّد بيت زمزم على يد الأمير خشقلدى فرخمت أرضه وجعل عليه سقف فوقه مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف عليه جملى (جمالون) فى وسطه قبة مصفحة بالرصاص .

وفى سنة ١٠٢٠ هـ . وضع بأمر السلطان أحمد خان شبكة من الحديد بداخل البئر ومنخفضة عن سطح الماء بمتر ، لأن بعضا من المجاذيب كانوا يلقون أنفسهم فيها ليموتوا فداء حسب تصورهم وتجد الآن — ١٣١٨ هـ . — مكتوبا على الشباك الشمالى من جهة الباب « ماء زمزم شفاء من كل داء[١] » « آية مابيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم[٢] » السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ . وتجد مكتوبا على بابها ما يأتى :

سرور لسلطان البسيطة والورا * عبد الحميد البر بحر المكارم
ونصر له أيضا وفتح ورفعة * بتعمير هذا المأثر المتقادم
حفيرة ابراهيم يوم ابن هاجر * وركضة جبريل على عهد آدم

وعلى الشباك القبلى « ماء زمزم لما شرب له[٣] . لا يجمع ماء زمزم ونار جهنم فى جوف عبد[٤] » (السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ) .

وقد ورد كثير من الأحاديث فى فضل ماء زمزم ، فمن ذلك ما رواه الطبرانى فى معجمه بسند رجاله ثقات . وفى صحيح ابن حبان من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم» وذكر البخارى فى صحيحه : أنه لما شق صدر النبىّ صلى الله عليه وسلم غسل بماء زمزم

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس وهو حديث ضعيف . (٢) رواه الحاكم وابن ماجه والبخارى فى تاريخه . (٣) رواه أحمد فى مسنده والبيهقى فى سننه وشعبة وابن أبى شيبة عن جابر بن عبد الله بن عمرو . (٤) لم نر من خرج هذا الحديث .

قال العلامة ابن القيم فى كتابه زاد المعاد فى باب الطب : ماء زمزم سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرا وأحبها الى النفوس وأغلاها ثمنا عند الناس ، وهو هزمة جبريل وسقيا اسماعيل وثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى ذر : وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين مابين يوم وليلة وليس له طعام غيره فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «إنها طعام طعم» وزاد غير مسلم باسناده وشفاء سقم وفى سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ماء زمزم لما شرب له» وقد ضعف هذا الحديث طائفة بعبد الله بن المؤمل راويه عن محمد بن المنكدر ، وقد روينا عن عبد الله بن المبارك أنه لما حج أتى زمزم فقال : اللهم إن ابن أبى الموالى حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه عن نبيك صلى الله عليه وسلم أنه قال «ماء زمزم لما شرب له» فإنى أشربه لظمأ يوم القيامة وابن أبى الموالى ثقة ، فالحديث اذا حسن وقد صححه بعضهم وجعله بعضهم موضوعا ، وكلا القولين فيه مجازفة ، وقد جربت أنا وغيرى من الاستشفاء بماء زمزم أمورا عجيبة وآستشفيت به من عدّة أمراض فبرأت باذن الله وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبا من نصف الشهر أو أكثر ولا يجد جوعا ويطوف مع الناس كأحدهم ، وأخبرنى أنه ربما بقى عليه أربعين يوما وكان له قوة يجامع بها أهله ويصوم ويطوف مرارا ، انتهى كلامه فليس فى الاستشفاء به مطعن لا من جهة الحديث ولا من جهة الطب وما الطب إلا التجارب ، وقد جرت عادة الناس بنقل هذا الماء الى الجهات النائية تبركا به ، قال التقى الفاسى : والأصل فى جواز نقله ما رويناه فى جامع الترمذى عن عائشة رضى الله عنها أنها حملت من ماء زمزم فى القوارير ، وقالت : حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأداوى والقرب وكان يصب على المرضى ويسقيهم ، ورويناه فى شعب الايمان للبيهقى وفى سننه وقال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .